T
83A

سيرة الملك السلطان الظاهر بيبرس

٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ

١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م

ميخائيل نجم خوري

Submitted in partial fulfillment of the requirements
of the Degree of Master of Arts,
in the History Department of the,
American University of Beirut,

Beirut,

LEBANON.

1961.

سيرة الملك السلطان الظاهر بيبرس
٦٥٨ _ ٦٧٦ هـ
١٢٦٠ _ ١٢٧٧ م

مخائيل نجم خوري

ملاحظة: تتضمن الأطروحة في آخرها اي بعد الصفحة ٢٥٣

"تاريخ ابن الفرات
وهو تاريخ الدول والملوك"
المجلد السادس – الجزء الأول
لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات
صفحاتها ١ - ٢٠٦

سيرة الظاهر بيبرس

ميخائيل خوري

موجـــــز

في منتصف القرن الميلادى الثالث عشر / الهجرى السابع استطاع المماليك ان يقضوا على السلطنة الايوبية ويستولوا على الحكم باسم المحافظة على السلطنة السابقة • ثم حدث في العراق حدث آخر هو سقوط بغداد بيد التتر وانتهاء الخلافة العباسية فيها • واذا اضفنا الى ذلك ان الصليبيين كانوا مستولين على شاطىء بلاد الشام ، ولا يزالون يهددون بالتوسع ادركنا مدى الاضطراب الذى كان يسيطر على المنطقة في هذه الفترة • وفي هذه الفترة بالذات برز بين المماليك رجل هو الظاهر بيبرس استطاع خلال بضعة عشر عاما ان يدرك حقيقة الموقف ويستغله لصالحه ، بما له من حنكة ودراية ومقدرة ، واستطاع ، فوق ذلك ، خلال بضعة عشر عاما من سلطنته ، ان يقف بوجه الزحف المغولي الى بلاد الشام ومصر ، وان يكيل الضربات العنيفة القاضية للدويلات الصليبية ، وان يوطد ، بالتالي ، سلطنة المماليك •

تناولت هذا الرجل من النواحي المختلفة الشخصية والادارية ، والسياسية والعسكرية• ووجدته لايدع للناحية الشخصية وزنا الا بمقدار ما تخدم فيه النواحي الاخرى • وهو في هذه النواحي رجل/من الدرجة الاولى • وقد تناولت هذه النواحي بصورة مفصلة بقدر ما استطعت ان اجد في المصادر من معلومات دقيقة حول هذه النواحي • ثم خلصت الى القول ان هذا الرجل كان سائرا في مخطط عام فرضته الظروف حين جعلته مدافعا عن الاسلام ضد عدوين تترى وصليبي لانشاء سلالة من ذريته تحكم هذه المنطقة ، لكن هذه المحاولة فشلت وبقي من المخطط عداء مستمر ادى في النهاية الى انغلاق وانعزال •

والرسالة في ثمانية فصول • تناولت في الفصل الاول منها المصادر التي اعتمدتها مبينا منها ما كان اكثرها فائدة في هذه الدراسة • وقد اعتمدت طريقة التسلسل التاريخي في سردها •

ثم جعلت الفصل الثاني تمهيدا بينت فيه الحالة العامة في السنوات الاخيرة من عهد السلطنة الايوبية والسنوات الاولى من عهد المماليك ـ والاحداث الاخرى الخطيرة في هذه الفترة • وبعد ذلك انتقلت الى الحديث عن بيبرس• فحاولت جهد المستطاع ان ارسم له صورة في حياته قبل السلطنة منذ ان شرد عن اهله حتى نال السلطنة اثر اغتيال قطز • ولا ريب انه كانت لهذه السنوات اهمية كبيرة في تكوين شخصية بيبرس• وانتقلت بعد ذلك الى العهد الثاني من حياة هذا الرجل ـ وهو عهد السلطنة • كان عليه في البداية ان يقمع ثورات قامت عليه فور تسلم السلطنة ، ويخلص من المناوئين •

وفي الفصل الخامس تناولت التنظيمات الداخلية التي اجراها بيبرس فاظهرت اهدافه السلالية واجراءاته الادارية لتوطيد السلطنة • والواقع ان هذا الفصل متمم للفصل السابق •

وفي الفصل السادس تناولت علاقاته الخارجية مع التتر والصليبيين والسلاجقة والروم والارمن والاحباش والدويلات الاوروبية • وقد تبين لي هنا ان السلطان الظاهر قائد عسكري كبير ورجل دبلوماسي قدير استطاع ان يقود سفينته خلال هذا البحر الهائج الى شاطئ السلامة • ثم تحدثت عن منشآته في الفصل السابع واتيت على بعض نواحي المجتمع المملوكي في الفصل الثامن • وبعد هذا كان لا بد من تقييم لهذا الرجل فجعلت الفصل التاسع موضوع هذا التقييم • وقد حشدت فيه اراء المؤرخين القدماء والحديثين ، قبل ان حاولت ابداء رأيي الخاص به •

الفهرس

الموجز	
الفهرس	
جدول بالمصادر والمراجع العربية والاجنبية	
الفصل الاول ـ الاصول والمراجع	١ ـ ٢٢
الفصل الثاني ـ تمهيد في الحالة السياسية الظافة قبل سلطنة الملك الظاهر	٢٣ ـ ٤٦
٠١ عوامل متصارعة في بلاد الشام ومصر	٢٣
٠٢ صراع بين الايوبيين	٢٥
٠٣ فرقة المماليك البحرية	٢٧
٠٤ المعظم تورانشاه	٣١
٠٥ شجر الدر	٣٣
٠٦ عز الدين ايبك التركماني	٣٥
٠٧ المنصور نور الدين علي	٣٩
٠٨ سيف الدين قطز	٤١
الفصل الثالث ـ بيبرس قبل السلطنة	٤٧ ـ ٦٦
٠١ البداية	٤٧
٠٢ في عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب	٤٩
٠٣ في عهد عز الدين ايبك	٥٢
٠٤ في بلاد الشام ـ الفارس الضال	٥٣
٠٥ عودته الى مصر	٥٧
٠٦ في معركة عين جالوت	٥٨
٠٧ اغتيال قطز	٦٠
الفصل الرابع ـ بيبرس يوطد سلطانه	٦٧ ـ ٩٩
٠١ الادارة الجديدة	٦٧
٠٢ ثورات ومحاولات انفصالية	٧٠
سنجر الحلبي	٧١
شمس الدين البرلي	٧٤
المغيث صاحب الكرك	٧٧
سيف الدين الرشيدى	٨٢

٣٠ احياء الخلافة ٨٤
٤٠ معاملته للامراء ٩٥
٥٠ رجال الدين ٩٧

الفصل الخامس – بيبرس في سياسته الداخلية وتنظيماته الادارية ٩٩ – ١٤٤

١٠ القضايا الداخلية ٩٩
الاعراب ٩٩
الاسماعيلية ١٠٢
النوبة ١٠٥
سياسته الدينية ١٠٨
٢٠ الجهاز الادارى ١١٢
السلالية ١١٢
القوات المسلحة ١١٦
اقسام الجيش ١١٧
عدده ١١٧
نفقاته ١١٨
قيادته ١١٩
معاملة الجند ١٢٠
لباس الجند ١٢٠
الاستعراضات العسكرية ١٢٠
التدريب العسكرى ١٢٢
القوات البحرية ١٢٣
٣٠ الادارة ١٢٤
مقابلتها مع الادارة الايوبية ١٢٦
موظفو الظاهر ١٢٦
لقب السلطان ١٢٩
الدار السلطانية ١٣٠
الموظفون ١٣٠
البريد ١٣٥
التجسس ١٣٥

الاقسام الادارية	١٣٧
خصائص الحكومة المملوكية	١٣٧
٤٠ القضـــاء	١٣٩
الفصل السادس ـ بيبرس في علاقاته الخارجية ـ قسم اول	١٤٥ ـ ١٧١
٠١ التتر ـ المرحلة الاولى	١٤٦
المرحلة الثانية	١٥١
المرحلة الثالثة	١٥٢
٠٢ القبشـاق	١٦١
٠٣ الكرج	١٦٥
٠٤ السلاجقة	١٦٥
٠٥ ارمينيا	١٦٦
٠٦ الاشكـرى	١٧٠
الفصل السادس ـ بيبرس في علاقاته الخارجية ـ قسم ثان	١٧٢ ـ ٢٠٧
٠٧ الصليبيون	١٧٢
المرحلة الاولى	١٧٥
المرحلة الثانية	١٨٠
المرحلة الثالثة	١٨٨
قـبرص	٢٠٢
٠٨ الدول الاوروبية	٢٠٤
أسباب نجاح الظاهر على التتر والفرنجة	٢٠٥
٠٩ اليمـــن	٢٠٦
٠١٠ الحبشـــة	٢٠٧
الفصل السابع ـ شخصية الظاهر ومنشاته	٢٠٨ ـ ٢٢١
حياته الخاصة	٢٠٨
هيئته	٢١١
صفاته	٢١١
منشاته	٢١٣

الفصـل الثامن ـ حول المجتمع المملوكي في عهد الظاهر	٢٢٢ ـ ٢٣٣
ميزاته	٢٢٢
الحالة الاقتصادية العامة	٢٢٥
المجاعات	٢٢٩
معاملة النصارى	٢٣٠
العلم والادب	٢٣٢
الفصل التاسع ـ وفاة الظاهر ومكانته ـ خاتمة	٢٣٤ ـ ٢٥٣
وفاته	٢٣٤
اراء المؤرخين فيه	٢٣٩
مكانته وخاتمة	٢٤٧

جـــدول بالمصادر والمراجع .

١. ياقوت الرومي ٦٢٦هـ/١٢٢٩م	معجم البلدان . خمسة اجزاء بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧
٢. ابو شامه ٦٦٥ هـ/١٢٦٧	تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين . صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثرى وعني بنشره عزت العطار الحسيني سلسلة " كتب نادرة " مصر ١٩٤٧م / ١٣٦٦ هـ.
٣. ابن الساعي ٦٧٤هـ/١٢٧٥م	الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير . الجزء التاسع . نشره الدكتور مصطفى جواد . المطبعة السريانية الكاثوليكيه . بغداد ١٩٣٤م / ١٣٥٣ هـ.
٤. ابن العبرى ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م	تاريخ مختصر الدول . وقف على طبعه الاب انطون الصالحاني . المطبعة الكاثوليكيه بيروت . ١٨٩٠م / ١٣٠٨ هـ.
٥. ابن عبد الظاهر ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢	الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر . قسم رابع . نشر وتحقيق سيدة فاطمة صادق في مؤلفها . Baybars I of Egypt. O.U.P. 1956.
٦. ابن الفوطي ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣	الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة نشره الدكتور مصطفى جواد . المكتبة العربية بغداد ١٣٥١ هـ.
٧. اليونيني ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م	الذيل على مرآة الزمان . جزآن . حيدر آباد الدكن . مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ .
٨. ابو الفداء ٧٣٢هـ/١٣٣١م	المختصر في اخبار البشر . ٤ اجزاء . القسطنطينية ١٢٨٦ هـ.

٠٩ الذهبي ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م •	تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام • خمسة اجزاء • القاهرة • مكتبة القدسي ١٣٦٧هـ• دول الاسلام • جزآن • حيدرآباد الركن • مطبعة المعارف النظامية ١٣٣٧ هـ•
٠١٠	—
١١ • ابن ابي الفضائل ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م	النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشره E.Blochet باريس١٩١٩–٩٢٩
١٢ • ابن ايبك الصفدي ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م	الوافي بالوفيات • نشره • ريتروس• وبدرنغ • النشرات الاسلامية لجمعية المستشرقين الالمانية • ١٩٣١ ـ ١٩٥٢ •
١٣ •	—
١٤ • ابن شاكر الكتبي ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣	امراء دمشق في الاسلام • تحقيق صلاح الدين المنجد مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٥ • فوات الوفيات • جزآن • حققه وضبطه وعلق حواشيه محي الدين عبد الحميد • مكتبة النهضة المصرية • القاهرة ١٩٥١ •
١٥ • اليافعي ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م •	مرآة الجنان وعبرة اليقظان • مطبعة دائرة المعارف النظامية • حيدرآباد الدكن ١٣٣٩ هـ•
١٦ • ابن كثير ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢ •	البداية والنهاية في التاريخ ١٤ جزءا • مطبعة السعادة • القاهرة ١٣٤٨ ـ ١٣٥٨ هـ•
١٧ • ابن الفرات ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥	تاريخ ابن الفرات • الجزء السادس مخطوطة والجزء السابع حققه وضبط نصه الدكتور ق • زريق سلسلة العلوم الشرقية ، الحلقة ١٧ ، منشورات كلية العلوم والآداب ، المطبعة الاميركانية ، بيروت • ١٩٤٢
١٨ • القلقشندي ٨٢١هـ/ ١٤١٨ •	صبح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤ جزءا • دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ •

١٩	المقريزي ٨٤٥هـ/١٤٤٢م	السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الاول ـ ثلاثة اقسام والجزء الثاني ـ قسمان، تحقيق محمد مصطفى زيادة • لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢ •
٢٠	ـ	الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك نشر جمال الدين الشيال • مكتبه الخانجي • القاهرة ١٩٥٥ •
٢١	ـ	اغاثة الامه بكشف الغمة • نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال • لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٠ •
٢٢	ـ	الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار • اربعة اجزاء ـ القاهرة ١٣٢٤ ـ ١٣٢٦ هـ وفي ٣ اجزاء، مكتبة احياء العلوم، الشياح، لبنان، ١٩٥٩ •
٢٣	ابن حجر العسقلاني ٨٥٣هـ/١٤٤٩م •	الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ٤ اجزاء مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية • حيدرآباد الدكن ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠ هـ
٢٤	ابن تغرى بردى ٨٧٤هـ/١٤٦٩م	النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ١١ جزءا دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٥٠ •
٢٥	ـ	مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة تحقيق ج • د • كارليل • كمبردج ١٧٩٢ •
٢٦	السخاوي ٩٠٢هـ/١٤٩٦	الضوء اللامع لاهل القرن التاسع • ستة اجزاء مكتبة القدسي • القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ هـ
٢٧	السيوطي ٩١١هـ/١٥٠٥م	حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة • جزآن القاهرة • ١٣٢١ هـ
٢٨	ـ	تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد المكتبة التجارية الكبرى • القاهرة ١٩٥٩ •

٩٠ الذهبي ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م • تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام • خمسة اجزاء • القاهرة • مكتبة القدسي ١٣٦٧هـ•

•١٠ — دول الاسلام • جزآن • حيدرآباد الركن • مطبعة المعارف النظامية ١٣٣٧ هـ•

•١١ ابن ابي الفضائل ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشرE.Blochet باريس١٩١٩ـ٩٢٩

•١٢ ابن ايبك الصفدى ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م الوافي بالوفيات • نشره • ريتروس• ويدرنغ • النشرات الاسلامية لجمعية المستشرقين الالمانية • ١٩٣١ ـ ١٩٥٢•

•١٣ — امراء دمشق في الاسلام • تحقيق صلاح الدين المنـ مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٥•

•١٤ ابن شاكر الكتبي ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣ فوات الوفيات • جزآن • حققه وضبطه وعلق حواشيه محي الدين عبد الحميد • مكتبة النهضة المصرية • القاهرة ١٩٥١•

•١٥ اليافعي ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م • مرآة الجنان وعبرة اليقظان • مطبعة دائرة المعارف النظامية • حيدرآباد الدكن ١٣٣٩ هـ•

•١٦ ابن كثير ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢• البداية والنهاية في التاريخ ١٤ جزءا • مطبعة السعادة • القاهرة ١٣٤٨ ـ ١٣٥٨ هـ•

•١٧ ابن الفرات ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥ تاريخ ابن الفرات • الجزء السادس مخطوطة والجزء السابع حققه وضبط نصه الدكتور ق • زريق سلسلة العلوم الشرقية ، الحلقة ١٧ ، منشورات كلية العلوم والآداب ، المطبعة الاميركانية ، بيروت ١٩٤٢•

•١٨ القلقشندى ٨٢١هـ/ ١٤١٨• صبح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤ جزءا • دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩•

١٩	المقريزي ٨٤٥هـ/١٤٤٢م.	السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الاول ــ ثلاثة اقسام والجزء الثاني ــ قسمان، تحرير محمد مصطفى زيادة . لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٤ــ١٩٤٢.
٢٠	ــ	الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك نشر جمال الدين الشيال . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٩٥٥.
٢١	ــ	اغاثة الامه بكشف الغمة . نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال . لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٠.
٢٢	ــ	الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار . اربعة اجزاء ــ القاهرة ١٣٢٤ ــ ١٣٢٦ هـ وفي ٣ اجزاء، مكتبة احياء العلوم ، الشياح ، لبنان ، ١٩٥٩.
٢٣	ابن حجر العسقلاني ٨٥٣هـ/١٤٤٩م.	الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ٤ اجزاء مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدرآباد الدكن ١٣٤٨ ــ ١٣٥٠ هـ
٢٤	ابن تغرى بردى ٨٧٤هـ/١٤٦٩م	النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ١١ جزءا دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٩ ــ ١٩٥٠.
٢٥	ــ	مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة تحقيق ج . د . كارليل . كمبردج ١٧٩٢.
٢٦	السخاوي ٩٠٢هـ/١٤٩٦	الضوء اللامع لاهل القرن التاسع . ستة اجزاء مكتبة القدسي . القاهرة ١٣٥٣ ــ ١٣٥٥ هـ
٢٧	السيوطي ٩١١هـ/١٥٠٥م	حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة . جزآن القاهرة . ١٣٢١ هـ
٢٨	ــ	تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٩.

٢٩ ابن اياس ٩٣١ هـ/١٥٢٤ م	بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣ اجزاء بولاق القاهرة ١٣١١ ـ ١٣١٢ هـ
٣٠ الاسحاقي ١٠٣٢ هـ/١٦٢٢ م	اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول • المطبعة الميمنيه • القاهرة ١٣٠٤ هـ
٣١ ابن العماد الحنبلي ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨ م	شذرات الذهب في اخبار من ذهب • مكتبه القدسي ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ
٣٢ الشوكاني ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤	البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع • جزآن، القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ
٣٣ الطباخ ـ محمد راغب	اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ٧ اجزاء حلب ـ سنه ١٩٢٣ •
٣٤ كرد علي، محمد	خطط الشام، ٦ اجزاء، دمشق، ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ •
٣٥ حسن زكي محمد •	فنون الاسلام، القاهرة، ١٩٤٨ •
٣٦ ـ (ناشر)	في مصر الاسلامية، مطبعة المقتطف، مصر ١٩٣٧ •
٣٧ سرور محمد جمال الدين	الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره • مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨ •
٣٨ ـ	دولة الظاهر بيبرس في مصر • دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٠ •
٣٩ حسن، علي ابراهيم •	دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص • مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨ •
٤٠ حمزه، عبد اللطيف	ادب الحروب الصليبية • لجنة الجامعيين للنشر دار الفكر العربي • مطبعة الاعتماد مصر ١٩٤٩ •
٤١ ـ	الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول • لجنة الجامعيين للنشر • دار الفكر العربي القاهرة، لا تاريخ •

٤٢ زيادة، محمد مصطفى — المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر • لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٩ •

٤٣ سليم، محمود رزق • — عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي في النشر الفني • خمسة اجزاء ـ مكتبة الاداب القاهرة ١٩٤٧ ـ ١٩٥٥ •

٤٤ يوسف، جوزف نسيم • — لويس التاسع في الشرق الاوسط، القاهرة ١٩٥٦

٤٥ عاشور، سعيد عبد الفتاح — مصر في عصر دولة المماليك البحرية • سلسلة الالف كتاب باشراف ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم بمصر، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٩ •

مقـــــالات

١ ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشـــق ·

محمد كرد علي :	العادلية والظاهرية	مجلد ١ سنة ١٩٢١ ص٣٦
ـ :	الظاهـــــريـــة	ـ ـ ـ ص٦
ـ :	جباية الشـام في الاســلام	ـ ـ ـ ص٣٣٨
ـ :	ذيـل الروضـتين	ـ ٥ سنة ١٩٢٦ ص١٤٤
عباس عزاوي :	سبط بن الجوزى ـ القطب اليونيني	مجلد ٢٢ سنة ١٩٤٧ ص٣٧١
سليمان ظاهـــر :	قلعة شـــقيف ارنون	مجلد ١٩ سنة ١٩٤٤ ص٤٢٤
محمد احمد دهان:	المدرسة الظاهـــريـــة	مجلد ٢٣ سنة ١٩٤٨ ص٥٧٣
مصطفى جـــواد :	نظرات في ذيل الروضتين لابي شامة	مجلد ٢٣ سنة ١٩٤٨ ص٦١٨
		مجلد ٢٤ سنة ١٩٤٩ ص١٥٣

٢ ـ مجلـة الرســالة ·

محمد فريد ابو حديد : موكب ســلاطين مصر · قسم اول سنة ٤ عدد ١٣٩ اذار ١٩٣٦ ص٣٢٥

ظافر الدجاني : دولة المماليك في حكم التاريخ قسم ٢ سنة ٣ عدد ١٠٥ تمــوز ١٩٣٥ ص ١٠٩٤ ·

عبد الوهاب عزام : موقعة عين جالوت قسم ١ سنة ٨ عدد ٣٤٨ آذار ١٩٤٠ ص٣٦٩ ·

٣ ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ·

محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصرى في عصر الايوبيين والمماليك مجلد ١٥ جزء اول مايــو ١٩٥٣ ص٥٧ ·

محمد كامل حسين: بين التشيع وادب الصوفية في عهد الايوبيين والمماليك · مجلد ١٦ جزء ٢ سنة ١٩٤٥ ص٤٥ ·

على ابراهيم حسن : اراء في تاريخ دولة المماليك البحرية مجلد ٧ سنة ١٩٤٤ ص٦٩ .

محمد مصطفى زياده : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك . مجلد ٤ جزء اول سنة ١٩٣٦ ص٧-٨٨ .

٤ - المجلة التاريخية المصرية .

محمد عبد العزيز مرزوق : جامع الظاهر بيبرس البندقداري مجلد ٣ عدد ١ مايو ١٩٥٠ ص٩١-١٠٢ .

٥ - مجلة الابحاث .

كمال الصليبي : النظام القضائي في مصر والشام عهد المماليك عدد كانون الاول سنة ١٩٥٨ .

1. D'Ohsson, Barson : Histoire des Mongols depuis Techinguiz Khan. The Hague - Amsterdam, 1834-35.

2. Heyd W. : Histoire du commerce du Levant au Moyen Age: Leipzig, 1885-86

3. Lane-Poole, S : The art of the Saracens in Egypt: London. Chapman. 1886.

4. " " " : The Story of Cairo. J.M. Dent & Co. - London, 1902.

5. Muir, Sir W. : The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt. Smith, Elder & Co. London. 1896.

6. Stevenson, W.B. : The Crusadersin the East: Cam. Uni. Press, 1907.

7. Arnold, Sir T. : The preaching of Islam N.Y.Scribners,1913.

8. Demombynes G. : La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs Arabes. Bibliotheque archéologique et historique, Paris, 1923.

9. Grousset, R. : Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusaleme. 3 vols. Paris, Plan 1934-36.

10. " " : L'Empire Mongol (lere phase) Paris, Boeccard, 1941.

11. Wiet, G. : L'Egypte Arabe. Histoire de la Nati on Egyptienne. Tome IV. Paris Gabriel Hanotaux.

12. Poliak, A.N. : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon. Royal Asiatic Society. London, 1939.

13. Cahen, C. : La Syrie du Nord à l'époque des croisades et la principauté d'Antioche. Institut Français de Damas, Bibliothèque Orientale, Tome I. Paris, Geuther,1940.

14. Hitti, P.K. : History of Syria, including Lebanon and Palestine. London Macmillan, 1951.

15. " " : History of the Arabs. London Macmillan. 1956.

16. " " : Lebanon in History. London Macmillan, 1957.

17. Ayalon, D. : _L'esclavage du Mamelouk_ Jerusalem Imp. Mercaze 1951 The Israel Oriental Society- Oriental Notes and Studies no.I.

18. " " : _Gunpowder and fire arms in the in the Mamluk Kingdom_, A challenge to a Medieval Society. London Vallentine 1956.

19. Mayer, L.A. : _Mamluke Costume, a Survey_ Geneve 1952.

20. Ziadeh. N. : _Urban life in Syria under the early Mamluks_. Beirut 1953. Publications of the Faculty of Arts and Sciences, A.U.B., No.24.

21. Runciman, S. : _A History of the Crusades_. 3.vols. Cam. Uni. Press. 1955.

22. Sadeque S.F. : _Baybars I of Egypt_. O.U.P. Pakistan, 1956.

ESSAYS:

1. Ayalon, D. — "Al Bahriyya" E.I. Vol.I, new ed. p.944-945.

2. - — "Le Regiment Bahriyya Dans l'Armée Mamelouk". Revue des études islamiques, 1949, p.133-141.

3. Clermont Ganneau, M. — "Le Pont de Lydda construit par Sultan Beibars". Journal Asiatique, huitième serie, Tome X. Nov.-Dec.1887, p.509-527 tome XII p.305-310.

4. Kramers, J.H. — "Mamluks" E.I.Vol.3. p.216-221.

5. Michel, B. — "L'organisation Financière de l'Egypte sous les Sultans Mamelouks d'après Qalqachandi". Bulletin de l'Institut d'Egypte tome 7, 1924-1925 p. 127.

6. Perlmann, M. — "Notes on Anti-Christian propaganda in the Mamluk Empire". (BSOAS see No.7 below) pp.843.

7. Poliak A.N. — "The Influence of Chingiz Khans Yasa upon the general organization of the Mamluk State". Bulletin of the School of Oriental and African.Studies (BSOAS) University of London. Vol. 10, 1940-42 pp.862.

8. - — "Les Revoltes en Egypte à l'époque des Mamelouks et leurs causes économiques". Revue des études islamiques Vol.8. 1934, p.251-273.

9. Sobernheim, M. — "Baibars I" E.I. new ed. pp.588.

10. "Seljuks". — E.I. Vol.IV p.211-212.

11. Wiet, G. — "Baibars I". E.I. Vol.I. new ed. p.1124-1126.

12. - — "L'Historien Abul-Mahasin". Bulletin de l'Institut d'Egypte tome XII session 1929-30 pp.89.

13. Watson. CM.Ltd.Col. — "The stoppage of the River Jordan in AD 1267". Palestine exploration Fund July 1895, p.253-261.

الفصل الاول –

الاصـــول والمراجـــع (١)

يبدو لي ان سيرة الملك الظاهر بيبرس المفصلة التي تتناول حياته قبل السلطنـة وبعدها بصورة دقيقة وتعطينا تقييما متزنا له لم تظهر بعد • ولم اجد بيـن الكتابـات العربيـة التاريخيـة الحديثـة المنشورة غير كتابين صغيرين عن هذا السلطان ، قـدم احدهما رسالـة ماجستير في جامعة القاهرة ، والثاني دراسة عنه مبنية على الرسالـة السابعـة • وكلاهما لجمال الدين سرور • وهو حريص فيهما على اظهار "عنترية "بيبرس " ومصريته " ، متأثـر بذلك بناحية البطولة الفردية التي تبرزها سيرة الرجل الشعبية •

وهنالك " دراسات في عصر المماليك عامة ، وفي عصر الناصر محمد خاصة "لعلـي حسن ابراهيم ، تطرق فيها الى الظاهر بيبرس • اضف الى هذا مقالات عربية نشـرت خلال ربع القرن الاخير • ويغلب الطابـع الصحفي على الكثير منها • او هي مقـالات تناولت عصر المماليك بصورة عامة ، او تناولت ناحية خاصة منه ، وتطرقت مع ذلك الـى السلطان الظاهر من قريـب او بعيـد •

ولمحمـود سليم رزق "عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي في النثـر الفنـي " في خمسة اجزاء اوجز فيها الحياة السياسية لعصرى المماليك • واهميـة المؤلف انه مجموعـة فنيـة باسمـاء المؤلفـات التاريخيـة والعلميـة والادبية فـي هذا العهد • لكن الكتـاب غير مفهرس فهرسـة علمية دقيقة ، ثم ان المؤلف اغفل ذكر المصادر بصورة عامة • وحين ذكرهـا اغفـل ذكر اسم المؤلف والصفحة مما لا يسهـل المراجعـة عند الحاجـة •

---

١) اتناول هنا ما استطعت الاطلاع عليه مما هو مطبوع باللغات العربية والانكليزيـة والفرنسية بصورة مباشرة او غير مباشرة ، ومخطوطـة ابن الفرات • القسم الســادس بجزئيـه •

وللمستشرقين جهود في ميدان التاريخ لعصر المماليك ، نوّه بها الدكتور نقولا زيادة (١) لكن كتاباتهم عن الظاهر بيبرس قليلة . ومعظمها يتناول هذا السلطان في مؤلف عام ، او يتناول ناحية منه . ولم يكن لدينا مؤلف بلغة اجنبية عن سيرة الظاهر بيبرس ، مختصرة ، ولكن واضحة ، حتى نشرت فاطمة صادق جزءاً من مخطوطه ابن عبد الظاهر قدمت له بدراسة عن حياة هذا الرجل العسكرية ، مبنية على المخطوطة .

والاتجاه العام في السيرة التي كتبتها فاطمة صادق تمجيد للظاهر وتجريح لكل من انتقده . ولن اتناول هذا هنا وانما تناولته حين ذكرت المصادر الاولية ومؤلفها من بعضها (٢) .

والسؤال الآن هو عما سبّب مثل هذا الاهمال . وقد سجلهٔ الدكتور نقولا زياده واستغربه ثم تساءل ما اذا كان يمكن ان يعزى ذلك الى نفور من التصاق صفة المماليك بهذا العهد ام الى اعتقاد بان هذه الفترة كانت فترة تاخر وانحطاط (٣) . واذا صح ان هذا الاهمال يعود الى ان هذه الفترة ليست فترة ابداع وخلق ، فان الحقيقة هي اننا لم نتنبه الى اهمية هذه الفترة من جهة والى ان مصادر دراسة المماليك ومنهم الملك الظاهر ، لم تنشر بعد كلها . ولعل المنشور منها اقل مما لم ينشر (٤) .

---

١) "ماساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الاخيرة من دراسة التاريخ .. في عصر المماليك" هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية عن مجلة الابحاث ج ٢ ج ٣ . حزيران وايلول سنة ١٩٥٩ ، ص١٢٢ .

٢) ص١١ — ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ادناه .

٣) المصدر السابق ص١٢٢ .

٤) ويخيل لي ان الاحداث التاريخية الحالية التي تمس بلادنا العربية هي التي تنبهنا الى هذا او ذاك من رجال التاريخ الماضي ، او الى هذه او تلك من الفترات الماضية . فنكبة فلسطين مثلا اعادت الى الذهن ايام صلاح الدين الايوبي ، وهي ايضا اوحت لجوزيف نسيم يوسف دراسة "لويس التاسع في الشرق الاوسط" وكانت دراسة جمال الدين سرور عن الظاهر الذي طرد الصليبيين وصد المغول ، فكانه بطل وطني اسلامي يصارع الاستعمار .

والاصول عن الظاهر بيبرس عربيـة بالدرجـــة الاولى ، ولكن هذا لا يعني ان مصادر اخرى بلغات اخرى لم تتناوله . الواقع ان المصادر الفارسية والاوروبية المعاصرة لم قد تناولته ايضا . ولكنني اهملت المصادر الفارسية لجهلي بهذه اللغة . واهملـــت الاصـــول الاوروبيـــة لان المؤلفـــات الحديثة عن الصليبيين افادت منها فاعتبرت عودتي الى هذه المراجع الاخيرة مغنية عن العودة الى الاصول ـ لاسيما وهي مكتوبة بلغـات او لهجات اوروبية اجهلها ، ولاعتقادي بان المصادر العربية ، هي اوفاها عنه (١) .

لنعد الآن الى المصادر العربية الاوليـــة ، وهي تشمل ما كتب عن الظاهر بيبرس خلال قرنين ونصف قرن من الزمـــــن :

<u>ابو شامـــه</u> : ٥٩٩ ـ ٦٦٥ هـ/ ١٢٠٢ ـ ١٢٦٧ م . يهمنا هنا من مؤلفاتـه " تراجم رجال القرنين السادس والسابع " وهو يعرف " بالذيل على الروضتين " وفيـــه سرد موجز لحياة الظاهر بيبرس في السنوات الاولى . وهو شاهد عيان للاحداث التـــي يصفها ولكنه لايفصلها ، بخلاف ما فعـــل في "كتـاب الروضتين في تاريخ الدولتيـــن الزنكيـــة والصلاحيـــة " .

وهو في مؤلفه هذا يعطينا صورة عامة ليست مشرقة ، عن الحياة العامة في دمشق في ايامه . وقد نظم في ذلك قصيدة طويلة جاء فيها :

عجبـا مـــن مدرسيـــن قضـــاة	يتبـارون في الملابس (٢) بطـــرا
والذي كاتـب التتار ومن ســـار	اليهم قصـــدا فاثنـــى واطـــرا

---

١) وهذا هو رأى F. Sadeque ص ١)
٢) هي في الاصل "اللباس" ولكن الوزن لايستقيم معهـــا .

كلما قلت بدولة الحاكم الجا . ــ برزالت قلمت علينا اخرى

ثم يدعو الى الانصراف الى الفلاحة لانها من "احل كسب واثرى (١)

ابـن شداد : ٦١٣ ــ ٦٨٤ هـ/١٢١٦ ــ ١٢٨٥ م • ويهمنا من مؤلفاته في هذه الدراسة/سيرة الظاهر بيبرس وقد اسماها "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (٢) • " وقد ضاع اكثرها الا القسم المتعلق بالسنوات الخمس الاخيرة من حياة هذا السلطـــان • وهذا لم ينشر بعد (٣) • ولو قدر لهذه المخطوطه ان تنشر لكانت هي والقسم المنشـــور من السيرة التي وضعها ابن عبد الظاهر سيرة للسلطان لا تعوزها الا السنوات المتوسطـــة من حكمـــه •

ولهذه السيرة اهمية خاصة اذ ان المؤلف عاصر الاحداث واشترك في بعضها • وقد هرب من الغزو التترى الى القاهرة حيث حظي بعطف الظاهر وتشجيعه (٤) • فكـان له من مكانته مايساعده على الاطلاع على خفايا الامـور •

واذا كانت هذه السيرة لم تصلنا كاملة ، ولم يطبع بعد ماوصلنا منها ، فقد اطلعت على موجـز لها فـي ابن تغرى بردى • وكذلك لخصهـا ابن شاكر الكتبـــي فـي "فوات الـوفيـات" وذلك باعترافـــه (٥) •

---

١) تراجم ، ص٢٢٢ ــ ٢٢٦ •
٢) ابن ابي الفضائل ، ص٢٢٦ و (C Cahen) ص ٧٥ ولنلاحظ هنا ان لابـــن عبد الظاهر مؤلفا بذات الاسم •
٣) (F Sadeque) ص٣ وملحق مقابل ص٦٤
٤) (F Sadeque) ص٣
٥) جـ ١ ص ١٥٩ •

ابن عبد الظاهر: ٦٢٠ - ٦٩٢ هـ / ١٢٢٣ - ١٢٩٢ م ، هو صاحب "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" وهي جزء من مدونات سجلها المؤلف بصفته كاتب انشاء منذ عهد بيبرس حتى عهد الاشرف خليل ، كانه كان يتوقع من كاتب الانشاء ان يحتفظ بيوميات (١) .

ضاع القسم الاكبر من هذه السيرة ولم يبق منها الا مايتعلق بالسنوات الخمس الاولى من سيرة السلطان (٢) ، وقد نشرت فاطمة صادق هذا القسم الباقي باسم "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" ، لكن اليونيني يذكر هذا الكتاب باسم اخر هو "الفضل الباهر من اخبار الملك الظاهر" او "في الفضل الباهر من سيرة السلطان الملك الظاهر (٣)" ، ويذكر ابن الفرات انه صاحب "كتاب نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" لكنه يعود في امكنة اخرى فيشير الى ان الكتاب من تاليف حفيد ابن عبد الظاهر (٤) .

قلنا ان ابن عبد الظاهر كان كاتب الانشاء ولذلك شهد الاحداث التي دونها واشترك فيها اشتراكا فعليا ، والقسم المنشور من السيرة مليء بالاشارات الى مثل هذه المشاهد العيانية والمشاركة الفعلية (٥) .

ولهذه السيرة اهمية كبيرة ، فقد اعتمدها كل من كتب عن الظاهر فيما بعد ، لخصها شافع بن علي ، ونقل عنها ابن الفرات باسهاب ، وفي "الذيل على مرآة الزمان"

---

١) (C.Cahen) ص ٣٤

٢) راجع ص ٤ .

٣) اليونيني جـ ١ ص ٥٤٠ و ٥٥٦ .

٤) ابن الفرات جـ ٦ قسم اول ورقة ٦٥

٥) منها تهيئة شجرة نسب الخليفة (ص ٦١) تدبيج رسالة السلطان لبركة خان (ص ٨٢ - ٨٣) ؛ كتاب تقليد السعيد ولاية العهد (ص ١٠٦) .

لليونيني ، وفي "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزى ، وفي "النجوم الزاهرة" لابن تغرى بردى ، اشارات كثيرة الى ان هؤلاء المؤرخين نقلوا عنه . يبدو انهم اعتمدوا سيرة ابن عبد الظاهر اكثر مما اعتمدوا السيرة التي كتبها ابن شداد . ولا غرو في ذلك فان منصب ابن عبد الظاهر يجعله اقرب من غيره الى معرفة دقائق سيرة الظاهر .

واذا كان لمثل هذا قيمة ايجابية . فان له ايضا قيمة سلبية . فقد عمد ابن عبد الظاهر الى المبالغة في وصف السلطان ورسم صوره مشرقة عنه ونسبه جميع الصفات الحميدة اليه واعتباره منقذا للاسلام (١) .

ثم ان ابن عبد الظاهر لجأ الى الاسلوب الادبي المسجع المزخرف فاضر هذا الاسلوب بسيرة الرجل لاسيما قبل ان تسلم السلطنة . فهو يجعل عز الدين الافرم الذى انشق عن بيبرس بعد معركة نابلس مع الناصر صلاح الدين ، ودخل مصر ، داعية للناصر فيها ويجعل بيبرس يعود مع الناصر الى دمشق غير مبرر ذلك ، بخلاف ما تقوله جميع المصادر الاخرى (٢) .

وابن عبد الظاهر فيما يبدو ، يعمد الى ابراز عيوب الاخرين ليبرز بعد ذلك محاسن بيبرس . يقابله بالناصر صلاح الدين يوسف . ويصف الناصر بالضعيف اللاهي بينما الظاهر يحرق الارم على مايجرى بين سلاطين مصر وايوبي بلاد الشام (٣) .

ابن واصل : ٦٠٤ - ٦٩٧ هـ / ١٢٠٧ - ١٢٩٨ م . له "كتاب مفرج الكروب في اخبار بني ايوب" تناول فيه فترة المماليك الاولى . وقد نشر من الكتاب جزآن انتهيا بنهاية حياة صلاح الدين الايوبي ، لكني افدت من الاجزاء التي لم تنشر بعد بواسطة ما نقله كتاب استطاعوا الوصول الى مكان المخطوطه . كالتعليقات التي وضعها مصطفى زيادة ناشر "السلوك لمعرفة دول الملوك" وغيرها .

---

١) ابن عبد الظاهر ص ١ ، ٢ ، ٤ ، ٢٠ ، ٢٣

٢) المصدر نفسه ص ٨

٣) المصدر نفسه ص ١٢

وابن واصل ، كابن شداد وابن عبد الظاهر ، كان اثيرا لدى السلطان • وقد اختاره للسفارة له عند مانفريد (Manfred) ملك صقليه •

وطبيعي ان يميل هؤلاء المؤرخون الثلاثة ، ابن شداد ، وابن عبد الظاهر ، وابن واصل ، الى تفخيم الظاهر وتعظيمه • فقد عايشوه وخدموا في بلاطه ونالوا من احسانه • ثم انهم راوا فيه البطل الذى تغلب على التتر واضعف الصليبيين بصورة نهائية • وقد شاركهم ابو شامه هذا الموقف بالنسبة لانتصاراته على الصليبيين والمغول ، بيد ان موقف الظاهر من دمشق كان يحول دون تفخيم ابي شامه له • ولعل قصر المدة التي عاشها ابو شامه في عهد الظاهر بيبرس لم تتح له ان يرى اهميته كغيره • او لعل ميله الى ذم السلطات والاستياء من الحالة العامة حالا دون نيله حظوة عند السلطان •

وهنا لا بد من التساؤل : لماذا لم يكتب ابن خلكان (٦٠٨ — ٦٨٠ هـ / ١٢١١ — ١٢٨٢ م) شيئا عن السلطان الظاهر وله كتاب " وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان " مع انه توفي بعده ببضع سنوات •

واخيرا يجب ان نشير الى ابن العبرى (٦٢٣ — ٦٨٥ هـ / ١٢٢٦ — ١٢٨٦ م) وله " تاريخ مختصر الدول " وقد اكتفى فيه باشارة خاطفة الى المماليك عامة •

وهنالك مؤرخو النصف الاول من القرن الهجرى الثامن/الميلادى الرابع عشر وهم ابن الفوطي ، وبيبرس الدوادار ، وقطب الدين اليونيني ، وشافع بن علي بن عباس والنويرى ، وابو الفداء ، والذهبي والمفضل بن ابي الفضائل •

ابن الفوطي : ٦٤٢ — ٧٢٣ هـ / ١٢٤٤ — ١٣٢٣ م ، مؤرخ عراقي ، كان خازن كتب المستنصرية في بغداد . وكان واسع الاطلاع ، منصفا في احكامه ، معتدلا في عواطفه لكنه لم يتسن له ، لبعده عن مسرح الحوادث ، ان يتثبت من كل ما يرويه (١) . وله كتاب " الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة " وفيه موجز لحياة الظاهر بيبرس .

بيبرس الدوادار (٢) : ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م . له " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " وهو لم ينشر بعد وقد اسهم في معارك عدة قام بها الظاهر ضد الفرنجة والروم (٣) كان حاكم الكرك في عهد قلاوون ثم صار نائب السلطنة في عهد الناصر ابنه ثم سجن ما بين ٧١١ — ٧١٧ هـ . وكتب تاريخه هذا حتى سنة ٧٢٤ هـ .

قطب الدين اليونيني : ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م . له " الذيل على مرآة الزمان " نشر منه جزآن حتى الان . كتبه اليونيني كما يدل العنوان " ذيلا على " مرآة الزمان " لسبط ابن الجوزي ٥٨٢ — ٦٥٦ هـ / ١١٨٦ — ١٢٥٨ م . ولهذا المؤلف قيمة كبيرة اذ ان اليونيني يعطينا فيه معلومات لا توجد في غيره من المؤلفات (٤) . ثم ان له ميزة اخرى هي انه يسرد لنا الكثير من سير الشخصيات والقواد في الزمن الذي يؤرخ له . وهو دقيق في ذكر اخباره واسانيده لكنه كثيرا ما يختلف عن المصادر الاخرى بالتواريخ وقد اشرت الى بعض هذا في موضعه .

وقد اخذ اليونيني معلوماته عن ابن عبد الظاهر وابن شامه وابن واصل مما يجعله موثوقا به من ناحية ويجعله ذا قيمة نسبية لنا حتى تطبع هذه الاصول .

---

١) مصطفى جواد ، المقدمة ص ر
٢) هو بيبرس المنصوري عند (C.Cahen) ص ٧٨ وهنالك مؤرخ باسم ابي بكر بن عبد الله بن ايبك ابن الدوادار ، وله كتاب في تسع مجلدات تناول المماليك الاول في الجزء الثامن وخص الناصر محمد بالجزء التاسع (C.Cahen) ص ٧٩ ولعلهما مؤرخ واحد .
٣) Margoliouth D.S "Baibars al-Mansouri [illegible]" E I new ed م ١ ص ٥٩٠
[illegible] "Baibars al Mansouri" EI new ed م ١ ص ١١٢٧
٤) C Cahen ص ٧٩ — ٨٠ F Sadeque ص ٦

ثم ان المؤرخين اللاحقين اخذوا عنه او نقلوا رايه في بعض القضايا كقضية وفاة الظاهر مثلا • وقد نسخ ابن تغري بردى عنه الشيء الكثير • وكذلك فعل ابن ابي الفضائل ويشير هذا الاخير الى مصدره على انه "المؤرخ" من غير ان يسميه • وقد قال (E. Blochet) انه يقصد النويري بذلك ولكنني اعتقد ان ما ينسخه ابن ابي الفضائل عن اليونيني يوحي لنا باعتباره "المؤرخ" الذى يشير اليه ابن ابي الفضائل •

ولهذا المؤلف صفة بارزة جدا وهي فيه ابرز مما هي في اى مصدر آخر عن هذه الفترة وهي صفة التكرار فكثيرا ما يتحدث عن الحادث او الشخص في مكانين من الجزء الواحد اوفي الجزئين معا (١) •

<u>شافع بن علي بن عباس</u> : ٦٤٩ - ٧٣٠ هـ / ١٢٥١ - ١٣٣٠ م •

هوسبط ابن عبد الظاهر • اختصر السير التي كتبها جده للظاهر ولقلاوون وللخليل • وهو صاحب " المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " وصاحب تاريخ الناصر محمد بن قلاوون ، وصاحب " كتاب نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك " وصاحب مجموعة من شعراء مصره (٢) لكن شيئا من هذا لم ينشر بعد •

<u>ابو الفداء</u> : ٦٧٢ - ٧٣٢ - هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣١ م • صاحب " مختصر تاريخ البشر " في اربعة اجزاء • وقد تناول سيرة الملك الظاهر في الجزئين الثالث والرابع مختصرة عن ابن واصل وابن عبد الظاهر • ومن هنا كانت اهمية هذا المصدر وقد افدت منه كثيرا في الحديث عن صراع الايوبيين فيما بينهم • ثم جاء ابن الـوردى

---

١) ج ١ ص ٤٥ و ٥٤ - ٦٠ عن عز الدين ايبك و ٤٥ و ٦١ عن شجر الدر •
٢) (C. Cahen) ص ٧٨

(٦٨٩ ـ ٧٤٩ هـ / ١٢٩٠ ـ ١٣٤٩م) فكتب له تتمة لكنه ليس في هذه التتمة شيء خاص او جديد بالنسبة للسلطان الظاهر .

النويري : ٦٧٨ ـ ٧٣٢ هـ / ١٢٧٩ ـ ١٣٣٢م ، كان ناظر الجيش في طرابلس ثم ناظر الديوان في الدهيلية والمرتاحية في عهد الناصر محمد بن قلاوون . كتب "نهاية الارب في فنون العرب" في ٣٢ مجلدا تناول فيها الادب والتاريخ معا . ولم ينشر حتى الان الا الاجزاء التي تتناول الادب .

وقد سجل النويري في قسم التاريخ سيرة الظاهر بيبرس مفصلة منقولة عن ابي شامه وابن عبد الظاهر وابن شداد واليونيني . وقيمة سيرته ، عندما تنشره ، انها تحفظ لنا مقتطفات كبيرة من مصادر اخرى كثيرة ضائعة (١) .

الذهبي : ٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ / ١٢٧٤ ـ ١٣٤٨ م . له "تاريخ الاسلام" مطولا . ثم اختصره في كتاب اخر هو المنشور الذي اطلعت عليه وقد نقل الذهبي معلوماته عن ابن عبد الظاهر وابن شداد وابي شامه واليونيني . وفي اختصاره توضيح للوقائع لكنه ليس فيه لذة التفصيل .

المفضل بن ابي الفضائل : ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨م . قبطي . له "كتاب النهج السديد والدر الفريد" ذيّل به كتاب ابن العميد . طبيعي ان يكون ابن ابي الفضائل اعتمد المصادر السابقة وقد اشار اليها . لكن الغريب ان المؤرخين

---

(١) (C. Cahen) ٢ ص ٨١ ـ ٨٢ .

اللاحقين لايشيرون اليه البته . وقد يعود ذلك الى انه كان مختلفا عنهم دينا او الى انه واياهم رجع الى ذات المصادر الاساسية . وكتابه هذا مصدر هام يعطينا راى الاتباط بالسلطان الظاهر من جهة ويفصل لنا احيانا ، على اختصاره ، اشياء لاتفصلها المصادر الاخرى (١) .

ابن كثيـــر : ٧٠١ - ٧٧٤/ ١٣٠١ - ١٣٧٣ م . وله "البداية والنهاية في التاريخ " في اربعة عشر جزءا . وقد خص الظاهر بقسم كبير من الجزء الثالث عشر ، تناول فيه سيرة هذا السلطان ، مرتبه بحسب السنين . والسيرة مختصرة ، لكنها تعطينا صورة وافيـــة مشرقـــة عن السلطـــان .

ولهؤلاء المؤرخين باستثناء هذا الاخير ، نظرة للسلطان الظاهر تختلف عـــن نظرة المؤرخين الاربعة الاول . وترى (F. Sadeque) انهم اتخذوا موقفا معاديا من السلطان وعمدوا الى ابراز اسواء ماديه واختلقوا حوادث لا اثر لها من الصحة ، او اتوا بتعليلات لاتثبتها الوقائـــع (٢) . ولتاييد هذه التهمة سرد المتهم عددا مـــن الامثلـــة ، واولها حكايـــة استيلاء السلطان حين كان يحاصر الشقيف سنة ١٢٦٨ م على رسائل يحملها مسلمـــون من عكا الى نواب الشقيـــف تشجيعا لهم على الثبات امـــام هجمـــات الظاهر واعلاما لهم بشخـــص يمكن ان يتناولوا منه الاموال اذا احتاجوا ، ونصيحـــة بالافراج عن شخـــص اخـــر معتقـــل فـي الشقيـــف . لكن الظاهر اضـــاف الى هذه الرسالة نصيحة اخرى مؤداها الاستسلام عنـــد استحالة الصمـــود مقابل الامان لانفسهم ولنسائهم ولابنائهـــم .

ثم يقول ابن شداد ان الظاهر ، بعد هذا ، شدد الحصار حتى ان القـــوات المدافعة اضطرت ، عند استلام الرسالة ، الى المفاوضة والتسليم مقابل الامـــان .

---

١) (E.Blochet) ص ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣
٢) (F.Sadeque) ص ٨ .

وهنالك رواية ابن ابي الفضائل • فهي تتفق مع رواية ابن شداد حتى الاستيلاء على الرسالة ، وعلى محتوياتها ـ لكنها تختلف عن رواية المصدر السابق في انها تجعل الظاهر ياتي بمن يجيد معرفة الاشارات السرية بين الفرنجة ويكتب لقوات الشقيف رسالتين احداهما للنائب يحذره فيها من الوزير المقيم ومن جماعة اخرى معه ، وثانيهما للوزير يحذره فيها من القائد • ثم تعود الروايتان الى الاتفاق ، حتى كانت المفاوضة والامان والاستسلام (١) •

وقد ذكر النويري والذهبي الروايتين ولم يقطعا بصحة احداهما (٢) • ورواها ابن الفرات (٣) على ان حامل الرسالة قصد السلطان وسلمه الرسالة فقرئت بعد التجهل وارسلها الظاهر لمقدمي الفرنجة في القلعة بامانات لقاء الاستسلام ، وكتب ايضا رسائل معكوسة عن الرسائل الحقيقية مما اثار الحذر بين الوزير والقائد • وليس يسهل الجزم الان • والفرق بين الروايتين واضح • وتتهم فاطمة صادق ابن ابي الفضائل بمحاولة تسويد صفحة الظاهر • لكن ابن الفرات يجعل هذا العمل " من سعادة الظاهر وحسن رايه "(٤) •

ثم هنالك قصة وفاة الظاهر بالتسمم • يتفق ابن عبد الظاهر وابن شداد على القول بان الظاهر اكثر شرب القمز • فمرض واساء المعالجون معالجته وقضى نحبه (٥) •

ولست احسب ان اليونيني وبيبرس الدوادار اللذين اثبتا حكاية التسمم يقصدان تشويه سمعة الظاهر •والاقرب للمعقول ان رواية التسمم نشات من معالجة الظاهر بالجوهر ظنا ان به تسمما •

---

١) ـ ابن ابي الفضائل ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ (٢) (F.Sadeque) ص ١١ •
٣) ـ ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١٦ ـ ١٧ (٤) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٧
٥) ـ (F.Sadeque) ص ١١ ، وقد عالجت هذه الحكاية في مكان اخر •
٦) ـ (F.Sadeque) ص ١٢ ـ ١٣

وهنالك قصة ارسال الظاهر قائدا اشبهه في الشكل لحلف اليمين لاهل صفد ليستسلموا . وتقول فاطمة صادق ان القصة محض اختلاق . ثم قصة اغتيال قطز. الفرق بين مايقوله ابن عبد الظاهر والذهبي هو ان هذا الاخير روى ان الظاهر تقدم من قطز يرجوه منحه فتاة ثم اخذ بيده لتقبيلها حتى كانت الطعنة في ظهر السلطان . وراى فاطمة صادق ان الذهبي اضاف هذه القصة ليظهر طبع الظاهر الغدار .

ان اسباب هذا التغير يمكن ان تكون ثلاثة : - حسد الناظر من الظاهر وتاثيره على المؤرخين من جهة . واعتبار حياة الظاهر تمهيدا لحياة الناصر من جهة ثانية ، وبعد الشقة بين المؤرخين وبين الظاهر بحيث صار يمكن النظر اليه بحرية وتجرد من جهة ثالثة . وترى فاطمة صادق ان السبب الحقيقي للتغير هو الاول وحسب وتنكر ان يكون بعد الزمن هو الذى فعل فعله اذ ان الناصر لم يكن جنديا قديرا فشعر بالحسد من الظاهر بيبرس وقد كادت سيرته تصبح اسطورة في حياته . وتستند في ذلك الى رواية عن استياء الناصر من قناطر السباع التي بناها الظاهر (١) .

ولكنني ارى هذا التعليل خاطئا . اذ هل يجوز ان نتهم هذه المجموعة من المؤرخين بانهم اجمعوا على التآمر على الظاهر بيبرس بعد وفاته بنحو نصف قرن ؟ وهل يجوز ان نتهمهم جميعا بالانصياع الى توجيهات من الناصر محمد لتشويه سمعة الظاهر ؟ اليس يجوز لنا ، بناء على هذا ، ان نتهم المؤرخين السابقين بالتحيز للظاهر وباخفاء كل عيب من عيوبه ، تحت تاثير توجيه من توجيهاته ؟ لست اريد ان انكر ان السلطات قد "توجه" احيانا وقد تجد من يصغي اليها ولكنني لست اريد ان اجعل من هؤلاء المؤرخين صنائع .

---

١) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ١٤٦ - ١٤٧ - (F.Sadeque) ص ١٣ - ١٥ .

ان تغير موقف المؤرخين من الظاهر واقع لا ريب فيه ، ولكن ينبغي ان نجد لهذا التغير تعليلات اخرى .

اول ماينبغي ان نتنبه اليه هنا هو ان الصورة التي رسمها ابن عبد الظاهر وابن شداد للظاهر لايمكن ان تكون حقيقة . ان الانسان الذي يصفه ابن عبد الظاهر اسطوري اكثر منه حقيقيا . واذا اخذنا حكايته عن اغتيال قطز جاز لنا ان نتساءل ما اذا كان لم يختصرها ليحذف ما لايليق تسجيله في مدونات ديوان الانشاء .

واما ابن ابي الفضائل فلا بد انه تاثر في موقفه بموقف الظاهر من النصارى عامة . ولعله بوسعنا ان نجد لكل مؤرخ لم يمدح الظاهر كابن عبد الظاهر ، سببا خاصا او تعليلا لموقفه . ولكنني احسب ان هنالك سببا عاما يفسر موقف المؤرخين جميعا . ان المؤرخين الاول عايشوا الظاهر وخدموه ورأوه بانفسهم يحارب المغول ويصدهم ويحارب الصليبيين ويحتل بعض مراكزهم . لقد كان هذا الخطر المزدوج جاثما على صدور جميع الناس . كانت اهمية الظاهر في مآتيه العسكرية . اما الذين كتبوا عنه بعد نصف قرن فلم ينظروا اليه من هذه الناحية فقط . لقد وجدوا ان عليهم ان ينظروا اليه من نواحي مختلفة . من هنا نشأ هذا التباين في الموقفين. لست اريد ان انكر امكانية التوجيه والتاثير من السلطان الناصر على المؤرخين ولكنني لا ارى ان نجعل من هذا العامل الوحيد والاهم لهذا التغيير في نظرتهم للسلطان الظاهر .

استاء الناصر من تناظر السباع ، وشعر بالحسد من سيرة الظاهر التي كادت تصبح اسطورة ، واحس بالالم لما لاقاه في بداية عهده بالسلطنة . ولكن هذا لايفسر اجماعا من عدد كبير من المؤرخين على اظهار مآتيه العسكرية والعمرانية وتبيان سيئات كانت فيه . ان الذي فعله هؤلاء المؤرخون هو انهم انزلوه من مستوى الاسطورة الى مستوى الانسان العادي .

وفي النصف الثاني من القرن الهجري الثامن / النصف الثاني من القرن الميلادي الرابع عشر عدد من المؤرخين تناولوا سيرة الظاهر بيبرس .

ابن شاكر الكتبي : ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م . صاحب " فوات الوفيات " وقد وضعه ذيلا على " وفيات الاعيان ... " وفيه موجز لحياة الظاهر منقول عن ابن شداد (١) ولهذا اهمية .

عفيف الدين اليافعي : - ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م . له " مرآة الجنان وعبرة اليقظان " في اربعة اجزاء . وهو مختصر جدا . (٢) .

ابن الفرات : ٧٣٤ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٤ - ١٤٠٥ م . له " تاريخ الدول والملوك " انتهى فيه حتى سنة ١٣٩٦ م / ٨٠٠ هـ في تسعة اجزاء . خص منها الجزء السادس وبعض الجزء السابع بسيرة الظاهر بيبرس . وهو ينقل عن ابن عبد الظاهر وعن " كتاب نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك " لحفيد ابن عبد الظاهر ، وعن ابن شداد واليونيني وعن بعض اهل التاريخ . وقد نقل عن المصدرين الاولين مقاطع طويلة حتى اننا لو خدمناها لبقي القليل مما لم ينسخ بلغته الاصلية . والملحوظ انه لم ينقل عنه احد ممن جاء بعده .

يبدو ان ابن الفرات اراد ان يعطينا صورة كاملة واضحة مفصلة عن حياة الظاهر بيبرس ، لذلك نقل بغزارة عن المصادر السابقة . ذاكرا اسماء مصادره معطيا الروايات المختلفة من كل حادث حوله جدل . وقليلا مايقطع بحكم ، تاركا ذلك للقارئ .

وموقفه من الظاهر معتدل بوجه عام . فهو يمدحه ويعتبره بطلا ، ولكن هذا لا يمنعه من رؤية عيوبه ، او من تسجيل المآخذ التي اخذها عليه الاخرون . لذلك كان مؤلفه الوحيد الذي يجمع بين اراء المؤرخين بالظاهر .

---

١) ابن شاكر الكتبي ج١ ص١٥٩ - ٢ - وهنالك ابن حبيب الدمشقي (٧١٠-٧٧٧ هـ / ١٣١٠ / ١٣٧٧ م) . وله "درة الاسلاك في دولة الاتراك" .

وفائدته في هذه الدراسة كبيرة لانه يورد مقطوعات طويلة من مخطوطات ليست في متناول يدي ، او انها ضائعه • وهو بهذا مفيد لانه يحفظ لنا كثيرا مما هو ضائع من سيرتي ابن عبد الظاهر وابن شداد، وهو بذلك يسد الثغرة العائمة بضياع القسم الاخير من سيرة ابن عبد الظاهر ، والقسم الاول من سيرة ابن شداد • ومقابلة ما نقله عن ابن عبد الظاهر بالقسم المنشور من هذه السيرة يثبت لنا انه كان دقيقا في نقله ، بحيث يصح عليه الاعتماد لمعرفة نص السيرة الاصلي •

ويتميز ابن الفرات بصفتين هامتين هما التفصيل والاستطراد • والتفصيل واضح من انه خصص ١٠٨ ورقات لكتابة تاريخ خمس سنوات من حياة الظاهر • اما الاستطراد فامثلته كثيرة • فعندما اراد الحديث عن الظاهر في العدس (١) مثلا عاد الى سرد تاريخ هذه المدينة منذ القدم • وعندما اراد الحديث عن القضاء (٢) في عهد الظاهر عاد الى ذكر اسماء القضاة منذ ان افتتح العرب مصر (٣) •

القلقشندي : ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م • له "صبح الاعشى في صناعة الانشاء" في ١٤ مجلدا • وفيه معلومات تاريخيه عامة هامة ، لكن فائدته الكبرى هي في تفصيل النواحي الادارية •

---

١) ابن الفرات جـ ٦ قسم اول ورقة ٢٠ — ٢٤ •

٢) ابن الفرات جـ ٦ قسم اول ورقة ٧٨ — ٩٠ •

٣) وهنالك ايضا ابن دقماق (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) وله "نزهة الانام في تاريخ الاسلام" (فهرس المخطوطات العربية جـ ٢ قسم ٣ ، التاريخ ص ٣١٥) و "الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين" المصدر نفسه ص ١٣٢ ويقال ان مصادر ابن دقماق افضل من مصادر المقريزي وان كان هذا لم يرجع اليه • Pdersen, J. Art. "Ibn Dukmak", E.-I. Vol. II, P. 374) • وقد نقل عنه ابن الفرات واشار اليه في امكنه مختلفة • وابن خلدون (٧٣٢—٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ — ١٤٠٦ م) صاحب "كتاب العبر وديوان المبتداء والخبر" • • لكنني لم اجد فيه شيئا خاصا او هاما بالنسبة للظاهر •

بقي امامنا من المصادر الاولية عدد كبير وضعه مورخون في القرن الهجري التاسع/ الميلادي الخامس عشر • وهم المقريزي ، الظاهري ، ابن تغري بردي ، السيوطي ، ابن اياس(١) •

المقريزي : ٧٧٦ – ٨٤٥ هـ/ ١٣٧٤ – ١٤٤٢ م • مؤلفاته كثيرة يهمنا منها هنا " السلوك لمعرفة دول الملوك " و " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " المعروف بالخطط المقريزية ، و " كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة " و " التبر المسبوك فيمن حج من الملوك " •

ليس في الكتاب الاخير عن الظاهر مالم يذكره المقريزي في الكتب الاخرى • واما "كتاب اغاثة الامة • • • " ففائدته في انه يصور لنا الجو الاقتصادي الاجتماعي في عهد المماليك عامة • ويذكر لنا المجاعات التي حدثت في عهدهم – ومنها المجاعات في عهد السلطان الظاهر • وهذا الكتاب فريد في نوعه • او هو الاول في هذا الباب •

و " الخطط المقريزية " وصف جغرافي للقاهرة ولبعض مدن مصر ، واشارات تاريخية لتطورات طرأت على هذه الامكنة • ولذلك كان الكتاب مصدرا تاريخيا الى جانب كونه مصدرا طوبوغرافيا • وقد اتهم انه نقل هذا الكتاب عن مؤلف سابق للاوحدي واضاف عليه اضافات غير ذات جدوى (٢) • ولم يدفع المقريزي هذه التهمة ، بل اكتفى

---

١) ويمكننا ان نزيد اليهم عددا من المورخين كالعيني صاحب كتاب "عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان " وابن شاهين صاحب " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " وبهاء الدين الخالدي صاحب " المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الانشاء " ، ونور الدين الصيرفي صاحب" نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان " وابن خليل صاحب " نزهة الاساطين فيمن ولي مصر من السلاطين " ، وحسن الطولوني صاحب "النزهة السنيه في ذكر الخلفاء والملوك المصرية " • (محمد مصطفى زيادة ، المورخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ •) ولكنني لم استطع الافادة من هذه المصادر •

٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ٢٢ •

لكنه لابد من القول ان ثبوتها لا ينفـي صدق مايقوله المقريزى ولا يجرح في صحة احكامه ، وهو القائـل بان الاصل هو معرفة مايقال ، لامعرفة من قال .

في "كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك" وهو ماينبغي ان نوجه اليه اهتمامنا هنـا . اعتمد فيه المقريزى ابن عبد الظاهر وابن شداد واليونيني والذهبي ، وذكر ذلك في مواضعه ولحظ الفروق في نظرتهم الى الملك الظاهر بيبرس . ولا بد له امام هذا الواقع ، وهـو تلميذ ابن خلدون ، من ان يتريث ويحذر في النقل ، ولا بد له من ان يكون له وجهة نظر خاصة بالسلطان .

لم يمدح المقريزى السلطان الظاهر كما فعل ابن عبد الظاهر ، وانما انتقده فـي نواحي معينة . هي ناحية التشريع وناحية القضاء وناحية تاييد الخليفة في زعمه على بغـداد وناحية الضرائـــب .

كان المقريزى ينكر على الحكام حق التشريع بصورة عامة . وكان ياخذ على الظاهـــر بيبرس انه ادخل شرائع مغولية خوفا من المغول او ارضاء لصديقه وحليفه بركة خان (١) ، وتزيد نقمة المقريزى على الظاهر بسبب ادخال نظام القضاة الاربعة مما اضعف نفـــوذ الشافعية (٢) ويدل على نقمة المقريزى على الظاهر في هذا السبيل قول السلطان لمن رآه بعد موته في حلم بقوله "مارايت شيئا اشد علي من ولاة قضـــاة اربعـــة ، وقيـل لـــــي فرقت الكلمـــة "(٣) .

---

١) (F. Sadeque) ص١٩

٢) وقد كان العلماء الشافعية والحنفية على عداء مستحكم يؤيد كل فريق منهم اميرا طامعـــا بالسلطنة . وقد امر قاضي شافعي بجلد المؤرخ ابن دقماق على رغم كونه صديقـــا للسلطان .(F. Sadeque) ص١٩ .

٣) المقريزى ، السلوك ص٦٤٠ .

ثم يعيد المقريزي عدم مساعدة الظاهر للخليفة في زحفه على بغداد الى همسة في اذن السلطان بان الخليفة قد يعزنه اذا قوى . كان الظاهر قد خصص مبلغا يكفي لتجهيز عشرة الاف جندي لغزو التتر في بغداد . ثم لم يحدث شيء من هذا . اين ذهبت هذه الاموال ؟ وما هو السبب في عدم انفاقها ، اذا لم يكن ما ذكره المقريزي هو السبب ؟ وينبغي الا نخلط هذا بعدم تاييد ابني صاحب الموصل للخليفة . تقول المصادر انه لم يكن معهما مرسوم من الظاهر ، ولم تتنبه الى ان التتر هاجموا الموصل آنذاك ، فكان لابد لابني صاحبها ان يبادرا الى مدينة ابيهما للدفاع عنها (١) .

وهنالك قضية الضرائب وكيفية جبايتها . كانت الضرائب باهظة(٢) . وهذا ما لاينفيه ابن شداد بقوله انه عاد فالغاها . ويوسعنا التاكد من ذلك من ابن الفرات (٣) حين ينقل شعر بمدح الظاهر منه :

ملك اذا ذكروا اسمه　　　فالرعب يقذف في القلوب
وتكاد تخرج من مخافتها　　　اليه من الجيوب

وارغام وجهاء دمشق وتضاتها على تجهيز جيش لمقاومة المغول سنة ٦٧٢ هـ ، دليل اخر على ثقل الضرائب التي كان يفرضها الظاهر . ويقول ابن شداد ان الظاهر الغاها عندما احتج احد المحدثين ولكن ابن الفرات يقول انه وعد الشيخ النووى بالغائها لكنه اصر على جمعها بعد انتصاره (٤) . ويقول اليونيني ان الظاهر كان

---

١) وهذا مثال على ماقاله E. Blochet عن ان المؤرخين العرب لم يدركوا اثر ما كان يجرى في فارس وما وراء النهر على بلاد الشام ومصر . (النهج السديد ص ٣٧٠) .

٢) المقريزي السلوك ص ٦٤٠ . — ٣— ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٥

٤) ابن الفرات ج ٧ ص ٨٥ —

وهنا لا بد من ان نسأل فاطمة صادق ما اذا كان المقريزي يعتبر بعد هذا متجنيا على الظاهر • لست احسب ذلك • كان المقريزي ينظر الى الظاهر نظرة انتقاد وتحقير ولا بأس في ان تدفعه الى ذلك مبادئه الفقهية او عصبيته الحميدة • ولكن هذا لم يمنع المقريزي من ان يقول عنه انه "اول من قام بدولة الترك من بيت دولة المنصورة"(١) ومن انه كان "بالجملة ... من خير ملوك الاسلام (٢)" وعندي ان المقريزي احسن صنعا باعتماده المؤرخين اللاحقين لابن عبد الظاهر وابن شداد ، كما اعتمد عليهما ، حيث يجوز الاعتماد • وبذلك كان ما كتبه افضل سيرة للسلطان الظاهر •

<u>ابن تغري بردي</u> : ٨١٣ – ٨٧٤ هـ / ١٤١١ – ١٤٦٩ م • صاحب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" • خص الظاهر منه بقسم من الجزء السابع • اعتمد فيه ابن شداد وابن الجوزي وابا شامة وابن واصل وشهاب الدين مسعود (٣) واليونيني • نقل بغزارة من اليونيني ولكن فاطمة صادق ترى ان سيرته موجز لما كتبه المقريزي (٤) ولا ريب انه اعتمد المقريزي ، وانما الغريب انه لم يعتمد ابن عبد الظاهر •

وله ايضا "مورد اللطافة" ولكنه مختصر جدا وفيه اشارة سريعة للظاهر •

اما طريقته في التاليف فكانت سرد الحوادث الخاصة بالسلطان سنة فسنة ثم يعود فيذكر الاحداث الاخرى في هذه السنوات ، مما ادى الى التكرار • ولعل ذلك مرده الى اعتماد اليونيني •

هذا ولا بد من الاشارة الى انه كان يتحرى الحقائق بدقة •

---

١) المقريزي السلوك ص٦٣٩ (٢) المصدر نفسه ص٦٤١ •

٣) ٦٤٤ – ٧٢٥ هـ / ١٢٤٦ – ١٣٢٥ م • له ذيل على تاريخ ابن الاثير • ضاع الا ما بقي منه في المؤلفات التالية ومنها النجوم الزاهرة لابن تغري بردي • ([illegible]) ص٧٧ – ٧٨ •

٤) (F. Sadeque) ص٢٤ •

السخاوي : ٩٠٢ هـ / — ١٤٩٦ م ٠ له "الضوء اللامع لاهل القـــرن التاسع " وفائدته ذكر سير بعض المؤرخين كالمقريزى ٠

السيوطـــي: ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ٠ له "حسن المحاضرة في اخبار مصـــر والقاهرة " في جزئين "وتاريخ الخلفاء " ولكنه ليست فيهما معلومات جديدة عـــن السلطـان الظاهـــر ٠

ابن ايـاس : ٨٥٢ — ٩٢٨ هـ / ١٤٤٨ — ١٥٢١ م ٠ له " بدائـــع الزهور في وقائع الدهور " وليس فيه غير بضع صفحات اختصر فيها سيرة الظاهر بيبرس لكنه تميز مع هذا الاختصار ، بنقده للحوادث لاسيما وهو القائل ان سيرة الظاهر كانـــت عرضـــة للتلفيق والاختلاق فكان عليه ان يختار (١) ٠

ان الاصول العربية عن سيرة الظاهر عنيت بالوقائع عن حياته العامة بعد ان صار سلطانا ٠ فهي هنا تسرد كل تنقلاته وحركاته واعماله يوما بيوم ، لكنها فقيرة بســـرد ناحيتين هامتيـــن من حياته وهما حياته قبل ان صار سلطانا ثم حياته الخاصة ، وقد ظهر هذا حين كنا نتحدث عن هاتين الناحيتين في مكان اخر ٠

ثم ان حياة هذا الرجل صارت مجالا للتلفيق والاختلاق حتى اصبحت اخباره تستغرق عدة مجلدات (٢) ٠ وهذا بدوره ادى الى التناقض والمبالغات ٠ثم استتبـــع هذا ان صارت له سيرة شعبية في اربعة اجزاء ٠

وهكذا نرى ان الذين ارخوا للظاهر انقسموا الى قسمين اساسيين كان اولهما الذين عاصروه وعايشوه فلما كتبوا عنه مجدوه ورأوا فيه الانسان الكامل الذى لايخطيء و لا يظلم ولا يقسو ، وجعلوا منه الانسان المثالـي في عصر مضطرب ، وبذلـك مهـدوا السبيل

---

١) ابن اياس ج ١ ص١١٢ (٢) المصدر نفسه ص١١٢ ٠

للسيرة الشعبية • وكان القسم الآخر من الذين اخذوا ، بعد وفاته بنصف قرن تقريبا ، ينظرون الى اعماله وماتيه جمله وينتقدونها ، لكنهم كانوا يرونه على رغم ما فيه من سيئات خلقية ، وعلى رغم ما ارتكب من اخطاء او مظالم سياسية ، جنديا قديرا واداريا حازما وسياسيا ناجحا وسلطانا نشيطا وكان ابن شداد ، على رغم امتداحه له ، اول من سجل عليه فرض الضرائب الباهظة ولو انه عاد فالغاها ، ثم تبعه ابن عبد الظاهر فانتقده في عهد الاشرف خليل ، لانه لم يعن " بالمكاتبات السلطانية "(١) ولعله ، لو قدرت له فسحة من حياة وفرصة لاعادة النظر في سيرته ، لفعل •

---

١) ابن عبد الظاهر ، الالطاف الخفية ، ص ٣٨ •

الفصل الثاني

تمهيد في الحالة السياسية العامة

قبل سلطنة الظاهر

١ - عوامل متصارعة في بلاد الشام ومصر .

كانت بلاد الشام ومصر في هذه الفترة لاتزال خاضعة للخليفة من الناحية النظرية . اما من الناحية الواقعية فكانت تتنازعها السلطة الايوبية في بعض هذه الفترة والسلطة المملوكية في بعيتها ، من جهة والسلطة الصليبية التي كانت تمتد على الشواطئ الشرقية للبحر الابيض المتوسط . زد الى هذا ان الصليبيين كانوا خطرا مستمرا مما جعل استغلال العلاقات بين المسيحيين والمسلمين امرا ممكنا . وان اخبار التتر كانت في القسم الثاني من هذه الفترة ، قد اخذت تتواتر على بلاد الشام ومصر فتروعهم ايما ترويع . وينبغي ان لاننسى ايضا الجماعات العائثة فسادا في بلاد الشام كالخوارزميه (١) والاعراب والشهرزورية (٢) .

---

١) انظر ملحوظة ٣ ص ٢٦

٢) هربهولاء من شهرزور ، مقاطعة في تركستان ، امام التتر . وفي سنة ٦٥٦ دخلوا دمشق فاكرمهم الناصر صلاح الدين يوسف املا ان يناصروه لكنهم غادروه الى المغيث ، صاحب الكرك ، واطمعوه باحتلال دمشق . المقريزى السلوك ص ٤١١- ٤١٢ .
(V.Minorsky. Art "Sharazor." E.I. م ٤ ، ص ٣٤٤ .)

وفي هذا الميدان اشتد التنافس بين الامراء الايوبيين بحيث لم يتـــورع بعضهم عن الاتصال بالصليبيين للاستعانة بهم على البعض الاخر من الايوبيين (١) وإزاء هذا التنافـــس والتناحر لم يعد للايوبيين شان عسكري يذكر .

وليس ضروريا ان ندخل هنا في تفاصيل هذه المنازعات • ينبغي ان نتنـــاول بايجاز ، مظاهر هذا الصراع بين اعضاء الاســرة الايوبية ، خاصة الصالح نجـــم الدين ايوب واخيه العادل ، ابني (٢) الملك الكامل (٣) . ثم الصراع بيـــن تورانشـــاه بن الصالح نجم الدين والمماليــــك البحريــــة ، حـــول السلطنة فـــي مصــــر وبـــلاد الشـــام .

---

١) صراع الكامل مع الناصر داود حول دمشق وعقده معاهده مع الصليبيين ، سنة ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م . تنازل فيها لهم عن القدس وبعض القرى المجـــاورة وصراع الصالح اسماعيل مع عمه الملك الصالح نجم الدين واعطاؤه الفرنجـــــة عسقلان وطبرية ، والشقيف وصفد لمناصرته على عمه (ابو شامة ، ص ١٥٤ — ١٥٥ ابو الفداء جـ ٣ ص ١٤٨ و ١٨٠ ، المقريزي السلوك ص ٣٠٣ انظر ما يلي) .

٢) وهما من امين مختلفتين . وام الملك الصالح نجم الدين جارية سوداء تدعـــى ورد المنـــى .

٣) هو ابن العادل سيف الدين ابي بكر ، شقيق صلاح الدين ، تسلطن على مصر ما بين ١٢١٨ و ١٢٣٨ ولم يتسلطن على بلاد الشام الا في السنة الاخيرة من حكمـــه حاول احتلال دمشق سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م .

٢ ـ صراع بين الايوبيين .

توفي الملك الكامل بدمشق عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م فاجتمع الامراء وملكوا الجواد (١) بن العادل في دمشق ، دون الناصر داود . اما السلطنة في مصر فنالها الملك العادل ابن الملك الكامل . وكان الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل في كيفا (٢) ، فلم ترق له هذه الترتيبات فاتصل بامراء مصر يحرضهم على اخيه ، فاعتقل الامراء اخاه العادل (٣) واستدعوه اليهم ليتولى شؤون مصر . فجاءهم ، وفي يوم الاثنين ١٥ ذي القعدة سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م بويع سلطانا على مصر وعمره ٣٤ سنة (٤) .

---

١) ثم غادر دمشق وتملك سنجار وعانه ثم خسرهما وسلمه الفرنجة للصالح اسماعيل (ابو الفداء جـ ٣ ص ١٧٦ و ١٧٧)

٢) كان في هذا الحصن نائبا فيه عن ابيه (ابو الفداء جـ ٣ ص ١٦٠ ، المقريزي السلوك ص ٢٤٤) .

٣) لا تتفق الروايات حول ما جرى له . فقيل انه قتل في السجن سنة ٦٤٠ هـ وقيل انه مات فيه سنة ٦٤٥ هـ .

٤) ابو الفداء جـ ٣ ص ١٧١ و ١٧٣ ، الذهبي جـ ٢ ١٠٦ ـ ١٠٩ ، المقريزي السلوك ص ٢٦٧ و ٢٩٤ ، ابن اياس جـ ١ ص ٨٣ .

ولم ينته الصراع هنا • فان الصالح اسماعيل كان ينافسه السلطنة ، فامتنع عن الحضور اليه من بعلبك واتفق مع صاحب حمص وهاجما دمشق ودخلاها سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م • وكان الملك الناصر داود ايضا يريد دمشق ، وهو متعاهد مع الملك العادل على مهاجمتها ، فجند الملك الصالح جيشا لمحاربة الناصر داود لكن امراءه خذلوه في نابلس فاعتقله الناصر داود بالكرك ورفض تسليمه للعادل ولم يطلق سراحه الا بعد تدخل الخليفة في بغداد بسفارة ابن الجوزي ، وعقد اتفاق بينهما على ان تكون بلاد الشام للناصر داود ومصر للملك الصالح (١) •

لكن الملك الصالح يريد دمشق لنفسه • فما ان استقرت له السلطنة في مصر سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ حتى قبض على الامراء الذين اعتقلوا اخاه العادل وزجهم في السجن (٢) ثم اخذ يتهيأ لمهاجمة دمشق • ويوم الجمعة ٢٤ ربيع الاول سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ خطب له بدمشق ثم قطعت الخطبة • وبعد فشل المفاوضات بين الملك الصالح نجم الدين والملك الناصر داود هيا الملك الصالح نجم الدين جيشا من الخوارزميه (٣) في سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ وقصد الى بلاد الشام ليحاصر دمشق • لكن الناصر داود صاحب الكرك ، والمنصور صاحب حمص والصالح اسماعيل ، والفرنجة ، تحالفوا عليه والتقوه بين غزة وعسقلان فكسرهم وتابع سيره حتى ظاهر دمشق • ثم دخلها في سنة ٦٤٣ هـ وولى فيها نائبا عنه ، من

---

١) ابو الفداء جـ ٣ ص ١٧١ - ١٧٣ ، ابن شاكر الكتبي جـ ٢ ص ٨١ ، المقريزى ، السلوك ص ٢٦٧ و ٢٩٤ •

٢) ابو الفداء جـ ٣ ، ص ١٧٥ •

٣) قبائل نزحت من تركستان الوسطى وخوارزم امام الزحف التترى • استخدمهم الملك الصالح نجم الدين في حصن كيفا ، وكان عددهم نحو عشرة الاف جندى ، وساعدوه في هذا الصراع لكنهم عادوا فانتقضوا عليه واتصلوا بركن الدين بيبرس ، غير هذا الذى نؤرخ له وايدوا الملك الصالح اسماعيل وحاصروا دمشق لكن الملك الصالح عاد فتغلب عليهم اخيرا وشتت شملهم • (ابو شامه ، ص ١٧٥ ، ص ١٧٨ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ الذهبي جـ ٢ ص ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٣٠ ، المقريزى السلوك ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤) •

فيران يدخل الخوارزميه معه (١) • وليس هذا العداء بين الملك الصالح نجم الدين واقاربه بالشيء الجديد • وهو يرجع الى سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ حين كان الملك الكامل في الرحة فكتبت اليه زوجته ام العادل تتهم الملك الصالح نجم الدين بنية الانقلاب على ابيه وتحرض زوجها على تدارك الامر قبل استفحاله مؤيده دعواها بان الملك الصالح اشترى عددا كبيرا من المماليك الاتراك باموال يجمعها من التجار ومن بيت المال • فما كان من الملك الكامل الا ان عاد الى مصر وخلع ابنه الملك الصالح نجم الدين من ولاية العهد (٢) •

٣ – فرقة المماليك البحرية •

هكذا وجد الملك الصالح نجم الدين نفسه منذ البداية امام منافسات اقاربه فما دا يحميه لو لجأ الى انشاء جيش خاص به من المماليك وقد عرف التاريخ الاسلامي كثيرا من الشواهد على ذلك (٣) •

لقد اعتمد الخوارزميه وهو في حصن كيفا ، ولكنهم طامعون لا يؤمن جانبهم • ثم ان مماليك ابيه تفرقوا عنه يوم هاجم الملك الناصر في نابلس ولم يبق معه الا جماعة من مماليكه الخاصة ، وها هم الخوارزميه يحاربونه بعد ان رفض السماح لهم بدخول دمشق ، فلا عجب بعد ذلك ان يدكر لمماليكه ولاءهم ويجعل منهم

---

١) ابو الفداء جـ ٣ ص ١٨٤ ، المقريزى ، السلوك ص ٣١٩
٢) المقريزى ، السلوك ص ٢٣٨ و ٢٤٠
٣) كان المعتصم بالله ، الخليفة العباسي في بغداد ، اول من استخدم المماليك الترك وكان احمد بن طولون اول من جلب المماليك الترك الى مصر وجعلهم عمدة جيشه ، ثم استخدمهم الفاطميون في جيوشهم •

جيشـا يعتمد عليه عرف فيما بعد باسم المماليك البحرية (١) • وصادف استجلاب المماليك من بلاد القفجاق (او القبشاق) باعداد كبيرة ، فاستغل الملك الصالح ذلك واستكثر منهم حتى انه لم يجتمع لغيره من الايوبيين مثل ما اجتمع لديه منهم ، حتى ضاقت بهـم القاهرة وتذمر الناس منهم وضجوا لسوء تصرفاتهم حتى لقبوا "بشر مجلوب " يجعـل النـاس " في ضـر ايوب " (٢) •

هنا رأى الملك ، الصالح نجم الدين ايوب انه لا مندوحة له ، لحماية اهل القاهرة ودفع الاذى عنهم ، من ان ينشيء لمماليكه ثكنات خاصة بهم فاختار لذلك جزيرة الروضة (٣)

---

١) المقريزي ، السلوك ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ويمكن ان نضيف لانشاء هذه الفرقة سببين اخرين هما محاربة الفرنجة من جهة ، واستعداد لمحاربة المغول بعد ان اخذوا يهددون الخليفة والسلاجقة ، من جهة ثانية • (F.Sadeque) ص ٤ ، ٣ من المقدمة • وينقسم عهد المماليك الى قسمين _ المماليك البحرية والمماليك البرجية نسبة للمكان الذى سكنته كل جماعة • وتدعو المصادر الفترة الاولى بدولة الترك تمييزا لها عن دولـة الجراكسة في المرحلة الثانية • ولعله يصح ان ندعو الفترة الاولى بعهد القفجاق (او القبشاق) نظرا لسيطرة هذا العنصر في هذه الفترة D.Ayalon. Art. "Al Bahriyaa." E.I. (new ed.) ، ١ ص ٩٤٤ _ ٩٤٥ •

٢) ابو شامـة ، ص ١٩٦ ، اليونيني ج ١ ص ١٨٧ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١٨٨ ، المقريزي السلوك ص ٣٣٩ ، ابن اياس ج ١ ص ٨٣ •

٣) كان هذا الاسم يطلق على جزيرة بين مصر والجيزة • وفيها بنى ابن طولون حصنـا ثم دارا للصناعة حتى جاء كافور الاخشيدى فنقلها الى مكان اخر وجعل من الجزيرة بستانا سنة ٣٢٥ هـ • وفي عهد الفاطميين عمرت الجزيرة بالناس وبني فيها منتزه سمي باسم الروضة ثم اطلـق اسم المتنزه على الجزيرة كلها • ثم جاء الملك الصالح نجم الدين ايوب فبنى القلعة ليبقى له ذكرا من جهة وليجعلها مسكنا له ولامرائـه ولمماليكه • وقد شرع في حفر اساسها يوم الاربعاء ٥ شعبان سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ ثم بنيت فيها الدور السلطانية وانفقت عليها الاموال الكثيرة حتى تم بناؤها بعـد ثلاث سنوات على قول ، وبعد سنة ونصف سنة على قول اخر • ثم انتقل اليها السلطان ومماليكه وصارت ملجأ له من الخطر ، عدا انها كانت دار صناعة ومركزا لمقياس ارتفـاع ماء النيل • (ابو الفداء ج ٣ ص ١٧٥ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٣٠١ والخطـط ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٩٧ و ابن تغري بردى ، مورد اللطافة ، ص ٣٣ ، (A.Atiyeh, Art."Al Rawdah." E.I.Vol. III ، ص ١٢٢)

بالقرب من المقياس حيث بني لهم قلعة جعل حولها الشواني الحربية المشحونة بالسلاح استعدادا للقتال •

وبلغ عدد ماليكه هؤلاء نحو الف مملوك بذل لهم الرواتب والجوامك واكرمهم ايما اكرام، وامرهم وصيرهم بطانته ، لكنه منعهم من مخالطة الناس • ولعلهم بسبب هذا ، اصطدموا به بعد انشاء القلعة بقليل فهرب بعضهم الى التيه وظلوا فيه خمسة ايام وصلوا بعدها الى بقايا مدينة وجدوا فيها اسواقا ودورا وصهاريج خلوة الماء وعثروا على دنانير ذهبية منقوشة عليها كتابة قديمة فاخذوها الى الكرك حيث استبدلوها • ولعلهم كانوا بقيادة ركن الدين بيبرس الذى اغراه الملك الصالح نجم الدين ايوب فيما بعد واستماله اليه وقتله (١) •

وفي سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ هاجم لويس التاسع ، ملك فرنسا ، مصر ونزل دمياط ودخلها بغير قتال واستولى على ما بها من ذخائر واسلحة كان الملك الصالح نجم الدين ايوب قد حشدها فيها فعظم ذلك عليه وقصد المنصورة وهو مريض ميئوس منه وانزل العقاب بالمسؤولين • واراد بعض الامراء ان يجهزوا عليه ثم رجعوا عن ذلك خوفا من سطوته • ثم توفي في منتصف شعبان سنة ٦٤٧ هـ وكتم خبر وفاته عن الجيش (٢) •

---

١) ابو الفداء ، جـ ٣ ص ١٨٨ ، المقريزى ، السلوك ص ٣٤٠ ، ابن اياس ج ١ ص ٨٣ •

٢) يبدو ان الملك الصالح اعتمد على بني كنانة في الدفاع عن دمياط فهرب هؤلاء عند وصول الفرنجة ، ولما انتصر الفرنجة والصالح نائم من اثر تخدير ، ارجف الناس بوفاته لكنه لما افاق شنق المسؤولين عن الهزيمة (ابو شامه ، ص ١٨٣ ، ابو الفداء ، جـ٣ ، ص ١٨٧ ، ابن الفوطي ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، الذهبي جـ ٢ ص ١١٤ ، [illegible] ١١٥ ، ابن اياس ، جـ ١ ، ص ٨٥) •

توفي الملك الصالح نجم الدين ايوب في وقت حرج ، من غير ان يوصي بالسلطنة الى احد من بعده (١). لكن شجر الدر ، زوجة ابيه، اعلمت ثلاثة من الامراء بوفاة الملك الصالح ثم خرجت الى الجيش ودعته الى قسم يمين الولاء للسلطان ولابنه ، وللامير فخر الدين الشيخ بالاتابكيه . ففعل الجيش ذلك ، ثم سار فارس الدين اقطاي ، اكبر مماليك السلطان الميت ، الى حصن كيفا ليعود بتورانشاه الى مصر . فاسرع المعظم الى دمشق ودخلها يوم الثلاثاء ٢٩ رمضان سنة ٦٤٧ هـ مواكب الامراء وبذل فيهم الاموال والخلع ثم غادرها يوم الاثنين ٢٦ شوال ، قاصدا الى المنصورة ووصلها في ذي القعدة ، وتسلم السلطنة وحلف له الامراء والجيش يمين الطاعة (٢) .

وكان الفرنجة قد احسوا بوفاة الملك الصالح نجم الدين ايوب ، فهاجموا المنصورة بعنف وتراجع الجيش الايوبي . ولما وصل المعظم تورانشاه نظم شؤون الدفاع واعلن النفير العام وجهز العساكر . فانضم العوام والفلاحون للجيش فانهزم الفرنجة في معركة في ١٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ وفاوضوا على اخذ "القدس وبعض الساحل" مقابل تسليم دمياط فرفض المعظم ذلك . ثم احتدم القتال ثانية فاستسلم الفرنجة واسر لويس التاسع نفسه . ثم رحل الملك المعظم الى فارسكور حيث لاقى حتفه (٣) .

---

١) وقيل انه اوصى بتسليم البلاد بعده للخليفة العباسي في بغداد لانه لم يكن يرى ابنه المعظم تورانشاه مناسبا للسلطنة (ابو الفداء ج ٣ ص ١٨٨ ، المقريزي ، السلوك ص ٣٤٣)

٢) ابوشامه ، ص ١٨٣ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٨٨ ، ابن شاكر الكتبي ، ج ١ ص ١٨٥ ، المقريزي السلوك ، ص ٣٤٣ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، واذا تساءلنا لم عن السبب الذي حدا بالمعظم في ان يتاخر في دمشق من ٢٩ رمضان الى ٢٦ شوال ، اجابنا ابن اياس (ج ١ ص ٨٦) بانه ابطأ ريثما يموت ابوه . وهو يجعل تاريخ المبايعة اول محرم سنة ٦٤٨ هـ .

٣) ابوشامه ص ١٨٣ ، ابن الفوطي ص ٢٤٦ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، الذهبي ج ٢ ص ١١٦ — ١١٧ ، ابن اياس ج ١ ص ٨٦ — ٨٧ .

٤ ـ المعظم تورانشـاه ـ مقتله وسلطنه البحريـــة ٠

رقي المعظم تورانشاه العرش بمساعدة مماليك ابيه البحرية ، واحسن هؤلاء خدمته ، وبذلوا الجهد حتى احرز انتصار فارسكور ٠ والمتوقع بعد ذلك ان يقوم بيـــن السلطان والمماليك تعاون يثبت اركان السلطنة ، ولكن الذي حدث كان غير متوقع ٠

ولهذا الخلاف بين المماليك البحرية والسلطان اسباب كثيرة سردها المؤرخون وهـي :

اولا ٠ ورث المعظم عن ابيه صفات "الكبر والانفة في الكبير والصغير والعادة من الحشم" حتى انه كان "لا يميل عشرة ولا يحب معاشرة ولا يرى مخالف عادته ٠٠٠ ولا يقطع امورا لا تؤثر"(١) وكان شديد السطوة ، متجبرا لا يميل الى احد من اصحابه ولا من اهله ولا مـن اولاده ٠ وهل ننسـى مافعله ابوه يوم تولى السلطنة ٠ الـم يعتقل الامراء الذين جاؤوا به الى العرش ٠

ثانيا ـ كان يشرب الخمر ويضع امامه عددا من الشموع ثم يأخذ السيف ويضربها به مشيـرا بذلك الى انه سيبيد المماليك البحرية ٠

ثالثا ٠ طالب شجر الدر بتركة والده فاجابته بانها انفقتها في محاربة الفرنجة فلم يقتنـع بالجواب ، وفتك بجدته ام الملك الصالح نجم الدين لانها " انكرت عليه امورا لا ترضـى " ٠

رابعا ٠ نكث المعظم تورانشاه بوعده للفارس اقطاي باقطاعه حصن كيفـا ٠

خامسا ٠ اتهم بالتهاون بمحاربة الفرنجة حتى انه ركـب مركبـا واخذ يتفرج على المعركـة واعتبر انه " لايتاتى منه خير ولا يجيء منه ملك يعم منار بيته " ٠

---

١) اليونيني ، ج ١ ، ص ١٨٦ ٠

سادسا ـ التنافس بين الامراء والدسر عند المعظم • وقد اعتقل السلطان احد كبار امراء الفرق المتطاحنة • وينفرد المقريزى بذكر هذا السبب (١) •

وهكذا نجد ان السلطان المعظم قد اثار جميع العناصر ، ولم يكن له عنصر يعتمد عليه في هذا الخضم • فكان ان اتفقوا على قتله حين " ظن ان الوقت صفا له " •

بيد ان لي سؤالا هنا : ما هو الدافع الذى حدا بالامراء الى دعوته من حصن كيفا وقد كان ابوه ابعده الى هناك خشية ان يقتله الامراء (٢) • قد يكون القول بانهم انما اتوا به خصيصا ليقتلوه ليكون ذلك رقبة الجسر الى تاسيس سلطان المماليك، قولا مبالغا فيه يفترض التصميم المسبق • وعندى ان الخلاف يعود الى اتساع نفوذ المماليك البحرية بالدرجة الاولى • وما الصورة التي يعطينا اياها ابن عبد الظاهر لطريقة معاملة المعظم للبحرية والاعمال التي قام بها هؤلاء الادليل على سعة هذا النفوذ • ويصور لنا ابن عبد الظاهر بوضوح خوف المماليك على انفسهم اذا ما اطمان المعظم واستقر سلطانه(٣) • يبدو لي ان المماليك ارادوا ان تكون السلطة الفعلية لهم ولذلك رفضوا تسليم البلاد للخليفة ، بينما اراد المعظم ان تكون السلطة الحقيقية بيده ولا يتاتى له ذلك الا بابعاد هذا العنصر المتنفذ واستبداله بعنصر جديد •

وفي محرم سنة ٦٤٨ هـ / ايار ١٢٥٠ م قتل المعظم تورانشاه بضربة سيف

---

١) ابن عبد الظاهر ص٣ ـ ٤ ، اليونيني ، جـ ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ، المقريزى ، السلوك ص٣٥٨ ـ ٣٥٩ ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، ص ٣٣ ، ابن اياس جـ ١ ص ٨٨ •

٢) ابن شاكر الكتبي ، جـ ١ ص ٨٦ •

٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٣ ـ ٤ •

من احد المماليك حين مد السماط اذ تقدم اليه هذا المملوك وضربه بالسيف فتلقى السلطان الضربة بيده فانقطعت اصابعه ، وهرب الى برج خشبي كان قد نصبه له هناك ، وهو ينادى "من جرحني" فقيل له ، "انهم الحشيشية" فانكر ذلك وقال : "انهم البحرية" ، واقسم انه سيبيدهم ، وصعد الى اعلى البرج فاضرم المماليك النار بالبرج ورموه بالنشاب حتى القى نفسه في النيل وهو يطلب من المماليك ان يتركوه يعود الى حصن كيفا فرفضوا واجهزوا عليه خشية ان يغنيهم (١) .

٥ – شجر الدر .

وبمقتل المعظم تورانشاه كادت الحالة تضطرب امام تصارع الامراء الطامعين (٢) ، حتى ان الاسرى الفرنج ثاروا وانطلقوا من السجون يخربون ويقتلون حتى استطاع الجيش بعد جهد ان يحيط بهم ويحول دون متابعة التخريب (٣) .

وامام هذا الواقع اجمع راى الامراء على سلطنة شجر الدر (٤) ، زوجة الملك

---

١) ابو شامة ، ص ١٨٥ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ١٩٠ ، ابن شاكر الكتبي ، ج ١ ص ١٨٧ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ابن اياس ، ج ١ ص ٨٨ .

٢) وهم فخر الدين يوسف بن حموية ، وفارس الدين اقطاى ، وابو علي الهدباني .

٣) ابن الفوطي ص ٢٤٧ .

٤) جارية الملك الصالح ومحظيته ، كان لايفارقها في حل ولا ترحال ، اما اصلها فقيل انه تركي وقيل انه ارمني ، (اليونيني ج ١ ص ٦١ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٠١ ، المقريزى ، السلوك ص ٣٦١) .

الصالح نجم الدين ايوب ، وتعيين عز الدين ايبك التركماني اتابكا لها . وفي صفر سنة ٦٤٨ هـ تسلمت السلطنة وارضت الامراء و منحتهم الاموال والهدايا تعزيزا لمركزها ، ولكنها لم تبق في دست السلطنة الا نحوا من ثلاثة اشهر (١) .

وفي هذه الفترة ساست البلاد " احسن سياسة . وكانت الناس عنها راضية " (٢) وقع خلاف بين شجر الدر والامراء واستغل هؤلاء استياء الخليفة المستعصم بالله من بغداد ، والامراء الايوبيين في مصر وبلاد الشام واتفقوا مع القضاة على عزل شجر الدر وسلطنة عز الدين التركماني ، وتزويجها منه (٣) .

وباعلان عز الدين هذا سلطانا انتهى فعلا عهد السلطنة الايوبية في مصر . لم يكن الملك الصالح نجم الدين ايوب يعلم يوم انشاء الفرقة البحرية انه بذلك انما يدخل عنصرا جديدا سيقضي على سلالته ، ولكن هذا هو الذى جرى .

---

١) اليونيني ، ج ١ ص ٦١ ، ابو الفداء ج ٣ ، ص ١٩٠ ، المقريزى ، السلوك ص ٣٦١ — ٣٦٢ ، ابن اياس ج١ ص ٨٩ .
٢) ابن اياس ، ج ١ ص ٨٩
٣) اليونيني ، ج ١ ص ٥٩ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٣ ، ابن اياس ج١ ص ٨٩ و ٩٠ .

٦ — عز الديـن ايبك التركماني (١) •

وعز الدين ايبك(٢) هذا تركي الاصل من مماليك الملك الصالح نجم الدين ايوب لازمه في حصن كيفا حتى صار جا شنكيره(٣) • ثم نال درجة الامارة • ثم صار اتابكا للعساكر في عهد شجر الدر ، وها هو يصبح زوجا لها وسلطانا على مصر في اوائل سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ (٤) •

ووجد عز الدين ايبك نفسه امام معارضة من بعض امرائه ، والواقع انهم قبلوا به سلطانا اعتقادا منهم انه ضعيف الشوكة "من أوسط الامراء" ، يمكن عزله ساعة يشاؤون(٥) لكن الامر الذى شغل باله واسكت المعارضة الداخلية هو مقاومة الامراء الايوبيين في بلاد الشام ، اى ما يمكن ان نسميه بالخطر الخارجي اليوم •

في ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م تسلم الناصر صلاح الدين يوسف دمشق واتصل بملوك بني ايوب في بلاد الشام فانضمت اليه قوات من بعلبك وبصرى وصرخد وعجلون والسلط في حلف ضد المماليك • مغتصبي السلطة من الايوبيين • فخشي المماليك ذلك واتوا بمظفر الدين موسى ابن الملك الناصر يوسف بن الكامل ،

---

١) ينبغي ان لانخلطه مع امير اخر يحمل اسم عز الدين ايبك • وهو صاحب صرخد وقد قبض عليه الملك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٥ هـ • (اليونيني ، جا ص٦ ، الذهبي ج ٢ ، ص١١٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣٠٩ و ٣٢٩ •

٢) الكلمة تركية من جزئين ، الجزء الاول ، اى بمفخمة معناها القمر والجزء الثاني بك ، ومعناها الامير (ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩ •) •

٣) معناها ذواق الطعام قبل السلطان خشية التسمم •

٤) ابو شامه ، ص١٩٦ ، اليونيني ، جا ص ٥٤ و ٥٩ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣٦٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٤ ، ابن اياس ج١ ، ص ٩٠ • وتواريخ استلام عز الدين السلطنة مختلف فيها بين المصادر •

٥) اليونيني ، جا ص ٥٥ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص١٩٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤ •

وعمره نحو عشر سنوات واقاموه سلطانا ولقبوه الملك الاشرف ، وعينوا عز الديـــن اتابكا للجيش ، او شريكا له في الحكم . واستمرت القوات الايوبية زاحفة نحو غـــزه فاصطدموا بجيش المماليك عند العباســـة ، حيث انهزم بعض الجيش المصري وتبعه بعض جيش الايوبيين الى القاهرة واعلنوا سلطنة الناصر يوسف فيها ، لكـن القسم الاخر من الجيش الايوبي بقيادة الناصر نفسه ظل بعيدا مشردا فظن الايوبيون المنتصرون في القاهرة انه مات فعادوا نحو بلاد الشام . وعاد عز الدين الى القاهرة منتصرا (١) .

وظن عز الدين ان الفرصة مواتية للتخلص من الاشرف ، لكن كبار امرائـــه عارضوه فقرر اعتقال فارس الدين اقطاي فهرب هذا ومعه ما يقارب الفي فـــارس واتصلوا بالمغيث ، صاحب الكرك ، فاضطر عز الدين للتراجع عن خطته . فاعلـن البلاد للخليفة المستعصم بالله ثم جددت الايمان للملك الاشرف بالسلطنـــة ، ولعز الدين بالاتابكية ، وعاد اليه البحرية الفارون . (٢) .

وعادت المناوشات بين الاتابك المملوكي والناصر صلاح الدين يوسف واستمرت نحو سنتين (٣) حتى وجد الخليفة انه لابد من التدخل للصلح بينهما . وفي سنـــة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ ارسل الخليفة البادرائي (٤) للتوسط بينهما فانعقد الصلح -

---

١) ابو شامة ، ص ١٨٦ اليونيني ، جـ١ ص٥٥ و ٥٧ ، ابو الفداء ص٣ ص١٩٢ المقريزى السلوك ص٣٦٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص٥ ، ٧ ، ٩ ، ٢٣ .

٢) اليونيني جـ١ ص ٥٥ ، ابو الفداء جـ٣ ص ١٩٢ ، المقريزى ، السلوك ص ٣٧٠ .

٣) وفي هذه الفترة اتصل كل من الناصر صلاح الدين وعز الدين ايبك بلويس التاسـع في عكا لكسب محالفته . فناور هذا بين الطرفين وتخلص من بعض شروط الاتفاقية التي كان وقعها بالمنصورة لكنه بقي على الحياد (R. Grousset) جـ٣ ص٥٠١ .)

٤) ولد سنة ٥٩٤ هـ . وسمع الكثير وتفقه وبرع وافتى ودرس وسفر للخليفة عند ملوك الشام وولي قضاء القضاة ببغداد . كان فاضلا صالحا متواضعا . توفي سنة ٦٥٥ هـ/ ابو شامه ، ص ١٩٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٧) .

على ان تكون مصر لعز الدين والبحرية من جهة ، وبلاد الشام ، ابتداء من غزة ، للناصر صلاح الدين يوسف ، من جهة ثانية (٢) .

وبهذه الاتفاقية التي اجريت على يدى رسول الخليفة ، قويت شوكة عز الدين وجمع حوله الامراء المخلصين له ريثما تسنح الفرصة للاستقلال بالسلطنة .

وكان فارس الدين اقطاى زعيم حركة المقاومة بين الامراء البحرية لاستقلال عز الدين بالسلطنة . وكان له نفوذ كبير بين المماليك البحرية . وطمع بالسلطنة وايده الامراء والتفت البحرية حوله . وكان يستهين بعز الدين ايبك ويأخذ من بيت المال ما يشاء . وصار اصحابه يستولون على اموال الناس ونسائهم واتصل بالناصر صلاح الدين يوسف تحت سمع عز الدين وبصره . فلا بد من الفتك به ليتسنى له الاستقلال بالسلطنة . فاتصل عز الدين بالناصر صلاح الدين يوسف يستشيره بشأن الفتك بفارس الدين فلم يجبه . لكنه كان مصمما على التخلص منه .

كان فارس الدين قد طلب من عز الدين اخلاء قلعة الجبل ليسكن فيها مع زوجته بنت صاحب حماه . فلما علم السلطان بقرب وصول عروس فارس الدين الى مصر ، احس بضرورة السرعة بالعمل ليتخلص منه قبل دخول القلعة . فاتفق السلطان مع زوجته شجر الدر واتيا بعدد من المماليك ، بينهم سيف الدين قطز الى كمين في قلعة الجبل ، ثم استدعيا فارس الدين الى القلعة ظهر يوم الاربعاء

---

١) اليونيني ، جـ ١ ، ص ٥٨ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ١٩٤ ، و ١٩٥ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٠ و ٢٣ .

٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ فجاء اقطاي غير مكترث . ولما دخل قاعة الاعمدة في قلعة الجبل اغلقت الابواب ليمنع مماليكه من الدخول ، وهجم عليه المماليك من كمينهم "وهبروه بالسيوف حتى مات" (١) .

وكتم عز الدين مقتل فارس الدين حتى المغرب ثم سرت الشائعات فاجتمع امام القلعة نحو سبعماية مملوك من البحرية ، ولما تحققوا الامر ، قرروا الهرب ، وخرجوا في الليل من القاهرة . وعمد عز الدين الى مصادرة املاك الهاربين واموالهم وزج انصارهم في السجون (٢) .

وهنا صفا الجو لعز الدين فخلع الملك الاشرف واستقل بالسلطنة . فعاد الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وحلب الى مهاجمته مرة اخرى . وجرت معركة عنيفة اتصل فيها بعض المماليك العزيزية بالبحرية الهاربين وكادوا يعتقلون عز الدين لولا ان علم بالمؤامرة وفر المتآمرون كي لا يقبض عليهم . ومرة اخرى تدخل الخليفة بسبب وجود الخطر التتري وارسل البادرائي لعقد الصلح بين الناصر وعز الدين وتم ذلك سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م على ان تكون مصر لعز الدين ، وبلاد الشام للناصر (٣) .

---

١) اليونيني ، جـ ١ ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ص ١٩٩ ، ابن الفوطي ص ٢٧٢ . المقريزي ، السلوك ، ص ٣٨٩ - ٣٩١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ابن اياس ، جـ ١ ، ص ٩٠ . ويقول اليونيني والمصدران الاخيران ان القتل كان الاثنين في ١١ شعبان .

٢) ابن عبد الظاهر ص ٦ - ٧ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ١٩٩ ، ابن الفوطي ص ٢٧٢ - ٢٧٣ المقريزي ، السلوك ص ٣٩٠ - ٣٩١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٢ ، ابن اياس ، جـ ١ ، ص ٩١ .

٣) اليونيني ، جـ ١ ص ٥٩ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ١٩٩ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ٣٤ و ٣٧ .

وفي سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ارسل عز الدين ايبك الى الخليفة يلتمس منه تشريفا بالسلطنة ، وكذلك فعل الناصر صلاح الدين يوسف ، لكن الخليفة منح التشريف لسلطان المماليك (١) .

ثم اراد عز الدين ان ينشيء حلفا مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالتزوج من ابنته ، ليطوق بذلك ، الناصر صلاح الدين صاحب دمشق وحلب . لكن هذه المحاولة اودت بحياته .

قلنا ان الامراء اتفقوا على سلطنته حسما لنزاع بينهم واعتقادا منهم بانه اضعفهم . لكن عز الدين لم يكن ضعيفا ، ولم يكن يريد ان يكون ظلا لغيره . فكان طبيعيا ان ينقم الامراء عليه ويحاولوا التخلص منه . فلما علموا بغيرة زوجته لانه اراد التزوج عليها اتصلوا بها ونفذت لهم ما ارادوا . وقتل عز الدين في ١٤ ربيع اول سنة ٦٥٥ هـ / نيسان ١٢٥٧ . ثم اعلن انه مات فجأة فلم يصدق مماليكه الرواية وقبضوا على شجر الدر ومماليكها فاقروا بما جرى (٢) .

٧ — <u>المنصور نور الدين علي</u> .

ومرة اخرى عاد الامراء الى الاختلاف حول السلطنة . ثم اتفقوا على سلطنة المنصور نور الدين علي ، بن عز الدين ، وتعيين سيف الدين قطز نائبا للسلطنة والامير فارس الدين اقطاى المستعرب اتابكا للعساكر . ويوم الخميس في ٢ ربيع الاخر سنة ٦٥٥

---

١) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

٢) ابو شامه ، ص ١٩٦ ، اليونيني ج ١ ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ و ٢٠١ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣٩٥ ، ٤٠٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤١ ، مورد اللطافة ص ٣٣ ، ابن اياس ، ج ١ ص ٩٢ ، اما شجر الدر فقتلتها جوارى ام علي ، زوجة عز الدين بالقباقيب ورميت في خندق اياما حتى دفنت في تربتها بطريق السيدة نفيسه .

هـ / ١٢٥٧ ركب نور الدين بشعار السلطنة وصعد الى قلعة الجبل وحلف الامراء والجيش له بالطاعة والولاء (١) .

وبمقتل عز الدين اخذ البحرية الفارون يعودون الى مصر . وكان اول من عاد منهم البحرية الذين لجأوا الى السلاجقة (٢) .

وقد تميز عهد المنصور بثلاثة امور هي اصطداماته مع نائب السلطنة . واصطدامه مع الايوبيين ببلاد الشام ، ثم دخول التتر بغداد . فقد اصطدم بنائبه حول ملاحقة انصار شجر الدر والامراء الذين ثاروا عليه في رمضان ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ ثم سوى الامر بينهما (٣) ثم جرت معركة مع جيوش المغيث عند الصالحية وانهزم جيش المغيث وانتصر الجيش المملوكي بقيادة سيف الدين قطز (٤) . ثم استولت جيوش التتر على بغداد واخذت بالزحف نحو حلب . فكانت فرصة مناسبة لقطز ليخلعه ويستولي على السلطنة .

---

١) اليونيني ، جـ ١ ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٠٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٤٣ — ٤٤ .

٢) المقريزي ، السلوك ، ص ٤٠٦ .

٣) اليونيني جـ ١ ص ٥٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٤٣ — ٤٤ .

٤) اليونيني ، جـ ١ ص ٥٠ ، ٥١ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ١٩٢ ، المقريزي السلوك ، ص ٤٠٦ .

٨ - سيف الدين قطـــز (١).

كان قطز اشقر اللون ، وافر اللحية (٢) . وقيل انه ابن اخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، سبي عند غلبه التتار على خوارزمشاه وبيع في دمشق ثم اخذ الى القاهرة . ويقال ان اصل اسمه محمود بن مودود (٣) وقد كثرت الروايات حول قطز قبل سلطنته وكلها تشير الى انه واصل للسلطنة (٤) . ثم صار نائب السلطنة في عهـــد المنصور نور الدين علي . وفي اواخر سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ كثرت جماعته وصـــار صاحب الامر والنهي دون السلطان لصغر سنه . ولما اغار التتر على بلاد الشام دعا سيف الدين قطز ، بصفته نائبا للسلطنة ، الاعيان والامراء والعلماء والقضاة الـــى مؤتمر في دار السلطنة في قلعة الجبل للنظر في امر التتر . وحضر الاجتماع ابـــن العديم الذى قدم الى مصر من قبل الناصر صلاح الدين يوسف لتاليـــب الجهـــود على التتر . والشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥) ، والقاضي بدر الدين السنجارى قاضي الديار المصرية ، والسلطان الملك المنصور .

---

١) معنى اسمه باللغة التركية الشرقية " الكلب الضائع " E.Blochet " النهـــج السديد ص ٤١٤ ، ملحوظة ٤ .
٢) الذهبي ، ج ٢ ص ١٢٤ .
٣) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣٥ .
٤) حكاية حسام الدين بركة عن رفقته لقطز صغيرين حين كان الاول يسرح شعر الثاني وحكاية المنجم الذى قال له انه سيصبح سلطانا ويكسر التتار . (اليونيني ج ١ ، ص ٣٦٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، وج ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن تغرى بردى ، النجـــوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٥ ، ٨٦ .
٥) ولد سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م . لقب سلطان العلماء . له مواقف مشهورة في محاربة الصليبيين والملك الصالح اسماعيل حين سلمهم صفد والشقيف . كان خطيبا فـــي جامع دمشق ، فعزل وسجن ثم اطلق سراحه فانتقل الى القاهرة سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م . كان محبا للرقص ، نافذ الكلمة ، مرهوب الجانب . (اليونيني ، ج ٢ ، ص ١٧٥ ، ص ١٠٥ (ادناه) .

وطرحت في المؤتمر قضيتان - اولاهما ضرورة اقامة سلطان تدير للوقوف بوجه التتر • وكانت حجة قطز ان المنصور ضعيف يلعب الحمام ويتفرج على مناقرة الديوك ومناطحة الكباش ويركب الحمير الفره(١) فلايستطيع تنظيم حملة لصد الاعداء الغـزاة وثانيتهما جمع الاموال لتجهيز الحملة • وتحدث الحاضرون في القضيتين • ويبدو ان الامراء وافقوا على انه ليس لمثل هذه الحملة الا سيف الدين نفسه ، فكانه نال بذلك موافقة ضمنية على ما يبتغيه • اما القضية الثانية فقال ابن عبد السلام بصددها انـــه لايجوز اخذ الاموال من الناس قبل ان ينفذ كل ما في بيت المال وكل ما مع الجند مـــن اموال والات فاخرة (٢) •

وفي ذى القعدة(٣) من سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ استغل سيف الدين قطـــز غياب كبار الامراء في رمي البندق واعتقل المنصور واخاه ووالدتهما وسجنهم جميعا فـــي قلعة الجبل واعلن نفسه "ملك الديار المصرية وتلقب بالملك المظفر قطز" ثم عاد الامـــراء فانكروا عليه مافعل فقال ان غايته هي الاجمـاع على محاربة التتر في ظل سلطـــــان قاهر ووعد بالتخلي عن السلطنـــة بعد الانتصار حتى يكون الامر لهم يولون من يشاؤون ، فقبل البعض بهذا الكلام ، واعتقل الذين لم يرضوا به ، ثم حلف الجيـــــش والامراء يمين الولاء له(٤) •

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص ٤٠٦

٢) ... الذهبي ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ ، المقريزى ، السلوك ص ٤١٧ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٥٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ابن اياس ، جـ ١ ، ص ٩٣ ، ٩٥ •

٣) في ١٤ منه عند المقريزى ، السلوك ، ص ٤١٧ ، و ١٧ منه عند ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٥٥ و ٧٢ •

٤) ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٧ ، الذهبي ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ ، المقريزى ، السلوك ص ٤١٧ ، ٤١٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٥٥ و ٧٣ ، ابن اياس جـ ١ ، ص ٩٣ •

ثم اخذ يعد العدة لمواجهة التتر ، فجمع الاموال من الاهالي بان فرض دينارا على كل راس — ذكرا كان او انثى ، واخذ شهرا واحدا من اجرة الاملاك والاوقاف ، واخذ زكاة معجلة عن اموال الاغنياء والتجار ، واخذ من الترك الاهلية ثلث اموالهم ، واخذ على الغيطان والسواقي اجرة شهر ، واخذت ضرائب اخرى بحيث بلغ مجموع ما حصل عليه من الاموال نحو ستماية الف دينار(١) .

ثم وصل رسل هولاكو الى قطز برسالة دعوة الى طاعته ، وتهديد اذا رفض الطاعة فجمع المظفر امراءه للتداول في الامر فقر الراى على قتل الرسل والمسير الى ملاقاة المغول . ثم ارسل مع ابن العديم برسالة الى الناصر صلاح الدين يوسف يعده فيها بالنجدة ويقول له انه لا ينافسه الملك وانه نائبه في مصر . ثم نودى في مصر بضرورة الخروج للجهاد ، واخذت الجيوش تزحف الى بلاد الشام ، يوم الاثنين ، ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ تتقدمهم المظفر قطز واجتمعت الجيوش كلها في الصالحية (٢) .

وتابع جيشه الزحف الى غزة بعد تراجع التتر عنها . ثم اتصل بالفرنجة لمعرفة موقفهم في هذا الصراع فارسلوا اليه الهدايا واعتذروا عن استعدادهم لمحاربة التتر الى جانبه ثم تم الاتفاق اخيرا على الوقوف على الحياد (٣) .

---

١) المقريزى، السلوك ، ص ٤١٧ و ٤٣٧ ، وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٥٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ابن اياس، جـ ١ ، ص٩٣ — ٩٥ .

٢) ابو شامه ، ص ٢٠٧ ، اليونيني ، جـ ١ ، ص٣٦٤ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ٢١٤ ، المقريزى السلوك ، ص٤١٨ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٧٣ . وكان الناصر قد اراد الذهاب الى مصر ، ووصل بالفعل الى غزه لكنه نقل راجعا " لشيء" بلغه عن الملك المظفر " هو سعي هذا لاستمالة جنده ، وبقي في وادى موسى ثم على بركة زيزاء حتى كبسه التتار ونقلوه الى هولاكو ، ثم قتل بعد ذلك في حمص سنة ٦٦٠ هـ . (ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص٧٧ ، (E. Blochet) النهج السديد ص ٣٧٩ . وفي هذا الاجتماع كان الناصر مؤيدا لقتل الرسل (رشيد الدين جامع التواريخ ، م ٢ جـ ١ ص ٣١٢).

٣) ابن عبد الظاهر ص١٣ ، (C. Cahen) ص ٧١٠ .

وفـــي غزه جمع سيـــف الدين قطـــز جيوشه في استعراض عام وشرح لهم ماجرى للاقاليم التي وقعت تحت سلطان التتر ، وحرضهم على محاربة جيوش هولاكو .

اما جيوش التتر فكان كتبغا نوين (١) مقدمها . وكانت تفوق الجيوش المملوكية وعددها اضعاف عدد جيشه ـ فعقد مؤتمرا مع قواده للنظر في الامر . واشار عليه بعض القادة بعدم الاصطدام اذ ان جيشه لايتجاوز عشرة الاف جندي ، لكنه اصر على اللقاء فكانت معركة عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ / ايلول سنة ١٢٦٠ م .

ومرت المعركة في ثلاث مراحل . ففي المرحلة الاولى انهزمت ميسرة المسلميـــن فاردفها المظفر قطز بالعساكر فانتصر الجيش المملوكي وقتل كتبغا نوين في المرحلة الثانية . عندها لجأ الجيش المغولي الى تل مجاور فهاجمه جيش المظفـر قطز وانزل به هزيمة ماحقة، في المرحلة الثالثة (٢) ثم تراجع التتر ، واعقبتهم الجيوش المملوكيه في مرحلة تصفيه .

ووصل خبر انهزام التتر الى دمشق في ٢٧ رمضان ففر منها التتر ومن والاهم ، ولحق بهم الناصر يتخطفونهم جراحا . ووقعت فتنه بين الاهالي اذ ثارعامة الناس على الذيـن تعاونوا مع التتر وقتلوهم ونهبوا اموالهم ـ من نصارى ومسلمين (٣) .

---

١) معناها عشرة الاف . لكن المقريزى يقول ان معناها الف (ملحوظة ٣ ، ص ٧٨ ، ج ٧ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى) . وقد كان قائدا عظيما يعتمد ه التتر (ابن تغـرى بردى ،النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص٩٠ ـ ٩١) .

٢) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦١ و ٣٨١ ،ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٤ ، المقريزى،السلوك، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ ،ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٥ ، (Mouncet) ج ٣ ، ص٦٠٠ و ٦٠٢ . اما اسباب الهزيمة فسوء تصرف التتر مع الاهالي ، وامتناع الفرنجة من مساعدتهم واستيائهم من احتلال صيدا وعجز بيدرا عن مد جيوش نجدة الغازية من غزه قبل وصول كتبغا ، وكثرة عدد جيوش المماليك بالنسبة لجيوش التتر .

٣) كان التتر في دمشق يشجعون النصارى على المسلمين ، فلما تراجع التتر كان رد الفعـــل عنيفا ،ابو شامة ، ص٢٠٧ و ٢٠٨ ،اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦١ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ،المقريزى السلوك ، ص٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ .

وتابع المظفر سيره نحو دمشق ، مر في طبرية ووصل دمشق في شوال وبقي فيها مدة لتنظيم شؤون بلاد الشام بعد ان خضعت له ، فابقى الناصر على ما كانوا عليه في اواخر ايام الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وحرص على تامين الناصر على اموالهم واملاكهم واوقف الفتنة بين الاهالي بان شنق بعض الموالين للتتر ، ثم قرر على النصارى مبلغا من المال ، ثم عين الامير علم الدين سنجر الحلبي واليا على دمشق .. ووزع الاراضي اقطاعات على امرائه واصحابه (١) .

وعين الامير شمس الدين اقوش البرلي العزيزي نائبا على السواحل وغزة ، فجعل مقره نابلس مرة ، وبيت جبرين مرة اخرى (٢) . وولى السعيد علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، على حلب ، لعلمه بذلك يضمن ميل اخيه اليه ، فيطلعه على اخبار التتر وتحركاتهم (٣) .

ثم توافد عليه صاحبا حمص وحماه فابقاهما على اقطاعاتهما لكنه اخذ السلمية من صاحب حماه ومنحها لشرف الدين عيسى بن مانع امير العرب (٤) وضرب عنق السعيد حسن ابن الملك العزيز عماد الدين لانه ناصر التتر وحارب جيوشه في عين جالوت ، واخذ

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٥ ، اليونيني ، ج١ ص ٣٦٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٢ ، ابو الفداء ج ٣ ، ص ٢١٤ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٢٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم ج ٧ ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ابن اياس ، ج١ ، ص ٩٧ .

٢) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٣٣ .

٣) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٠ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٦ ، المقريزي ، السلوك ص ٤٣٣ ابن تغري بردي النجوم ج ، ٧ ، ص ٨٢ .

٤) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦٦ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٣٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

منـــه الصبيبـــة وبانيـــاس (١) ٠

وبعد هذه الترتيبـــات غادر سيـــف الدين دمشق عائدا الى مصر ، وفـــي الطريق قتـل في ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ٠

---

١) ابو شامه ، ص ٢٠٧ ، اليونيني ، جـ ١ ص ٣٦١ ، ٣٦٧ ، جـ ٢ ص ١٧ ، ابـــو الفداء ، جـ ٣ ص ٢١٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣١ ، و ٤٤١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٨٠ ٠

بيبـــرس قبـل السلطنـــة .

كان ضروريا ان نرسم صورة للسنوات التي سبقت وصول بيبرس الى السلطنة لان بيبرس شهدها واشترك في حوادثها وتاثر بها . ولعل هذا الاشتراك الفعلي فيهـــا هو الذى حفزه الى الوصول الى السلطنة . وينبغي الان ان نتناول سيرته بالذات قبل ان صار سلطانا .

١ ـ البدايـــة :

كان بيبرس (١) تركيا (٢) برلي (٣) الجنس . وقيل ايضا انه قفجاقي (٤) ، (او قبشاقي) الاصل .

ولد بيبرس في خيمة صغيرة لابوين فقيرين من جماعة القومان (٥) في ليلة قاسية من ليالي السهوب القفجاقية الروسية . لكن سنة مولده ليست معروفة بالضبط . وتضعهـــا المصادر بين سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ اوسنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ . وقد جعل المقريزى وابـن تغرى بردى سنة الولادة عام ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ على وجه التخمين (٦) وجعلها اخر سنة ٦٢٢ هـ وجعلها ابن شاكر الكتبي سنة ٦٢٥ هـ . لكنه روى عن بدر الدين بيسرى روايـــة يستدل منها ان مولد بيبرس لم يسبق سنة ٦٣٠ هـ بكثير (٧) .

---

١) معناه الفهد . المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٩٥ .
٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٢ ، المقريزى ، السلوك ص ٤٣٦ ، ابن اياس ، ج ١ ص ٩٨ .
٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٢ . وقد جعله ابو الفداء (ج ٤ ص ١١) برجعلي الجنس .
٤) ابو الفداء ج ٤ ص ١١ . وترد ايضا " قبجاقي " كما في السلوك ، ص ٦٣٧ ، والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٤ .
٥) وهم جماعة بدوية غزوا انحاء روسيا الشمالية ثم غزاهم جنكيزخان عام ١٢٢٤ م وعام ١٢٤٢ م (F.Sadeque) ص ٢٩ من المقدمة .
٦) المقريزى ، السلوك ص ٦٣٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٤ .
٧) ابن شاكر الكتبي ج ١ ، ص ١٥٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٥ ، ٩٦

وفي هذه الاونـة كانت الغزوات المغولية تتوالى على روسيا ٠ وفي سنة ٦٣٩ هـ ١٢٤٢ م ٠ غزا التتر (١) القبجاق فاتصل هؤلاء بانسر خان ملك اولاق (٢) يستجيرون به فقبل ان يغدوا عليه ٠ ونزلوا في سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م بين جبلين ، مطمئنين من غزوات التتر ، لكن جنود انسر خان غدروا بهم ، وقتلوا منهم جماعة ، وسبوا عددا اخر منهم ٠ وكان بدر الدين بيسرى وركن الدين بيبرس بين الاسرى ٠

كان بيبرس انذاك دون العشرين سنة (٣) فبيع الى تاجر بسيواس ، ثم الى اخر في حلب ثم الى تاجر ثالث ٠ وهنا تختلف الروايات ٠ ففي رواية بدر الدين بيسـرى ان بيبرس حمل الى القاهرة حيث بيع الى الامير علاء الدين البندقدارى ٠ وفي روايـة اخرى ان النخاس سار به الى حماه وعرضه على صاحبها الملك المنصور فرفض هذا شـراءه لان والدته اشارت عليه بان لايشتريه لان في عينيه ملامح شر ٠ فحمله الى تاجر في دمشق حيث باعه بثمانماية درهم لكنه عاد فرده "لبياض في عينيه" ٠ فعاد به النخاس الى حماه واشتراه منه العماد الصائـغ ٠ وباعه هذا الى الامير علاء الدين ايدكين البنـدقـدارى المعتقل في حماه (٤) ٠ وفي رواية ثالثة انه بيع لعلاء الدين البندقدارى في دمشق (٥) ٠

---

١) وعند ابن شاكر الكتبي (ج١ ، ص ١٦٠) ان العبارة هم الدين غزوا القبجاق واسروا بيبرس ٠
٢) وهي (Bolgary) على نهر الفولغا الاعلى (F.Sadeque) ص٢٩ من المقدمة ٠
٣) تقول (F. Sadeque) ص انه كان حوالي الرابعة عشرة من عمره ٠
٤) أبو الفداء — ج ٤ ، ص ١١ ، ابن شاكر الكتبي ، ج١ ص ١٦٠ ، المقريزى ، السلوك ص ٤٣٦ و ٥٧٤ ، ٦٣٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٩٥ ، ٩٦ ٠
٥) محمد مصطفى زيادة ، حاشية ١ ، ص ٥٧٤ ، من "السلوك" للمقريزى ٠

وفي كل حال ، بقي بيبرس عند علاء الدين حتى انتقل الى الملك الصالح نجم الدين ايوب في شوال سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م (١) .

وهكذا يكون بيبرس قد قضى نحوا من سنتين عند علاء الدين . كيف قضاها ؟ المعقول ان يكون قضاهما بالتدرب على ركوب الخيل والرماية . وكان الى جانب ذلك يتلقى اصول الدين الاسلامي . ولا ريب انه كان في هذه الفترة يراقب احداث زمنه . ويتعرف الى الصراع بين الامراء الايوبيين . ان طموحه لم يكن قد بلغ به بعد حد التطلع الى الاستفادة من هذا الصراع والاضطراب ولكنه كان حاد الذهن ، نير البصيرة لا يمكن لهذه الاحداث ان تمر دون ان تدع في ذهنه اثرا .

ان حياة بيبرس في هذه الفترة غامضة فكاد لانستطيع ان نتعرف الا على خطوطها العريضة وحسب. لكننا نستطيع ان نحسب ان هذا الصبي التى نظرته الاخيرة على ابويه وعلى الوادى التي كانت قبيلته تنزلها بشيء من الحنان ، وبكثير من الخوف والتساؤل . ثم تمر بعض الوقت فنسي اهله واخذ يحاول ان يدرك الواقع الذى يعيش فيه ، فاذا به يجد نفسه معروضا في اسواق النخاسة في مدينة اثر مدينة ثم يجد نفسه مرفوضا لعاهة في عينيه . حقا ان الظروف قاسية .

٢ — في عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب .

كيف انتقل الى خدمة الملك الصالح ايوب ؟ ومتى انتقل الى خدمته ؟

ان المصادر تختلف في الاجابة على السؤال الاول . فهي تستعمل كلمة الشراء (٢) مرة ثم تستعمل كلمة المصادرة ، او الاخذ او القبض مرة اخرى (٣) . ويبدو

---

١) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ٩٥ — ٩٦ .
٢) المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣٦ ،ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٩٥ .
٣) المقريزى ،السلوك ص ٦٣٧ ،ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٩٥ ، ٩٦ .

ان الملك الصالح نجم الدين ايوب اعجب ببيبرس لشجاعته ولقوة بنيته وفروسيته ومقدرته على الرماية ، ولانه كان "نجيبا لاينبغي ان يكون الا عند ملك " فالحقه بحاشيته حين غضب على علاء الدين البندقداري مرة ثانية سنة ٦٤٤ هـ (١) • ويحمل على هذا الاعتقاد انه كانت قد مرت فترة على بيبرس في خدمة علاء الدين ، بحيث لفتت صفاته هذه انظار الملك الصالح نجم الدين ايوب •

وهي كذلك مختلفة في اجابتها على السؤال الثاني • يقول G.Wiet انه اول مانسمع ببيبرس مع الصالح نجم الدين سنة ١٢٣٩ م (٢) • وهذا مستبعد جدا ، او لعله مستحيل • ويبدو لي انه خلطه مع بيبرس اخر كان سجينا مع الملك الصالح نجم الدين ايوب في الكرك سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ (٣) • وفي هذه السنة يكون بيبرس في سن الثامنة عشرة ، على ابعد تقدير ، فهل كان قد مضى عليه وقت كاف ليلفت نظر الملك الصالح نجم الدين اليه ؟ ثم ان الملك غضب على علاء الدين واعتقله في حماه سنة ٦٤٤/ (٤) • اغلب الظن عندي ان وجود شخصين يحملان نفس الاسم في فترة واحدة ، وكون بيبرس الاخر من اخصاء الملك الصالح نجم الدين ايضا وانتقال بيبرس ، صاحب هذه السيرة الى خدمة الملك الصالح نجم الدين في شوال سنة ٦٤٤ هـ — كل ذلك قد ادى الى مثل هذا التشويش

---

١) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٩٦ ؟
٢) (G.Wiet) ص ٤٢٧ •
٣) ابو الفداء ([illegible]) جـ ٣ ، ص ١٨٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ •
٤) النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٩٦ •

والخلط . ليس لدى مايثبت ان الانتقال تم قبل هذا التاريخ الذى يعينه ابن تغرى بردى (١) .

وفي سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧م ، كان بيبرس قد لفت اليه انظار الملك الصالح نجم الدين ايوب فاعتنه وجعله جمداره(٢) . وفي سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨ سار السلطان الى دمشق لرد صاحب حلب الناصر صلاح الدين يوسف ، عن حمص(٣) . وكان بيبرس في رفقته . ومر الجيش في الشوبك وترك بيبرس في المدينة اثرا يحمل اسمه وتاريخ هذه السنة (٤) .

يبدو ان بيبرس اصبح لا يفارق السلطان من جهة ، وانه صار احد كبار الامراء البحرية ، من جهة ثانية .

ثم كانت الحملة الصليبية السابعة حين غزا لويس التاسع دمياط واحتلها وتوغل حتى المنصورة . هنا لعبت الفرقة البحرية بقيادة فارس الدين اقطاى دورا اساسيا في رد الغزاة . ولعب الامير بيبرس دورا هاما في هذه المعركة بما ابداه من ضروب الشجاعة والفروسية . ثم لعب دورا هاما ايضا في قتل المعظم تورانشاه . واليه ينسب التحريض على ضرورة قتل السلطان كي لا يبيد البحرية . وهو الذى كال له الضربة الاولى . وهو الذى اتهمه بانه

---

١) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٦ .
٢) المصدر نفسه ، ص ٩٦ .
٣) المقريزى ، السلوك ، ص ٣٣٠ .
٤) (E.Honigmann, Art."Shawbak".) م ٤ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١.

عاجز عن ابقاء السلطنة في عقب الملك الصالح نجم الدين ايوب . واتهمه بالعمل للقضاء على امراء الدولة الصالحية ومصادرة اموالهم وتوزيعها على غيرهم (١) .

لقد اصبح اسمه يذكر مع كبار زعماء البحرية ، امثال فارس الدين اقطاى وعز الدين ايبك وبلبان الرشيدى وغيرهم . (٢) .

٣ ـ عهد عز الدين ايبك .

ثم كان عهد عز الدين ايبك التركماني . وكان بيبرس وفارس الدين قد صارا متنفذين ، او لعلهما كانا اوسع نفوذا وقوة بين البحرية من السلطان نفسه . وقد كانا "يمنعانه من كل متعرض ويحميانه من كل متغرض" (٣) . ثم بدأت الاحتكاكات بين السلطان والفرقة البحرية ، وكان اول ما فعله السلطان ان هدم قلعة الروضة ونقل المماليك البحرية الى قلعة القاهرة ثم انشاء فرقة خاصة به عرفت بالمعزية (٤) .

ومما يفسر هذه الاحتكاكات ، او يدعمها ، ان بدر الدين بكتوت وقطز وبيبرس المتوادات يوم بمنجم فطلب منه قطز ان يضرب له بالرمل ليرى مستقبله ، فقال له المنجم انه سيملك مصر ويكسر التتار . وضرب المنجم بالرمل لبيبرس ايضا فكان طالعه يدل على انه سيملك مصر وغيرها (٥) .

وفي سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ قتل السلطان فارس الدين اقطاى فانتقلت قيادة البحرية الى بيبرس بعده ، وكان البحرية نحو سبعماية مملوك فجاؤوا الى القلعة فوجدوها

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣٥٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٦ ، ملحوظة ٥ .
٢) (F.Sadeque) ص ٣٥ من المقدمة .
٣) ابن عبد الظاهر ص ٦ .
٤) المقريزى ، السلوك ص ٣٨٥ و ٣٨٦ .
٥) اليونيني ، ج ١ ص ٣٨٣ ، ٣٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٨ ، ٨٩ .

مغلقة ثم رأوا راس فارس الدين اقطاي يرمى تحت اقدامهم من سور القلعة فتحققوا خبر اقتيال فارس الدين وتداولوا في الامر فرأوا انه لابد من الهرب ، اذا شاؤوا السلامة .

وفي الليل خرجوا من القاهرة هاربين في ثلاثة اقسام : اول قسم بقيادة الامير علم الدين سنجر الباغدي ، اعقل المماليك البحرية واعرفهم ، وثاني قسم بقيادة الامير شمس الدين سنقر الجبيلي المشهور بالفروسية والشطارة ، وثالث قسم بقيادة بيبرس البندقداري ومعه سيف الدين قلاوون وبدر الدين بيسرى وغيرهما من الامراء .

وقصد الفريقان الاولان السلاجقة الروم وقصد الفريق الثالث غزة (١) .

٤ — بيبرس في بلاد الشام — الفارس الضال .

ولما وصل بيبرس وجماعته غزة اتصلوا بالملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وحلب وعرضوا عليه الدخول في طاعته . فاجابهم بالقبول ؟ فساروا اليه مارين بالمناطق الساحلية التي يحتلها الفرنجة . وكان طبيعيا ان يلاقوا صعوبات في تامين القوت لكنهم لجأوا الى النهب والسلب .

وقاربوا دمشق في رمضان سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م فخرج الملك الناصر صلاح الدين لملاقاتهم والترحيب بهم فحلفوا له بالطاعة والولاء ، ثم خلع عليهم الناصر الخلع والاموال ، واكرم بيبرس بصورة خاصة اذ منحه ٣٠ الف درهم وثلاثة قطر بغال وثلاثة قطر جمال وملابس ، ثم اقطعه اقطاعا بحلب ، لكن بيبرس استبدله باقطاع في جينين وزرعين فقبل الملك الناصر بذلك . وهكذا استقر بيبرس واخذ بقية البحرية يتسللون اليه حتى جمع شملهم (٢) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٧ ؛ ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ؛ المقريزي ، السلوك ، ص ٣٩٢ .
ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٧ .

٢) انظر ملحوظة ٥ ، ص ٥٢ اعلاه .

ولعل في اختيار بيبرس جنين وزرعين اقطاعا له بدلا من طلب نابلس دليلا على بعد نظره من جهة ، وعلى انه كان قد اخذ يعتبر مصر هي المركز ،فيجب ان لا يبتعد عنها ، وطلب بعيدة لايسهل تسلل رفاقه اليها .

ولكن حياة الاستقرار هذه لم تطل . اذ ان عز الدين ايبك كتب للناصر صلاح الدين يوسف ولصاحب سلاجقة الروم يثير فيهما الحذر والريبة من المماليك البحرية (١) . وزاد في اضطرابهم انهم اخذوا يعملون للثار من عز الدين فاقنعوا الناصر صلاح الدين بمهاجمة مصر . وفي اواخر سنة ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤ جهز الناصر المماليك البحرية بقيادة بيبرس ، واتبعهم بجيش من الشهرزورية ، لمهاجمة مصر ، فوصلوا الى غزة ثم عادوا ولم تجر معركة(٢) لان بيبرس حذر العائد المملوكي مما يبيته الشهرزورية(٣) . وفي السنة التالية عاد الناصر فارسل لمهاجمة مصر جيشا اخر فيه البحرية بقيادة بيبرس ، لكن الخليفة تدخل وانعقد الصلح على ان " لا يساوي الناصر عنده احدا من البحرية ". وقد قبل الناصر بهذا الشرط لارتيابه في صدق ولاء البحرية له(٤) .

وهنا وجد بيبرس نفسه مضطرا للانتقال . فقصد القدس ، وهو تابع للملك الناصر صلاح الدين يوسف نيابة به ، واحتله وخطب فيه للملك المغيث صاحب الكرك ، ثم صار الى غزه وهي تابعة للناصر ايضا ، واستولى على غلاتها واعتقل واليها . فلم يجد الناصر بدا من مهاجمتهم واصطدم بهم في شوال ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ عند نابلس حيث جرت معركة عنيفة انهزم فيها بيبرس ، وانقسم البحرية الى جماعتين: جماعة بقيادة الامير عز الدين ايبك الافرم ، دخلت مصر وقوبل افرادها بالاكرام من قبل السلطان نور الدين ولو ان الاهالي لم يكونوا راضيين عن هذه العودة (٥) .

---

١) المقريزي ،السلوك ، ص٣٩٣ ، ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٩٧ .
٢) ابن عبد الظاهر ، ص٧ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ١٩٩ ، الذهبي ، ج ٢ ، ص١١٩ .
٣) ابن عبد الظاهر ص١٣ .
٤) ابن عبد الظاهر ، ص١٢ ، اليونيني ، ج ١ ، ص٥٠ ، المقريزي ، السلوك ، ص٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص٩٨ .
٥) ابن عبد الظاهر ، ص ٧ ، اليونيني ، ج ١ ، ص٥٠ — ٥١ : ابو الفداء ج ٣ ، ص ٢٠١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص٤٤ — ٤٥ .

راضين من هذه العودة .

اما الجماعة الثانية فبقيت مع بيبرس • وذهبوا الى المغيث ودخلوا في طاعته، فاكرمهم صاحب الكرك ، وعلم بحرية مصر ودون بذلك فانضموا الى بيبرس في الكرك •

وهنا اختلط بيبرس بالشهرزورية وتزوج من امراة منهن (١) •

وكانت مصر لا تزال هدف بيبرس • لذلك لم يقنع بما اصابه من هزيمات حتى الان • فعاد الى اقناع المغيث بمهاجمة مصر ، بحجة الشرعية ، واصغى المغيث اليه وانفق مبالغ طائلة من الاموال لتجهيز حملة لاحتلال مصر •

وسارت الحملة باتجاه مصر على مرحلتين كانت اولاهما جيشا بقيادة بيبرس وكانت ثانيتهما جيشا اخر بقيادة المغيث نفسه • وعلمت الجيوش المملوكية بذلك فزحفت الى غزة بقيادة نائب السلطنة سيف الدين قطز • وجرت المعركة الاولى عند العباسة في ذي القعدة سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ وفيها ابدى بيبرس فنونا شتى من الشجاعة والاقدام ، فاتصل به بعض الامراء البحرية في مصر يشيرون عليه بالانضمام اليهم ، لكنه رفض وتابع القتال حتى انهزم وتراجعت قواته ، ولقيت صعوبات جمة في تامين القوت والماء •

وكان حقده على سيف الدين قطز ، وقد اشترك باغتيال فارس الدين اقطاي لا يعرف حدا ، لذلك عاد الى المغيث واقنعه ان يعيد الهجوم على مصر • وفي ربيع الاخر ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ جرت معركة الصالحية وانهزم فيها جيش المغيث وهرب هو دا بينجو بنفسه بعد ان نهب ما معه ، وفر بيبرس ايضا ، والتقيا في الكرك • وطبيعي ان ينقم المغيث على بيبرس توريطه في هذه المعارك الفاشلة لكنه خشي الخصومة العلنية معه خيفة ان ينضم الى غيره (٢) •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٣ ، ابن شاكر الكتبي ج ١ ص ١٦١ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٠٩ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٩ •

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٩٨ ، ١٠٠ ، اليونيني ج ١ ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٨٥ ، ابو الفدا ج ٣ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، المقريزي ، السلوك ص ٤٠٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٩٨ ، ٩٩ •

وعلم الناصر صلاح الدين يوسف بذلك فاراد ان يقضي على البحرية ، فارسل جيشه لمحاربتهم لكن قوات بيبرس البالغة نحو ستمائة مملوك بحرى ، كسرت جيشه وطاردته الى جوار دمشق . فخرج الناصر بنفسه لصدهم ، لكنه فشل ايضا ، حتى كان بيبرس يقصد خيمة الناصر بالذات ويقطع اطنابها (١) . واصطدم الناصر بهم مرة اخرى في اوائل ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ ، لكنهم هربوا هذه المرة الى الكرك ، فتبعهم الى بركة زيزاء واتصل ببيبرس يستميله اليه فرفض . لكنه لما علم بانعقاد الصلح بين الناصر والمغيث على ان يسلم هذا الاخير من عنده من البحرية ، وجد نفسه مضطرا لمفاوضة الناصر للدخول في طاعته . واتته الظروف اذ ان المغول كانوا دخلوا بغداد ، فخشي الناصر على نفسه ، وفاوض بيبرس على اقطاعه نابلس وجينين وزرعين فجاء بيبرس في رجب سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ ، فاكرمه الناصر واكرم جماعته ايما اكرام (٢) .

وهكذا عاد بيبرس الى الناصر . ولكنها كانت العودة الاخيرة ، قبل الرجوع الى مصر . حرضه مرة اخرى على مهاجمة مصر . فلم يقبل الناصر نصيحته هذه المرة . ثم فاوضه على تجنيد اربعة الاف فارس يتوجه بها نحو الفرات ليمنع التتر من العبور الى بلاد الشام فما رضي الناصر ذلك ايضا ، لان زين الدين الحافظي عارض في مثل الحملة ، ولم تنفع حدة بيبرس في تاييد وجهة نظره ولا دعواه انه انما يبغي نصرة الاسلام . فما كان منه الا ان انزوى في خيمته (٣) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠ ، اليونيني جـ ١ ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ٢٠٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٤٧ .

٢) ابن عبد الظاهر ص ١١ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ٢٠٧ ، ابن شاكر الكتبي ، جـ ١ ص ١٦١ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤١٤ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٧

٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٢ ، اليونيني جـ ١ ص ٢٦٥ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ٢٠٩ ، ابن شاكر الكتبي ، جـ ١ ص ١٦١ ، المقريزى ، السلوك ص ٤١٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم جـ ٧ ص ٩٩ .

خمس سنوات مرت على بيبرس وهو في بلاد الشام يتنقل بين الناصر صلاح الدين يوسف والمغيث ، او يعيش مشردا مع جماعته . ولم تسفر هذه السنوات الخمس عن نتيجة . فليس الناصر ولا المغيث بقادرين على احتلال مصر ولا على صد التتر . فلا بد بعد هذا من تغيير خطته . كانت السنوات الخمس كافية لاقناعه بضرورة العودة الى مصر . ان رفاقه الذين هربوا معه يوم فر من عز الدين يتناقصون باستمرار بالموت حينا او بالعودة الى مصر حينا اخر . ثم ان اخبار مصر تحمل اليه ان سيف الدين قطز يعد العدة لمجابهة التتر . لقد ود لو يعود الى مصر محتلا بعد ان غادرها هاربا ولكن الظروف لم تسعفه . وهنا يبدو لي ان بيبرس كان رسم لنفسه خطة واضحة اساسها العودة الى مصر حيث يستطيع ان يثأر لفارس الدين اقطاي من جهة وحيث المجال مفتوح امامه للتقدم من جهة اخرى . ولا ننسى ابدا ان بيبرس عدو للتتر . فهم كانوا السبب المباشر في تشريده عن اهله ، ثم ها هم يتحركون لعبور الفرات نحو بلاد الشام ومصر . اذا لا بد من العودة الى مصر .

٥ — عودة بيبرس الى مصر .

ومن فرة كاتب المظفر سيف الدين قطز صاحب مصر في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ وارسل اليه الامير طيبرس الوزيري يستحلفه له فحلف له قطز ووعده الوعود الجميلة فغادر بيبرس غزة قاصدا الى مصر ومعه بعض اصحابه . ودخل القاهرة يوم السبت ٢٢ ربيع الاول سنة ٦٥٨ هـ ؛ ١٢٥٩ فركب السلطان بذاته للقائه وانزله في دار الوزارة واقطعه قضاء قليوب واعمالها ثم عينه اتابكا لعسكره

وجعله نافذ الكلمة في تدبير امور مصر (١) • وهكذا عاد الى مصر وراى نفسه في المرتبة الثانية بعد السلطان •

ولم يمض وقت طويل على عودة بيبرس الى مصر حتى دخل التتر دمشق بقيادة كتبغا • ثم ارسل هولاكو كتابا الى سيف الدين قطز فيه تهديد ووعيد فجمع السلطان الامراء لاخذ رايهم في الموضوع • وطبيعي ان ينقسم الامراء امام هذا الامر فمنهم من راى الاستسلام وخشي مغبة مقاومة التتر ، ومنهم من ارتأى مقاومة التتر. وكان بيبرس من الجماعة الثانية الذين حثوا على ضرورة محاربة التتر (٢) •

٦ - بيبرس في معركة عين جالوت •

وجرت استعدادات سريعة لمواجهة التتر ، ولا ريب ان بيبرس لعب دورا رئيسيا في هذه الاستعدادات اذ انه اشرف على قضية تسلح الجنود ، ودار عليهم يبث فيهم روح المقاومة ويدعوهم الى الاستبسال في سبيل رد التتر وابعاد خطرهم عن مصر وبلاد الشام ، ويصور لهم ، بابشع صورة ، ما يمكن ان يقاسوه اذا قدر للتتر ان يدخلوا مصر • انني احسب ان بيبرس كان ، بعد المظفر سيف الدين قطز ، عصب المقاومة للمغول (٣) •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص١٣ ، اليونيني جا ص ٣٦٥ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ٢٠٩ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٢٦ ، ابن تغري بردى ، النجوم ، جـ ٧ ص ١٠ •

٢) اليونيني جا ص ٣٦٥ ، ابن اياس جـ ١ ص ٩٦ وملحوظة ٢ ادناه

٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، جـ ١ ، ص ٣١٣

وكملت الاستعدادات في شعبان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ . ونزل السلطان من قلعة الجبل في موكب عظيم ثم سار الى الريدانية حيث امر بتوسيط اعضاء الوفد التترى ثم انتقل الى الصالحية حيث اقام حتى تكاملت جنوده . ورأى قطز ان يرسل قسما طليعيا استكشافيا من جيشه فاختار لذلك ركن الدين بيبرس البندقداري ليقوم بهذه المهمة ، فذهب بيبرس يستطلع اخبار التتر حتى اذا رآهم ارسل الى قطز يعلمه بمكانهم ، ثم اخذ يناوشهم ويمتد رجهم من مكان الى اخر حتى وصل المظفر قطز الى عين جالوت (١) . وهنا جرت معركة حامية انتصر فيها التتر على جيش قطز ، فتراجع هذا بجيشه . ثم برزت قوات بيبرس الكامنة ووضعت التتر بين فكي كماشة ابلى فيها بيبرس بلاء حسنا (٢) واظهر فيها من فنون القتال ما نفخ روح المقاومة في رفاقه والقى الذعر في خصومه . ومع ذلك فان التتر كادوا ينتصرون لولا كثرة الجنود المملوكية ، ولولا ان قطز اردف الميسرة المملوكية في الوقت المناسب .

ثم كانت المرحلة الثانية من المعركة عند بيسان . وهنا تكبد التتر خسائر جسيمة اعظم مما تكبدوه في المرحلة الاولى ، لقد تلقوا الصدمة في المرحلة الاولى . وها هم الان ينكفئون في هذه المرحلة . وقد برز بيبرس في هذه المعركة ايضا اذ انه كان يتنقل بين جنوده باثا روح المقاومة ، معلما اياهم العدوة الضرورية على الصبر وتحمل المشقات . لكن دوره كان اعظم من هذا في المرحلة الثالثة — مرحلة التصفية . فقد سبق بيبرس السلطان سيف الدين الى دمشق يطارد التتر . وظل يطاردهم ليل نهار حتى وصل الى حلب فطاردهم . ثم اصطدم بهم محتشدين عند افاميه وانتصر عليهم هنا ايضا (٣) . فعاد التتر الى الفرات .

---

١) اليونيني جـ ١ ص ٣٦٥ و ٣٦٦ وابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ص ١٠١ ، وابن اياس جـ ١ ص ٩٦ ، ٩٧ .

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٣ ، ١٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣١ ، (F.Sadeque) ص ٤٠ .

٣) ابن عبد الظاهر ص ١٣ ، ١٤ ، اليونيني ، جـ ١ ص ٣٦٦ ، الذهبي ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٧٩ ، ٨٢ ، ١٠١ ، راجع ص ٤٤ اعلاه .

وهكذا استطاع بيبرس ان يمهد بلاد الشام للسلطنة المملوكية ويطرد منهـا التتر بمعاونة السكان الناقمين الذين ثاروا على التتروعلى الذين تعاونوا معهم • ولئن لم يكن هنا مكان تفصيل موقف السكان من التتر فانه لا بد من ان نلاحظ ان الاهالي لم يرضخوا عند الفتح ، وسرعان ما انتفضوا عليهم حين اخذوا بالتراجع •

اخذ بيبرس بالعودة الى دمشق ، حيث كان قطز وقد ارسل اليه الرسائل يبلغه بما جرى له مع التتر ، ووافاه فيها وهو يجري الترتيبات الادارية اللازمة (١) •

كان بيبرس يتمنى نيابة حلب ، وقد وعده بها قطز (٢) • او لعله طلبها منه • ولعله ينبغي لنا هنا ان نذكر ان بيبرس كان قد رفض اقطاعا في حلب سنة ٦٥٢ هـ لكن قطز لم يمنحه عده النيابة فحقد بيبرس عليه ، او لعل حقده زاد عاد انه كان حاقدا عليه من قبل • اما سبب ذلك فلعله غيرة قطز من الانتصارات التي نالها بيبرس ولعل خوفه منه ان ينافسه اذا ولي نيابة كبيرة كنيابة حلب (٣) •

٧ ـ اغتيال قطز •

ثم اتفق بيبرس وبعض رفاقه ، ومنهم سيف الدين انص وعلم الدين صنغلي وسيف الدين بلبان ، على اغتيال السلطان حين يعود الى مصر (٤) • وينبغي ان نعتبر هذا التاريخ حدا فاصلا في توضيح مطامع بيبرس واهدافه • ينبغي ان لا يكون عندنا ريب بعد الان بان بيبرس اصبح يستهدف السلطنة بالذات •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٥ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ١ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٧ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠١ •

٢) المصادر نفسها بصفحاتها في الملحوظة السابقة •

٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٦ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ، ص ٤٥ اعلاه •

٤) اليونيني ، ج ١ ص ١ •

وبعد الترتيبات التي اجراها قطز في بلاد الشام توجه الى مصر . غادرت جيوشه دمشق في ٢٦ شوال سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ . وفي ١٥ ذي القعدة (١) وصلت العساكر الى القصير (٢) قبل الصالحية . وشعر السلطان بميل الى الصيد وبضرورة اراحة جيشه بعد ما لاقاه من متاعب وماكسبه من نصر . فضرب دهليزه عند القصير وامر العساكر ان يواصلوا السير الى الصالحية ويضربوا خيامهم هناك وينتظروه . وذهب الجيش الا الجماعة الذين كانوا اتفقوا على اغتياله ، فقد رأوا الفرصة مناسبة ، وبقوا معه .

ومضى السلطان يبحث عن صيد . فلمح ارنبا فجرت امامه فتبعها ، وتبعه المتآمرون . وبعدت به المسافة عن الدهليز . وتقدم اليه بيبرس وطلب منه امرأة من سبي التتر ، فاجابه السلطان الى ذلك ، فاهوى بيبرس على يد قطز يقبلها ثم تبض على يده كي لايستطيع استعمالها لامتشاق السيف . وكان هذا التدبير علامة بين المتامرين . هنا حمل سيف الدين انص على قطز وضربه بالسيف ثم هجم البقية عليه واسقطوه عن فرسه وجردوه من حسامه ، ثم رشقوه بالنشاب حتى اردوه قتيلا (٣) .

---

١) يختلف المؤرخون حول هذا التاريخ . فهو ١٧ منه عند ابن عبد الظاهر (ص ٦١) وابي الفداء (جـ ٣ ص ٢١٦) و ١٣ منه عند اليونيني (جـ ١ ص ٣٧١) او ١٦ منه عنده ايضا (جـ ٢ ص ١٣) . وهو ١٥ منه عند المقريزي (السلوك ، ص ٤٣٥) ، وابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٨٧) وابن اياس ، (جـ ١ ص ٩٧) .

٢) هي الغرابي عند الذهبي (جـ ٢ ، ص ١٢٣) والمقريزي (السلوك ، ص ٤٣٥) ويجعلها اليونيني (جـ ١ ص ٣٧٩ ، وجـ ٢ ص ١) بين الغرابي والصالحية . ويسميها ابن اياس (جـ ١ ، ص ٩٧) القرين .

٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٦١ ، اليونيني جـ ١ ص ٣٧٠ ، وجـ ٢ ص ١ - ٢ ابو الفداء جـ ٣ ص ٢١٦ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٨٤ وفي ملحوظة ١ ص ٨٤ ، من النجوم الزاهرة ، ان بكتوت هو الذي بادر السلطان بالضربة الاولى . ويقول ابو الفداء ، ان بيبرس هو الذي كان له الضربة الاولى .

وبينما كان قطز يلفظ انفاسه الاخيرة تلفت المماليك المتآمرون بعضهم الى بعض كأنهم لايدرون ماذا يفعلون بعد تنفيذ القسم الاول من المؤامرة . ولعل نجاحهم السريع في تنفيذها اذهلهم . ثم تمالك بيبرس جأشه وتحدث الى رفاقه وذكرهم بأن قطز ينال عقابه على اسهامه في قتل فارس الدين اقطاى وعلى امتناعه عن منحه نيابة حلب ، ثم برر الاغتيال بقوله ان السلطان قد يعتقلهم لو انه وصل مصر سالما . ثم دعاهم الى العودة الى الجيش ليرى الامراء رأيهم في السلطان المقبل .

واسرع بيبرس ورفاقه الى الجيش وهم شاهرون سيوفهم التي لاتزال مغموسة بالدم . ووصلوا الدهليز السلطاني ووجدوا الاتابك فارس الدين المستعرب (١) في باب الدهليز . واوحت سيوفهم المشرعة للاتابك بما حدث ، ولكنه سألهم حين تقدموا اليه راجلين ، ليتأكد من صحة حدسه . فقالوا له انهم اردوا السلطان قتيلا (٢) .

كانت العادة ان تؤول السلطنة للملوك القاتل ، ولكنه ، لابد في كل حال ، ان يؤخذ رأى الامراء ، فاستدعى الامراء للنظر في اختيار السلطان الجديد . وفي هذا المؤتمر تكلم الاتابك فقال ان بيبرس هو الذى دبر المؤامرة واشترك في تنفيذها وانه هو القاتل .

وكان بيبرس حاضرا المؤتمر ، جالسا على طراحة ، بين بقية الامراء ، فتلفت اليه الامراء ، وتذكروا انه حاقد على سيف الدين قطز لانه لم ينل نيابة حلب وتذكروا حسن بلائه في معركة عين جالوت . ثم عادت بهم الذكريات الى تذكره ، والى حسن بلائه في معركة المنصورة ، وحسن اهتمامه برفاقه الامراء والجنود .

---

١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٢
٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ، اليونيني ج ٢ ، ص ١ - ٢ ، المقريزى ، السلوك ص ٤٣٦ .

ثم عاد الاتابك الى الكلام فقال .

" اسمعوا يا اصحابنا . والله لو كان الملك المظفر حيا او له ولد له في عنقنا يمين اول ما كنت اقاتلكم بسيفي . وانما الساعة قد فات فيه الفرت ولا شك ان الـــذى قتله وغرر بنفسه وفعل هذا الامر العظيم مافعله لغيرة فمن قتله فهو احق بمكانه ".

ثم توجه الاتابك الى بيبرس وساله عمن قتل المظفر قطز . فرد بيبرس انـــه هو القاتل . واستشهد بالجماعة الذين كانوا معه فاثبتوا ماقاله . ثم عاد بيبرس الـى القول انه انما يبتغي ان يقيم " الدولة الصالحية على ماكانت عليه من نواميس ورسوم ".

عندئذ ادار الاتابك نظره في الامراء كانه يقول ان الامر مفروغ منه ، بعد ان وعد بيبرس باقامة " الدولة الصالحية " فسكت الامراء ، فقال الاتابك لبيبرس :

" يا خوند اجلس على مرتبة السلطان " . (١)

فنهض بيبرس من الطراحة وجلس حيث امره الاتابك (٢) .

بقي ان يقسم الامراء يمين الولاء والطاعة للسلطان الجديد . ولكنهم لم يقسموا له بذلك حين استدعاهم الاتابك ، وانما نظر بعضهم الى بعض . هنالك شروط يريدون ان يملوها قبل القسم . وعرف الاتابك مايريدون ، فقال لبيبرس ان الامراء يريدون منه ان يمنحهم ما يستطيعه من الخلع والاموال لانهم بحاجة الى ذلك بعد ما نالهم من تعب

---

١) النجوم ٧ ص ٨ و ١٠٢ اليونيني ج ٢ ص ٢ .
٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ، ١٨ اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٠ ، وج ٢ ، ص ١ و ٢ ، ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

واجهاد ، وبعدما بدلوه في المعركة الاخيرة مع التتـر •

لقد كانوا يتوقعون من السلطان الراحل ان يجرى عليهم النفقات بعد ما ايدوه، فينبغي لمن يحل محله ان يفعل ما كان متوقعا منه ان يفعله •

كان الاتابك جريئا وصريحا في كلامه • فايده الامراء ، لانه افصح عما في صدورهم • فما كان من بيبرس الا ان حلف لهم بان يوزع عليهم ما تصل اليه يده •

عند ذلك تحرك الامراء نحوه ليقسموا له اليمين • وكان الاتابك اول المبايعين، ثم تبعه بقية الامراء ، طبقة فطبقة ، حتى جاء دور العسكر ، فحلفوا له اليمين ايضا • وكان ذلك في ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ (١) •

ووصل القاضي برهان الدين قادما من مصر • بجيش لملاقاة المظفر قطز فلما علم بما جرى اقسم يمين الولاء للسلطان الجديد (٢) •

وشعر بيبرس ان بين الامراء عددا لا يؤيد ما حدث • انهم لا يريدون السلطنة له ، وهم يرون ان قطز قتل بغير ذنب وقد كانت له اليد البيضاء في محاربة التتر (٣) • ولكنه لم يستطـع الا ان يسكـت •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ، اليونيني ، جـ ١ ، ص ٣٧١ ، وجـ ٢ ، ص ٢، ابن ابـي الفضائل ، ص ٤٠٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٠٢ ، اما المقريزى (ص ٤٣٦) وابن اياس (جـ١ ص ٩٨) فيقولان انه تسلم السلطنة في ١٥ منه • ولعل هذا الفرق — اليومين — يعود الى ماجرى من مشاورات • راجع ٦١ ملحوظة ١ •

٢) اليونيني مجـ ٢ ص ٢، ابن ابي الفضائل ، ص ٤٠٨ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣٦، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٠٢ •

٣) ابن اياس ، جـ١ ، ص ٩٧ •

وفي هذا النهار ذاته ، ١٧ ذى القعدة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ ، اخذ يعد الترتيبات التي ترافق مجيء السلطان الجديد عادة ـ فعين فارس الدين اقطاى المستعرب اتابكا لعساكره واستخدم الامراء الذين كان الملك الصالح نجم الدين ايوب قد اختارهم ، ثم تلقب بالملك القاهر (١) .

وكان بيبرس اراد ان يبقى اياما اخرى هنا ريثما تجيء بقية العساكر وتحلف له يمين الطاعة ولكن الاتابك اشار عليه بضرورة الرحيل الى مصر لان السلطنة لا تتم له اذا لم يدخل قلعة الجبل . وعزز رايه بان الناس قد يستعلون خبر موت السلطان ويحاولون تعيين سلطان اخر ، فرحل السلطان الى مصر ومعه الاتابك وبعض خواصه من الامراء امثال بدر الدين بيسرى الشمسي وسيف الدين قلاوون وبدر الدين بيليك الخزندار (٢) .

وفي الطريق التقى عز الدين ايدمر الحلي قادما من مصر بجماعة من الجند لاستقبال قطز ، فاعلم عز الدين بما حصل ، فحلف يمين الولاء للسلطان الجديد وقفل راجعا يتقدمه الى القلعة ليخبر الامراء بموت قطز ويحلفهم يمين الولاء لبيبرس بعد ابلاغهم . . . . وعود السلطان لهم . وفي ليل ١٩ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ دخل السلطان القلعة ، وفي الصباح نادى المنادى في القاهرة :

ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٨ ، اليونيني ، جـ١ ص ٣٧٢ ، جـ٢ ص ٣ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ص ٢١٧ ابن ابي الفضائل ، ص ٤١٢ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣٧ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ١٠٣ ، ابن ايامر ، جـ١ ص ٩٨ . راجع ايضا ملحوظتنا ص ٦٤ اعلاه .

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ، اليونيني ، جـ١ ، ص ٣٧١ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٠٢ .

وهنا نصح الوزير زين الدين بن الزبير السلطان بتغيير هذا اللقب الى الظاهر وفي اخر النهار صار النداء بالسلطنة للملك الظاهر (١) .

وكانت القاهرة مزينة لاستقبال المظفر قطز ، وبقيت الزينة ولكن الاستقبال صار للسلطان الجديد . اما الناس فاحسوا ببعض الغم اذ انهم خشوا عودة البحرية وخافوا ان يرجعوا الى ماعرفوا به من الفساد وتخريب ولكنهم راوا انه لامندوحة من التهليل واظهار الطاعة ، فاخذ زعماؤهم يتوافدون على قلعة الجبل يحلفون ليمين الولاء . وظلوا كذلك الى ما بعد العصر (٢) .

وهكذا رقي بيبرس الى اعلى مركز يمكن ان يطمع اليه مملوك في ذلك الوقت . فقد كان مملوكا اشتراه علاء الدين البندقداري ثم صار في خدمة الملك الصالح نجم الدين ايوب ـ فبرز عنده ، ثم خدم ابنه المعظم تورانشاه ، ثم اشترك في اغتياله ، ثم هرب الى بلاد الشام عند مقتل فارس الدين اقطاى ، وتنقل فيها بين صاحبي دمشق والكرك ، الى ان رجع الى مصر في خدمة قطز ، ثم خرج معه الى بلاد الشام لمحاربة التتر ، وفي طريق العودة الى مصر بعد النصر على التتر ، اغتال المظفر قطز ، وصار سلطانا وبذلك تحققت نبوءة المنجم .

حقا ان سنة ٦٥٨ هـ كانت ذات اهمية . ففيها زحف التتر الى بلاد الشام وخربوها ـ ثم انكسروا في عين جالوت وتراجعوا ، ثم قتل المظفر قطز ، واستلم السلطنة بعده الملك السلطان الظاهر ركن الدين ابو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الايوبي التركي (٣) .

---

١) اليونيني جـ١ ، ص ٣٧٢ و جـ ٢ ص ٣ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ٢١٧ ، ابن ابي الفضائل ص ٦٩ ـ ٧٠ ، المقريزي السلوك ، ص ٤٣٦ و ٤٣٧ . وان ابي الفضائل يختلف عن البقية بجعل موعد الوصول الى القلعة في ١٦ ذي القعدة .

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ، اليونيني ، جـ١ ، ص ٣٧٢ و جـ ٢ ص ٢ ، ابو الفداء جـ٣ ص ٢١٧ ، ابن ابي الفضائل ص ٦٧ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٣٧ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ص ١٠٢ ، ابن اياس ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

٣) ابو شامه ، ص ٢١٤ ، ابن عبد الظاهر ص ٢ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٤ .

بيبرس يوطد سلطانه

اذا تذكرنا الظروف التي رافقت وصول بيبرس الى السلطنة عرفنا ان السلطان الظاهر لابد ملاق صعوبات جمة قبل ان يتوطد سلطانه • كان هنالك عدد من الامراء المنافسين له على السلطنة ، وكان الناس يكرهون حكم البحرية لانهم مفسدون مخربون ، ولانهم قوم مسهم الرق (١) • زد الى هذا مايواجهه في الخارج من اخطار من التتر والفرنجة وقد تركت الموضوعين الاخرين الى الفصل الذى يتناول السياسة الخارجية • وقد كان يمكن الحديث عن الموضوعات الاولى في معرض الحديث عن سياسته الداخلية ، ولكنني آثرت الحديث عنها في فصل خاص لانها وقعت في بداية عهده ، ولانها لم تكن لها صفة الاستمرار •

١ – الادارة الجديدة :

كان الظاهر قد بدأ بتعيين حكومته الجديدة وهو في القصير ، حيث قتل قطز • وقد عين فارس الدين اقطاى المستعرب (٢) • اتابكا لجيشه وعين بعض امراء الملك الصالح نجم الدين ايوب ، معاونين له • ولما وصل قلعة الجبل في القاهرة ، تابع تعيين اعضاء ادارته الجديدة • فاقر ما فعله في القصير ، واستبقى الصاحب زين الدين يعقوب الزبير على الوزارة (٣) • ثم عين اقوش النجيبي استاد الدار ، وعز الدين الافرم امير

---

١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣ •

٢) من مماليك الملك الصالح نجم الدين ايوب ، صار اتابكا لقطز ثم استمر اتابكا للظاهر حتى توفي في جمادى الاولى سنة ٦٧٢هـ/ ابن كثير جـ ١٣ ص ٢٦٦ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦١٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤٢ ،) • وينفرد هذا الاخير بالقول ان الظاهر كان يتبرم به لكنه لم يسعه الا ان يبقيه لحزمه وعزمه وحسن رايه • ولما راى فارس الدين ان الظاهر يقرب اليه بيليك الخزندار تمارض نحو ... سنة حتى مات •

٣) ولم يطل الامر به حتى عزله في ٨ ربيع الاول سنة ٦٥٩هـ وعين مكانه الصاحب بهاء الدين بن حنا • (اليونيني ، جـ ١ ص ٣٧٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠٣ ، ابن اياس ، جـ ١ ص ٩٩) راجع ص ١١٨ ادناه •

جاندار ، وحسام (١) الدين الدرفيل وسيف الدين بلبان الرومي دواداريين ، وبهاء الدين الشهرزوري امير اخور ، وبدر الدين بيسرى الشمسي وسيف الدين قـلاوون وبدر الدين بكتوت ، وعز الدين بيدعان المعروف بسم الموت ، وبلبان الهاروني فـي رتبه مقدمي الف ، وركن الدين اباجي ، وسيف الدين بكجرى ، حاجبين (٢) .

ثم اخذ يكتب للملوك والامراء في بلاد الشام واليمن والمغرب يبلغهم بانـه اصبح السلطان الآمـر الناهي . كتب الى الملك الاشرف (٣) صاحب حمص، والـى الامير منصور صاحب حماه ، والى الامير مظفر الدين عثمان صاحب صهيون ، والـى الاسماعيليـة ، والى الملك السعيد المظفر علاء الدين علـي بن لؤلؤ نائب حلب والى الامير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق (٤) . فاجابه الملك الاشرف والاميـر المنصور والامير مظفر الدين عثمـان بالاعتراف بسلطانه وبالطاعـة لـه . وفي ١٠ ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ جاء صاحبا حمص وحماه الى دمشق واعلنا خضوعهما له (٥) . اما صاحب الاسماعيلية وعلم الدين سنجر فلم يجيباه الى الطاعة وسنتحدث عـن كل منهما على حـدة .

---

١) وهو "صيام" عند المقريزي ،السلوك ، ص ٤٣٨ .

٢) اليونيني ، جـ١ ، ص ٣٧٢ ، ابن ابي الفضائل ص ٦٧ ،المقريزي ،السلوك ص ٤٣٨ ، ابن اياس جـ١ ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

٣) كان الاشرف وصل الى بعلبك في مستهل شعبان سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠ وامره نائب هولاكو في بلاد الشام نائبا على حمص والرحبة وتدمر وتل باشر وقلاعها ثم جعل بلاد الشام كلهـا تحت نظره " (اليونيني ، جـ١ ص ٣٥٦ و ٣٦٠ .

٤) اليونيني جـ١ ص ٣٧٣ و جـ ٢ ص ٢ ،ابن ابي الفضائل ، ص ٦٨ ،المقريزي ، السلـوك، ص ٤٣٦ ، ٤٤٤، ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة جـ ٧ص ١٠٢ ، ١٠٣ ،ابن اياس، جـ١ ، ص ٩٩ و ١٠٠ .

٥) اليونيني ، جـ١ ، ص ٤٥٤ ،المقريزي ،السلوك ص ٤٦٢ ،انظر ملحوظة ٥ ص ٧ اعلاه وفي شعبان سنة ٦٥٩ هـ جاء الى القاهرة صاحب الموصل لتهنئته بالسلطنة فقابله بالترحيب ثم جاءه صاحبا الجزيرة وسنجار . (المقريزي ، السلوك ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦١) .

ثم اصدر تعليماته بضرورة الاتصال بالبحرية الذين كانوا لا يزالون مشردين خارج مصر ليعودوا اليه (١) . ونفى الملك المنصور نور الدين على بن عز الدين ايبك وامه واخاه الى الاشكرى ، وقد كانوا معتقلين بالقلعة من ايام قطز (٢) .

ولكن هذه التدابير لم تكن كافية اذ ان الناس كانوا لا يزالون يشعرون بالخوف من البحرية . فعمد الى الغاء الضرائب التي كان قطز استحدثها بحجة جمع الاموال لتجهيز الحملة على التتر . ثم اطلق سراح المساجين من اصحاب الجرائم ومن الجنود وانعم على الامراء ووهبهم الخلع والعطايا . فكان لهذه التدابير اثرها في النفوس ، فانفرجت اسارير الناس واخذوا يقيمون الزينة ويدعون له(٣) .

وانتهت السنة . وكان لا يزال امام الظاهر تدبير آخر شكلي ينبغي القيام به وهو الركوب بشعار السلطنة (٤) .

---

١) ابن اياس ، ج١ ، ص ١٠٠ .
٢) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٢
٣) ابن عبد الظاهر ص ١٩ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٢ ٣٧ ، ابن ابي الفضائل ص ٦٨ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٣٧ — ٨ ٤٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٣
ابن اياس ، ج١ ، ص ١٠٠ .
٤) وشعار السلطنة "غاشية سرج من اديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب تحمل بين يديه عند الركوب في المواكب الحفلة والاعياد ونحوها . يحملها احد الركاب دارية رافعا لها على يديه يلفتها يمينا وشمالا وهي من خواص المملكة ومنها المظلة ويعبر عنها بالجتر" . لكن ينبغي ان نلاحظ انه كان لكل موكب او احتفال ترتيب . (القلقشندي ج ٤ ، ص ٧ — ٨) .

وفي يوم الاثنين السابع من صفر سنة ٦٥٩ هـ / كانون الاول سنة ١٢٦٠ ركب الظاهر بشعار السلطنة وخرج من قلعة الجبل في هيبة الملك ثم نزل من وراء القاهرة وعاد فدخلها من باب النصر وشقها حتى خرج منها ثانية من باب زويلـــــه وكان الامراء والاعيان والجنود بين يديه • وقد زينت القاهرة فبرزت في حلة بهية ونثرت الدنانير على السلطان في الشارع • ولما عاد الى القلعة منح امراءه ومقدميه وخواصه اموالا طائلة(١) •

كان هذا اول خروج الظاهر في موكب رسمي ، لكنه اتخذ من مثل هذه المواكب خطة رسمية فيما بعد • فكان يخرج على هذا الشكل الى لعب القبق مرة او مرتين(٢) في الاسبوع – لان مثل هذه المواكب تؤثر في الناس وترهبهم •

ثم اخذت تتوالى عليه الاحداث التي تحتاج الى نشاط عسكري واليها وجـــه الظاهر اهتمامـــه •

٢ – ثـورات ومحاولات انفصاليـــــة :

لاقى الظاهر في السنتين الاوليين من عهده ثورات ومحاولات انفصاليـــــة كثيرة ، كان بعضها خطيرا ، ولكنه استطاع القضاء عليها جميعا والمحافظة علـــى سلطانه بفضل تدابيره السريعة العسكرية والسياسية معا • وقبل الحديث عن الحركات الانفصاليـــة الخطيرة لابد من الاشارة الى بعض حوادث صغيـــرة حدثـــت في مصـــر •

وفي اواخر سنة ٦٥٨ هـ قام جماعة من السودان الركابدارية بثورة فـــي القاهرة مطالبين بعودة ال علي الى السلطنة • وكان زعيمهم يعرف بالكوراني لكن الجيـــش قضى عليهم في ليلة واحدة وعلقهم على باب زويلة (٣) •

---

١) اليونيني ، جـ ١ ، ص ٤٣٧ ، وجـ ٢ ، ص ٩١ ، المقريزي ، السلوك ص ٤٤٤ •
٢) راجع ملحوظة ١ اعلاه •
٣) المقريزي ، السلوك ، ص ٤٤٥ •

وفي ربيع الاول سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ جاء احد اجناد الامير عز الدين الصقلي (او الصيقلي) الى السلطان الظاهر واخبره ان استاده يفرق الاموال على جنوده لتاييده في اغتيال السلطان • وكان الامراء علم الدين الحنتي وبهادر المعزي وشجاع الدين بكتوت بين المشتركين في هذه المؤامرة ، واعتقلهم الظاهر وقضى على المؤامرة في مهدها (١) •

وفي جمادى الاخرة سنة ٦٦٠ هـ قاد قاضي المقيمين في مصر اتباعه من الشهرزورية والاكراد واستدعى شخصا من بني العباس لتنصيبه خليفة واقامة دولة اخرى غير دولة المماليك ، فقبض الظاهر عليه وشنقه عشية الثلاثاء ١٨ جمادى الاخرة (٢) •

وفيما يلي عرض المحاولات الخطيرة والاجراءات التي اتخذها السلطان •

اولا — سنجر الحلبي :

كان علم الدين سنجر الحلبي طامعا بالسلطنة منذ عهد عز الدين ايبك التركماني • وقد نوى الاستيلاء على السلطنة بعد مقتل عز الدين ، لكن الامراء لم يؤيدوه ، فاضطر الى التخلي عن المطالبة بالسلطنة ، ثم ثقل امره على الناصر فسجن في ربيع الاخر سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ في الاسكندرية الى ان افرج عنه السلطان المظفر سيف الدين قطز وعينه نائبا على دمشق بعد معركة عين جالوت (٣) •

ولما علم بمقتل السلطان قطز ظن الفرصة مؤاتية للعصيان والاستقلال • فاذا لم ينل السلطنة في القاهرة فلتكن له دمشق • وفي السادس من ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ ، اي بعد سلطنة الظاهر بايام جمع علم الدين سنجر الامراء والاعيان في دمشق وطلب منهم ان يقسموا له يمين الطاعة • لم يكن قد اعلن العصيان بعد ، وانما طلب ان يخطب

---

١) اليونيني ، ج ١ ص ٤٣٩ ، وج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ ؛ ابن ابي الفضائل ، ص ٧٩ ؛ المقريزي السلوك ص ٤٤٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٠٨ ، ويقول هذا الاخير (ص ١٦٤) ان الظاهر عاد فافرج عن علم الدين الحنتي في ٢٦ شعبان سنة ٦٧١ هـ •
٢) ابو شامه ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ •
٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٣١ ؛ اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ ؛ الذهبي ، ج ٢ ص ١٢٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٢ ؛ ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٠ •

لهما معا في دمشق وان تكون السكة باسمهما معا وان يكتب على احد وجهيها "الملك الظاهر ركن الدنيا والدين" وان يكتب على الوجه الاخر "الملك المجاهد علم الدنيا والدين" . ثم اتصل بصاحب حمص وصاحب حماه وصاحب حلب الباً منهم ان يؤيدوه في ذلك . ولم يؤيده امراء البلاد الشامية ، اما امراء دمشق فانقسموا بين مؤيد ومعارض . واما اهل دمشق واعمالها فسروا بذلك سرورا عظيما (١) .

هذه ثورة يواجهها الظاهر بيبرس فور اعلانه سلطانا . فلا بد من القضاء عليها بسرعة قبل ان يمتد شررها ، لا سيما والتتر لا يزالون على تخوم بلاد الشام يتحينون الفرصة . ويزيد في خطورتها ان اهل دمشق ناصروا علم الدين ، ولنذكر ايضا ان بعض الامراء لم يبايعوا الظاهر بالسلطنة عن رضى . لذلك كان استمراره في السلطنة يعتمد ، الى حد بعيد على القضاء على هذه المحاولة ، وعلى الاحتفاظ ببلاد الشام ، وهي الدرع الواقي للسلطنة المملوكية ازاء خصومها التتر والفرنجة على السواء . ولنذكر هنا ايضا ان الظاهر لم يخرج من القاهرة قبل ان يتاكد من فوزه على خصومه في بلاد الشام .

ارسل الظاهر بيبرس الامير جمال الدين اقوش المحمدي الى بلاد الشام يحمل كتابين . ثم اتبعه بجيش يقوده علاء الدين البندقداري وبهاء الدين بغدي الاشرفي ، وارسل ايضا الى البرلي نائبه في الساحل المحاق بعلاء الدين الى دمشق للتعاون معهما على سنجر (٢) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣١ ، ابو شامه ص ٢١٠ ، اليونيني ، ج ١ ص ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، وج ٢ ص ٣ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٧ و ٢١٩ ، ابن ابي الفضائل ص ٦٨ ، ٦٩ ، المقريزي السلوك ص ٤٣٨ — ٤٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ص ١٠٣ ، و ١٠٤ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

٢) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٣٨ ، وج ٢ ص ٩٢ ، ١١٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٠٧ .

وكان احد الكتابين الى سنجر نفسه يلومه فيه على فعلته ويدعوه الى الطاعة، ثم يهدده ، اذا اصر على موقفه • ووصل الامير جمال الدين الى ظاهر دمشق في ٣ صفر سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦٠ م واطلع سنجر على الكتاب وكأن هذا الكتاب دفعه خطوة اخرى بعيدا عن الظاهر فجاهر بالاستقلال ، وقطع الخطبة باسم الظاهر ، وانفرد بها ، ثم ركب بشعار السلطنة ، وجمع العمال لعمارة قلعة دمشق (١) •

عند ذلك ابرز جمال الدين الرسالة الثانية وهي موجهة لامراء دمشق وفيها تواقيع بوعود واموال وخلع يبذلها الظاهر لهم • فخرج بعضهم عن طاعة الملك المجاهد وانضموا الى جمال الدين بظاهر دمشق • وكانت الجيوش الظاهرية قد وصلت ايضا • وفي ١٢ صفر خرج سنجر بجيوشه لمقاومة جيوش الظاهر ، فغلب على امره وهرب الى القلعة ، حتى اذا هبط الليل ، غادرها الى قلعة بعلبك ، ودخلت الجيوش الظاهرية دمشق واقيمت فيها الخطبة للملك الظاهر (٢) • وبقي علاء الدين بدمشق يدير شؤونها باسم الملك الظاهر نحوا من شهر حتى جاء علاء الديـــن طيبرس الوزيري من قبل الظاهر نائبا على قلعتها ومسؤولا عن اموالها (٣) •

---

١) ابن عبد الظاهر، ص ٣١ ، اليونيني ، جـ ١ ، ص ٣٧٣ و ٣٧٤ و جـ ٢ ، ص ٣ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ ، المقريزي، السلوك ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٨٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤ •

٢) اليونيني ، جـ ١ ، ص ٣٧٣ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ٢١٩ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٧٧ ــ ٧٨ ، المقريزي، السلوك ، ص ٤٤٤ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٠٣ ، ١٠٧ ، وينفرد هذا الاخير بجعل المعركة يوم السبت، ١١ صفر •

٣) اليونيني ، جـ ١ ص ٤٣٨ ، و جـ ٢ ، ص ٩١ ، ١١٨ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ٢١٩ ، الذهبي جـ ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٧٨ ، المقريزي، السلوك ، ص ٤٤٥ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٠٨ •

ثم راحت الجيوش الظاهرية تطارد سنجر الى بعلبك حتى اذا اعتقله فيها ارسلته الى مصر مقيدا في ١٦ صفر ، فارسل الظاهر الامير بيسرى للقائه ، وادخله من باب القلعة خفية ، ثم عاتبه عتابا خفيفا ، وعانقه ، وادناه اليه ، واكرمه ، واطلق سراحه ، فعاود محاولة الاستقلال في حلب مرة ثانية وفشل ايضا (١) .

واعقب هذا النصر خضوع سائر المدن الشامية للظاهر (٢) .

ثانيا : شمس الدين اقوش البرلي (٣) .

كان قطز قد عينه واليا على نابلس وغزة والسواحل وكان معه الامير بهاء الدين بغدى الاشرفي (٤) . وقد ذهبا الى دمشق بصحبة علاء الدين البندقدارى لمحاربة سنجر الحلبي . ثم ورد الامر من الظاهر الى علاء الدين لاعتقالهما واعتقال جماعة من العزيزية ، ففر الجميع لكن بغدى عاد وسلم نفسه في ربيع الاخر سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ وحمل الى القاهرة وحبس في قلعتها حتى مات في السجن (٥) .

اما البرلي وجماعة الاشرفية والعزيزية والناصرية فواصلوا الفرار (٦) . فكتب علاء الدين للبرلي يلومه على الهرب ويقول له ان المقصود هو بهاء الدين بغدى وحده ثم ارسل اليه "مثالا من مصر يرغبه "لكن البرلي لم يثق به . واتصل بالاشرف صاحب حمص يحرضه على الثورة فلم يجبه ، ثم اتصل بامراء حماه فاجابه بعضهم ووعدوه بانهم مستعدون لان يفتحوا له القلعة . وعرف المنصور صاحب حماه بالمؤامرة فغير الحرس المتآمرين من دون ان يشعرهم بانه عالم بالمؤامرة ، ففشلت خطة البرلي (٧) . فعاد الى

---

١) ملحوظة ٣ ص ٧٣ . وص ٧٥ ادناه
٢) ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٩
٣) وهو برلي برلو عند ابي شامه ص ٢١٥ ، والبرنلي عند ابن ابي الفضائل ص ٨٠ و ٨١ .
٤) ابن عبد الظاهر ص ٣٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٢ .
٥) اليونيني ج ١ ص ٤٣٩ ، وج ٢ ص ٩٣ ، ابو الفداء ج ٣ ص ٢٢٠ .
٦) ابن عبد الظاهر ص ٣٢ .
٧) اليونيني ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥ — ١١٩ — ١٢٠ ، ابو الفداء ج ٣ ص ٢٢٠ .

المنصور نفسه يحرضه على الثورة ويدعوه الى تزعم الحركة الايوبية لاستعادة السلطنة فرد عليه المنصور نافيا ان يكون له مطمع بالسلطنة ، معلنا اقتناعه بحماه وطاعته لصاحب مصر ، منكرا على البرلي وامثاله ان يكونوا وفوا " لاحد من بيت " استاذهم حتى يفوا له . هنـــا هاجم البرلي حماه ثم ذهب الى شيزر .

وهنا لم يجد البرلي امامه الا اللجوء الى الحيلة . امر جنوده ان لايلبسوا لباس الحرب وقصد بهم حلب واتصل بنائبها منذ ربيع الاخر سنة ٦٥٩ هـ فخر الديـــن الحمصي المتوسط له عند السلطان الظاهر . وخرج فخر الدين الى ظاهر البلد ليلقـــاه وجرت بينهما مفاوضة يبدو منها ان البرلي اعلن استعداده للعودة الى طاعة الظاهر مشترطا لقاء ذلك ان يعين نائبا على حلب ، ومقدما على عساكرها ويعطي جماعتــــــه اقطاعـــات ، من غير ان يجتمع بالملك الظاهر اعاء ذلك . واحس فخر الدين بما يخامر نفس البرلي من طمع وخشي على نفسه منه ، فوعده بالذهاب الى القاهرة للتوســـط لدى السلطـــان .

وخرج فخر الدين الحمصي من حلب ، فدخلها البرلي ، وعزل انصار الظاهـــر ونائبه ، وامر اصحابه فيها ، واقطعهم الاراضي ، ثم وزع الغلال المخزونة في المدينـــة على الاعراب الوافدين عليه بقيادة الامير ابن حديثة (١) .

وكتب فخر الدين الحمصي الى الظاهر يعلمه بما جرى ، فارسل السلطان جمال الدين اقوش المحمدي لمطاردة البرلي واعتقاله ، والتقى المحمدي بفخر الدين قادمـا من حلب فانضم هذا الى المحمدي بناء على رسوم من الظاهر ، لمحاربة البرلي . ولتقويــة الجيوش المطاردة للبرلي عفا الظاهر عن سنجر الحلبي وفي جمادى الاولى ولاه نيابــة السلطنة بحلب ومنحه مايلزم للقيام بشؤون النيابة . وجهز له جيشا يحارب به البرلي .

---

١) اليونيني ، جـ١ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ص ٢٢٠ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٨١ .

ثم ضم اليه عز الدين الدمياطي ايضا • وخرجت هذه الجيوش من مصر في شعبان ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ قاصدة حلب • ولما علم البرلي بقدومها هرب الى الرقة فتبعه جمال الدين اقوش المحمدى وادركه فيها فعاد البرلي الى الملاينة والمخاتلة مرة اخرى واعلن خضوعه للسلطان وطلب من الامير ان يتوسط له لدى بيبرس على ان يبقى له امارة حران لانه طرد التتر منها • ثم هدد باللجوء الى التتر ان لم يفعل ذلك فوعده المحمدى بالتوسط له لدى السلطان وتركه يذهب الى حران •(١) •

اما سنجر الحلبي فبقي نائبا في حلب • ثم عاد يحاول مرة اخرى ان يستقل فاتصل بوالي البيرة يعده بمبلغ من الذهب مقابل تسليمه المدينة • فاخذ الوالي المال ولم يسلمه المدينة ــ فاتصل بالبرلي في حران واستدعاه اليه واجتمعا في تل باشر(٢) فانضم عدد من رجال سنجر الى البرلي ، فضعف شان سنجر ، فهرب امام البرلي فدخل هذا الى حلب في رمضان ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ وارسل جنوده لمطاردة سنجر ولم يدركوه (٣) •

ومرة اخرى وجد الظاهر حلب تخرج من يديه فارسل جيشا لاستعادتها ففر البرلي في اوائل سنة ٦٦٠ هـ الى حران ثم الى امد ، لكنه عاد الى حلب بعد عودة الجيش وتظاهر بالطاعة للظاهر فعفا عنه السلطان وثبته في النيابة عليها •

ولما اغار التتر على الموصل استنجد صاحب الموصل بالبرلي فاستاذن هذا الظاهر بالتوجه الى الموصل لمعاونة صاحبها ، فاذن له الظاهر شرط ان ينتظر جيشا اخر يبعث به اليه ليوافيه في حران • فخشي البرلي ان يكون ذلك

---

١) اليونيني جـ ٢ ص ١٠٥ و ١٢٢ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ص ٢٢٠

٢) قلعة على نهر ساجور عند عينتاب شمالي سوريا ، لم يذكرها المؤرخون العرب قبل الحروب الصليبية • واكثرية سكانها ارمن نصارى •(E. Honigmann "Tel Bachir" EI) م٤ ، ص ٧٢٢ — ٧٢٣ •

٣) اليونيني جـ ٢ ص ١٠٦ ، ابن تغرى بردى النجوم جـ ٧ ص ١١٣ •

في حران • فخشي البرلي ان يكون ذلك شركا لاعتقاله، فقصد سنجار • ثم وصل الامراء شمس الدين سنقر الرومي وعلاء الدين طيبرس الوزيري وعلاء الدين البندقداري ، فوجدوا ان البرلي قد فتسلموا حلب وبقي علاء الدين البندقداري نائبا فيها • اما طيبرس فعاد الى دمشق ، وسنقر فعاد الى القاهرة (١) •

وعرض هولاكو على البرلي ان ياتي اليه ، فرفض البرلي • وكانه تيقن ان حياة التشرد لن تجديه نفعا فاعلن ولاءه للظاهر ، فعفا عنه السلطان ، وجاء الى مصر في ذي الحجة سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ واكرمه الظاهر اي اكرام واكرم العزيزية والناصرية الذين معه ايضا ، ثم كتب له منشورا بستين فارسا واعطاه طبلخاناه ، وصار يصحبه في رحلات الصيد ، لكنه عاد فاعتقله في ٢٨ رجب سنة ٦٦١ هـ ، وكان ذلك اخر العهد به (٢) •

ثالثا : المغيث صاحب الكرك (٣) •

المغيث ابن الملك العادل سيف الدين ابي بكر الذي صار ملكا على مصر بعد وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م سجنه الملك الصالح نجم الدين ايوب واستولى على السلطنة بدلا منه •كان شيخ الشيوخ في مصر اراد ان يمنح السلطنة للمغيث هذا بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين لكن حسام الدين بن علي نائب السلطنة اعتقله بقلعة الجبل حتى جاء المعظم توران شاه

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٤٣ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص١٥٣ ، ابن ابي الفضائل ص ٩٥ — ٩٧ ، ابن الفرات مج ٦ ، ص٢٨ والمقريزي ، السلوك ، ص٤٧٥ ، ٤٧٦ • وقبل توزع الحملة على هذا الشكل قصدت انطاكية وامعنت في اعمالها تخريبا ونهبا وحرقا •

٢) ابن عبد الظاهر ص ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٦ اليونيني مج ١ ، ص٤٩٣ ، ٥٣٣ ، ج ٢ ص١٩٤ ، ابو الفداء ج ٣ ، ص٢٢٢ ، ابن ابي الفضائل ، ص٩٧ ، المقريزي ، السلوك ، ص٤٧١ و٤٧٦ •

٣) لا ذكر لها مع الفتوح العربية الاولى • واول ما ذكرت في عهد الصليبيين • فلعلها هولاء البتراء • بنيت سنة ١١٤٢م • ثم صارت منفى السلاطين المماليك • وقد بنى الصليبيون الشوبك سنة ١١١٥ في عهد بغدوين الاول باسم Crac de Montreal او Mons Regalis F Buhl Art "Karak" EI م ٢ ، ص ٨٥٥ و E Honigmann Art "Shawbak" E I م ٤ ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ وعلي ابراهيم حسن ص ٤٥) •

الشوبك معتقلا . وبعد مقتل المعظم امرج من المغيث ، وملك الكرك (١) .

وفي سنة ٦٥٩ هـ تسلم الظاهر الشوبك من نواب المغيث فيها ، بناء على اتفاق سري بين الظاهر والنواب (٢) . فجهز المغيث الشهرزورية واغار بهم على الشوبك واستعاده ، لكنه اطلق الطاعة للظاهر حين اراد هذا استعادته . وسكت الظاهر لانهماكه بدمشق وحلب . لكن الظاهر والمغيث . كانا بعد هذا ، لا يأمن الواحد منهما للاخر . فلما ذهب الشهرزوريه الى مصر اغراهم السلطان فانفصلوا من المغيث ، وكتب المغيث الى بعض امراء مصر والى جماعة من الشهرزورية يستميلهم اليه . ثم اتصل بهولاكو . ثم عادا متصالحا سنة ٦٦٠ هـ وعفا الظاهر عنه واقطع ابنه الملك العزيز ديبان (٣) . لقد كان الظاهر يتربث الفرصة السانحة .

وسنحت الفرصة سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م . يوم السبت السابع من ربيع الاخر سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ قصد الظاهر بلاد الشام ، مارا بمسجد التبن حيث بقي حتى العاشر منه ، وبغزة التي دخلها في ٢٧ منه . وهنا جاءته والدة الملك المغيث تشفع بابنها وترجو الظاهر ان يعفو عنه . فتظاهر السلطان بقبول شفاعتها . ثم انتقل الى الطور في ١١ جمادى الاولى وطلب من المغيث ان يوافيه اليها .

ولما كان المغيث لايثق بالظاهر فانه ارسل له رسالة شفهية اغلظ له فيها الكلام ، ثم راح يسوف في الذهاب اليه . وتعززت مخاوفه حين جاءته رسائل من بعض اصحابه تخوفه من قصد السلطان وتؤكد له النية باعتقاله . ومنها رسالة من ناظر خزانة الظاهر ينصحه بعدم الذهاب الى ملاقاة السلطان . ولم يأمر السلطان وانما

---

١) اليونيني ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٣٩ ، وجـ ٢ ، ص ١٩٣ ، ابو الفداء جـ ٣ ، ص ٢٢٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٧٩ .

٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، اليونيني ، جـ ٢ ص ١٠٧ ، المقريزي ، السلوك ص ٤٦٨

الشوبك معتقلا . وبعد مقتل المعظم اخرج من المغيث ، وملك الكرك (١) .

وفي سنة ٦٥٩ هـ تسلم الظاهر الشوبك من نواب المغيث فيها ،بناء على اتفاق سري بين الظاهر والنواب (٢) . فجهز المغيث الشهرزورية واغار بهم على الشوبك واستعاده ، لكنه اعلن الطاعة للظاهر حين اراد هذا استعادته . وسكت الظاهر لانهماكه بدمشق وحلب . لكن الظاهر والمغيث . كانا بعد هذا ، لايأمن الواحد منهما للاخر . فلما ذهب الشهرزوريه الى مصر افراهم السلطان فانفصلوا من المغيث ، وكتب المغيث الى بعض امراء مصر والى جماعة من الشهرزورية يستميلهم اليه . ثم اتصل بهولاكو . ثم عادا متصالحا سنة ٦٦٠ هـ وفدا الظاهر منه واقطع ابنه الملك العزيز ديبان (٣) . لقد كان الظاهر يتربث الفرصة السانحة .

وسنحت الفرصة سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م . يوم السبت السابع من ربيع الاخر سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ قصد الظاهر بلاد الشام ، مارا بمسجد التبن حيث بقي حتى العاشر منه ، وبغزة التي دخلها في ٢٧ منه . وهنا جاءته والدة الملك المغيث تشفع بابنها وترجو الظاهر ان يعفو عنه . فتظاهر السلطان بقبول شفاعتها . ثم انتقل الى الطور في ١١ جمادى الاولى وطلب من المغيث ان يوافيه اليها .

ولما كان المغيث لايثق بالظاهر فانه ارسل له رسالة شفهية اغلظ له فيها الكلام ، ثم راح يسوف في الذهاب اليه . وتعززت مخاوفه حين جاءته رسائل من بعض اصحابه تخوفه من قصد السلطان وتؤكد له النية باعتقاله . ومنها رسالة من ناظر خزانة الظاهر ينصحه بعدم الذهاب الى ملاقاة السلطان . ولم يأتمر السلطان وانما

١) اليونيني ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .
٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٣٩ و جـ ٢ ، ص ١٩٣ ، ابو الفداء جـ ٣ ، ص ٢٢٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٧٩ .
٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، اليونيني ، جـ ٢ ص ١٠٧ ، المقريزي ، السلوك ص ٤٦٨

الذهاب الى ملاقاة السلطان . ولم يأمن السلطان وانما بعث له برسالة رقيقة لطيفة أقسم فيها اربعين مرة بالطلاق من ام الملك السعيد مشفوعة بهدايا واموال ، حتى انخدع المحيث وارسل الرسائل التي وردته من اصحابه الى الظاهر ، فعمد هذا الى حيلة اخرى اذ زعم انه هو الذي امرهم بكتابة مثل هذه الرسائل يختبر امانته . فاطمأنت نفس المحيث بعض الشيء وقرر الذهاب الى السلطان . فسار اليه في جمادى الاولى سنة ٦٦١ هـ حتى اذا وصل بيسان خرج السلطان يستقبله . واراد المحيث الترجل بين يدي الظاهر فمنعه هذا وسارا جنبا الى جنب الى باب دهليز السلطان فدخل الظاهر دهليزه ، اما المحيث فاخذ الى خركاة اخرى حيث اعتقل . ثم سيق الى قلعة الجبل بالقاهرة بحراسة شمس الدين اقسنقر الفارقاني ، فوصلها ليله الاحد ١٥ جمادى الاخره ، وسجن فيها ، وكان اخر العهد به ، اذ انتهت حياته في شوال سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ (١) .

ولما قبض السلطان على المحيث تغيرت وجوه الامراء وانكروا ما جرى . فرأى السلطان ان يوضح لهم جلية الامر . فاستدعاهم الى اجتماع حضره صاحب حمص وقاضي القضاة بدمشق ، وعرض عليهم كتب المحيث الى التتر يدعوهم فيها لمهاجمة البلاد ويعدهم بالعون ، ثم تليت اجوبة التتر على ذلك ، وطلب منهم الحكم في القضية . ثم شفع الظاهر حجته باستدعاء رسل من هولاكو للمحيث كان هذا اخفاهم وانكرهم ، فايدوا ما قاله السلطان فافتى الفقهاء بفسخ اليمين اذا صحت التهمة ، ثم سجلت وقائع الاجتماع (٢) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٦ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٠ - ٥٣٢ ، وج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٣ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٠٧ - ١٠٩ ، ابن الفرات ج ٦ ، ص ١ و ١٥ ق - ١٦ و ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٥١٧ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، اما كيفية مقتله ، فيقال ان زوجة الظاهر امرت جواريها فقتلنه بالقباقيب .

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٦ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٢ - ٥٣٣ وج ٢ ، ص ١٠٧ و ١٩٤ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن الفرات ، ج ٦ ص ١٦ و ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٨٢ .

ثم تسلم الظاهر الكرك في ٢٢ جمادى الاخره ودخل قلعتها الجمعة في ٢٥ منه وانعم على من بها وغفر لمن اساء اليه لما كان شريدا اذ ان اهلها لم "يخامروا" عليه . ثم نظم شؤونها وامر بحمل الغلال الى المدينة والقلعة ووزع اراضيها اقطاعات على امرائه . وعين عز الدين ايدمر نائبا عليها ، وحلف المقدمون والنصارى فيها يمين الولاء له ، ثم طاف بالقلعة والمدينة وامر بعمارة ما تجب عمارته . وفي ٢٨ جمادى الاخرة تبلغت القاهرة ما جرى له . وفي ١٦ رجب وصل السلطان الى قلعة الجبل ومعه اولاد الملك المغيث ونساؤه فانزل العزيز عثمان في دار القطبية بين القصرين ومنحه الهبات واعطاه طبلخانا ه لكنه عاد فاعتقله سنة ٦٦٩ (١) .

اما اسباب اعتقال المغيث فانها واضحة مما سردناه . وهي تعود الى خوف الظاهر من منافسة المغيث له وامكان تكتل الايوبيين حوله للمطالبة بالعرش ثم تخوفه من اتصال المغيث بالتتر . ويزيد احد المؤرخين ان لذلك الخلاف سببا اخر هو ان المغيث راود زوجة الظاهر عن نفسها حين فر زوجها من الكرك الى غزة (٢) . ولذلك امرت بقتله بالقباقيب .

وقد شك اليونيني بالتهم التي وجهها الظاهر للمغيث . واعتبرها محاولة لتبرير ما فعله . وقد كان السلطان دفع الف دينار لشخص ليقتل المغيث، ثم سكر هذا الشخص وافشى السر (٣) . ويعلق المؤرخون على هذا التدبير الظاهري ويعتبرونه دليلا على سوء طباع السلطان وميله الى الغدر والعنف (٤) . وليس النظر الى هذه القضية من زاوية خلقية شخصية فقط صحيحا،

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٧ و ٧٥ و ٨٠ و ٨١ ،اليونيني ج ١ ص ٣٢ ، ٥٣٣ ، وج ٢ ص ١٩٣ ، ابو الفداء ج ٣ ص ٢٢٦ ،ابن ابي الفضائل ص ١٠٩ ،ابن الفرات ، ج ٦ ص ٢٥ ق ـ ٢٧ و المقريزي ،السلوك ص ٤٨٣ ،٤٩١ . وقد جعل تاريخ استلام الكرك ٢٤ منه .

٢) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ، ٢٥٥ ، ٢٢٦ .

٣) اليونيني ، ج ٢ ص ٣٠٠ .

٤) Sir W. Muir ص ١٧ ، ١٨

ان الظاهر كان رجل دولة ، كان ينظر الى المغيث على انه خصم سياسي فينبغي التخلص منه باي ثمن كان ٠

وباعتقال المغيث زال كل خطر جدى من الايوبيين على السلطان المملوكي ٠ وان تكن حمص(١) وحماة(٢) وصهيون (٣) بقيت بايدى امراء ايوبيين ، فان هؤلاء الامراء كانـــوا مخلصين للظاهـــر ٠

---

١) تسلمها الظاهر سنة٦٦٢هـ/ ١٢٦٤ عند وفاة صاحبها الاشرف ٠ ابن عبد الظاهـــر ص٩٣،٩٢ اليونيني ، جا ص٥٥٦ و جـ ٢ ، ص ٢٣٠ ،ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ٢٢٧ ، ابن ابي الفضائـــل ص ١٢٩ ،المقريزى ، السلوك ص٥٠٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٢١ وقد جعل الوفاة والتسلم سنة ٦٦١ هـ ٠

٢) في سنة ٦٥٩ هـ تعاون صاحبا حمص وحماة على صد التتر ، ثم زارا السلطان بدمشق ٠ وفي سنة ٦٦٠ هـ ارسل صاحب حماة يعتذر للظاهر عن عدم تمكنه من الحضور اليـــه ٠ وفي رجب من نفس السنة ارسل اليه تترا اعتقلهم ٠ وفي سنة٦٦٤ هـ حارب صاحـــب طرابلس الصليبي وزار مصر فرحب بالظاهر ٠ وفي ربيع الاول سنة ٦٦٥ هـ اذ ن لـــه بزيارة الاسكندرية ، وفي سنة ٦٧٣ هـ زاره في القاهرة واكرمه ٠ كانت علاقاته بصاحب حماة جيدة عموما ٠ الا مرة ، في سنة ٦٦٢ ، هـ ، فقد ارسل اليه ينبهه الى ضرورة الامتناع من اللهو ٠ وقد بقيت حماة بيد الايوبيين حتى سنة ١٣٤١ م ٠(ابن عبد الظاهر ، ص ٤٥ ، ٥٢ ، ٩١ ، اليونيني جـ ٢ ص ٣٦١ ، ابو الفداء ،جـ ٣ ص٢١٠ و ٢٢٤ ،جـ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٢٢٤ ،ابن الفرات ،جـ ٦ ، قسم ٢ ورقة ٢ ،المقريزى السلوك ، ص ٤٧١ ، ٥٠٣ ، ٥٥٦ ، ٦١٤ ٠)

٣) كانت علاقة الظاهر بصاحب صهيون حسنة عموما ٠وفي سنة ٦٦٠ هـ ارسل صاحبهـا هدية للظاهر ٠ واتصل به سنة ٦٦٤ هـ وفي سنة ٦٦٧ هـ سلمه مفاتيح القلعة ٠وفي سنة ٦٧٠ هـ توفي صاحبها وفي السنة التالية تسلمها الظاهر ٠(ابن عبد الظاهـــر ، ص ٥٢ ،اليونيني ،جـ ٢ ص ٣٤٣ ،٤٠٧ ، ٤٠٨ ،ابو الفداء ، جـ ٣ ص ٢٢٣ و جـ ٤ ص ٥ ، ٧ ، ابن الفرات ، جـ ٦ قسم ٢ ،ورقة ٤٥ ، ١٠٠ ،المقريزى ، السلوك ، ص ٤٧٠ ، ٥٧٩ ، ٦٠٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٣٩ ٠

رابعا : الامير سيف الدين الرشيدى :

كان هذا الامير قد ساعد السلطان للحصول على العرش فاكرمه اى اكرام واقطعه الاقطاعات الواسعة • فصار يحمي حاشيته حتى ولو آذووا الناس واستبد بامره • واغضى الظاهر عنه لكن الطمع بلغ بالرشيدى ان اراد الاستقلال بالكرك فلم يعد الاغضاء عنه ممكنا • علم السلطان ان الرشيدى اتصل بالمغيث ونصحه بعدم القدوم على السلطان ثم علم بعد اعتقال المغيث ، ان الرشيدى كتب لاهل الكرك ان لايسلموا القلعة للسلطان وعرض عليهم ان يتسلمها بنفسه • فمنع الظاهر الامير ان يسبقه الى الكرك ، ثم اشاع بان امراءه استلموا القلعة فسكنت حركات الرشيدى • ثم ثار الامير لما علم ان السلطان خدعه ، واتصل بالبرلي والدمياطي وجاوءوا بثلاثماية فارس الى حيث كان السلطان يصلي ، وتنبه السلطان للمؤامرة واوعز لقلاوون بالاستعداد ، ثم جاء الامير عزالدين اوغان الركني وابعد الرشيدى من الظاهر • ويقال ان سبب غضبة الظاهر على الرشيدى انه احتج على اعتقال المغيث • وفي ٢٢ رجب سنة ٦٦١ هـ ، اعتقل الظاهر الرشيدى في القاهرة(١) •

ولئن كان الظاهر قد قضى على المحاولات الاستقلالية هذه فان هذا [illegible] لايعني انه لم يلق مشاكل اخرى من هذا النوع في السنوات التالية ، والواقع ان هنالك امراء حاولوا الثورة او التآمر عليه في مناسبات اخرى وفشلوا •وفيما يلي عرض لها •

في رجب سنة ٦٦١ هـ قبض السلطان الظاهر على عز الدين الدمياطي وكان هذا قد نال حظوة في عيني السلطان فنال حق الحصول على اى شيء يريده في بلاد الشام من غزة الى الفرات • ثم تبين له ايضا انه ارسل جماعة مسلحين

١) ابن عبد الظاهر ص٧٧ ، ٨٠ ؛ ابو الفداء مج٣ ص٢٢٧ ؛ الذهبي مج٢ ص ١٢٦ ، ابن ابي الفضائل ص١١٠ ؛ ابن الفرات مج ٦ ص ٢٨و و ٢٨ ق — ٢٩ و المقريزى ، السلوك ، ص٤٩٣ ، ٤٩٥ •

ملثمين واستولوا على ما كان السلطان وهبه لاولاد الملك المغيث ظنا منه ان السر لن ينفضح • وعرف السلطان بالامر وقبض عليه ، لكنه عاد فافرج عنه ، فيما بعد واكرمه (١)

وفي سنة ٦٦٩ هـ تكشفت للظاهر مؤامرة يبدو انه كان للايوبيين ضلع فيها فاعتقل العزيز بن المغيث بتهمة الاتفاق مع الشهرزورية لاعتقال السلطان واستلام العرش مكانه ــ ثم عاد فاعتقل مقدمي الشهرزورية ايضا (٢) •

وفي ذى الحجة من السنة نفسها امر بالقبض على عدد من الامراء ، بينهم علم الدين سنجر الحلبي وجمال الدين اقوش المحمدى وعز الدين ايغان سم الموت، وسجنهم بقلعة الجبل بحجة ان هؤلاء كانوا قد اتفقوا على قتله حين كان يحاصر قلعة الشقيف وقد اسرها في نفسه يومذاك لكن مدة اعتقالهم لم تطل اذ شرع بعد قليل من الوقت يطلق سراحهم ويقطعهم الاقطاعات الواسعة لان فيهم من ناصره في بداية عهده (٣) •

وفي سنة ٦٧٣ هـ عرف الظاهر ان ١٣ اميرا كاتبوا التتر يحرضونهم على غزو بلاد الشام • فاعتقلهم الظاهر ، ولما اقروا بما فعلوا اعدمهم جميعا وكان اخر العهد بهم (٤) •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٧٨ ، ٨٠ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ ، وج ٤ ، ص ٧ ، الذهبي ج٢ ص١٢٦ ، ابن ابي الفضائل ص١١٠ ، ابن الفرات ج٦ ص ٢٨و٢٩ ، ق ، المقريزى السلوك ، ص ٤٩٣ ــ ٤٩٤ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٥٤ •

٢) اليونيني ج ٢ ، ص ٤٤٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص١٨٥ ، ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٨٣ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٩٥ •

٣) اليونيني ، ج ٢ ص ٤٥٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٥٤٣ ــ ٥٤٤ ، ابن الفرات ، ج ٦ قسم ٢ ورقة ٨٣ ، المقريزى ، السلوك ، ص٥٩٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٥٤ •

٤) ابن كثير ، ج ١٣ ، ص ٢٦٨ •

على انه ينبغي ان نلاحظ ان هذه المحاولات كانت ترتدي طابعا فرديا غير خطير • ونلاحظ ايضا ان الظاهر اتبع ازاءها جميعا خطة واحدة هي الاسراع في القضاء عليها بالقوة العسكرية ، وبالاعدام ، وبالحيلة ، قبل ان تستفحل • وينبغي ان نلاحظ ان مكانة الظاهر كانت بعد سنة ٦٦٢ هـ قد توطدت بحيث لا تستطيع مقاومة داخلية فردية ان تقصيه عن الحكم •

٣ — احياء الخلافة •

في محرم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ تغلب هولاكو على جيوش المستعصم بالله في بغداد ودخل عاصمة الخلافة العباسية فاتحا • وقضى على الخليفة والخلافة معا • وبذلك شغر منصب الخلافة نحوا من ثلاث سنوات حتى رجب سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ حين احياها السلطان الظاهر بيبرس •

في رجب سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ ، بعد الانتصار على سنجر الحلبي في دمشق ، وصل الى القاهرة خبر من الامير علاء الدين البندقداري والامير علاء الدين طيبرس الوزيري ان رجلا وسيم الطلعة ، شديد القوة ، ذا شجاعة واقدام ، يدعي انه احمد بن الامام الظاهر ابن الامام الناصر وصل الى غوطة دمشق في نحو خمسين فارسا من عرب خفاجة عرفهم الامير سيف الدين قليج البغدادي ، قادما من بغداد ، بعد ان اطلقه التتر من سجنه • فاصدر بيبرس تعليماته بضرورة الاهتمام بهذا القادم وبتسييره الى مصر بصحبة حجاب •

ويوم الخميس ٩ رجب وصل احمد الى المطرية بالقاهرة فتلقاه السلطان والوزير وقاضي القضاة والشهود والمؤذنون والقراء والائمة واعيان الدولة واليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ، واهل المدينة ، مرحبين به • ودخل احمد القاهرة من باب النصر وشقها وهو لابس السواد ، شعار بني العباس ، حتى خرج من باب زويلة

ثم صعد الى القلعة راكبا (١) .

ويوم الاثنين ، الثالث عشر من رجب ، عقد السلطان الظاهر اجتماعا في قلعة العمد حضره الوزير والشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيره من الفقهاء ، والائمة والعلماء والامراء والصوفية والتجار والكثير من الناس ، ثم وفد السلطان على الاجتماع وبصحبته احمد بن الامام ثم جلس السلطان مجلسا عاديا امام احمد "ولم تفرش له طراحة ولم يحط له كرسي ولامنبر" .

وكانت قضية التثبت من نسب الامام اول مانظر فيه . شهد العربان بصحة نسبه امام قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الاعز ، فقبل هذا الشهادة وثبتت نسبه ثم قام على قدميه وبايعه بالخلافة ، وتلقب باسم المستنصر ثم بايعه السلطان بها " على كتاب الله وسنة رسول الله (صلعم) وعلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله واخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها " . ثم ركب الخليفة والسلطان وشقا القاهرة في وجوه الدولة واعيانها ، والناس محتشدون يتفرجون على هذا المركب .

ويوم الجمعة ، ١٧ رجب ، ركب الخليفة من برجه في قلعة القاهرة الى جامعها وعليه الثياب السود وخطب خطبه ذكر فيها شرف بني العباس ثم قرأ الفاتحة وقرأ تسعا من سورة الانعام ، ثم صلى على النبي وترضى على الصحابة ودعا للسلطان ، ثم صلى بالناس صلاة الجمعة .

وفي ١٩ رجب ارسل الظاهر الى دمشق رسالة مطولة وصف فيها احتفال التنصيب ودعا الناس لمبايعة الخليفة والخطبة له على المنابر .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣٤ ، اليونيني ، جـ ١ ، ص ٤١١ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، وجـ ٢ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، وقد جعل الامراء المرافقين لاحمد من بني مهارش ، وجعل وصوله في ٨ رجب (جـ ١ ، ص ٤١١) ، ابن ابي الفضائل ، ص ٨١ ، ٨٢ ، المقريزي ، السلوك ص ٤٤٨ ، ٤٦٢ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ١٠٩ ، ١١١ ، ابن اياس جـ ١ ص ١٠٠ وقد جعل الوصول الى دمشق في ١٩ رجب .

وفي نفس اليوم دعا السلطان الخليفة الى نزهة في الحراريق في النيل وطلعا الى الجزيرة حيث اجرى استعراض بحرى حضره العامة ، ثم اقطع مماليك الخليفة اقطاعات واسعة في نابلس ، ومنح مقدمهم طبلخاناه .

بقى بعد هذا ان يبايع الناس الخليفة وان يقلد الخليفة بيبرس السلطنة ، بصورة رسمية في احتفال علني عام ، اى ان يعلن للناس ان سلطنة الظاهر شرعيـــة . وفي مستهل شعبان سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ امر الخليفة بصنع خلعه سوداء وطوق وقيد من ذهب ، ويحملها الى خيمة منصوبة في بستان كبير في ظاهر القرافة ، ثم امر كاتب الســـر الشريف فخر الدين بن لقمان ، ان يكتب التقليد بالسلطنة .

وفي الرابع من شعبان ركب الخليفة والسلطان والوزير ووجوه الدولة الى تلك الخيمة فالبس الخليفة السلطان الظاهر بيبرس الخلعة وطوقه وقيده ، ثم صعد فخر الدين المنبـــر وقرأ التقليد وقد بداه بحمد الله الذى قيض للاسلام ملوكا يعلون شانه ، ثم حض النـاس على طاعة السلطان الظاهر واعترف بصنيعه الذى لا يكفي الكلام لشكره مهما طال ، لعطفه على امير المؤمنين ثم قلده السلطنة على " الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكريـــة والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات فورا ونجدا " ثم اخذ يوجه النصائح للسلطان حتى يكون حكمه ناجحا عادلا ، وجعل الجهاد فرضـا .

ثم بايع الناس الخليفة . وكتب السلطان الكتب الى الاقاليم المختلفة يدعـــو اهاليها لمبايعة الخليفة وللخطبة باسمــه على المنابر ولضرب السكة باسمه . ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق وبين يديه الامير جمال الدين النجيبي الاستادار والوزير يحملان التقليـد والامراء والمشاة يمشون القاهرة وقد زينت اسواقها وغصت بالناس اللابسين الثياب الفاخرة الداعين للسلطان بالنصر وبطول مدة الحكم ثم دخل السلطان القلعة وجلس على عرشه ، ومد

السماط • وفي يوم اخر اخذ السلطان يستخدم الموظفين للخليفة ويلحق به الامراء • وعين له اتابكا بالف فارس وشرابيا ومعه خمسماية فارس ، وخازندار بمئتي فارس واستاذ دار بخمسماية فارس وادارا بخمسماية فارس، وقاضيا وكاتبا واماما ومؤذنا وكاتب انشاء واصباء ، ومماليك صغارا وكبارا ليتولوا خدمته ، وجعل نفقة ذلك على حسابه •

وفي ١٩ رمضان خرج الخليفة والسلطان من القاهرة الى بركة الجب حيث لبس السلطان لباس الفتوة على يدى الخليفة • وفي يوم العيد ركبا معا وصليا العيد • وفي ٦ شوال واصلا (١) السير نحو بلاد الشام فدخلا دمشق في ٧ ذى القعدة (٢) ونزل الخليفة التربة السلطانية الناصرية بقاسيون • اما السلطان فنزل في قلعة دمشق •

وهنا كان لابد من القيام بمراسيم رسمية علنية تلفت نظر الناس وتؤثر فيهم• ويوم الجمعة ١٠ ذى القعدة جاء الخليفة الى جامع دمشق من باب البريد ودخله السلطان من باب الزيادة ، ثم دخل الخليفة مقصورة الخطابة وتبعه السلطان وحضرا الصلاة والخطبة، ثم خرجا من الجامع والسلطان في خدمة الخليفة والناس يدعون لهما بالنصر على الاعداء (٣) •

ثم تقرر بعد هذا ان يذهب الخليفة في حملة الى بغداد • الم يقل في خطبته بضرورة "عودة مقر الخلافة الى ماكان عليه في الايام الاول" (٤) ورصد له السلطان مبلغ مليون وستين الف دينار تكفي تجهيز عشرة الاف جندى لاستعادة بغداد واتخذ الظاهر التدابير الكفيلة بنصرة الخليفة فارسل معه ابني صاحب الموصل وسير قوات الى الرحبة لتمنع المغول

١) يقول ابن اياس (ج ١ ص١٠٢) ان السلطان ودعه هنا وعاد الى القاهرة •
٢) يقول ابو شامة (ص٢١٣) ان الوصول الى دمشق كان في ٦ ذى القعدة•
٣) ابو شامة ص٢١٣، ٢١٤ ، ابن عبد الظاهر ص١٣٤، ٤١، ٤٩ ، اليونيني مج ١ ص٤٤٢، ٤٤٩، ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، مج ٢ ص٩٥، ١٠٤، ١٢٤ ، ابو الفداء مج ٣ ، ص٢٢٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص٨٢، ٨٢، ٨٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، المقريزى ، السلوك ، ص٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٤، ٤٥٩، ٤٦٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص١١١ ، ١١٣، ١١٤ ، ابن اياس مج١ ، ص١٠١ ، ١٠٢ •
٤) ابن عبد الظاهر ، ص٤٠ •

من اجتياز الفرات ، وبعث بسيف الدين الرشيدى وسيف الدين سنقر السرومي الى حلب لينجدا الخليفة اذا استدعاهما . وفي ٢١ ذى القعدة (١) سار الخليفة نحو بغداد ومعه نحو ثلاثماية فارس حتى وصل الرحبة . وهنا رفض ابنا صاحب الموصل متابعة السير معه بحجة ان السلطان لم يعطهما مرسوما بذلك ، وانضم اليه ستون مملوكا من ممالياك صاحب الموصل وبعض العرب من ال فضل ، وامير من حماه بنحو ثلاثين فارسا حتى بلغ جيش الخليفة نحو الف جندى .

وبعد ثلاثة ايام غادر الخليفة الرحبة ومر على مشهد علي وزاوية الشيخ بوى ، ثم قائم منقوا جتمع هنا بابي العباس احمد ومعه نحو سبعماية فارس . وجرت مفاوضات بينهما قبل ابو العباس بعدها بمناصرة الخليفة المستنصر . ثم تابع الخليفة سيره الى الحديثة ففتحها له اهلها ورحبوا به ثم انتقل الى الناووسة فالى هيث فدخلها عنوة في ٢٩ ذى الحجة

وعرف قرابغا مقدم عكر التتر وبهادر على الخوارزمي شحنه بغداد بقدوم الخليفة فخرجا في عسكر بلغ خمسة الاف جندى الى الانبار فالى هيث/حيث جرت المعركة في اواخر ذى الحجة سنة ٦٥٩ هـ واوائل محرم سنة ٦٦٠ هـ وهرب ابو العباس احمد وعدد من الامراء .

اما الخليفة فلم يوقع له على اثر بعد ذلك .

ولما علم السلطان بما جرى حزن حزنا شديدا "وراح ماصنعه في البارد" (٢) .

---

١) ينبغي ان نلاحظ ان سير الخليفة من دمشق كان ٢٣ منه عند ابي شامة (ص ٢١٤) و ١٣ منه عند المقريزى (السلوك ص ٤٦٢) ؛

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٢ ، ابو شامة ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، اليونيني جـ ١ ، ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٨٣ ، ٥٠٠ ، جـ ٢ ص ٩ ، ١٠ ، ١١٠ ، الذهبي مجـ ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٨٨ ، ٩٠ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة مجـ ٧ ص ١١٥ ، ١١٧ ، السيوطي ، الخلفاء ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ابن اياس مجـ ١ ، ص ١٠٢ .

وهنا ينبغي ان نسأل : لماذا عدل الظاهر عن تجهيز عشرة الاف جندى ؟ وهل اهتم الظاهر باستعادة بغداد ؟ ولماذا لم يستدع الخليفة الجند الذين كانوا في حلب ينتظرون اشارته ؟ ان قول ابن اياس ان ما صنعه السلطان راح في البارد دليل على ان السلطان كان يستهدف شيئا من وراء هذا كله . ويثبت ذلك ان النفقات بلغت ارقاما ضخمة ولكننا لانعلم ماذا كان هذا المبلغ رصيد للحملة بالذات ، ام انه هو كل ما انفقه الظاهر على الخليفة منذ ان قصده في مصر حتى كانت نهايته في هيت . واذا كان هذا المبلغ قد رصد للحملة فقط ، فهل انفق ؟ او لماذا لم ينفق ؟

الثابت ان الجيش الذى رافق الخليفة لم يعد الف جندى . فلماذا ؟ قيل انه جاء من همس في اذن الظاهر ان الخليفة تتقوى شوكته بعد استعادة بغداد وقد يخلعه من السلطنة . وقيل ان ابني صاحب الموصل لم يرافقاه لانه لم يكن لديهما امر من الظاهر . ولعلهما عدلا عن مرافقته لسبب هجوم التتر على الموصل في ذلك الحين . ولعلهما فعلا ذلك للسببين معا . او لعل التتر قاموا بمهاجمة الموصل عندما علموا بالحملة على بغداد . وفي كل حال يبقى السؤال الاول عن السبب في عدم تجهيز عشرة الاف جندى بغير جواب قاطع .

اما اهتمام الظاهر بفتح بغداد فيعود الى اشارة الخليفة من جهة والى ان مهاجمة بغداد جزء من خطة محاربة التتر من جهة ثانية . اضف الى هذا مايمكن ان يكسبه السلطان الظاهر من نفوذ معنوى بحال اخراج التتر من بغداد . ولكنني لا احسب الظاهر كان بالفعل يهتم باستعادة بغداد ، او انه كان يعتقد ان استعادتها امر معقول عسكريا . ان حفاوته بالخليفة كانت من قبيل المظاهر العفوية التي تفيد مركزه . ولقد احتفى بالخليفة في القاهرة ودمشق حيث ينبغي للناس ان يروا بانفسهم الخليفة والسلطان معا . اما الحملة فمناوشة لااكثر ولا اقل . ولو انه اراد فتح بغداد ، او لو انه اعتقد بامكانية مثل هذا المشروع ، لقاد الحملة بنفسه . ثم انه ليس في وضع اخلي يمكنه من الاستعداد لمثل هذه الحملة(١) كما ان التتر

---

١) حاول مرة اخرى مهاجمة بغداد ــ ثم عدل (ابن ابي الفضائل ، ص١٤٥) .

والسلاجقة والفرنجة لابد ان يغتنموا مثل هذه الفرصة فيما لو اتاحها لهم .

اما الجهوش الظاهرية المرابطة في حلب بانتظار اشارة الخليفة فانها عادت الى مصر بعد غارة على اعمال انطاكية(١) . ولعل السبب في عدم استدعائها يعود الى ان الخليفة كان محاطا بالاعداء فلم يتيسر له الاستنجاد .

ويمقتل المستنصر عمد الظاهر الى اقامة خليفة اخر . والخليفة الجديد هو ابو العباس احمد (٢) الذى فرّ من معركة هيت ثم دخل دمشق مع جماعة من الاعراب في ٢٢ صفر سنة ٦٦٠ هـ ، ثم سافر الى مصر في ٢٦ منه وطعيه الظاهر في الريدانيه ودخلا القاهرة في ربيع الاول (٣) من السنة . فاحتفل به الظاهر وانزله بالبرج الكبير داخل القلعة ورتب له ماتدعو اليه الحاجة .

ومرة اخرى عاد السلطان الظاهر الى الاجراءات الضرورية لتنصيب الخليفة . فعقد (٤) مجلسا عظيما حضره الاعيان والقضاة والامراء والعلماء ورسل بركة خان ثم جاء ابو العباس احمد راكبا . ثم جلس قريبا من السلطان ، وعملت له شجرة نسب وقرئت على الحاضرين ، حتى

---

١) ابو شامه ص ٢١٩ ، ٢٢١ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٦٢ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١١٤ . —

٢) كان قد اختفى بعد دخول التتر بغداد ثم ظهر في اوائل سنة ٦٥٧ هـ عند امير خفاجه فارسله هذا الى نور الدين زامل بن حذيفه امير الاعراب ، فالى ابن مهنا امير ال فضل حتى طلبه الناصر صلاح الدين يوسف لتنصيبه خليفة لكنه انشغل بوصول التتر . ثم بايعه قطز خليفة وارسله لاستعادة بغداد في سنة ٦٥٨ هـ ، ثم عاد الى دمشق فالى مصر حيث وجد الامام احمد قد سبقه فعاد الى سلميه وبايعه البرلي ثم التقى بالمستنصر ، ابو شامه ص ٢١٥ ، اليونيني ، جـ ١ ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٦ .

٣) او ربيع الاخر عند ابن ابي الفضائل ، ص ٤٩ . وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١١٨ ، وهو ٢٧ ربيع الاول عند ابن الفرات جـ ٦ ص ٤٠٠ و ، السيوطي ، الخلفاء ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

٤) في اواخر ذى الحجة سنة ٦٦٠ هـ عند ابي الفداء (جـ ٣ ص ٢٢٤) او ٨ محرم سنة ٦٦١ هـ عند الذهبي (جـ ٢ ص ١٢٦) و ٢ منه عند ابن الفرات جـ ٦ ص ، (والسيوطي ، الخلفاء ، ٤٧٩ ، و ٩ منه عند ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١١) .

اذا اعتبرت صحيحة بايعه الظاهر بالخلافة وتلقب بالحاكم بامر الله . ثم خطب الخليفة وقلد السلطان "امور البلاد والعباد"، وجعله قسيمه في السلطنه . وبايعه النـــاس بالخلافة .

وخطب مرة اخرى بعد المبايعة فشكر الله على نعمائه ودعا الى التقوى والطاعة لاولي الامر . ثم خطب بحضور رسل بركة خان فتحدث عن تفظيع المغول بالاهالي ودعا الى الجهاد واعتبر الامامة فرضا من فروض الاسلام ، ثم امتدح السلطان . لكنه لم يدع لاستعادة بغداد بل تحدث عن الاتصال ببركة خان للحصول على مناصرته .

وفي ١٦ محرم خطب للخليفة بجوامع مصر . اما في دمشق فبعد ذلك بقليل ؟ ثم رتب له الظاهر نفقات تكفيه هو وعياله ومماليكه ، واوجب عليه الصعود اليه في اول كل شهر لتهنئته ، وامر بنقش الدنانير باسميهما معا .

وفي ليلة الاربعاء ٣ رمضان علم السلطان ان الخليفة لم يلبس لباس الفتـــوة فالبسه اياه في احتفال كبير حضره رسل بركه (١) .

نلاحظ ان شكليات المبايعة كانت واحدة في المناسبتين . لكنها اختلفـت في نواح دقيقة معينه فينبغي ان نلاحظها . ففي هذه المرة لم يظهر السلطان من الاحترام مثل ما ابداه للخليفة الاول . واوجب عليه الصعود اليه الى القلعة في اول كل شهر . ثم اذا لاحظنا ان المبايعه تاخرت نحو سنة ، وانه اوجب عليه في ذى الحجة سنة ٦٦٣ هـ ان يحتجب عن الناس ، وانه لم يعن برجل زعم انه ابن المستعصم (٢) سنة ٦٦٥ هـ، ادركنا مقدار تغير وجهة نظره الى الخلافة .

---

١) ابن عبد الظاهر ص٢٧، ٦١، ٦٥، ابو شامه ص٢١٦، ٢٢١، اليونيني مج١ ص٤٨٣، ٤٨٤، ٥٣٠، وج ٢ ص١٥٣، ١٨٧، ١٨٠، ١٩٢، ٢ ابو الفداء مج٣ ص٢٢٣، ٢٢٤. الذهبي ج ٢ ، ص١٢٦ ، ابن ابي الفضائل ص٩٢، ١٠٥، ١٠٦، ابن الفرات مج٦ ، ص١٠ ، و١١ق وفيه نص خطبه الخليفة . المقريزى، السلوك ص٤٦٨، ٤٧٧، ٤٧٩، ٤٩٥، ٤٩٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ص٧ ، ص١١٨ ، ١١٩ . السيوطي، الخلفاء ص ٤٧٩، وحسن المحاضرة ج٢ ص٧٤، ابن اياس ج١ ص١٠٣؛

بقي ان نسال عن سبب عناية الظاهر بالخلافة . وهنا لا بد من العودة الى الوراء ، ولو باختصار شديد ، ليتبين لنا موقف الظاهر من هذه القضية بوضوح . كان احمد بن طولون قد نوى ان يجعل الخلافة في مصر ، ثم استطاع الفاطميون ان يجعلوا القاهرة مركزا للخلافة كبغداد ، لكن صلاح الدين الايوبي اعاد السيادة الاسمية لبغداد ويقال ان الملك الصالح نجم الدين ايوب قد اوصى بتسليم السلطنة بعده للخليفة في بغداد . وكذلك فعل عز الدين ايبك التركماني حين ضايقه الامراء الايوبيون .

ولم يكن بيبرس اول من فكر باحياء الخلافة بعد زوالها فقد كان الناصر صلاح الدين يوسف فكر باحيائها واستدعى اميرا عباسيا ورد على دمشق لتنصيبه خليفة ، لكن وصول التتر بلاد الشام شغله عن ذلك . ثم ان قطز علم من عيسى بن مهنا ، لما جاء دمشق بوصول امير عباسي ، فقال له ان ينفذه الى مصر لينصبه خليفة . وقيل ان قطز بايعه بدمشق ، فسار وافتتح عانة والحديثة وهيت والانبار وانتصر على التتر ثم كاتبه علاء الدين طيبرس الوزيري ان يقصد الظاهر بيبرس فامتنع حين علم بان اميرا عباسيا اخر يقصدها ، وقصد حلب حيث بايعه شمس الدين البرلسي (١) .

لم ينجح اولئك باحياء الخلافة ، ولكن الظاهر بيبرس وهو يسير على خطتهم اصاب النجاح في محاولته . والدافع لمثل ذلك هو رسوخ فكرة الخلافة في اذهان الناس بحيث عد زوالها كارثة ، وكون الخليفة لا يزال يمثل السلطة الشرعية العليا . كان الظاهر يسعى وراء عطف المسلمين عامة ووراء نيل لقب حامي الاسلام من جهة ، وكان يعمل على اكساب سلطانه الصفة الشرعية امام منافسيه زد الى هذا انه كان يتزعم حركة مقاومة التتر . فاعاد تنصيب

---

(١) ابن ابي الفضائل ص٩٣ ، ٩٤ ، السيوطي ، الخلفاء ص٣١٧ . ونلاحظ هنا ان ما يروى عن رحلة هذا الخليفة لاستعادة بغداد هو نفس ما يروى عن الرحلة التي قام بها المستنصر في عهد الظاهر ، ولاقى حتفه فيها .

الخليفة رد على مافعله هولاكو بالمستعصم في بغداد • وقد راينا صدى هذا في نص التقليد الذى ناله من الخليفة • وفي قول الامير سيف الدين قليج البغدادى عند وصول ابي العباس للقاهرة "بهؤلاء يحصل القصد من العراق" دليل على هذا (١) •

ولقد علل ر• هارتمان (R Hartmann) احياء الخلافة العباسية في القاهرة عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م بمايلي : ان زوال الخلافة العباسية ببغداد اوجد فراغا سياسيا لم يؤثر على الفقهاء مقدار ما اثر على الحكام الذين كانوا لايزالون يشعرون بالحاجة الى سلطة تكسبهم الشرعية • كان ابو نمي شريف مكة قد منح حاكم تونس الحفصي الاعتراف الرسمي بخلافته ويلقب المستنصر سنة ٦٥٠ / ١٢٥٣م • ولم يكن هذا الاجراء متمشيا مع معنى الخلافة في مفهومها السني • لكن هذا الاعتراف كسب قيمة جديدة حين قام المماليك بعد معركة عين جالوت بارسال خبر النصر لابي عبد الله الحفصي وتسميته بامير المؤمنين • اما بيبرس، وهو اقوى من سلفه ، فضل ان لايمنح اعترافه الى جار قوى قد يكون خطرا عليه ، بل حل مشاكل الشرعية والاستمرار بتنصيب لاجئ عباسي خليفة في القاهرة وتلقيبه بالمستنصر ايضا (٢) •

ولا ريب ان عمل بيبرس هذا كان ذا اثر في نفوس المسلمين حتى قيل له :

ايا اسد الترك يا ركنها ... ويا آخذ الثار بعد المخافة
كسرت الطغاة جبرت العفاة ... قطعت الفرات وصلت الخلافة (٣)

وهنا نتساءل : هل افاد الظاهر من غزوة العراق ؟ ومن احياء الخلافة؟ افادته محاولة غزو العراق ان جاءه بعض شيوخ عبادة وخفاجة واعلنوا ولاءهم له • وكانوا عيونا

---

١) ابن عبد الظاهر ص٩٤
٢) نقلتها من (B Lewis " Abbasids" EI new ed)م١ ص٢١ •
٣) ابن اياس ج١ ، ص١٠٢ •

للمماليك على التتر (١) . وافاد من احياء الخلافة ، انه جعل السلطنة المملوكية ذات صفة شرعية ، وجعل القاهرة مركزا للخلافة . بيد ان النفقات كانت كثيرة . ولعـــد استهدف توطيد سلطانه باحياء الخلافة ، ولكن سلطانه في الحقيقة لم يكسب قوة فعلية لان الخلافة كانت جثة هامدة لاحياة فيها . وقد يحمل هذا على القـــول ان محاولتـــه بشقيهـــا ، لم تكن ناجحة (٢) . زد الى هذا ان احياء الخلافـــة هذا قد فتح المجال امام المدعين ، وفي رمضان سنة ٦٦٥ هـ جاء دمشق رجل زعـــم انه ابـــن المستعصـــم (٣) .

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص٤٧٦ .
٢) B Lewis "Abbasids" EI new ed ، م١ ، ص٢١ .
٣) ابو شامـــه ، ص٢٤٠ .

٤ - معاملته للامراء :

كان الظاهر كبير الحظ اذ انه عمل في خدمته عدد من الامراء المخلصين القادرين عسكريا ، وكان هو يحسن اختيار هؤلاء من جهة ، ويحسن معاملة امرائه من جهة ثانية ، حتى يكسب قلوب البقية . وقد كانت خطته نحو امرائه مبنية على العناية باحوالهم والاطلاع على سائر شؤونهم ، وعلى العطف عليهم (١) كما فعل عند استلامه السلطنة بالامراء المشردين وبابنائهم وكما فعل باتابكه فارس الدين اقطاى اذ ترك له اقطاعاته على كثرتها (٢) ، وكما فعل ببنات الامير حسام الدين الجوكندار سنة ٦٦٢ هـ اذ سامحهن بما يجب ... ن لبيت المال عليهن من تركة ابيهن وكما فعل بابن الامير شهاب الدين القيمري اذ ابقى عليه اقطاع ابيه وترك الارض لعائلة والى سرمين يستغلونها حين اسر الوالي (٣) .

ومما يؤثر عنه انه زوّج الامير بدر الدين بيليك الخزندار بابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سنة ٦٦٠ هـ واحتفل له بعرسه وتكفل له بجميع النفقات (٤) وفي سنة ٦٦١ هـ انعم على الامير جمال الدين موسى بن يغمور ورفعه الى منصب الاستاذ دارية (٥) ، وفي محرم سنة ٦٦٤ هـ تولى الانفاق على عرس الامير سيف الدين قلاوون واهداه الهدايا الوفيرة (٦) .

وانقض مجنون على امير فقتله وجرح اميرا اخر في سنة ٦٦٤ هـ فقال الظاهر ان موت ولده السعيد اهون عليه من موت الجريح . فطابت بذلك قلوب الامراء (٧) وفي رمضان

---

١) ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٩ ق . (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٥ (٣) ابن عبد الظاهر ص ٢٠ ، ٩٦ ، ٤ - اليونيني مجـ ١ ، ص ٤٨٣ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ص ١ و ، ٥ - اليونيني ج ٢ ، ص ١٩٥ (٦) المقريزي ، السلوك ، ص ٥٤٢ . - ٧ - المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥١ .

سنة ٦٦٦ هـ استطاع ان يفك شمس الدين سنقر الاشقر من الاسر اذ اشترط على هيثوم اطلاق سراح شمس الدين مقابل اطلاق سراح ليفون ابن هيثوم (١) . وفي سنة ٦٦٧ هـ منح احد امرائه اربعين فارسا وترك له موجودات ابيه على كثرتها (٢) .

هذا بالاضافة الى الخلع والهدايا التي كان يمنحها لامرائه سنويا .

وقد كان يرقي عددا من المماليك ، بين سنة واخرى ، كما فعل في رجب سنة ٦٧٠ هـ (٣) .

غير انه لم يكن يترك الحبل لامرائه على الغارب . ففي سنة ٦٦١ هـ غضب على احد خواصه لانه قتل احد منادية سوق الخيل (٤) . وكثيرا ما كان يعتقلهم ، لكنه كان يعود الى الافراج منهم ، اذا لم تكن اخطاؤهم خطرة على سلطانه . واذا كان يعرف منهم القدرة على خدمته . لقد اعتقل علم الدين سنجر الحلبي ثم افرج عنه ليستعيد له حلب . واعتقل عز الدين الدمياطي ، ثم افرج عنه سنة ٦٧٠ هـ وشرب معه القمز . ومازحه في جمع من الامراء (٥) .

واخيرا فانه كان لا يانف من مخاطبتهم بتواضع . فقد يكتب لهم « اخوكم » او والدكم ، او ولدكم . واذا ذكرنا كيف عامل امراءه عند حصار صفد اذ جلد بعضهم لتهاونهم ثم ذهب اليهم يحدثهم بلطف بلغ حد الاعتذار ، بعد النصر ، وكيف وزع الاراضي والاقطاعات بعد فتح قيسارية ، وكيف كان القدوة لهم فيشترك بنفسه في كل عمل مهما كان شاقا ، عرفنا ان معاملته كانت سخية ، ودقيقة ، محسنة ، ولكنها تستتبع الطاعة وحسن الخدمة - وقد نالهما منهم ، بوجه عام .

---

١) اليونيني ، ج ٢ ص ٣٨٥ ; المقريزى ، السلوك ، ص ٥٧٠ و ٢ - المقريزى ، السلوك ص ٥٨٠ - ٣ - ابن عبد الظاهر ص ١٧ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٩٧ ج ٢ ص ٤٧٠ ، ابو الفداء ، ج ٤ ص ٧ . - ٤ - ابن عبد الظاهر ، ص ٨٩ ، ابن الفرات ، ج ٦ ص ٣٥ ، و - ٥ - ابن الفرات ، ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ١٠٣ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦٠٧ .

٥ — رجال الدين :

كان الظاهر يقيم للمشايخ وزنا كبيرا . وكان يخشى باسهم اذ ادرك سلطانهم على العامة ونفوذهم في صفوفهم . وكان يدرك مقدار خطرهم على سلطانه من جراء هذا النفوذ لذلك كان يتعمد زيارة كبارهم تيمنا وتبركا (١) .

وهنالك عدد من العلماء ينبغي ان نتناول علاقتهم بالظاهر لنبين سياسته نحوهم . واول هؤلاء هو عبد العزيز بن عبد السلام وقد رفض هذا مبايعة الظاهر بالسلطنة قبل التاكد من ان الملك الصالح نجم الدين اعتقه ، واحترمه الظاهر واعتبر شهادته بالف شهادة واستشاره فيمن يوليه القضاة بمصر . ثم حضر جنازته سنة ٦٦٠ هـ . ويدل على مقدار تخوف الظاهر منه ما ينسب اليه من انه قال ان سلطانه لم يتوطد قبل موت ابن عبد السلام (٢) .

وقاض اخر هو ابن بنت الاعز وقد كانت له منزلة كبيرة عند الظاهر اذ ولاه منصب قاضي القضاة واوكل اليه النظر في الدواوين والوزارة . ولم يحفل بوشايات الصاحب بهاء الدين عليه (٣) .

ثم الشيخ الامام ابو محمد شمس الدين عبد الله بن شرف الدين محمد بن عطاء الحنفي . وقد رفض مسايرة الظاهر عندما اراد مصادرة املاك اهل دمشق وبساتينهم مع ان قضاة اخرين من المذاهب الاربعة تلاشوا للظاهر بالكلام وقال انه لا يحل لمسلم ان يتعرض لاراضي مملوكه . فغضب الظاهر بحجة انه نفى عنه صفة الاسلام ، لكنه عاد

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص١١٧ . — ٢ — كان ابن عبد السلام جريئا ، ذم الملك الصالح اسماعيل في جامع دمشق حين سلم الفرنجة صفد ، والشقيف وذهب الى مصر ، وهنا ايضا اسقط عدالة وزير لسماحه بوضع طبلخاناه على سطح مسجد . (اليونيني ، ج١ ، ص٥٠٥ ، وج ٢ ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، ابن ابي الفضائل ، ص١٠٥ ، ابن شاكر الكتبي ج١ ، ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ ; ابن الفرات ، ج ٦ ص٨و ٨ ق — ٣ — ولد سنة ٦١٤هـ وتوفي سنة ٦٦٥هـ اليونيني ، ج٢ ، ص٣٦٩ ، ٣٧١ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٥٩)

فرضى منه واستعظمه حين لم يلن ولم يتراجع(١) • وهنالك محي الدين ابو زكريا النووى • وقد بلغ منه انه " واقف الملك الظاهر غير مرة في دار العدل بسبب الحوطة علـــى بساتين دمشق وغير ذلك ، وكان الظاهر يقول انه يخشاه لمجرد روئيته(٢)•

وكانت علاقة الظاهر بهوءلاء المشايخ رسمية ،قانونية ، كما نقول اليوم • لكن هنالك شيخا اخر بلغت علاقته به ابعد من هذا كثيرا وهو الشيخ خضر • وقد وصل الى درجـة عالية من النفوذ لديه ، اذ هدم بالقدس كنيسة وقتل قسيسها ، وهدم كنيسة اخرى بالاسكندرية • وبنى له السلطان زوايا كثيرة في ظاهر القاهرة والقدس وبعلبك وحماه وحمص واوقف له عليها الاوقاف الكثيرة •

ويبدو ان سيرة هذا الرجل الاولى كانت سيئة • فقد تنقل في خدمة امراء مختلفين سنة بعد سنة مستغلا نفوذه لديهم حتى انتقل الى زاوية بجبل المزة بدمشق حيث اجتمع ببعض الصالحين واتصل ببيبرس في تشرده ، واخبره بما سيوءول اليه امره في المستقبل •

ولما بلغ نفوذه هذا المبلغ سار مسيرة نفرت منه الناس والولاة • وفي سنة ٦٧١ هـ حقق الظاهر بما نسب اليه وتثبت من صحة التهم ، فاكتفى باعتقاله وقد اشار عليه الاتابـك والامراء باعدامه ،لكن الشيخ انقذ نفسه اذ زعم للظاهر ان بين اجليهما اياما يسيـــرة ومات في معتقله سنة ٦٧٦ هـ (٣) •

---

١) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢ ـ ٢ ـ ولد سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣ م وتوفي ٦٧٦ ، هـ / ١٢٧٧ م • ابن كثير ، جـ ١٣ ، ص٢٧٨ـ ٢٧٩ ،ابـــن الفرات جـ ٧ ص٨٥ و ١٠٩ ،

٣) ابو الفداء ،جـ ٤ ، ص ٧ ، ١٠ ، وهو يجعل الاعتقال سنة ٦٧٠ هـ والوفاة ٦٧٥ هـ ، ابن شاكر الكتبي ، جـ١ ، ص٢٩٩ ، ابن كثير ، جـ١٣ ص ٢٦٥ ، ابن الفرات ٦، قسم ٢ ورقة ٩٦ ، ٩٧ ، و جـ ٧ ، ص١٠٢ ، ١٠٣ ، المقريزى السلوك ، ص٦٠٨ ، الخطط جـ٢ ص٤٣٠ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ٧ ص١٦١ـ ١٦٣ ، والغريب ان وفاته وقعت بعد وفاة الظاهر بايام • ويقول ابن الفرات ان الظاهر ارسل بالبريـــد الى القاهرة لاطلاق سراحه فوصلت الرسالة بعد وفاة الشيخ !! •

الفصـــل الخامـــس

بيبـــرس في سياسته الداخلية وتنظيماته الادارية

بعد ان تسلم الظاهر السلطنـة واجه قضايا داخلية كثيرة منها الحركات الاستقلالية التي تحدثنا عنها في الفصل السابق . ومنها قضايا الاعراب والاسماعيلية والمشاكــل الاجتماعية والسياسية والدينية والتنظيمات الضرورية في الجيش والادارة والقضاء .

١ — القضـــايا الداخليـــة :

أ — الاعـــراب :

كان عز الدين ايبك اول من واجه قضية الاعراب من السلاطين المماليك . فقد ثاروا عليه في بلاد الصعيد واعلنوا انفتهم من خدمة ملوك مسهم الرق واتصلوا بالناصر صـلاح الدين يوسف يحثونه علـى قصد مصر في سنة ٦٥١ هـ لكنهم فشلوا في ثورتهم هذه . وثاروا مرة اخرى سنة ٦٥٣ هـ واخمد ثورتهم هذه ايضا (١) .

ثم جاء بيبرس فوجد انه لابد من مواجهة قضيتهم بصورة جدية كي لايشغلوه وهو في حروبه مع الفرنجة والتتر . ففي سنة ٦٥٩ هـ حارب عرب زبيد الذين كانوا يخالطون الفرنجة ويدلونهم على نقاط الضعف في دفاع المماليك . حتى اذا غلبهم وجد ان سياسة العنـف وحدها لاتكفي فاقطع امراءهم الاراضي والزمهم خفر البلاد وجعل ابن مهنا اميرا علـى الاعراب جميعا . وقد يكون الخطر من علم الدين سنجر الحلبي هو الذي فرض عليه هـذا السبيـل (٢) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٥ المقريزى ، السلوك ، ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ .

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٣٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٦٥ . وعرب زبيد قبيلة منتشرة في الغوطة والمرج وصرخد وحوران والاحلاف قرب الرملة . (القلقشندى ، ج ٤ ص ٢١٣ ، ٢٢٤) .

وفي سنة ٦٦٠ هـ هاجم عربان الصعيد امير قوص، فهاجمهم الظاهر في رجب وبدد شملهم (١) .

وفي سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م . جاء بعض عرب خفاجه الى مصر وابلغوا السلطان انهم يحاربون التتر واطلعوه على اخبار شيراز فالبسهم الفتوة وانعم عليهم ثم ارسل معهم اميرا من عنده (٢) .

وبعد اعتقال المغيث صاحب الكرك احضر السلطان الامير عبيه وغيره من امراء بني مهدى وبني عقبة وعفا عنهم عما بدر منهم سابقا واوجب عليهم حفظ البلاد حتى الحجاز (٣) .

وفي جمادى الاخرة سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م ، ثار عليه اعراب المنطقة الشرقية في مصر فحمل عليهم بعنف . وفي ٢٠ منه سمّر بعض مقدميهم على الجمال فركن البقية الى الهدوء والطاعة (٤) .

وفي هذه السنة ايضا ثار زامل بن علي على الامير عيسى بن مهنا في شمال بلاد الشام ، فاعتقل الامير الثائر . ثم افرج عنه ووعد الاعراب الوعود الطيبة لكنه ثار مرة اخرى واعترض طريق رسل السلطان الى شيراز واخذ الرسائل التي معهم الى هولاكو ، فاعتقله مرة اخرى في مصر (٥) .

وفي سنة ٦٦٦ هـ ، جاءه عربان الحجاز والتزموا بدفع الزكاة والطاعة (٦) .

وفي سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م . حين كان السلطان يقصد الحج اوهم ابن مهنا انه يهاجم العراق . وفي بداية سنة ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م، ثار الاعراب على ابن مهنا فرجاه هذا ان

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٥٢ ، المقريزى ،السلوك ، ص٤٧١ .
٢) ابن عبد الظاهر ، ص٦٥، ٦٦ ، ٨٩ ، ٩٨ ، المقريزى السلوك ، ص٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١١ .
٣) ابن عبد الظاهر ، ص٦٥ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، المقريزى ،السلوك ، ص٤٨١ ، ٤٩٢ .
٤) اليونيني ، جـ ٢ ص٣٣٧ ، ـ ٥ ـ ابن عبد الظاهر ، ص ٣٢ ، ٣٤ ،ابو الفداء ،جـ ٤ ص٣ المقريزى السلوك ص٥٣٦ ، ٥٤١ ، ـ ٦ ـ ابن الفرات ، جـ٦ قسم ٢ ورقة ١١ .

يسمح له بالقدوم الى مصر ، فلم ياذن له ، حتى اذا جاء السلطان الى حماه استدعاه اليه واستدعى معه بقية الامراء ، ونظر في خلافهم ، وحل قضيتهم وخلع عليهم جميعا (١) .

وفي سنة ٦٧٢ هـ هرب احد امراء الاعراب من سجنه في عجلون الى التتر ثم عاد يطلب العفو من الظاهر فرفض السلطان الصفح عنه قبل العوده الى السجن ووضع القيد في رجليه . فرجع الامير الفار ، وعفا عنه السلطان (٢) .

وهنالك عرب برقة . فقد كانوا يرفضون دفع الزكاة . وفي ذى القعدة سنة ٦٦٢ هـ استدعى اميرهم واتفق معه على دفع الزكاة وحفظ البلاد ومطاردة العصاة . وفعل نفس الشيء مع عرب الجهة الغربية من مصر (٣) . وفي سنة ٦٧١ هـ هاجم برقة كلها . وفي جمادى الاخر من السنة التالية استسلم اليه امراؤها وسلموه مفاتيح القلاع (٤) .

وهكذا نجد ان العربان رفضوا الخضوع للمماليك منذ البداية بحجة انهم ملوك مسهم الرق ، وكانوا ايضا يتهربون من دفع الزكاة . وكانوا على استعداد للانحياز الى التتر والصليبيين واتصلوا بهم بالفعل بحيث كان الظاهر يشعر بحرج موقفه احيانا . اما معاملة السلطان الظاهر بيبرس لهم فكانت تتراوح بين الشدة واللين ، بين القسوة والرحمة ، لكنها كانت دائما مطبوعة بطابع الحذر . وكانت القبائل القاطنة بادية الشام اخطر القبائل ، لقربها من التتر والفرنجة على السواء ، فاضطر لوعدها الوعود الطيبة ، واطلاق الغلات لها ، وبذلك ضمن انحيازهم اليه ، وجعل منهم ادلاء ومخبرين — اما الاعراب البعيدون من مواقع الخطر نفتك بهم بعنف .

---

١) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٨٦ هـ ٨٧ ، المقريزى ، السلوك ص ٥٨٠ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ .
٢) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٨ . — ٣ — ابن عبد الظاهر ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٠٥ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٢١ ، ٥٤٤ ، . — ٤ — ابن ابي الفضائل ، ص ٢٢٥ ، المقريزى السلوك ص ٦٠٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ٢٤١ .

ثانيا - الاسماعيليـــــة :

الاسماعيلية فرقة من الشيعة تعرف بالسبعيه اذ اعتبر اصحابها الامامة منتهيـة عند الامام السابع اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفي في المدينة المنوره سنة ١٤٣ هـ وحاربهم الخلفاء العباسيون فاستعانوا بالتقيه وتلمسوا الملاجئ في المراكز البعيدة . فلجاء علي اصغر اولاد اسماعيل الى بلاد الشام فالمغرب بينما انتقل ولده الاكبر محمـد الى الشرق ومنه الاسماعيليـة الهنديـــة .

ومن الاسماعيلية الذين ايدوا عليا كان عبدالله بن ميمون القداح المتوفي سنة ٢٦١ هـ ، ومنهم مؤسسو الدولة الفاطمية في المغرب ثم الخلافة الفاطمية في مصر وبلاد الشام ، ومنهم الحسن بن الصباح المتوفي سنة ٥١٨ هـ ، وهو مؤسس الاسماعيليـة المعروفين بالحشاشين . اسس هذه الفرقة في قلعة الموت شمالي غربي فارس ومنهـــا الفرع الشامي الذى تركز في السلميه في منطقة حلب (١) . وقد لعبت هذه الفرقة دورا هاما اذ اضطرت الخلفاء والملوك(٢) . ان يدفعوا لها ضريبة ما بين ١٠٩٠ و ١٢٥٦ . وفي سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ حاصر جيش هولاكو ركن الدين خورشاه بن علاء ثم اســره واضطره ان يقبل الارض بين يديه ويعطيه امرا للباطنيه في بلاد الشام بتسليم قلاعهـــم للمغتيرين ثم قتله (٣) .

اما الاسماعيليـه في بلاد الشام فكانوا في هذه الفترة قد اخذوا يضعفون حتى انهم كانوا يحتمون بالصليبيين او يدفعون ضرائب للاسبتاريه منهم (٤) .

EI "Assassins" Vol I pp 491
C Huart "Ismailiya" EI Vol II pp 552

١) ملحوظة ا ، السلوك للمقريزى ، ص٢٧٧ و
٢) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٤ وورقة ٦٩ - ٣ - R Grousset ، ج ٣ ص ٥٦٧ .
٤) المقريزى ، السلوك ص٥٤٣ ، و ٥٥٧ .

ثم جاء الظاهر بيبرس فنقم عليهم لانهم حاربوا صلاح الدين الايوبي حين كان يحارب الصليبيين ، وانهم يؤيدون الصليبيين ويمالئونهم وانهم " باطنيه ملاحدة " لابد من تطهير البلاد منهم ٠ اذا لقد نقم الظاهر عليهم لسببين احدهما سياسي عسكري وثانيهما ديني مذهبي ٠

في سنة ٦٥٩ هـ ارسل صاحب قلاع الاسماعيليه رضي الدين بن العلي ونجم الدين بن الشعراني رسولا حمل للظاهر في دمشق هدية ورسالة ٠ وكان في الرسالة تهديد ومطالبة باستعادة اقطاعات ورسوم كانت لهما في عهد الناصر صلاح الدين يوسف وكان الظاهر لايزال في بدء سلطنته امام مشاكل في بلاد الشام ، فقرر استعمال الحيلة مع الرسول ٠ فاجاب الرسول الى ما كان في الرسالة لكنه اخبره حين ود العودة ، انه علم أن رضي الدين قد توفي وعرض عليه توليته مكانه ثم كتب له منشورا بذلك ٠ فقبل الرسول وهكذا نجح الظاهر في احداث خلاف بين الرسول والمرسلين ٠

وعاد الرسول الى مرسليه فوجد رضي الدين حيا يرزق فاضطر لكتم الخبر ثم مات رضي الدين بعد عشرة ايام فابرز الرسول منشور الظاهر ورضي نجم الدين بالمنشور لكن صارم الدين مبارك بن رضي الدين رفض الخضوع لامر الظاهر فاعلن العصيان في قلعة العليقة ٠ فازدادت نقمة الظاهر على الاسماعيليه وقرر ضربهم عسكريا ٠ فارسل علاء الدين ايدكين البندقداري في رجب سنة ٦٦٠ هـ لضرب سرمين فثار انصار نجم الدين الاسماعيليه تاييدا لوالي سرمين وجرحوا الامير البندقداري وهو مار على جسر عند حماه فامسك الظاهر نواب الاسماعيليه تاييدا لوالي سرمين في مصر فاضطر نجم الدين للتنصل من المسؤلية ومسايرة الظاهر (١) ٠

---

١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٥٨ ، وج ٢ ص ١١٤ ، و ١٦٢ و ١٦٣ ، و ١٥٤ و ١٥٥ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ابن الفرات ج ٦ قسم ١ ، ص ٩٦ و ٩٧ و قسم ٢ ورقة ٦٩ وورقة ٧٩ — ٨٠

وفي ذي القعدة سنة ٦٦٤ هـ جاء رسول الاسبتار الى الظاهر وساله المصالحة على بلادهم في منطقة حمص وبلاد الدعوة فاشترط الظاهر لذلك تخلي الاسبتار عما كانوا ياخذونه من الاسماعيليه من قطائع على حماه وبلاد ابي تبيس ، ومناصفته على الضرائب التي ياخذونها من بلاد الدعوة ، فقبل الاسبتار بذلك وعقد الصلح (١).

وفي سنة ٦٦٥ هـ جاء رسول الامبراطور البيزنطي والفونس الاشبيلي ورسل ملوك الفرنجة وملك اليمن بهدايا الى صاحب قلاع الاسماعيليه ، فرفض الظاهر السماح للرسل بالمرور من غير ان يدفعوا مايترتب على الهدايا والاموال من " حقوق ديوانية " فخافه الاسماعيليه وارسلوا اليه في جمادى الاخر سنة ٦٦٥ هـ اموالا لينفقها في الجهاد . وفي رمضان من السنة نفسها الغيت قطائع الاسماعيليه عن حماه وشيزر وافاميه وعيناب (٢) .

وهكذا ، نجد ان الظاهر استطاع خلال بضع سنوات ان يدق اسفينا في حقوق الاسماعيليه وان يفرض عليهم ضرائب واموالا . لكنه لا يزال عليه ان يحتل قلاعهم .

وفي جمادى الاخرة سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م ، وجد صارم الدين انه لابد من طلب العفو من السلطان . فارسل له هدية وشفع له عنده صاحب صهيون ، وصاحب حماه فرضي عنه الظاهر وكتب له منشورا باستنابته على حصون الاسماعيليه ، الكهف والخوابي ، والمينقة ، والعليقة ، والقدموس والرصافة . واستبقى مصياف له وحده . وفي رجب من السنة نفسها ارسل الى القلاع الاسماعيليه واليا من قبله شريكا لصارم الدين . فثار هذا على الوالي لكنه اضطر للرضوخ اخيرا وللقبول بشراكة نجم الدين . ولدفع مبلغ الف دينار كل سنة (٣). اما نجم الدين فكان عليه ان يدفع ١٢٠ الف درهم سنويا (٤) . ثم عاد فاعتقل صارم الدين في ذي القعدة من السنة نفسها وسجنه في القاهرة . (٥) .

---

١) المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥٠ ، وابو تبيس حصن مقابل شيزر ياقوت ج ١ ، ص ١٠٣ . ـ ٢ ـ ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٤ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ـ ٣ ـ ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٦ ، المقريزي السلوك ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ـ ٤ ـ ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٦ ، ـ ٥ ـ اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ابن الفرات مج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٧٠ وورقة ٨٠ ، المقريزي السلوك ، ص ٥٨٦ ، ٦٠٨ .

وفي شوال سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م ، تسلم السلطان حصن العليقة(١)٠

وفي صفر من السنة التالية تسلم الظاهر عددا من القلاع وثارت عليه القلاع الاخرى فاغتنم الفرصة للانقضاض على مواقع الاسماعيلية ، وتسلمها جميعا وارسل اليها نوابه ونقل الزعماء الاسماعيليه الذين يخشى باسهم الى مصر (٢)٠

لقد كان الظاهر يساير الاسماعيليه حتى سنة ٦٦٨ هـ لكنه بعد هذا التاريخ حين علم بمحاولات التتر والاوربيين للتحالف عليه ، وحين علم بامكانية قيام حملة صليبية جديدة ، تجمع بين التتر من الشرق ، والاوروبيين من الغرب ، راى انه لابد من القضاء عليهم ، كقوة عسكرية ٠ وهكذا كان ٠ وبقضائه عليهم تمهدت السبيل امامه لمهاجمة اسيا الصغرى ٠

ثالثا ـ النوبـة :

تمتد بلاد النوبة على شاطئ النيل من شلال اسوان المصروى قرب الشلال الرابع وتنقسم الى قسمين ، النوبة العليا والنوبة السفلى ٠ وتقع هذه الاخيرة بين اسوان ووادى حلفا ٠ اما النوبة العليا فتقع بين حلفا والشلال الرابع وتشمل حلفا ودنقله وتسمى ايضا بلاد العلى او علوة (٣) وفي بلاد النوبة السفلى كان بنو كنز (٤) ٠ نسبة الى عرب بني الكنز من ربيعه ٠ وكان هؤلاء منذ عهد الحاكم بامر الله الفاطمي ، يتمتعون ببعض الاستقلال ٠

---

١) ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ورقة ٧٩ ـ ٨٠ ، المقريزى السلوك ، ص ٥٩٢ ٠

٢) اليونيني ، جـ ٢ ، ص٤٥١ ، ٤٧٣ ، ابو الفداء ، جـ ٤ ، ص ٧ ، ابن الفرات جـ ٦ ، قسم ٢ ورقة ٨٧ ـ ٨٨ ، وورقة ١٠٣ ، ١٠٥ المقريزى السلوك ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، وهو يجعل تاريخ الاستلام في ذى الحجة ٠ ـ ٣ ـ ملحوظة ١ ص١٨٨ و ١٨٩ ، جـ٧ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ـ ٤ ـ الكنز مقدم مصرى اقام باسوان واجتمع عليه الناس ، فظن انه يستطيع بهم تملك البلاد ، وهاجم قوص في عهد صلاح الدين ، ثم غلب على امره ، صفر ، سنة ٥٧٠ هـ / ١٢٧١ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، طبعة وادى النيل ، سنة ١٢٨٧ هـ جـ١ ص ٢٣٥ ٠

ثم جاء الظاهر بيبرس فتدخل ببلاد النوبة تدخلا فعليا ، لا بل استولى عليها وجعلها جزءا من سلطنته (١).

والنوبة خاضعة للمماليك من الناحية الرسمية ، لكن صاحبها كان كثير الاحتكاك بالتجار وبولاة المماليك في الجنوب ، ففي سنة ٦٦٢ هـ علم الظاهر ان صاحب سواكن وصاحب دهلك يتعرضان للتجار فارسل اليهما رسالة تهديد (٢) . وفي سنة ٦٦٤ هـ حين كان الظاهر بدمشق وصله الخبر باصطدام واليه في قوص بصاحب سواكن واستيلاء الوالي على سواكن وفرار صاحبها (٣) . وفي سنة ٦٦٧ هـ وصله خبر الاختلاف بين داود وابن اخيه مشكد (٤) وفي سنة ٦٧١ ، هـ هاجم صاحب النوبة عيذاب ونهب جيش النوبة اهلها وقتل قاضيها وواليها ، فقام والي قوص بحملة تاديبية على دنقلة وعاد بالاسرى والغنائم (٥) .

وازاء هذه الاحتكاكات كان لا بد من حملة كبرى لاعادة احتلال النوبة . وقد جرت الحملة في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ . وكان السبب المباشر لها ان داود ملك النوبة اغار على اسوان ونهبها واحرقها ، ثم اختلف مشكد (او شكنده) مع ابن عمه داود هذا فجاء الى القاهرة مستنجدا بالسلطان الظاهر . فامر الظاهر الامير اقسنقر الفارقاني بالتوجه الى النوبة بحملة فوصلتوصار في اول شعبان سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ الى دنقلة وفي شوال جرت معركة عنيفة قتل فيها معظم رجال الملك داود وفر الملك واسرت والدته واخته . ودخل الفارقاني دنقلة واقام مشكد ملكا فيها والبسه التاج ثم قرر عليه قطيعة سنوية هي ان يكون للسلطان ربع غلة البلاد من كل شيء ، لكنها عدلت الى ما يلي : —

١) ثلاثة افيال وثلاث زرافات وخمس اناث فهود ومائة جواد اصهب ومائة بقرة منتجة .

---

١) (S Hillelson) مادة " Nuba " الموسوعة الاسلامية ، مجلد ٣ ص ٩٤٥ .

٢) ابن عبد الظاهر ص ٩٢ ، — ٣ — اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ، المقريزى ، السلوك ص ٥٥٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، — ٤ — ابن الفرات ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ٣٧ . — ٥ — ابن ابي الفضائل ، ص ٢١١ ، ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٠٥ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦٠٨ .

٢) نصف غلة البلاد للسلطان على ان يصرف النصف الباقي على عمارة البلاد .

٣) بلاد العلى والجبل - وهي ربع بلاد النوبة - للسلطان لقربها من اسوان .

٤) يحمل للسلطان كل سنة قطن وتمر وبعية "الحقوق الجارى بها العادة من القديم".

٥) دفع دينار من كل بالغ جزية سنويـــة .

٦) قبول نائب للسلطان في دنقله وطاعته .

ثم كتب نسخة هذه الاتفاقية وحلف عليها الاكابـــر والملك . وبقي الجيش الظاهرى في دنقله ١٧ يوما خرب فيها كنيسة سوس ونهب مافيها من ذهب وفضة واخذ الاقمشة والرقيق واطلق سراح الاسرى المسلمين ، ثم عاد الى القاهرة ، فوصلها في ٥ ذى الحجة سنة ٦٧٤ هـ .

ثم عاد الملك داود فاستسلم واستتب الامر للظاهر في بلاد النوبة ، وبلـــغ خراجها وجزيتها مبلغا ضخما جعل السلطان ينشئ ديوانا خاصا لذلك (١) .

وهكذا نجد ان لعلاقة السلطان الظاهر بالنوبة ثلاثة دوافع هي :

اولا : حماية التجارة . وبلاد النوبة طريق تجارى من المحيط الهندى والبحـــر الاحمر .

ثانيا : تامين الغلات منها . ويبدو انها كانت غنية بحيث استحقت انشاء ديوان خاص لجمع الضرائب والغلات منها .

ثالثا : ضرورة حمايـــة البلاد من عبث العابثيـــن لا سيما والنوبة مجاورة لبلديـــن صديقيـــن هما الحبشـــــة واليمن .

---

١) ابو الفداء ، جـ ٤ ، ص٩ ، ابن ابي الفضائل ص٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، المقريـــزى السلوك ، ص٦٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٨٨ ، ١٩٠ ، ابن اياس ، جـ ١ ، ص ١٠٩

رابعا – سياسته الدينيـــة :

كانت الناحية الدينيــة هامة عند الظاهر بيبرس لما تحققه له من اغراض .
ولست اقصد بهذا ان بيبرس كان منافقا في تمسكه بالمظاهر الدينية . الواقع هو ان بيبرس كان حسن الاسلام شديد التمسك بكل طقوسه . حتى انه امر ببناء جامع من خام قرب خيمته للصلاة بها (١) . لكنه كان يدرك ان لهذه الناحية اهمية سياسية وعسكرية . فهو لم يعمل على اعادة الخلافة لما لها من مقام ديني وحسب . ثم انه كان حريصا على سيطرته على مكـــة والمدينة لما في ذلك من تعزيز لمكانته بين المسلمين ، داخل حدود سلطنته وخارج حدودها .

الملحوظ ان السلاطين المماليك عامة عنوا بصورة ظاهرة بانشاء الجوامـــع والمزارات . كانوا بهذه السياسة يودون التعويض عما فاتهم من شرف النسب ، وصرف الانظار عن سيئات حياتهم الخاصة . وواضع هذه الخطة هو الظاهر بيبرس . لم يكن في حياتـــه الخاصة مايسوء او يؤذى ، ولكنه كان في كل سنة يقوم بعمل ذى مغزى ديني يرضي به شعوره الديني من ناحية ويحقق له غرضا اخر من ناحية اخرى .

ففي سنة ٦٥٩ هـ ارسل الاموال والمعدات لعمارة الحرم النبوى بالمدينـــة وفي شعبان من سنة ٦٦١ هـ وصله خبر من امير المدينة ، بانه قصد مكة وعلق فيها الكســوة بناء على اوامره (٢) وفي رمضان من السنة نفسها امر بتجهيز البنائين والنجارين والالات والاخشاب الى المدينة لبناء الحرم النبوى . وكان حريصا ان يعرف هذا عنه . فامر بان تحمل الادوات والاخشاب على بغال تطوف بها في مصر والقاهرة وان يركب معها ارباب الدولة والقضاة والمدرسون والصوفية والقراء . وفي شوال سارت القافلة الى المدينة ومعها كسوة البيت الحرام ايضا (٣) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص١٠٣ ، المقريزي ، السلوك ، ص٤٤٥ – ٢ – ابن عبد الظاهر ص٨٩
٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٣ ، اليونيني ، ج١ ، ص٥٢٤ – ٥٢٥ ، ج٢ ص١٩٥ ، المقريزي السلوك ص٥٠٢ .

وفي صفر سنة ٦٦٢ هـ اخبر الحجاج انه خطب للظاهر بيبرس بمكه وان نائبه تسلم مفتاح البيت الشريف . فامر السلطان باباحة زيارته ثلاثة ايام من غير ان يؤخذ من الزائرين (١) شيء . وفي شعبان سنة ٦٦٢ هـ بلغه خبر تعليق كسوة الكعبة . وفي رمضان ثم صنع كسوة قبر النبي بالمدينة ، فارسلت اليها مع الشموع والبخور والطيب والزيت (٢) .

ثم زاد اهتمامه بمكة والمدينة . ففي رجب سنة ٦٦٣ هـ جهز الاخشاب والحديد والرصاص وكسوة للكعبة وسيرها الى الكعبة مع العمال والمهندسين صحبة نائب دار العدل . واستمر العمل حتى سنة ٦٦٧ هـ (٣) . وكان يرسل اليهم الاطباء والادوية وسائر مايحتاجونه باستمرار .

وفي سنة ٦٦٤ جهز المحمل الى الحجاز وارسل معه اموالا وغلات لتوزع هبات(٤) .

وفي رمضان سنة ٦٦٥ هـ ، قصده مالك بن منيف بن شيحة الحسيني بهدية اذ كانت بين مالك هذا وعمه وحشه فقبلها الظاهر منه وولاه المدينة . فاستولى عليها سنة ٦٦٦ هـ . وهرب عمه الى مكة . ثم تجددت الخلافات بينهما فتدخل السلطان مرة اخرى وقرر لهما مبلغا من المال على ان لا يأخذا فلسا من حاج وان لا يمنعا احدا من الزيارة وان لا يتعرضا لتاجر وان يكون الخطبة والسكة باسمه ، ثم وهب مالكا اوقافا ببلاد الشام(٥)

وعني الظاهر بشؤون الحج . ففي سنة ٦٦٥ هـ حج احد امرائه فبعث معه اموالا للصدقة (٦) وفي صفر سنة ٦٦٦ هـ خرج الظاهر بنفسه لاستقبال احد

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٩٠ ، المقريزى السلوك ، ص٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ـ ٢ ـ المقريزى ، السلوك ص٥١٢ ـ ٣ ـ اليونيني ج ٢ ص٣٢٥ و ٣٤٦ . ـ ٤ ـ المقريزى ، السلوك ص٥٤٤

٥) اليونيني ، ج ٢ ، ص٣٨٧ و ٤٠٨ و ٤٠٩ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٧ ، وورقة ٤٥ المقريزى ، السلوك ، ص٥٦٠ و ٥٧٩ ، ٥٨٨ .

٦) المقريزى ، السلوك ص٥٦٤ .

امرائه عز الدين الحلي العائد من الحج للتبرك به (١) ٠ وفي شوال سنة ٦٦٦ هـ خرج الركب المصرى الى الحجاز للحج فعني بامر تجهيزهم ثم استقبلهم عند عودتهم في صفر سنة ٦٦٧ هـ ٠

وكان في كل مناسبة يرسل كسوتين للكعبة ولقبر النبي ويبعث بالعطايا ويسهل الحج فازداد بذلك نفوذه (٢) ٠

وفي سنة ٦٦٧ هـ قرر السلطان الحج بنفسه ٠ وقبل الرحيل اجرى الترتيبات اللازمة (٣) ثم غادر القاهرة في ١٢ جمادى الاخرة الى خربة اللصوص خارج دمشق ٠ وفي ٥ شوال ذهب الى غزه فالغوار كانه ذاهب للصيد ٠ ثم دخل الكرك في اول ذى القعدة وفي سادسه سار الى الشوبك حيث قضى بضعة ايام ٠ ثم استانف السير الى الحجاز وهو متكتم (٤) في الوجهة المقصودة ومعه بدر الدين الخزندار وصدر الدين سليمان الحنفي وفخر الدين بن نعمان وتاج الدين بن الاثير ونحو ٣٠٠ مملوك ، وبعض اعيان الحلقة ٠ ووصل المدينة في ٢٥ ذى القعدة ٠ وبعد ايام قصد مكة فوصلها في ٨ ذى الحجة ولاقاه صاحبها ابو نمي وعمه ادريس واعلنا خضوعهما له ، وثبتهما في امارتهما ، ثم سارا بين يديه الى عرفات فمنى فمكة حيث صعد الكعبة "وغسلها بماء الورد وطيبها بيده" وبقي فيها حتى ١٣ منه ثم عاد الى المدينة (٥) ٠

---

١) اليونيني ، جـ ٢ ، ص٣٧٣ ، (٢) اليونيني ، جـ ٢ ص ٣٨٧ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٨٠ ؛

٣) ص ١١٤ ادناه

٤) كان شديد الحذر حتى انه قطع لسان امير طلب منه اصطحابه الى الحج ، ووجه فرقة للمرابطة بظاهر الكرك ، واوهم ابن مهنا انه قاصد العراق ٠

٥) اليونيني ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ابو الفداء ، جـ ٤ ص ٥ ، ٦ ، اليونيني جـ ٢ ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ورقة ٦٢ ـ ٦٣ ، المقريزى ، السلوك ص ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٨ ، التبر المسبوك ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ، ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٥ ، ابن اياس جـ ١ ، ص ١٠٧ ٠

قام الظاهر بالحج تحقيقا لطقس ديني • ولكنه استهدف ايضا الاطلاع على شؤون مكة والمدينة • كان له هدف سياسي ايضا • فقد اتصل بصاحب اليمن ودعاه لمحاربة التتر واحسن الى امراء ينبع وخليص واكابر الحجاز (١) • وكان قد علم بتحركات التتر نحو الحجاز (٢) ولا ننسى هنا ان الظاهر كان ينوي القيام بحملة ضد التتر في اسيا الصغرى، فطبيعي ان يستفيد من المظاهر الدينية لكسب عطف المسلمين • لقد جمع بذلك بين الجهاد والحج •

واعاد صلاة الجمعة والخطبة الى الجامع الازهر في ١٨ ربيع الاخر سنة ٦٦٥ هـ • بعد مناقشة بين الفقهاء بعد ان كان الحاكم بامر الله الفاطمي قد نقلهما الى الجامع الانور(٣) •

واهتم بمدينة القدس وبمدينة الخليل • ففي سنة ٦٥٩ هـ ارسل عمالا ومعدات لبناء قبة الصخرة ، واستعاد ما كان الامراء استولوا عليه من اوقاف الخليل • وفي جمادى الاخرة سنة ٦٦١ هـ زار القدس واوصى بحماية قبة الصخرة ، وتامين نفقات القائمين عليها • وفي صفر سنة ٦٦٢ هـ اوقف فيها خانا ورتب بمدينة الخليل سماطا ورواتب للمقيمين والواردين • وفي سنة ٦٦٥ هـ عني بامر الكشف عن الماء بالقدس (٤) •

---

١) ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٦٣ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٨١ ، ٥٨٢ ، التبر المسبوك ، ص ٩١ ـ ٩٢ •

٢) ابن الفرات ، ص ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٦٢ •

٣) اليونيني ، جـ ٢ ، ص ٤٣٤ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٢ ـ ٤ لكن التاريخ عنده ١٨ و١٩ ربيع الاخر • وقد راى السيوطي هذا التدبير سيئا • (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٤) •

٤) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٨ ، ٧٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٤٥ ، ٥٠٥ ، ٥٦٠ •

واستطرادا من هذه السياسة كان الظاهر يكثر بذل الصدقات ، وقد كانت المناسبة المفضلة لذلك هي رمضان ، والامثلة على هذه الصدقات كثيرة ذكرت المصادر بعضها ، لكن ابن عبد الظاهر ، بعد ان ذكر ما فعله في رمضان سنة ٦٦١ هـ قال ان ذلك كان "على عادته" (١) .

وكذلك عنى الظاهر بنشر الاسلام ، وهذا ما تدل عليه وسائله مع بركة ومعاملته المنتر الذين كانوا يردونه مستامنين(٢) ، وعني ايضا بتنفيذ الشرع (٣) .

وهكذا نجد ان سياسة الظاهر الدينية كانت مبنية على احترام المظاهر الدينية والقيام بما يتطلبه الدين من طقوس وعبادات ، وعلى انشاء الجوامع والمزارات والزوايا والاوقاف وعلى العناية بالمدن المقدسة ، لكنه كان حريصا على ان تعرف اعماله هذه وان تذاع بين الناس ، مما يوحي بان اعماله هذه كانت ذات اهداف غير دينية .

٢ - الجهاز الادارى :

بما ان السلطان الظاهر كان يوجه نشاطه في الداخل الى توطيد المماليك في ظل اسرته قد رايت ان ابداء الحديث عن الجهاز الادارى ببحث في السلالية عنده .

اولا . السلالية .

نعلم ان الظاهر طمع بنيابة حلب ، لكنه لما استولى على السلطنة ، اخذ يطمع بالاحتفاظ لسلالته بالسلطنة على المماليك مخالفا بذلك العرف المعمول به بين المماليك بشان الانتقال من سلطان الى اخر ، والذى جاء الى الحكم بنفسه استنادا اليه ، لم يكن

---

١) ابن عبد الظاهر ص١٠٣ ، ١١٨ ، المقريزى ، السلوك ، ٥٠٥ ، ٥١٣ .
٢) ابن عبد الظاهر ص٩٩ ، المقريزى ، السلوك ص٥١١ .
٣) ابن عبد الظاهر ص ٢٥ - ٢٦ .

العرف المملوكي يقضي بالوراثة ولكن الظاهر اراد ان يجعله كذلك • وقد وجهت هذه الرغبة عنده جميع تنظيماته الداخلية الادارية منذ بدء عهده بالسلطنة •

كان للظاهر عشرة اولاد بينهم ثلاثة ذكور وهم محمد بركة خان وقد ولد في صفر سنة ٦٥٨ هـ ، وسمي كذلك على اسم جده لابيه ، وبدر الدين سلامش ونجم الدين خضر (١) •

وكان محمد بركة خان اكبر ابنائه الثلاثة • فقرر الظاهر اعلانه وليا للعهد بعده ، وطلب من الجيش ان يحلف له يمين الولاء ثم راح يدربه على شؤون السلطنة ، ويستغل كل مناسبة للتاكيد على سلطنته بعده • ففي سنة ٦٦٠ هـ حين كان عمر محمد بركة خان ، نحو سنتين فقط ، حلف الجيش له يمين الاخلاص والولاء من بعده • وفي سنة ٦٦٢ هـ ختنه في حفل ضخم جمع ابناء الامراء والاعيان والاجناد والرعية ليختتنوا معه ، ووزع الهدايا والاموال على الامراء والاجناد والرعية (٢) •

ويوم الخميس ١٢ شوال سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٥ ، قبل الذهاب لملاقاة التتر على البيرة استعرض الظاهر الجيش ، ثم اعلن ابنه وليا للعهد بعده ، ولقبه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خاقان ، ثم اركبه بابهة الملك وادخله القاهرة من باب النصر ، وشق به المدينة والامراء مشاة بين يديه ، وهو ، اى الظاهر ، يحمل الغاشية له بنفسه (٣) •

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص٦٤٤ ، ابن اياس ، جـ ١ ، ص١١٤ ،

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٣ ، اليونيني جـ ٢ ، ص٣٢٣ ، لكنه يجعل الختان في ٥ ذى القعدة سنة ٦٦٣ هـ ، الذهبي ، جـ ٢ ص١٢٨ ، ابن الفرات جـ٦ ص١ ق • المقريزى ، السلوك ، ص٤٦٨ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، وهو يجعل الختان بعد السلطنة ، سنة ٦٦٢ هـ ، ابن اياس جـ ١ ، ص١٠٣ — ١٠٤ •

٣) ابن عبد الظاهر ، ص١٠٦ ، اليونيني ، جـ ٢ ص٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ابن ابي الفضائل ص١٤٥ ، ١٤٦ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ص ٤٨ ق ، والتاريخ عنده ١٣ شوال •

وفي ١٧ شوال ، قرئ التقليد بتفويض عهد السلطنة للسعيد ، وفي التقليد اشارات الى جهاد الظاهر ضد الخصوم واعلان سلطنة السعيد لمتابعة ما بداه الوالــــد . ثم ارسل نسخا بذلك الى جميع النواب والولاة (١) .

ولم يكتف الظاهر بهذا . وفي يوم الخميس ٩ صفر سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ حين قرر ان يقوم بالحج جلس الظاهر في ايوانه في قلعة الجبل واحضر الشهود والقضاة لتحليف الامراء ومقدمي الحلقة بالسلطنة لابنه السعيد من بعده مرة اخرى . ويوم الاثنين ١٣ صفر ، دخل السعيد الايوان راكبا كما يفعل ابوه ، ثم جلس وقرئت عليه القصص ويوم الاثنين ، ٢٠ صفر ، اركبه السلطان مرة اخرى بابهة الملك ومشى امامه ومعــه الامراء والاجناد ، ثم عين له الامير بدر الدين بيليك الخزندار نائبا عنه لمساعدته . وبعد ذلك صار السعيد يجلس في الايوان لتصريف الامور مكان ابيه(٢) .

وفي جمادى الاخرة سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ سار الظاهر الى دمشق في حملـة على الفرنجـة واخذ معه ابنه السعيد وليس له من العمر الا ما يقارب الاثني عشـر عاما وذلك لتعويده . تحمل المشقات والتدريب على الادارة . لا سيما وقد كانـت سفراته الى بلاد الشام كثيـرة .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٩٤ ، ١٠٦ ـ ١٠٩ ، اليونيني ، جـ ٢ ص٣٢٢ ـ ٣٢٣ ، ابن الفرات ، جـ ٢ ، ص٤٨ ق ـ ٥٠ و ، المقريزي ، السلوك ، ص٥١٦ .

٢) اليونيني ، جـ ٢ ، ص٤٠٦ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٣٧ ـ ٣٨ ، المقريزي السلوك ، ص٥٧٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص١٤٤ .

وسار السعيد على نهج ابيه • ففي ١٢ رمضان سنة ٦٧٢ هـ صحب بعض الامراء وسار الى دمشق سرا ودخلها في ٢٦ منه • ثم عاد الى القاهرة مارا بشقيف ارنون وصفد ، حتى وصلها في ٢١ شوال سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ (١) • فوجد ان اباه قد قام له بمظاهرة اخرى في يوم ختان اخيه نجم الدين خضر في يوم عيد الفطر (٢) •

وفي ٢٤ محرم سنة ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ ارسل الظاهر الامير بدر الدين الخزندار من دمشق الى القاهرة ليعود بالسعيد وببعض الامراء الى دمشق • وفي سادس صفر زوجه من غازية خاتون ابنة الامير سيف الدين قلاوون • وفي ربيع الاخر سنة ٦٧٥ هـ عمل له العرس في القاهرة في مظاهرة كبيرة اذ استمر العرس بضعة ايام مدت فيها الاسمطة وتبارى فيها الجنود في الميادين • وتزاحم الناس للتفرج ، واقيمت الزينات ووزعت الخلع والهبات • وكان الهدف من تزويج ابنه بابنة قلاوون تثبيت مركز ابنه من بعده (٣) •

هكذا نرى ان الظاهر كان يعد العدة لاستبقاء السلطنة في ذريته • لكن حلمه لم يتحقق • صحيح انه استطاع ان يورث ابنه السعيد السلطنة لكنها لم تدم في ابنيه السعيد وبدر الدين سلامش من بعده غير سنوات قليلة • لقد كانت محاولته هذه تمهيدا لغيره من بعده • فقد استطاع قلاوون من بعده ان يبقي السلطنة في ذريته نحوا من ثلاثة ارباع القرن •

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص ٥٩١ ، ٦١٢ •
٢) ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٦ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦١٢ •
٣) ابو الفداء ، جـ ٤ ، ص ٩ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٢٣٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ابن الفرات جـ ٧ ، ص ٥١ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ابن اياس ، جـ ١ ، ص ١٠٩ ، لكن موعد الزواج عند هذا الاخير سنة ٦٧٣ هـ •

ثانيا ـ القوات المسلحة :

عني الظاهر بيبرس بقواته المسلحة عناية كبيرة • وهذا طبيعي • وهو يعود الى سببين اساسيين هما ان حياة المماليك نفسها كانت عسكرية في طبيعتها • فمنذ ان يؤتى بالمملوك صغيرا ، يوضع في مدرسة خاصة ، تدعى طباقا ويشرف عليه رأس نوبة طواشي فيحفظه القرآن ويلقنه الكتابة والشريعة وبعض الفقه ، حتى اذا ما قارب البلوغ اخذ بتدريبه تدريبا عسكريا • والمملوك في هذه الفترة خاضع لنظام دقيق حتى انه لا يسمح له بالخروج الى المدينة الا في اوقات معينة • وكان تدريبه يمر في مراحل مختلفة حتى اذا ما استكملها اعتق واعطي السلاح والحق بالمماليك السلطانية وقد تميز هذا النظام عن امثاله بدقة التنظيم المتناهية •

والسبب الثاني الذي حدا بالظاهر للاعتناء بالجيش مثل هذه العناية الكبيرة هو ان الاوضاع التي كانت تحيط به حتمت عليه ان يعنى بتنظيم قوات مسلحة وابقائها على استعداد دائم ، وفي مستوى عال من التدريب • وفي مثل هذا الجو كان لابد له من ان يكثر من شراء المماليك ومن ان يتشدد في اختيار جنوده وتدريبهم احسن تدريب •

وقد نشأ الظاهر بيبرس نفسه هذه النشأة العسكرية • وكان نفسه ايضا ، فيما يبدو ، جنديا وقائدا منذ فطرته • ومنذ معركة المنصورة اخذ يبدي عناية خاصة بجماعته من الجند • ولما فر الى بلاد الشام اكرم الذين لحقوا به وعني بشؤونهم برغم ضيق ذات يده • ولما استولى على السلطنة جمع شمل المماليك ورد عليهم ما كانوا خسروه في مدة التشرد وتفقد اولاد من ماتوا منهم وقرر لهم ما يحتاجونه (١) •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٢٠ •

اقســـام الجيــش المملوكـــي :

كان الجيــش المملوكي بصورة عامة يتالف من ثلاثة اقسام هــي :

اولا : المماليك السلطانية وهم فئتان : القرانيص او فرق السلاطين السابقيــن ، ومشتروات السلطان القائم ويسمون بالاجلاب . ومنهم يتخذ الخدم والحرس الخاصكيه . وهــم ما نسميهم اليوم بالجيش النظامي الدائم .

ثانيا : مماليك الامراء وهم اجناد الامراء المقطعين . والى جانب هؤلاء سكــان البادية والقبائــل التي يصطنعها السلطان(١) .

ثالثا : اولاد الناس وهم اولاد الامراء ومنهم المجندون من المماليك الذين تأثلموا ونلاحظ ان السكان الاصليين لم ينخرطوا في الجيش . ثم ان كل فرقة من هــؤلاء كانت مستقلة عن الثانية ، ولا تختلط بها .

عـــدد الجيــش المملوكـــي :

ضم جيش السلطان الناصر هذه الاقسام الثلاثة جميعا . وليس واضحا تماما عدد جيشه من كل فئة من الفئــات الثلاث . بيد اننا نستطيع ان نحدد الفئة الاولى بما يقــارب الاثني عشر الفا تلثهــم في مصر وثلثهــم في دمشق وثلثهم في حلــب . وقد قيـــل ان الناصر رفع عدد جيوشه الى اربعـــة اضعاف ما كانت عليه عهد الملك الصالح نجم الديــن ايوب وبذلك بلغت اربعين الفا (٢) . اما الاربعون الفا فالارجح انها مجموع الجيوش مـــن الفئات الثلاث اثناء الحملات الحربية . وتعطينا استعراضاته العسكرية فكرة عن ان جيشه كان ضخما .

---

١) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٣٩ .
٢) ابن شاكر الكتبي ج ١ ، ص ١٦٩ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦٣٨ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٤٢ ــ ١٤٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٩٧ ، بولياك ، ص ١٦ ، ويقــدرها هذا بستة عشر الفا .

ولما سئل الظاهر في استعراض سنة ٦٦٢ هـ ، ما اذا كان الجيش الذي يستعرضه هو كل ماعنده من قوات ، اجاب انه جيش القاهرة وحدها (١) •

وكان الجيش موزعا على المدن الكبيرة في مصر وبلاد الشام ، وفي القلاع الداخلية وفي الثغـــور •

وكان للامراء رتب تبدأ برتبة امير مئة ، وهي العليا ، ثم امير طبلخاناه فاميـــر عشرة ، فامير خمسة • وكان عدد امراء المئة اربعة وعشرين اميرا وعدد امراء الطبلخانـــاه ثلاثين اميرا (٢) •

<u>نفقـات الجيـش :</u>

ولم تكن نفقات الجيش ثابتة ، اذ انه لم يكن للجند مرتبات ثابتة • فالمماليـــك السلطانية نفقتهم على السلطان بالذات • اما جنود امراء الاقطاع فنفقتهم من الاقطاعات التي يمنحها السلطان لهؤلاء الامراء • واما نفقة الفئة الثالثة فمما يرثونه من ابائهم ويزيد على هذا ، للفئات الثلاث ، ما يحظونه من مكاسب الحرب ، ومن هبات وخلع فـــي المناسبات المختلفة • ولئن لم يكن لدينا مايدلنا بدقة على مقدار نفقات الجيوش المملوكية عهد الظاهر ، فانه بوسعنا ان نقرر انها كانت كبيرة جدا • وهنالك روايات قد تلقي ضوءا على هذا ، • الاولى ان المظفر قطز جمع نحو ستماية (٣) الف دينار لحملته على التتر فـي عين جالوت خلال بضعة اشهر • والثانية ان الظاهر خصص نحو مليون دينار (٤) لتجهيـز عشرة الاف جندي في حملة على العراق ، والثالثة انه انفق نحو ٦٠٠ الف دينار (٥) فـــي حملته سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م ، على البيرة ، والرابعة انه فرض مليون (٦) درهم على اهـــل دمشق للاسهام في حملته الاخيرة في اسيا الصغرى •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص١١٣ ، — ٢ — راجع ص ١٢٧ ادناه وملحوظات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ •
٣) المقريزى ، الخطط ، ج١ ، ص ١٨٧ • — ٤ — ص ٨٧ ، اعلاه • — ٥ — الذهبي ج ٢ ، ص ١٣٣ — ٦ — المقريزى ، السلوك ، ص ٦٤٠ •

وفي الخطط (١) فصل عن جيوش الدولة التركية ، اشار فيه الى كيفية تامين نفقات الجيوش المملوكية فقال ان السلطان كان يحدد للامير ثلث الاقطاع ويجعل الثلثين لاجناده وان اقطاع امير المئين المقدم يتراوح بين ثمانين الف دينار ومئتي الف دينار وان اقطاع امير الطبلخاناه من ٢٣ الى ٢٠ الف دينار ، اما الاجناد فادنى اقطاع الواحد منهم ٢٥٠ دينارا .

ونقل القلقشندى عن ابن عبد الظاهر ، ان نفقات السلاح خاناه كانت تتراوح مابين ٧٠ و ٨٠ الف دينار (٢) .

قيـــادة الجيـــش :

كان السلطان الظاهر نفسه القائد الاعلى للجيش ، وهو مطلق التصرف في شؤون الحرب والسلم يعاونه في ذلك مجلسان – مجلس السلطنة او المشور المؤلف من اتابك العساكر والخليفة والوزير وقضاة المذاهب وامراء المئين ، ومجلس الامور الخاصة وهو برئاسة امير من امراء المئين ، ومهمته بروتوكولية ، وقد نظم الظاهر هذين المجلسين بحيث كانت كلمته هي العليا (٣) .

وكانت الفئة الاولى – المماليك السلطانية – مقسمة الى ثلاثة اقسام يسمى ثلثها الاول جيش الزحف ، ثم يتبعه الثلث الثاني فالثالث اذا لزم الامر .(٤).

وكان الظاهر يعطي قواده تعليمات دقيقة مفصلة عند الهجوم ، وغالبا ما كان يسجلها في رسالة مختومة ويعطيها للقائد ويامره الا يفتحها الا في مكان معين (٥) .

---

١) المقريزي ج ٣ ص ١٣٩ ، ١٤٥ عـ٢ – القلقشندى ، ج ١٣ ، ص ٤٧٧ .
٣) القلقشندى ، ج ٣ ، ص ٤٨١ ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ج ٥ ، ص ٤٥٥ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٥ ، حسن ، ص ١٦٨ ، وقد عرف الفاطميون المجلس الثاني وقد كانت له عندهم صلاحيات واسعة – ٤ – ملحوظة ٢ ، ص ١١٧ اعلاه .
– ٥ – ابن عبد الظاهر ، ص ١١٩ – ١٢٠ ، المقريزى ، السلوك ، ٥٢٣ – ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، الخطوط ج ٣ ، ص ١٤١ .

خطتـه في معاملة الجنــود :

كان الظاهر يعامل جنوده معاملة طيبة اثناء السلم وفي المعركة . فقد عين لهم يوم الخميس من كل اسبوع لاستماع شكاويهم ، وكان يعنى بترتيب اخبازهم حتى لايكون مجال للتذمر .

اما في الحروب فقد كان يضع نصب اعينهم هدفا يستجلبهم كنصرة الاسلام ويشدد على ذلك ويدعو له بعوة حين يتذمر الجند كما فعل اثناء الدفاع من البيرة ، سنة ٦٦٣ هـ وكان لايعرضهم الى مخاطر لاداعي لها .

لبـاس الجيــش واسلحتــه :

كان الجندى يضع الكلوتة الصفراء على راسه ، ويرتدى القباء الابيض الضيق الاكمام من القطن البعلبكي ،وقد يكون لونه ازرق او احمر (١) .

اما الاسلحة ، فمنها السيف والرمح والترس والنشاب . واما الالات فالمجانيــق والدبابـات ذوات العجل ، والزحافات والقطاطيع (٢) .

الاستعــراضـات العسكريـــة :

وليس ادل على هذه العناية بالجيش من الاستعراضات الضخمة المؤثرة التي كـان الظاهر يجريها ، ففي سنة ٦٦١ هـ امر الظاهر امراءه واجناده ان يعملوا العدد الكاملة لهم ولمماليكهم . فاشتغل الجميع بذلك حتى اذا صدف ان مرّ احد في سوق السلاح لم يقدر على العبور من كثرة الخيل والاجناد . ولم يعد لاحد شغل غير الاهتمام بعدتـــه الحربية ، فارتفع سعر الحديد واجر الحدادين من جراء ذلك . ثم اجرى الاستعــراض وكان كل جندى يمر امام السلطان فيسأله هذا من حاله حتى اذا تظلم احدهم من اميره اوجب انصافه (٣) .

---

١) المقريزي الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٤١ ـ ٢ ـ المقريزى ـ السلوك ، ص ٤٢٥ .
٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

وفي جمادى الاول سنة ٦٦٣ هـ ارسل الظاهر الامير سيف الدين بلبان الزيني امير علم الى بلاد الشام لتجهيز القلاع وعرض العساكر في حماه وحلب وفي الثغور المختلفة . واوجب على الامراء استكمال العدة للجهاد وامر بحمل خزانه كبيرة من المال من دمشق الى البيرة لنفقات الدفاع منها (١) .

وقرر اجراء استعراض اخر في ذى القعدة من السنة نفسها فاصدر تعليماته بذلك منذ شعبان . فاهتم الامراء والجنود في القاهره ودمشق وحلب وحماه حتى انه لم يبق لهم مايشغلهم غير تامين السلاح للاستعراض . وامر ان لايلبس في يوم الاستعراض الا عدة الحروب .

وفي اليوم المحدد للاستعراض جلس السلطان في صفة بجانب دار العدل عند بزوغ الشمس وجاء الناس منذ الساعة الباكرة يتفرجون وامتلأت الساحات جنودا حتى كانت العين لا تقع الا على خوذ لامعة وانوار ساطعة وخيول تصهل وجنود تقبل واطلاب سائقة وعساكر متلاحقة . ثم امر السلطان كل امير ومقدم ان يعرض جنوده ومماليكه في يوم واحد . واستمر العرض يوما كاملا ، والجندى يجيب عما يسأل ، ثم ضاق الوقت فصاروا يمرون خمسة خمسة فعشرة عشرة .

وعند المساء ركب السلطان بقباء ابيض وساق الى الدهليز ثم عاد الى القلعة ومنها الى ميدان العيد حيث جرى لعب القبق ورمي النشاب .

وفي اليومين التاليين اخذ يوزع هباته على الملوك والامراء والخواص وارباب المناصب والعمائم والوزراء والقضاة حتى تعجب الناس من كثرة مابذل ، ثم ختم الاستعراض بسماط في قلعة الجبل (٢) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٩٨ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥١٠ .
٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٠ — ١١٣ ، ابن الفرات ج ٦ ، ص ٥٣ و — ٥٤ ق ، المقريزى السلوك ، ص ٥١٢ ، ٥١٧ — ٥١٩ .

وقد كان السلطان الظاهر حريصا على المظاهر للتاثير على الناس • فقد جاء بالسير جرود (i: Hroli) قسطلان يافا (١) لحضور الاستعراض ودعا رسل بركة لحضوره ايضا (٢) •

وفي اول سنة ٦٦٧هـ/ امر بالاستعداد لاستعراض عسكرى عام اشبه بالاستعراض السابق (٣) •

<u>التدريب العسكرى :</u>

ومن مظاهر اهتمامه بالجيش انه رتب لعب العبق ورمي النشاب ، ليستمر بذلك تدرب الجنود وجعل من لعبة البولو والصيد ميدانا للتدريب العسكرى ايضا • وكان يقيم لذلك رحلات وحفلات خاصة • ففي سنة ٦٦١ هـ رتب لعبة العبق ، وفي سنة ٦٦٢ هـ اقام احتفالا لرمي النشاب ، بعد الاستعراض الكبير ، وفي محرم سنة ٦٦٧ هـ / ايلول ١٢٦٨ اقام احتفالا اخر خاصا برمي النشاب في ميدان الصيد ، ثم اتبعه بتدريب للجيش (٤) • وفي ذى الحجة سنة ٦٦٩ هـ / تموز ١٢٧٠ لازم دار الصناعة لرمي النشاب •

وكان يوجب على جنده ان يصنعوا النشاب بانفسهم •

وفي رمضان سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ اقام احتفالا للعب العبق ورمي النشاب معا دام بضعة ايام • وانقسم الجيش فرقتين وقامتا بما نسميه اليوم بالتدريب بالذخيرة الحية (٥) •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص١١١ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٥٣ ق • ـ ٢ ـ ابن عبد الظاهر ، ص١١٢ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٥٣ ق ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥١٩ • ـ ٣ ـ ابن الفرات ج ٦ قسم ٢ ورقة ٣٦ وورقة ٤٧ ، ٤٩ ، ـ ٤ ـ ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٤٨ ـ ٤٩ •

٥) ابن عبد الظاهر ، ص١١٢ ، المقريزى ، السلوك ، ص٥٧٣ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٦٠٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، والعبق خشبه عاليه في اعلاها دائرة يحاول الرماة ادخال السهم فيها لاحكام الرمي • وكان لرمي العبق ميدان خاص بالقاهرة هو الميدان الاسود وقد بنيت فيه مصطبة خاصة للسلطان في محرم سنة ٦٦٦ هـ (المقريزى ، الخطط ج ٢ ، ص١١١ ، نقلا عن السلوك ، ص ٥١٨ ـ ٥١٩ ملحوظة ٦) •

القـــوات البحريـــــة .

كانت القوة البحرية قد اهملت في السنوات السابقة لمجيء السلطان الظاهـــر بيبرس واستخدم الامراء رجال الاسطول في الحراريق . لكن الظاهر امر في سنة ٦٥٩ هـ ان يعود الامر الى ما كانت عليه الحالة في عهد الملك الكامل ، وانشاء الشواني في الاسكندريـــة ودمياط ، واصدر تعليماته بضرورة العناية بالاخشاب . ويوم الاحد ١٩ رجب سنة ٦٥٩ هـ اجرى استعراضا بحريا اشرف عليه هو والخليفة من جزيرة الروضة (١) .

ولما تحطم الاسطول الظاهري في غزوة قبرص ، اهتم ببناء اسطول جديد . وفي ذي الحجة سنة ٦٦٩ هـ تموز ١٢٧١ امر ببناء اربعين قطعة بحرية . وكان يشرف بنفسه على بناء الطرائد والسلالير والحراريق في دار الصناعة . ويوم الاحد ١٤ محرم سنة ٦٧٠ هـ ١٢٧١ نزل الى دار الصناعة لتدشين الاسطول الجديد . وفي سنة ٦٧١ هـ نصب مئـــة منجنيق على اسوار ميناء الاسكندرية لصد الفرنج (٢) .

حقا ان الظاهر لم يهمل القوات البحرية الحربية ، لكنه لم يعن بها كما عني بقواته البحريـة المسلحـــة .

وينبغي الا نختم هذا الفصل قبل الاشارة الى وسيلة اخرى لجاء اليها الظاهـــر للدفاع وهي استخدام القبائل لحماية الطريق والمناطق الواقعة على التخوم ، او اسكان هذه القبائل في مناطق الخطر . وفي سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٧ اسكن بعض التركمان فـــي فلسطين واسكن البعض الاخر في كسروان (٣) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣٠ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٤٧ .

٢) ابن عبد الظاهر ص ٣٠ ، اليونيني ، جـ ٢ ، ص ٤٥٤ ، ٤٦٦ ، المقريزي ، السلوك ص ص ٤٤٧ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠١ ، ٦٠٨ ، والخطط ، جـ ٣ ، ص ١١١ ، حاشيـــة ١ . النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٥٥ .

٣) المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥١ ، راجع ص ٩٩ وما يليها من الاعراب .

ثالثا ـ الادارة

عني مؤرخو المماليك عامة عناية كبيرة بتفصيل اسماء البلاد التي حكمها الظاهر، ثم جعلوا منها ثلاثة بسموها اربعة اقسام • قسم ملكه، وقسم احتله من الصليبيين وقسم اخر احتله من غير الصليبيين، وكانت له فيها السلطة الكاملة وقسم رابع لم يستطع احتلاله بل قبل المشاركة في حكمه والمناصفة على غلاته •

تدبر الملك من مصر الى يمن　　　الى العراق وارض الروم والنوب •

اى ان ملكه امتد من تخوم اسيا الصغرى في الشمال الى الجزيرة العربية والنوبة جنوبا اما شرقا فكانت الاراضي التي بارت بعد غزوات التتر حدا فاصلا بينه وبين ايلخانات فارس • ولم تخضع له الجزيرة العربية كلها ولكنه كانت له مهادنة مع صاحب اليمن، وسيطرة على مكة والمدينة، لتامين حماية الكرك والشوبك، والطريق الى اليمن(١)

ودامت مدة حكم الظاهر سبع عشرة سنة واثنين وتسعين يوما منذ جلوسه في ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ الى وفاته في ٢٨ محرم سنة ٦٧٦ هـ •

---

١) ملك دمشق وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وتل باشر وصهيون وبلاطنس وقلعة الكهف والقدموس والمينقة والعليقة والخوابي والرصافة والكرك والشوبك وحلب وشيزر والبيرة والنوبة وبرقة، وقيصرية، والقليعة ومصياف، وقيسارية وارسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبغراس وحصن الاكراد وعكار وحلبا والقرين وصافيتا ومرقية ودربساك ودركوش ورعبان وبانياس والمرزبان ودلوبا وشميس وكفردنين وبرزوية، وسائر اقليم مصر، وناصف الفرنجة على المرقب وانطرسوس • (ابن عبد الظاهر، ص١١٨، ابن ابي الفضائل، ص٢٨٤ / ٢٨٢، المقريزى • السلوك، ص٦٣٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص١٨٦ ـ ١٨٨، ١٩٠ •

وطبيعي ان ادارة هذه البلاد الواسعة في وقت كانت الاخطار محدقة بها ، تتطلب مقدرة كبيرة كالتي تحلى بها الظاهر. لكن هذا لا يكفي ولا بد من جهاز اداري معين ولا بد لهذا الجهاز الاداري من اسس معينة يقوم عليها .

وينبغي ان ننتبه هنا الى ان المماليك ورثوا ادارة سابقة ولم يكن بوسعهم ان يستبدلوها بغيرها بسرعة. ثم ان طريقة مجيئهم الى السلطة حتمت عليهم ان يضيفوا للادارة السابقة اشكالا واسسا جديدة اقتضتها الظروف من جهة واقتضاها كونهم اتراكا عرفوا في مواطنهم السابقة نوعا تتريا وفارسيا من الادارة من جهة ثانية . ويدلنا على هذا تركيب اسمائهم من مقاطع تركية وفارسية وروسية. وقد اتبع الظاهر قاعدة ملوك التتر واحكام جنكزخان في اليسق والتورا (١) .

وقد تنبه ابن تغري بردي لذلك فقال "ان الملك الظاهر هذا هو الذي ابتداء في دولته بارباب الوظائف من الامراء والاجناد وان كان بعضها قبله فلم تكن على هذه الصيغة ابدا . اي ان الظاهر احتفظ باسماء وظائف سابقة لكنه غير صلاحياتها من جهة وسلمها لجند من جهة ثانية ، ثم انشأ وظائف جديدة منحها لرجال السيف .

(١) اليسق تركية ومعناها الترتيب والتورا تركية ايضا ومعناها المذهب. واصل كلمة اليسق هو سي يسا . وسي فارسية معناها ثلاثة ويسا مغولية معناها ترتيب . اي ان الكلمة تعني الترتيب الثلاثي الذي اوصى به جنكزخان ابناءه الثلاثة. ثم حرفت العامة الكلمة فقالوا "سياسة" ثم حذف الترك "سي" وحولوا "يسا" الى يسق. (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٦، ص٢٦٨ - ٢٦٩ ، وج٧ ، ١٨٢ - ١٨٣ .)

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٧ ، ص١٨٣ .

مقابلـة الادارة الظاهرية بالادارة الايوبية من حيث الاسس العامة .

كانت الادارة عهد الايوبيين ترتكز على قيام سلطان وراثي مركزه مصر ، ويتبع له الامراء الاقطاعيون من سلالته . وكان هؤلاء الامراء ذوي صلاحيات واسعة في اقاليمهم . وظلت الادارة المملوكية تحت سلطان مركزه مصر لكنها اختلفت عن سالفتها في انها كانـت اكثر حزما واكثر مركزية فقد كان الظاهر يتطلب تنفيذ اوامره بسرعة وبدون تردد . وكان دائما مسيطرا على الادارة . فمند سنة ٦٦٦ هـ / لم يبق ببلاد الشام امارة مستقلة استقلالا داخليا عن السلطنة الا حماه فاستطاع بذلك ان يمنح ادارته انسجاما وتوازنا ضروريين لها .

ثم انه لم يكن للسلطان الظاهر سلالة كما كان لصلاح الدين الايوبي تضعف من سلطانه وتشل يده . ولم تكن السلطنة المملوكية وراثية من حيث المبدا ولو شاء الظاهر ان يفعلها كذلك ، من حيث الواقع . اضف الى هذا ان السلطنة الايوبية كانت تابعة لخلافة مركزهـا بغداد لها صفة السيادة الشرعية عليها ولها قوة عسكرية . بينما كانت السلطنة المملوكية تابعـة شكلها لخلافة وهمية من صنعها مركزها القاهرة .

السلطـان الظاهـر وموظفـوه .

كان السلطان على راس الادارة المملوكية . وكانت له صلاحيات وسلطات واسعة كان في الحقيقة ، اولا بين زملاء - primus inter pares - ولكنه كان عظيمـا بينهـم مهابا لايجسرون على الدخول عليه بدون اذن (١) . وبلغ من هيبته ان كان البعـض يخشون الدخول عليه ولو مأذونين (٢) .

---

١) المقريزي ، السلوك ، ص ٦٣٧ .

٢) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٩١ ، عندما استدعى عز الدين الدمياطي وعلي الدين الركني اليه لارسالهما لدمشق لاغتيال طيبرس .

وكان السلطان يعين كبار موظفيه كالنواب والوزراء وكتاب السر والمحتسبين ونظار الدواوين وكان له حق عزل هؤلاء الموظفين ساعة يشاء ، وله حق النظر في المظالم .

وكان الى جانبه امراء اربعهم امراء المئة (١) وامراء الاربعين او امراء الطبلخاناه (٢) وامراء العشرة (٣) وامراء الخمســـة .

وكان السلطان الظاهر دقيق المراقبة لموظفيه ونوابه جميعا . شديدا في محاسبتهم ، سريعا في معاقبتهم او مكافآتهم وكان يطالع ورقة الصباح ، وهي نشرة يومية كان الوالي في القاهرة يصدرها صباح كل يوم ذاكرا فيها ما مر من حوادث . وكان يتنكر في الليل ويسير في شـــوارع القاهرة ، ليراقب سير الامور . ففي سنة ٦٦٢ هـ كثرت الجرائـــم في خليج القاهرة اذ اختفى عدد من الناس ثم تبين ان امرأة حسناء تعرى الشباب المثريـــن ، حتى يرافوها الى بيتها فتقتلهـــم وتستولي على مامعهـــم . فسمرها السلطان وسمر معاونيها (٤) .

وفي ربيع الاول من سنة ٦٦٣ هـ تبين للسلطان ان نواب الوالي في القاهرة لم يسجلوا في ورقة الصباح حوادث سرقة ونهب . فشنق المسؤولين عن الاهمـــال (٥) .

---

١) عددهم ٢٤ اميرا . وامير مئة مرتبة خاصة ويقال امير مئة مقدم الف . اسماهم الفاطميـــــون الامراء المطوقين منسبة لاطواق الذهب (القلقشندى ، جـ ٢ ص ٤٧٦ ، والمقريزى ، السلـــوك ص ٢٣٩ ، الخطط جـ ٣ ص ١٣٩ ، ونفس الصفحة ، ملحوظة ١ ، للدكتور محمد مصطفى زيادة

٢) امراء لهم الحق بدق الطبول . اسماهم الفاطميون " ارباب القضب " كان عددهم ثلاثين اميرا . ويرجع دمومبين التسمية الى ان خوارزمشاه جاء الخليفة العباسي الناصر ببغداد يضرب النوبة .(القلقشندى ، جـ ٢ ص ٤٧٢ وجـ ٤ ، ص ٥ ، المقريزى، الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٣٩ دمومبين ص (LIV)

٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٣٩ ، ومنهم صغار الولاة والموظفين .

٤) اليونيني ، جـ ١ ، ص ٥٥٢ ــ ٥٥٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ ، المقريزى ، السلـــوك ص ٥٢١ .

٥) اليونيني ، جـ ٢ ، ص ٣١٨ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٣٤ .

وفي ذي الحجة سنة ٦٦٤ هـ امر بتسمير جماعة من الناس ايضا (١) وتجول في القاهرة ذات ليلة في ذي الحجة سنة ٦٦٣ هـ فوجد جنديا عرى امرأة وراح يضربها في مركز الوالي ولا يجرؤ الوالي على معاقبته . فاوجب انزال العقاب الشديد بالمجرمين (٢) .

وكان سريعا في معاقبة الوالي اذا علم منه شذوذا او تقصيرا . ففي شوال سنة ٦٦٠ هـ امر باعتقال علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب السلطنة بدمشق ، لانه اساء السيرة مع اهل دمشق ومكن العربان من شراء الغلال من دمشق مع خوف اهلها من هجوم التتر حتى بيعت الموجودات باثمان بخسة وبيعت الجمال باسعار عالية ، واثرى النائب اثراء اعتبره السلطان غير مشروع (٣) .

ولم تكن جولاته السرية تقتصر على القاهرة . فكثيرا ما كان يتنقل بين القاهرة والاسكندرية ودمشق وحماه وحمص سرا للاطلاع على حقيقة الحالة فيها (٤) . ففي ذي القعدة سنة ٦٦٢ هـ خرج بجولة تفتيشية في الجهات الغربية من مصر (٥) . وفي رجب سنة ٦٦٧ هـ غادر دمشق الى خربة اللصوص والقاهرة سرا على خيل البريد ثم عاد الى دمشق والناس يظنونه مريضا (٦) . وفي محرم سنة ٦٧٠ هـ قصد الكرك سرا ونقل نائبها الى حصن الاكراد وعين فيها نائبا جديدا ، ثم واصل السير سرا ، حتى وصل حماه (٧) .

---

١) اليونيني ، جـ ١ ، ص٥٥٣ ، وجـ ٢ ، ص ٢٢١ و ٣٦٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص٤٧٣ ، المقريزى ، السلوك ص ٥٤٠ .
٢) ملحوظة ٣ ، ص ١٢٩ .
٣) ابن عبد الظاهر ص ٥٨ ، اليونيني جـ١ ، ص ٤٩٠ ، ٤٩١ ، وجـ ٢ ص ١٥٣ ، ١٥٥ ، ٤٩١ ، ابو الفداء ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ ، ابن ابي الفضائل ص٩٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٧٢ .
٤) المقريزى ، السلوك ، ص ٥٨٣ .
٥) المصدر السابق ، ص٥٠٥ ، و ٥٢١ ، ـ ٦ ـ ابو الفداء ، جـ ٤ ص٥ ، اليونيني جـ ٢ ، ص ٤٠٨ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٤١ ، وورقة ٦٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٧٤ ، ٥٧٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٤٥ .
٧) ابن ابي الفضائل ، ص٢٠٢ ، ٢٠٣ ، وابن الفرات جـ ٦ قسم ٢ ورقة ٩٩ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٩٥ ملحوظة ٣ ص ١٢٩ أدناه

واتبع مع موظفيه ونوابه سياسة اساسها الثقة من جهة والمراقبة والتفتيش من جهة ثانية والمكافأة والمعاقبة من جهة ثالثة • كان يعمل على استقرار الادارة ، لذلك "كان كل من ولاه ... في مملكة اوعمل ابقاه ولم يغير عليه ولا عزله " • فانه لم يغير اتابكه حتى مات هذا سنة ٦٧٢ هـ • ولم يول الوزارة غير واحد هو الصاحب بهاء الدين بن حنا (١) •

وقل ان غير نائبا من نوابه في مصر • لكنه كان على غير ذلك في بلاد الشام فقد كان كثير رحلات التفتيش فيها • وكان يكثر من تغيير النواب والولاة والقادة العسكريين وقد قيل انه امر بكتابة ٨٠ مرسوما لاجراء تنقلات بين نوابه وموظفيه في يوم وليلة سنة ٦٧٠ هـ (٢) •

لقد كان الظاهر يلعب الدور الاول في ادارته • ففي زمن السلم كان يقوم الى الصلاة صباحا ، ثم يخرج الى باب دهليزه فياتيه الناس ليحكم لهم في قضاياهم ويعلم على كتبهم (٣) وفي زمن الحروب كان يشرف على الاستعدادات الحربية ، ويقود الحملات بنفسه •

وهكذا نجد ان السلطان الظاهر جمع في ادارته بين مبادئ ثلاثة اساسية هي حسن اختيار الموظفين ، والثقة بهم ومراقبتهم ومحاسبتهم بحزم وشدة (٤) •

لقب السلطان •

كان صلاح الدين اول من تلقب بالسلطان في مصر ، ثم تبعه المماليك واتخذه الظاهر لقبا له بعد مقتل قطز ، ثم لقب " قسيم امير المؤمنين " فصار اسمه الكامل كما يلي :

---

١) اليونيني ج ١ ، ص ٤٣٩ ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٩٧ ، المقريزي ، السلوك ص ٥٩٩ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٧٩ ، وقد دعاه الظاهر "يا ابي " ابن شاكر الكتبي ، ج ١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٤ •
٢) المقريزي ، السلوك ، ص ٥٩٩ •
٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٧٠ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، المقريزي ، السلوك ، ٤٨٧ •
٤) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٣١ ، ٢٠٤ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٥٩ ، ٥٤٠ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٤٠ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٥ •

" السلطان الملك الظاهر السيد الاجل الكبير ، العالم العادل ، المجاهد المرابط ، المؤيد المظفر المنصور ، ركن الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، قاتل الكفرة والمشركين ، ناصر الحق ، مغيث الخلق ، ملك البحرين ، صاحب القبلة خادم الحرمين الشريفين ، محي الخلافة المعظمة ، ظل الله في الارض ، قسيم امير المؤمنين ، بيبرس بن عبد الله الصالحي (١) " . اما الدولة فسميت " المملكة الاسلامية " حينا او " الممالك الاسلامية " حينا اخر " .

الدار السلطانية .

كان السلطان يقيم في قلعة الجبل مع رجال حاشيته ورجال البلاط . وكانت له فيها خزانته واهراؤه ومطابخه واصطبلاته . وكانت الى جانبها دور للماليك الامراء ومساكن الاجناد وكانت شؤون القصر منظمة تنظيما دقيقا ، يسال عنها موظف كبير ومعه معاونون يختص كل واحد منهم بشان من شؤونه (٢) .

الموظفون .

وينقسم الموظفون في السلطنة المملوكية الى قسمين ذوي الوظائف العسكرية وذوي الوظائف المدنية . وقد حصر القلقشندي الوظائف العسكرية في ٢٥ وظيفة (٣) . وعد الوظائف الديوانية اي وظائف حملة الاقلام فكانت تسعا ومنها الوزارة وكتابة السر ونظر بيت المال (٤) .

وفيما يلي موجز لبعض هذه الوظائف :

---

١) نقلا من علي ابراهيم حسن ، ص١٥٧
٢) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٥ .
٣) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٦ ، ١٨ – ٢٣ .
٤) المصدر السابق ، ص ٢٨ .

الركاب خاناه ، وفيها اصطبلات للبغال والسباع والفيلة وخيول البريد ، والحوائج خاناه ، والشراب خاناه ، والطشت خاناه ، والفراش خاناه ، ودار الضيافة (١) ، والزمام دار (٢) والخازندار الكبير (٣) ، والاستدار (٤) ، والخوان سلار (٥) ، والجمدار (٦) ، وامير الشكار (٧) .

وهنالك الطبلخاناه ، ولها مهتار مسؤول عن ادوات الموسيقى (٨) . والحاجب . وقد جدد الظاهر هذا المنصب ليحكم بين الجند في امور الاقطاع ، ويامر فيهم ، ويقف مع السلطان عند النظر في المظالم ، لا ان يحجب الناس عن الدخول اليه ، كما كان في بعض العهود

---

١) عرفت هذه الوظائف في عهد الفاطميين تحت اسماء اخرى . القلقشندى ج ٣ ص ٤٨٢ وما بعدها و ج ٤ ، ص٩ ، ١٠ ، ١٢ ، المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

٢) ومعناها ماسك البقجة ، القلقشندى ، ج ٤ ، ص٢١ .

٣) مسؤول عما يجلب للبيوت السلطانية ، ومعه معاونون يدعى كل واحد منهم خازندار ينسب الى المهمة التي يقوم بها ، كخازندار الصنف اذا كان مسؤولا عن الامتعة ، وخازندار العين لضبط الدخل والخرج وهو امير طبلخاناه . القلقشندى ، ج ٤ ، ص٢١ ، ج ٥ ، ص ٤٦٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، دمومبين ص(LI)

٤) امير مئة . ومهمته النظر في امور البيوت السلطانية على اختلاف وظائفها وانواع وظائفها من اموال السماط والمطبخ والمشرب ومراجعة الاطباء والبيوت السلطانية الطشت خاناه والفراش خاناه ، والاصطبلات ونفقات الامراء السلطانية . القلقشندى ج ٤ ، ص٢١ ، ج ٥ ، ص ٤٥٤ ، ٤٦٠ ، دمومبين ص(LXII)

٥) وهو كبير الخدم مكلف بالسماط السلطاني في الافراح والاعراس ومعه معاونون منهم الساقي والمرقدار والمهتار . القلقشندى ، ج ٥ ، ٤٥٤ ، ٤٦٩ ـ ٤٧٠ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ .

٦و٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، القلقشندى ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

٨) القلقشندى ، ج ٤ ، ص ١٣ ، ص ١٥ ، دموميين ، ص(LXIII) . وقد عرفت هذه الوظيفة عهد الفاطميين .

السابقة واللاحقة (١) . وراس النوبة ، وقد احدثها الظاهر ، لاول مرة في مصر ، وهي في التترية بسول . ومهمة راس النوبة رئاسة المماليك السلطانية والفصل في خصوماتهم ، واعتقال من يريد السلطان اعتقاله . وهو امير مئة ، ومعه ثلاثة من امراء الطبلخاناه (٢) . والدوادار ، وقد كانت وظيفة يليها مدني متعمم ، او رجل من رجال القلم يحمل للسلطان الدواة ويحفظها ، لكن الظاهر رفعها الى مركز مرموق يليها امير عشرة (٣) ، وامير اخور وهو الناظر في امور الاصطبلات ، وخيل البريد ، والركائب المعدة لقطع المسافات البعيدة . وكان الظاهر اول من انشاء هذه الوظيفة . وكان يختار من امراء المئة ويعاونه نفر يختارهم بنفسه من امراء العشرة ومنهم السر اخور المسؤول عن العلف (٤) . وهي في الاصل مغولية باسم " آق طشى " (٥) . والمهمندار ، ومهمته استقبال الضيوف والسفراء والوفود وتعيين مركز كل منهم (٦) .

وهنالك ايضا امير السلاح من امراء المئة ، وهو مسؤول عن الاسلحة والمسلحين ويحمل للسلطان سلاحه في الحفلات العامة (٧) وامير المجلس المسؤول عن الطبابة والادوية .

---

١) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٩ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤
٢) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٨ ، ج ٥ ، ص ٤٥٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١١٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ويبدو ان الايوبيين عرفوها ولكنهم لم يهتموا بها .
٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
٤) القلقشندي ج ٤ ص ١٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
٥) المقريزي ، السلوك ، ص ٣٤٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٥ .
٦) القلقشندي ، ج ٣ ، ص ٤٨٨ ، عرفه الفاطميون باسم " نائب صاحب الباب " و ج ٤ ص ٢٢ .
٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

يجلس على راس ميسرة السلطان (١) • وامير العلم وهو المسؤول عن الاعلام وقت ضرب الطبول واثناء السفر (٢) ، وصاحب الجناب الكريم ، وهو اول من يدخل على السلطان واخر من يخرج من حضرته • ويحضر تعيين الموظفين والولاة وتحليفهم اليمين (٣) •

اما نيابة السلطنة فاحياها الناصر لكثرة تغيبه عن القاهرة (٤) •

واخيرا هنالك ثلاث وظائف ديوانية هامة هي الوزارة وكتابة الانشاء وديوان الماليـــة • وكانت كتابة الانشاء تحت اشراف كاتب الانشاء ومعه موظفون من طبقتين اولاهما طبقة الرئاسة والثانية هي طبقة كتاب الدست وكتاب الدرج (٥) • وهي ما نسميه اليوم بوزارة الخارجيـــة • وكان ديوان المالية مقسما الى دواوين لكل منها اختصاصه ومداخيلـــه وكل ديوان مسؤول عن ناحية معينـــة من الميزانيـــة (٦) •

---

١) المصدر السابق ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ •
٢) القلقشندى ، ج ٤ ، ص ٢٢ ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ ، دموميين ص (XIII)
٣) حمزة ، ص ٥ •
٤) القلقشندى ، ج ٤ ، ص ١٦ ، وج ٥ ، ص ٤٥٣ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦٤٢ •
٥) القلقشندى ، ج ١ ، ص ١٣٧ ،
٦) ويعزو بولياك ذلك (ص ٥) الى الصعوبات المالية •

وهنالك الوزير ، كان منصب الوزارة الاول بين مناصب رجال القلم لايليها امير عسكري وكان للظاهر وزيران ، احدهما ، وزير دائم يبقى في القاهرة واخر يدعى وزير الصحبة يرافقه في حملاته ورحلاته . وكان الوزير محترما حتى ان رؤساء مصر والقاهرة والامراء كانوا يمشون في خدمته عندما يعين في منصبه(١) .

وهكذا نجد ان الظاهر احتفظ بالوظائف القديمة ،بوجه الاجمال ، ولو انه غيّر صلاحيات بعضها واستحدث وظائف جديدة لكنه على كثرة الوظائف ، حدد لكل وظيفة صلاحيتها واختصاصها بوضوح (٢) . ونجد ايضا ان الظاهر قسم الادارة الى فئات ثلاث اولاها تتعلق بالشؤون المنزلية الخاصة وثانيتهما حلقة وصل بين هذه الفئة والفئة الثالثة ، اما هذه فهي الادارة العامة الداخلية والخارجية .

وكان لكل موظف شعار خاص به يدعى رنكا يحفر على انيه او تحفه او زجاجة او قطعة معدن . وكان للظاهر رنك هو الاسد (٣) ، وعلامة يضعها على مناشيره هي " المستعان بالله " (٤) . وهنالك نحو خمسين رنكا عرفت حتى الان (٥) .

وقد استعان الظاهر على الادارة بجيش عني به ونظمه ، ووزعه على القلاع الداخلية والثغور الواقعة على الحدود (٦) .

---

١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٣٩ ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ابن ابي الفضائل ص ٤٢١ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٧٩ ، راجع ص ١٢٩ ، ملحوظة ١ . وكان وزير الصحبة الاول فخر الدين بن حنا حتى ٢٤ شعبان سنة ٦٦٨ هـ حين استبدله باخر . اليونيني ج ٢ ص ٤٣٢ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٥٠ وقد جعل السنة ٦٦٩ هـ .

٢) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ٦ — ٣ — حسن ، ص ١٦٨ .

٤) بولياك ، ص ٣١ ، — ٥ — حسن ص ١٦٨ ومنها الكاس ، والمقلمة ، والقاموس والبقجة ، والخونجة (المنضدة) ، وعصا البولو ، وزهرة اللوتس ، والصولجان والنسر .

٦) انظر ص ١١٦ اعلاه للحديث عن الجيش .

البريـــــد

وقد عني الظاهر بترتيب البريد منذ ان رقي السلطنة لان سلطانه كان يعتمد الى حد بعيد على بريد سريع وامين لا يخفي عنه شيئا من المتجددات ولا يطوى حالة من الحالات . ولتامين هذه السرعة رتب للبريد خيلا كانت في مراكز بين القاهرة والمدن الكبيرة الاخرى . وكان في كل مركز سواقون لا يتحركون الا بمرسوم سلطاني . ووضع في كل مركز جميع مايحتاجه المسافرون . وقد كانت خيل البريد هذه صلة الوصل بين اجزاء السلطنة بحيث استطاع ان يجرى موكبا في القاهرة ودمشق في اسبوع واحد (١) .

وكان الظاهر يستطيع الانتقال بين دمشق والقاهرة مرتين في الاسبوع . وكانت هذه الرحلة لا تستغرق اكثر من يومين وسبع ساعات فقط . وقد جاء خبر انتصار قواته في البيرة سنة ٦٦٣ هـ الى يبنى في اربعة ايام (٢) .

وكانت الاخبار تصله من سائر نواحي المملكة مرتين في الاسبوع ، وكان على كاتب الانشاء ان يبلغه اخبار التتر والفرنج كل صباح ومساء ، حتى استطاع ان يسيطر على المملكة من قلعة الجبل .

التجسس والعناية باستطلاع الاخبار :

والى جانب البريد كان للظاهر عدد من المخبرين يطلعونه على الاخبار الداخلية والخارجية . وهنالك عدد من القصص تدل على دقة اطلاعه على ما كان يحدث في سلطنته او على حدودها (٣) .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣ . المقريزى ، السلوك ، ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ص ١٨٦ ، . ابن اياس . جـ ١ ، ص ١٠٨ .

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٢٠ – ١٢١ .

٣) راجع ص ١٢٧ اعـلاه .

وقد لاحظنا من اعتقالاته الامراء انه كان شديد العناية بالاطلاع على الاخبار السياسية الداخلية • واضيف هنا قصة عن اطلاعه عن اجتماع عدد من الامراء في دار احدهم لانتقاد السلطان فسمّر احدهم وكحل عيني اخر وقطع يده ورجله ، ثم منع الاجتماعات اطلاقا (١) •

ثم هنالك اخبار التتر وقد كان له جواسيس في بلاطهم بفارس(٢) ولذلك علم بقدوم رسل التتر الى المغيث • واستطاع ان يعلم بمجيء جواسيس التتر الى مصر عن طريق سيس فسد عليهم الطريق واعتقلهم (٣)• وعلم ان ملك الكرج تنكر في زي راهب وجاء الى سيس فعكا فيافا • وهنا علم به بدر الدين الخازندار فقبض عليه وارسله الى القاهرة (٤) وعلم ايضا بمجيء جاسوس الى البيرة سنة ٦٦٥ هـ فاعتقله واعدمه (٥) •

وهنالك قصة سلمان بن المؤيد بن عامر العقرباني المعروف بالزين الحافظي ، فقد كان كالقرعة الطافية على وجه الماء على حد تعبير هولاكو ، من كثرة ما تنقل في خدمة الاسياد حتى استقر عند هولاكو • وبقي اخوه بخدمة الظاهر • واوعز هذا للاخ ان يتصل باخيه ويرغبه بالعودة ، فاطلع الزين الحافظي هولاكو على الرسالة واستاذنه بمكاتبه امراء الظاهر ليثير فيه سوء الظن بامرائه ، فرفض هولاكو اول الامر ثم عاد فرضي بعد الحاح • ووصلت رسالة الزين الحافظي الى مصر فتسلمها الظاهر ورد عليه شاكرا ما فعله حتى لا يثير شكوك هولاكو وبعث الرسالة مع جماعة احتالوا حتى اوصلوها لهولاكو سرا فاعدم هولاكو الزين الحافظي (٦)

---

١) اليونيني ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، — ٢ — (E. Blochet) النهج السديد ، ص ٢٧٢ ، ملحوظة ٣ • اد يرى ان مسلمي فارس كانوا عيونا للظاهر على المغول وان امير سميساط كان جاسوسا له • — ٣ — ابن عبد الظاهر ، ص ٩٩ — ١٠٠ •

٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٦٤ ، — ٥ — ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٢ ، — ٦ — اليونيني ، جـ ٢ ص ٢٢٤ ، ٢٣٨ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٢٩ ، المقريزى السلوك ، ص ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ •

الاقسام الادارية :

كانت مصر مقسومة الى وجهين ، البحرى والقبلي ،بالاضافة الى القاهرة والاسكندرية (١) ،وكان كل وجه مقسما الى نواحي واعمال .

وكانت بلاد الشام خمس(٢) نيابات هي الكرك(٣) وصفد ودمشق (٤)وحماه وحلب . وكانت الاداره في كل من هذه النيابات على غرار الادارة في القاهرة ، فمع النائب موظفون عسكريون ودينيون ومدنيون (٥) وكانت اراضي هذه النيابات موزعة اقطاعات على امرائه .

---

١) عني الظاهر بالاسكندرية وذهب اليها اكثر من مرة للتفتيش ، او للصيد او لمراقبة الاعمال الاصلاحية والاجراءات الدفاعية في الميناء ،ففي شوال سنة ٦٦١ هـ قصدها للصيد واهتم بامر مياهها . وفي ذى القعدة اجرى فيها استعراضا عسكريا ووزع الهدايا والهبات ثم لعب بالكرة . وذهب لزيارة الشيخ الشاطبي والشيخ القبارى – وجلس بدار العدل فيها ثم عاد الى القاهرة في ١٨ ذى القعدة . وفي صفر ٦٦٨ قصدها مرة اخرى ومعه ابنه وذهب اليها سنة ٦٧٣ لبناء ما تهدم من منارها . (ابن عبد الظاهر ، ص ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٨ . اليونيني مجا ، ص ٥٤٣ ، جـ ٢ ص ١٩٦ ، ٤٣٠ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٦١٦ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ، ١٤٧) هذا بالاضافة الى الانشاءات التي انشاها فيها – ٢ – لم يكن هذا التقسيم الادارى لبلاد الشام ثابتا . وكان اول تغيير هام فيه بعد وفاة الظاهر هو احداث نيابة طرابلس بعد فتحها سنة ١٢٩١ . – ٣ – عني الظاهر بالمدن الكبيرة في سلطنته ، كالاسكندرية والقاهرة في مصر والكرك وصفد ودمشق وحلب وحمص وحماه في بلاد الشام . ومعاملته لكل منها تصلح ان تكون بحثا مستقلا وقد تناولت علاقته بها باختصار في امكنة اخرى وينبغي ان اشير الى مثال هذه المعاملة للبقية هنا . فقد تسلم الظاهر الكرك في ٢٣ جمادى الاخيرة سنة ٦٦١ هـ بعد ان تسلم الشوبك بناها الصليبيون في ذى الحجة سنة ٦٥٩ وعني بهما عناية خاصة اذ كان يمر بهما في كل رحلة الى بلاد الشام او الحجاز وفي صفر سنة ٦٧٣ هـ اقام في الكرك ١٣ يوما لكشف احوالها ثم جاءها سنة ٦٧٤ هـ . كانت الكرك هامة لموقعها ولانها مركز للسيطرة على العربان (ابن عبد الظاهر ص ٤٨ . اليونيني جـ ٢ ، ص ٤٦٧ . ابن ابي الفضائل ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٩٨ ، ٥٤٤ . المقريزى ، السلوك ، ص ٦١٤ ، ٦٢٤ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٤٤ ، ١٦٤) – ٤ – كان لدمشق مركز خاص في الدولة الظاهرية ، وقد كانت اهم نيابة بين نياباته ، وقد جعل فيها بلاطه في بلاد الشام . كان ياتيها المرة او المرتين في السنة ، وتكاد لا تمضي سنة بعد تسلمها من علم الدين سنجر من غير ان ياتيها . كان في السنوات الاولى من سلطنته يعنى باختيار النواب المخلصين القادرين ، ويعاقب من يسيء التصرف ، كما فعل بعلاء الدين طيبرس الوزيرى ، ثم عني ايضا بتخفيف المصائب الاجتماعية ، كالسيول والمجاعات ، وعني بالانشاءات فيها ايضا . لقد كانت ، دمشق تصلح ان تكون بستانا لمصر ولا شك ان احسن ما في البلاد البساتين كما يقول القاضي الفاضل (حمزه ، ص ٢٤٩) لكن عنايته بها كانت عسكرية بالدرجة الاولى . وفي القسم الثاني من سلطنته ، حين اخذت حروبه مع الصليبيين والتتر تتوالى ، وحين انتقل ميدان الصراع الى اسيا الصغرى ، اخذ يرهقها بالضرائب الباهظة حتى ضعفت بساتينها وانعدمت ثمارها (ابن عبد الظاهر ، ص ٦٠ – ٦١ ، اليونيني ، جـ ٢ ، ٣٨٧ ، ٤٥١ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٥٣٩ ، ابن شاكر الكتبي ، جـ ١ ، ص ١٧٤ ، ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٨٥ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٥٤٩ ، ٥٨٣ ، ٥٩٦ .

وكان الى جانب هذه النيابات ممالك وقلاع مستقلة عن هذه النيابات ، تابعة للظاهر راسا مثل شيزر .

خصائص هذه الحكومة ونوعها :

كانت لهذه الحكومة خصائص بارزة هي سلطان نشيط ، على راس جيش منظم مدرب ، وبريد سريع صادق ، يعاونه عدد كبير من المماليك الانصار ، جنودا وامراء ، ويطبق مبدأ العقاب والثواب بينهم ، شديد في احكامه ، سريع في تنفيذها ، يعتمد التحرى والارهاب ويمنع الاجتماعات ويراقب الجميع بدقة . اما الهيكل الادارى فمزيج من عناصر فاطمية وايوبية قديمة ومغولية مستحدثة .

اما نوع هذه الحكومة فليس تعيينه بالامر السهل .

اول مايلفت النظر انها حكومة اجنبية لم يشترك في وظائفها الا المماليك . اما سكان البلاد الاصليون فلم يشتركوا فيها (١) .

وقد شبهها (G Wiet) بحكومة قيصر (٢) وشبهها على ابراهيم حسن بالحكومة الاستبدادية المنيرة (٣) وجعلها عبد اللطيف حمزة الحكومة المدنية العسكرية (٤) .

ولكن مالنا نحاول ان نضع لهذه الحكومة صفات حديثة وقد حددها الظاهر بنفسه في وصية لابنه السعيد ؟ قال السلطان الظاهر : انك صبي ، وهؤلاء الاكابر يرونك بعين الصبي ، فمن بلغك عنه مايشوش عليك ملكك ، وتحققت عنه ذلك ، فاضرب عنقه ، في وقته ولا تعتقله ، ولا تستشر احدا في هذا . وافعل ما امرتك به والا ضاعت مصلحتك " (٥) .

---

١) ولعله طريف ان نذكر هنا انعثرت على رنوك للنساء مما قد يوحي باشتراكهن بالحكم . ولكن يبدو انهن لم يشتركن بالحكومة . واما الرنوك فلعلها كانت لابائهن وازواجهن ..
٢) (G Wiet) ص ٣٤ ، المقدمة . — ٣ — حسن ، ص ٤٢ . — ٤ — حمزه ص ٤٥ .
٥) ملحوظة ٥٥ ، السلوك ، للمقريزى ، ص ٦٤١ ، منقولة من ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٤٤٠ .

يتبين لنا من هذا ان الغاية الاولى من هذه الحكومة هي استمرار السلطنة في درية الظاهر • ومثل هذا الاستمرار يستتبع الدقة والحزم والمراقبة • حتى اذا تحقق السلطان ان احد يعمل لهدم هذه الغاية الاساسية ضربت رقبته • ولا فائدة من اعتقاله او استشارة احد في شانه • وهذه هي الخطة التي سار عليها الظاهر • حتى كان الامراء يخشون القدوم اليه اذا دعاهم • لقد كان الظاهر يرى ضرورة نصرة الاسلام ، ولكن نصرته لا تكون الا على يديه • ولذلك ارى انها حكومة شخصية ، تستهدف اول ما تستهدف ابقاء السلطنة في شخص معين او في سلالته معتمدة في ذلك على طبقة من الرقيق المجلوب من الخارج متعاونه معه على استغلال البلاد.

بالدرجة الاولى ، متخذة نصرة الاسلام شعارا ،لاجئة الى اية وسيلة للاحتفاظ بهذه السلطنة في هذه السلالة ازاء المماليك والسكان الاصليين معا • وانها حكومة عسكرية دقيقة التنظيم مع ذلك • هنالك جماعة من المماليك ، منظمون تنظيما عسكريا استولوا على بلاد ، فنظموا ادارتها ، بمالهم من احساس اصيل بالحكم ، على حد قول (G. Wiet) (١) ، في سبيل تامين النفوذ والسلطنة • وساعدهم في ذلك ان الفرنجة والتتر كانوا يحتلون بعض بلاد الشام ، فاتخذوا حماية الاسلام شعارا في هذا الصراع •

القضـــــاء :

ادرك الظاهر اهمية القضاء منذ البدايـــة وادرك ان تثبيت سلطانه يقتضي له نظاما مقبولا من القضاء • وقد كان لرجال القضاء والعلماء نفوذ كبير • ولنذكر هنا موقف القاضـــي ابن عبد السلام منه عند المبايعـــة (٢) •

---

١) ص ٣٤ ، مقدمـــة •
٢) راجع سياسة الظاهر الدينية ، ص ١٠٨ اعلاه •

ويتبين اهتمام السلطان الظاهر بالتنظيم القضائي من رسالة وجهها للقاضي ابن بنت الاعز عند توليته القضاء وقد جاء فيها : نفوض اليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية ... لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تجنى ومساع حميدة ما برح الى الخلائق محسنا .... فليباشر هذا المنصب الذى اضحى ظل شرفه وارفا .... وليول من القضاء من يحيى من العدل سننا ويميت من الباطل بدعا .. وليتفقد امر العدول الذين اصبحوا على الحقيقة عدولا عن المنهج القويم راغبين عن المحامد بما ياتونه من كل صنف ذميم ، ولا يترك منهم الا شاهدا كان على المعايب غائبا او متورعا ... واموال الايتام والاوقاف فلا يباشرها الا من كان لمباشرتها اهلا ومن يتحقق ان يكون عليها نفلا .. وامض عزيمتك في اقامة منار الشريعة بعد العقود .... (١) .

بقي المذهب الحنفي سائدا في مصر حتى اواخر القرن الهجرى الرابع / الميلادى العاشر حين اخذ المذهب المالكي ينتشر لكن قيام الدولة العبيدية قضى على المذاهب السنية واكتفى بالقضاء الشيعي . ثم جاء صلاح الدين فقضى على القضاء الشيعي واكتفى بتولية القضاء الشافعي . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى جاء الظاهر (٢) .

في ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٥٩ هـ استدعى الظاهر القاضي تاج الدين عبد الوهاب المعروف بابن بنت الاعز وعرض عليه القضاء ،واراد القاضي التنصل فتشدد في شروطه ، لكن الظاهر قبلها لثقته به واجابه اليها وعينه قاضي القضاء وعزل برهان الدين الخضر بن الحسن بن علي السنجارى واعتقله عشرة ايام ثم افرج عنه وعينه قاضيا على الوجه القبلي من مصر فقط — ثم عزل نهائيا في رمضان سنة ٦٦٠ هـ لانه ماطل فيما طلبه منه السلطان اما تاج الدين فبقي قاضي قضاة حتى توفي في ١٧ رجب سنة ٦٦٥هـ(٣) وعين مكانه قاضيين

---

١) نقلها سرور (ص ١٣٨) عن النويرى، نهاية الارب ، جـ ٢٨ ، . قسم ١ ، ص ٨ — ١٢ .

٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٣٤ ، — ٣ — اليونيني ، جـ ١ ، ص ٤٤١ ، ٤٥٩ ، جـ ٢ ، ص ١٥ ، ١٥٢ ، ابن شاكر الكتبي ، جـ ١ ، ص ٥٣٥ ، المقريزى السلوك ، ص ٤٤٨ ، ٤٧٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ، ورقة ٥ ق . السيوطي ، حسن المحاضرة جـ ، ٢ ، ص ١١١ .

احدهما للوجهالبحرى ، وثانيهماللوجه القبلي ،(١) .

وفي دمشق عزل السلطان القاضي نجم الدين بن سني الدولة في ٨ ذى الحجة سنة ٦٥٩ هجرية وعين مكانه شمس الدين بن خلكان . وكان له ان يقضي "في جميع بلاد الشام من العريش الى سلميه يستنيب فيها من يراه لذلك اهلا" وكان له فوق ذلك ان ينظر في شؤون الاوقاف والمدارس والبيمارستان(٢) .

وفي ذى القعدة سنة ٦٦٠ هـ خوّل السلطان تاج الدين في مصر حق استنابة من يراه مناسبا من المذاهب السنية الاربعة للقضاء . وهذا هو ما كان سمح به لابن خلكان في السنة الماضية . وبذلك تم التعديل الاول لنظام القضاء في مصر وبلاد الشام(٣) .

اما التعديل الثاني ، وهو الاهم ، فقد وقع سنة ٦٦٣ هـ . كان القضاء شافعيا بيدى ابن بنت الاعز فجعله في ذى الحجة في هذه السنة على المذاهب السنية الاربعة في مصر ، وفي محرم من السنة التالية ، في بلاد الشام . فصار يعيّن قاضيا للمالكية وقاضيا للحنفية وعاقدا للحنبلية ، وبقي ابن بنت الاعز للشافعية في مصر . ولنذكر هنا ان الظاهر كان سنة ٦٦٠ هـ قد اجاز لتاج الدين استنابة من يريده في الاحكام من مدرسي الصالحية (٤) .

ولهذا التعديل دوافع ، ولا ريب ، ولكنها ليست واحدة عند المؤرخين . فقد كثرت القضايا بحيث لم يعد قاضي واحد يستطيع ان يفصل فيها كلها ، ثم كثر الناس المنتمون الى المذاهب السنية المختلفة . فوجب الاكثار من عدد القضاة على المذاهب المتعددة لتسهيل امور الناس . قد يكون هذا دافعا معقولا . ولكن هنالك دافعا اخر هو ان الامراء الظاهرية لم يكن يروقهم ان يكون على راس القضاء رجل واحد كابن بنت

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص ٥٦١ ، ٥٦٢ ، — ٢ — ابو شامة ، ص ٢١٥ ، اليونيني مج١ ، ص ٤٦٠ ، وج ٢ ، ص ١٢٤ . ابو الفداء مج ٣ ، ص ٢٢٣ ، . — ٣ — ابن عبد الظاهر ، ص ٨٩ ، وقد خلط بين هذا التعديل والتعديل التالي ، اليونيني ، ج١ ، ص ٤٩٦ ، ج ٢ ص ٩٢ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٧٢ ، ٥٠١ . ابن ايامر ، ج ١ ، ص ١٠٢ — ٤ . ابن الفرات ، ج ٦ ، ورقة ٥ ق .

لم يكن يرونهم ان يكون على رأس القضاء رجل واحد كابن بنت الاعز ، يدقق ويتوقف في تنفيذ الاحكام ريثما يتحقق القضية . ويروى ان الامير جمال الدين ايدغدي العزيزي ، بعد احتكاكات بالقاضي ، اقترح على السلطان تعيين قضاة من المذاهب الثلاثة الاخرى ويترك الشافعية لتاج الدين (١) . وبذلك يكون الظاهر قد كسر احتكار الشافعية للقضاء . واضعف نفوذها في الدولة (٢) . ويظهر ان هذا التعديل لم يكن مرضيا للجميع فقد روى المقريزي ان الظاهر قال لرجل رآه في منامه : مارأيت احد على منبر . قضاة اربعة وقيل اي فرقت الكلمة (٣) .

اما الجيش فكان له قضاء مستقل . وكان قاضيهم يجلس بدار العدل الى جانب السلطان وهو دون بقية القضاة . وفي سنة ٦٦٢ هـ الغى حق الوصي بالاستيلاء على موجودات اليتيم (٤) . وفي سنة ٦٦٣ هـ اجاز للامراء ان يعينوا شهودا عدولا في الجيش تسمع اقوالهم ليشهدوا بوصايا الجنود الذين يموتون في ساحات القتال (٥) .

وازاء اهتمامه الكبير بالقضاء فقد كان طبيعيا ان يبني دار عدل . ففي سنة ٦٦١ هـ انشأ دار عدل تحت القلعة بالقاهرة (٦) ، ثم رتب دار السعادة بدمشق دارا للعدل (٧) .

وكان السلطان الظاهر يحضر الى دار العدل كلما سنحت له الفرصة . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد حضر الى دار العدل في رجب سنة ٦٦٠ هـ مطالبا باسترداد بئر

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٩ ، ابن ابي شامه ، ص ٢٣٥ ، وقد جعل تعيين التعديل في دمشق في جمادى الاول سنة ٦٦٣ هـ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩ - ٥٤٣ ، ٦٤٠ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٧ السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ ، وكان ابن بنت الاعز قد قضى بفسخ شراء الدار الموقوفة ولو لم يتمكن البائع من رد الثمن ، ورفض تسليم ريع اوقاف الرسول لصاحب المدينة بحجة انه لا يثق به مع ان الظاهر كان يريد ذلك ، ورفض شهادة احد الامراء ..

٢) السيوطي حسن المحاضره ، ج ٢ ، ص ١١١ ، (F Sadeque) ، ص ٢٠ - ٣ - ، المقريزي ، السلوك ، ص ٦٤٠ . وقد رأت فاطمة صادق ... فيه افتئاتا من المقريزي على السلطان . - ٤ - ابن الفرات ، ج ٦ قسم اول ورقة ٤٤ ق .

٥) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ٣٦ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٦٣ ه ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ورقة ٧٧ و - ٦ - المقريزي السلوك ، ص ٤٠١ . - ٧ - ابن عبد الظاهر ، ص ٣٣ ، المقريزي ، السلوك ص ٥٣٨ ، ٥٤٩ .

كان حضرهما في عهد عزالدين ايبك ، ولم يسمح للقاضي ان يقف له لانه جاء متقاضيا ، ووقف الى جانب خصمه(١)

وحضر دار العدل في رجب سنة ٦٦١ هـ واوصى بعدم استيلاء الوصي على اموال خشداشيته حتى لا يضيع مال اليتيم وامر بضبط اموال اليتامى والتحقيق مع الاوصياء (٢).

وفي ذى القعدة سنة ٦٦١ هـ كان في الاسكندرية فحضر دار العدل فيها (٣) . وحضرها ايضا في محرم سنة ٦٧٢ هـ . ثم اوصى نائبه فيها ان يحضر دار العدل اثناء غيابه ليقضي بين الناس.

وهنالك امثله اخرى عديدة لحضورة دار العدل . ويتبين منها جميعا ان الظاهر كان دقيقا في محاكماته . فقد زعم رجل في بداية سنة ٦٦٢ هـ ان شيخ الحنابلة يتمنى زوال دولته لانه لم يجعل للحنابلة نصيبا في مدرسته الظاهرية في مصر ، فتحقق من الامر ووجد ان الرجل يدس على الشيخ فعاقبه(٤) . وجاء رجل في نفس السنة وادعى ملكية بستان مغتصب منه في ايام عز الدين ايبك فقضى الظاهر برد البستان له بعد ان اتى المدعي باوراق تثبت دعواه (٥) .

وكذلك كان السلطان دقيقا في مراقبة القضاء . ففي صفر سنة ٦٦٠ هـ اعتقل القاضي برهان الدين السنجارى ثم عزله(٦) وفي سنة ٦٦٩ هـ ، عزل القاضي

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٢٥ ـ ٢٦ ؛ اليونيني ، ج ١ ، ص٤٨٨ ، ج ٢ ، ص١٥٤ .
٢) ابن عبد الظاهر ، ص١٠١ ، والمقريزى ، السلوك ، ص٥١٢ ، وقد جعل المقريزى تاريخ هذا التعديل سنة ٦٦٢ هـ ـ ٣ ـ المقريزى ، السلوك ، ص٥٠٠ .
٤) ابن عبد الظاهر ، ص٩٠ ، المقريزى ، السلوك ، ص٥٠٣ .
٥) ابن عبد الظاهر/ ـ ٦ ـ راجع ص١٤٠ اعلاه .
ص٩٠

شمس الدين بن خلكان في دمشق (١) واجرى تحقيقا مع قاضي اتهم في سنة ٦٧٠ هـ • بان لديه ودايع لتجار مات بعضهم فتبين للسلطان صدق التهمة ، فاعتقل القاضي وصادر داره(٢) • وهنالك نصته مع الشيخ خضر • فقد اعتقله في سنة ٦٧١ هـ لكثرة الشكاوى عليه ، مع انه كان اثيرا عنده ، وحقق فيما نسب اليه وابقاه معتقلا وتوفي بالمعتقل •(٣)•

لكن تدابيره هذه لم تحل دون وقوع المظالم لا سيما في دمشق • وقد صدف ان كان فيها ثلاثة قضاة اسم كل منهم شمس فقيل فيهم :

اهل الشآم استرابوا   من كثرة الحكام
اذ هم جميعا شموس   وحالهم في ظلام

وقيل ايضا :

بدمشق آية قد   ظهرت للناس عاما
كلما ولّي شمس   قاضيا زادت ظلاما (٤)

وكان للقضاة لباس خاص مميز يختلف باختلاف الرتب • فقد كان كل من القاضي والعالم يلبس عمامة شاش كبيرة ويرسل بين كتفيه ذوابة تمتد حتى اخر سرج دابته ، او كان يلبس الطيلسان عوض الذوابة • اما قاضيا الحنفية والشافعية فتميزا بلبس طرحه تستر العمامة وتنسدل على الظهر • ولا يجوز للقاضي ان يلبس الحرير ولا الالبسة الملونة في المنزل (٥) •

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص٥٩٦ ، هو القاضي شمس الدين الحنبلي ، وقد ذكر ابن الفرات (ج٦ ، قسم ٢ ورقة ٩٢ ــ ٩٦) الكثير من سيرته •
٢) المقريزى ، السلوك ، ص٦٠٢ ، ــ ٣ ــ راجع ص ٩٨ ، اعلاه ــ •
٤) ابوشامه ص ٢٣٦ ــ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٣٧ •
٥) القلقشندى ، ج ٤ ، ص٤١ •

الفصل السادس:

بيبرس في علاقاته الخارجية ــ قسم اول

عندما تسلم الظاهر بيبرس السلطنه وجد نفسه امام عناصر مختلفة تتحد للقضاء عليه ٠ وهي القوات الصليبية والقوات المغولية وما يتبع هاتين المجموعتين من قوات محلية مسايرة لهما خوفا منهما او حقدا على الظاهر، كدولة السلاجقة وكدولة الارمن ٠ وطالما عملت هذه القوى للاتحاد في محاربة السلطان بيبرس ٠ وكان طبيعيا امام هذا الواقع ان يتبّع السلطان الظاهر سياسة تؤدى الى شق الخصم من ناحية، والى انشاء كتلة من المؤيدين تناصره، والى تقوية جيشه له يكون الدعامة الاولى في هذا الصراع ٠ اما الجيش فالحديث عنه في مكان آخر ٠ واما شق الخصم فواضح من محالفته مع القهشاق ومحاولة التحالف مع الاشكرى ٠ واما كتلته التي انشأها فكانت القوات المملوكية محورها ٠ ولتأمين هذه الكتله فقد ساير بعض المواقع الصليبيه في بلاد الشام في البداية ، ثم انشأ صداقة مع صاحب اليمن، واخيرا احتل بلاد النوبة ٠

وقد يسهل علينا ان ننظر الى هذا الصراع على اساس ديني ٠ ولا سيما اذا تذكرنا ان السلطان الظاهر كان دائم الاشارة الى ان هدفه هو نصرة الاسلام ومقاومة خصومه ٠ ولكنني ارى ان هذا الصراع كان سياسيا قبل كل شيء آخر ٠ ان بيبرس لم يقاتل التتر (١) لانهم مالوا للمذهب المسيحي النسطورى ، ولم يقاتل الصليبيين لانهم نصارى ٠ الحرب بين

١) كان المغول متساهلين دينيا ٠ ويبدو ان الاكثرية كانت بوذية مع ميل للنصرانية النسطورية ٠ E.Blochet ، النهج السديد ، ص٣٧٢ ، ملحوظة ٣ ، و ص٣٧٣ ٠ R.Grousset ج٣ ، ص٥١٩ ٠ ويرى الاول ان العداء بين البوذية والاسلام قديم مستحكم ٠ لكن المقريزى (السلوك، ص٢٠٥) يقول انهم "كانوا لا يدينون بدين الا انهم يعترفون بالله تعالى من غير اعتقاد وشريعة " ٠

السلطان والتتر سياسيتي حنيتها . ومبعث هذا الصراع حماية الدولة المملوكية الناشئة من خطر مداهم . لقد استطاع المماليك ان يرجعوا التتر الى ما وراء الفرات وما هم يهددون الصليبين بالابادة ، فطبيعي ان يعمد التتر للثار وان يعمد الصليبيون للدفاع ، وطبيعي ان ينتهج بيبرس سياسة تمنع تكتل هاتين القوتين ، او تضعف هذا التكتل بحال حدوثه . ان توسع المغول نحو الغرب ادى بهم الى الاصطدام بالمماليك ، فكانوا الحلفاء الطبيعيين وكانت الخصومة سياسية في طبيعتها . ان المغول لم يقوموا بحرب دينية على المماليك (١) . وحالف الظاهر بيبرس المغول القبشاق ، وليسوا كلهم مسلمين ، ومحاربته ايلخانات فارس وهم مسلمون ، لمما ينفي ان يكون الصراع دينيا .

ولنستعرض الان هذه العلاقات :

١ـ التتر ـ المرحلة الاولى :

في مطلع القرن الهجرى السابع الميلادى الثالث عشر ، بدأ ظهور التتر بشكل يؤثر في تاريخ الخلافة العباسية ، في الجهات الشمالية من بلاد الصين ، جنوبي غربي بحيرة بايكال . ثم اتحدت القبائل التركية والتترية واخذت تزحف الى الغرب (٢) وكانت لخلال هذا الزحف تتصل بالاوروبيين لتضع الخلافة بين شقي الرحى (٣) .

وفي سنة ٦٥٤ هـ عظم امر التتر وتواترت الانباء بقصد العراق والزحف نحو بلاد الشام وبينما كان التتر يزحفون الى الغرب بقواهم المنتصرة هذه ، كانت الخلافة في بغداد

---

١) (R Grousset) جـ ٣ ص ٥٦٢ ، ملحوظة ١ .

٢) المقريزى ، السلوك ، ص ٢٠٤ ؛ (W Barthold) مادة ("Tatar") الموسوعة الاسلامية مجلد ٤ ص ٧٠٠ ، ٧٠٢ .

٣) كما جرى سنة ١٢٤٥ مع البابا كلمنت الرابع (Clement IV) و ١٢٤٧ مع اينوسنت الرابع (Innocent IV) وسنة ١٢٥٣ مع لويس التاسع (P Grousset) مجلد ٣ ص ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ .

بيد المستعصم بالله الذى كان " سهل الاخلاق .. خفيف الوطأة ... مستضعف الرأى، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بامور المملكة ، مطموعا فيه ، غير مهيب في النفوس . ولا مطلع على حقائق الامور . وكان يخفض جيشه ، ويهمل تحذيرات صاحبي الموصل واربل له ، ويعني بجمع المال وبسماع الاغاني والتفرج على المساخرة " محاطا باصحاب " مسئولين عليه وكلهم من ارازل العوام ، الا ابن العلقمي » مما حال دون وصول الاخبار الصحيحة اليه (١) .

وفي محرم سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ كانت الجيوش التترية تحاصر بغداد من الجهة الغربية بقيادة بايجو، ومن الجهة الشرقية بقيادة هولاكو نفسه ، ونشبت معركة عنيفة اسفرت عن استسلام الخليفه لهولاكو في ٤ صفر / ١٠ شباط ونهاية الخليفة والخلافة العباسية في بغداد (٢) .

---

١) ابن الطقطقى، الفخرى، ص٢٤٢ ، ويؤيده في ذلك اليونيني ، ج٢ ، ص٨٦ ، ٢٥٤ ــ ٢٥٦ ، ابو الفداء ، ج٣ ، ص٢٠٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٥ ، ٤٨ ، ٦٤ .

٢) ابو شامة، ص١٩٩ ، ابن الطقطقى ، الفخرى، ص٢٤٤ ــ ٢٤٥ ، اليونيني ، ج١ ، ص٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ . ابن الفوطي ، ص٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ . ابو الفداء ، ج٣ ، ص٢٠٢ ، ٢٠٣ . الذهبي ، ج٢ ، ص١٢٠ . المقريزى، السلوك، ص٤٠٧ ــ ٤٠٩ ، وهو وابو شامه يجعلان مقتل الخليفة في سادس صفر، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٥ ، ٤٨ ــ ٥٠ . ولابد من الاشارة هنا الى ان جميع المصادر باستثناء ابن الطقطقى يجعل ابن العلقمي الخائن الذى خامر مع هولاكو ولعب الدور الاول في اسقاط الخلافة ، بينما يجعله ابن الطقطقى الوحيد الذى "كان من اعيان الناس وعقلاء الرجال . وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء " (ص٢٤٢) والذى كان يشير على الخليفة " بالتيقظ والاحتياط والاستعداد " لمعرفته بحقيقة الواقع (ص٢٤٤) . وينفي عنه المخامرة ويثبت ذلك بان هولاكو لم يكن ليستخدمه لو كان مخامرا لقلة الثقة به (ص٢٤٧) . ثم تنتهي حياته عند ابن الطقطقى (ص٢٤٧) بمرض بينما يختلف المؤرخون الآخرون فيما اذا كان اهين ام اكرم على يدى هولاكو قبل موته . اما استسلام الخليفه فيقال فيه انه عائد لانخداعه بان هولاكو مستعد لتزويج ابنته بابي بكر بن المستعصم بالله . واما كيفية نهايته فقيل انها اختناق او اغراق بالماء او رفس في الكيس او تغطيس ببساط .

وانتشر الذعر بين الناس واخذوا يغادرون بغداد طلبا للنجاة • واعتبر سقوط الخلافة داهية اصابت الاسلام لا افظع منها ولا ادهى (١) •

ثم توافد الملوك على هولاكو يعلنون له الطاعة ، ثم عين هولاكو الامير على بهادر شحنه ببغداد وعيّن فيها الصدور والنظار والنواب (٢) •

وبعد هذه الترتيبات اندفعت جيوش التتر في ثلاثة اتجاهات • فقصد هولاكو حران وحاصر ماردين وميافارقين حتى استسلم صاحباهما • واندفع جندعون نحو الموصل والجزيرة وسنجار • فاستسلمت الموصل وقتل صاحبها وهرب ابناه الى القاهرة ، وهرب صاحبا الجزيرة وسنجار الى دمشق فالقاهرة • واتجه سموط بن هولاكو نحو حلب وارسل لاهلها رسالة يطلب فيها قبول شحنتين مغوليين في المدينة والقلعة حتى اذا انهزم الناصر صلاح الدين يوسف كانت حلب لهما واذا انهزمت الجيوش التترية كان الراى لاهل حلب ، فرفض الناصر ودخل التتر حلب عنوة في صفر سنة ٦٥٨ كانون الاول ١٢٥٩ واعملوا السيف في رقاب ابنائها • اما القلعة فلم يدخلوها حتى ربيع الاول •

---

١) اليونيني ج ١ ص٨٥ • ولم تنقذها صلوات جيوش المماليك في مصر عندما كانوا يحاربون المحيث والبحرية عند العباسية (عن اليونيني ، ج ١ ، ص٨٩) •

٢) اليونيني ج ١ ، ص ٨٩ ، ٩١ ، ٤٥٢ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ • ابن الفوطي ، ص ٣٤٧،٣٣٢ ، المقريزي ، السلوك ، ص٤١٠ • •

وعلى اثر هذا النصر جاء الاشرف صاحب حمص الى هولاكو فابقاه في مملكته وجاء محي الدين بن الزكي من دمشق فعينه على قضاء بلاد الشام . ثم استناب عماد الدين القزويني نائبا على حلب (١) ثم عاد هولاكو الى الشرق لخلاف وقع حول اختيار الخان الاعظم بعد وفاة اخيه منكوخان .

اما الجيش التتري فواصل الزحف الى حارم فحماه . وفر امامه المنصور صاحب حماه الى مصر . والناصر صلاح الدين يوسف . ثم دخلوا دمشق في ربيع الاول من السنة . واما رفضت قلعة دمشق الاستسلام حاصرها قسم من التتر وانتشر القسم الاخر يعيثون فسادا حتى بلغوا غزة والكرك ثم عادوا الى دمشق واستسلمت القلعة في جمادى الاولى . ثم تقدموا بعلبك ودخلوها واحتلوا صيدا في رمضان (٢) .

وهكذا اصبح القسم الشمالي من بلاد الشام خاضعا للتتر ، وبقي عليهم احتلال القسم الجنوبي ، فاتصل كتبغا بالمغيث يدعوه الى طاعته فاجاب هذا اجابة مراوغة (٣) . ثم ارسل الى قطز يدعوه للاستسلام ، فرفض قطز ،

---

١) ابن عبد الظاهر ص٤٤ ، ٤٥ / اليونيني ج ١ ص٩١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٩ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ــ ٤٩٥ ، ج ٢ ، ص١٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ابن الفوطي ، ص ٣٣٩ ، ابو الفداء ج ٣ ، ص١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ــ ٢١٢ . الذهبي ، ج ٢ ص١٢٢ ، ١٢٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص٧٢ ، ٧٤ ، ٩٤ ، ٩٧ ، المقريزي ، السلوك ص٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص٧٤ ــ ٧٦ .

٢) ابو شامه ، ص٢٠٣ ، ٢٠٧ ، اليونيني ج ١ ص٣٤٩ ــ ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ . ابو الفداء ج ٣ ، ص٢١٢ ، الذهبي ج ٢ ص١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ المقريزي ، السلوك ، ص٤٢٢ ــ ٤٢٥ ــ ٤٢٧ ــ ٤٣٤ .

٣) اليونيني ، ج ١ ، ص٣٥٨ ؛ ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١١ .

وكانت معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ ثم معركة حمص في محرم سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ وتراجع التتر بعدها عبر الفرات (١) •

---

١) كان سيف الدين قطز قد ولي السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ نائبا على حلب واقطع بعض امراء العزيزية والناصرية اربعا بجوارها • فاساء السعيد السيرة حتى ابغضه الناصرية والجند • ولما قتل السلطان قطز استغل التتر الفرصة وعاودوا الهجوم الى البيرة في ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م فارسل نائب حلب نجدة صغيرة الى البيرة اباد ها التتر فغضب الامراء من السعيد واعتقلوه في ١٦ ذي الحجة ونفوه الى قلعة مجاورة وولوا عليهم الامير حسام الدين الجوكندار • وفي هذه الفوضى اقتحم التتر حلب وبذلوا الامان لاهلها وهرب حسام الدين الى حماه لتحذيره فاساء به الظن ثم هرب امير حماه ايضا لما تحقق الخبر • وهنا نكث التتر بامانهم لاهل حلب واعملوا السيف في رقابهم •

وعند حمص تجمعت قوات حمص وحلب وحماه وهي نحو الف واربعماية جندي مقابل ستة الاف للتتر • فانتصرت قوات المدن الثلاث وتراجع التتر ودخلوا حلب مرة ثالثة ودعوا الناس للانقسام حلبيين واغرابا • فظنت كل جماعة ان السلامة في الفرقة الاخرى ولما تم الانقسام ضرب التتر اعناق الاغراب وتقاسموا الحلبيين اسرى فيما بينهم •

ثم استطاعت قوات فخر الدين الحمصي وعلم الدين سنجر الحلبي من قبل الظاهر ان تستعيد حلب في اواخر سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م • وبعد ذلك صارت حلب مركزا هاما بالنسبة لمقاومة التتر والقضاء على الفرنجة ومهاجمة اسيا الصغرى • لقد صارت منطلقا للدفاع والهجوم معا (ابن عبد الظاهر ص٣٢ ـ ٣٤ ـ ٤٣ ، ابو شامه ، ص٢١٢ • اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٥ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٥٥٤ مج ٢ ، ص ٣ ، ٧ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ٤١٠ ، ٤٦٩ •

ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ • ابن ابي الفضائل ص ٧٠ ـ ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٠ ـ ٨١ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٥٨٣ • ابن تغري بردي ، النجوم مج ٧ ، ص ١٠٤ (٠) •

وبهذا اختتمت المرحلة الاولى من التوسع التترى نحو الغرب ، وفيها تعذر على التتر ان يسيطروا على بلاد الشام • فلجأوا الى خطة المناوشة والهجمات التخريبية المحدودة في مرحلتهم الثانية •

اما السلطان الظاهر فوجد ان الوسيلة الفضلى لمقاومة التتر هي في الجمع بين الوسائل الدبلوماسية والعسكرية معا • كانت للتتر ثلاث دول متنافرة في الصين والقفجاق وفارس • وقد كانت عداوته موجهة الى ايلخانات فارس فلا بد اذا من مهادنة القفجاق • وقد استمرت المفاوضات بين الظاهر وبركة خان نحو من سنتين ادت الى تحالف بينهما ونمع الايلخانات بين شقي الرحى (١) •

المرحلة الثانية :

انتهت هذه المرحلة بوفاة هولاكو سنة ٦٦٤ هـ (٢) / شباط ١٢٦٥ م • وقد جرت فيها عدة مناوشات بدأت سنة ٦٦٠ هـ حين هاجموا الموصل باتجاه حلب ، فارسل السلطان الظاهر الجيش للقائهم وبعث بجماعة اخرى لحرق الاعشاب في طريق التتر فتوقف الزحف (٣) •

وفي سنة ٦٦١ هـ هاجم التتر قلعة الروم فبعث نائب البيرة ، الحد الفاصل بين الايلخانات والمماليك ، والمرصد لتحركات التتر ، يعلم السلطان بذلك (٤) وفي محرم سنة ٦٦٣ هـ ، بينما كانت القوات المملوكية متفرقة في المراعي ، وبينما كان الظاهر في الصيد نزل التتر بقواتهم عند البيرة ، ظنا منهم ان المماليك لن يستطيعوا جمع جيوشهم لصدهم • ولكن السلطان سرعان ما جرد نحو اربعة الاف جندي بقيادة بدر الدين الخزندار وامر بتجريد اربعة الاف اخرى بقيادة عز الدين ايغان • وسار الجيشان في ٤ ربيع الاول ،

---

١) انظر ص ١٦١ وما بعدها ما دناه • — ٢ — قال ابو الفداء (ج ٤ ، ص ٢) والمقريزى ، السلوك ، ص ٥٤١ ، وابن ابي الفضائل (ص ١٤٥) ان الوفاة وقعت سنة ٦٦٣ هـ ، ولو انهم لم يتفقوا حول اليوم الذى مات فيه • وقال ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٥ ، ٢٢٠) والذهبي (ج ٢ ، ص ١٢٨) ان وفاته كانت سنة ٦٦٤ هـ ، اليونيني سنة ٦٦٤ هـ ، الـ... ج ٢ ص ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، — ٣ — ابن عبد الظاهر ، ص ٥٦ — ٥٨ ، ابو شامة ص ٢١٨ •

٤) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٤ •

وارسل الى المنصور صاحب حماه لينضم الى الجيشين الاولين ، فتراجع التتر عن البيرة مع انهم كانوا قد نصبوا عليها ١٧ منجنيقا .

وتابع الظاهر سيره حتى وصل صيدا وهنا جاءه الخبر بتراجع التتر ، فسر بذلك ، وارسل الى البيرة الالات والاسلحة والجند والمؤونة ما يكفيها لحصار عشر سنوات (١) .

لم تكن هذه المرحلة طويلة ولكن السلطان الظاهر افاد منها كل الافادة ، فقد وجد فيها متسعا من الوقت للاستعداد ، والحلف التحالف مع بركة خان ، والقضاء على الحشيش ، والمتفاهم مع الفرنجة في جنوب بلاد الشام للوقوف على الحياد في الصراع المقبل (٢) .

والمتفاهم مع الفرنجة في جنوب بلاد الشام للوقوف على الحياد في الصراع المقبل (٢) .

المرحلة الثالثة :

بدأت هذه المرحلة بارتقاء اباغا الى السلطنة الايلخانية سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م ، وهي المرحلة الثالثة والنهائية في الصراع بين بيبرس والتتر . وقد كانت اطول المراحل واعنفها واكثرها تعقيدا ، فقد كانت بين طرفين من حيث الاسم ولكنها تناولت السلاجقة والارمن والصليبيين والاوروبيين ، في الواقع ، وجرت معاركها في شمالي بلاد الشام ، وفي اسيا الصغرى ايضا .

وتتميز هذه الفترة بمايلي :

اولا : محاولات جدية للتفاهم بين التتر والاوروبيين القيام بحملات مشتركة على المماليك .

ثانيا : اتصالات بين اباغا والسلطان الظاهر ، للتفاهم في الظاهر ، وللالهاء في الحقيقة .

---

١) ابن عبد الظاهر ص١١٩ — ١٢٠ ، ابو شامة ص٢٣٢ ، اليونيني مج ٢ ، ص٣١٨ ، ابن ابي الفضائل ص١٣١ — ١٣٢ . ابن الفرات ج ٦ ، ص٤٢ — ٤٣ ، والمقريزي ، السلوك ، ص ٥٢٣ — ٥٢٥ ، ٥٤٣ . وهنا في صيدا ذهب للصيد وتقنطر وانهشم وجهه ، وجاءه صاحب يافا بهدايا . (المقريزي ، السلوك ، ص٥٢٤) .

٢) (F Sadeque) ، ص٤٦ — ٤٧ .

ثالثا : ميل الاشكرى (بيزنطية) الى التتر صراحة .

رابعا : الحملات العسكرية العنيفة في بلاد الشام وفي اسيا الصغرى .

على انه ينبغي ان نقسم هذه المرحلة الى قسمين امتد الاول منهما الى سنة ٦٧٤ هـ وامتد القسم الثاني منهما حتى وفاة السلطان الظاهر . وقد اعتبرت السنتين الاخيرتين جزءا من هذه المرحلة الثالثة لعلاقتهما الوثيقة بما جرى خلال السنوات العشر الاولى منها ، بين الظاهر والتتر . ولان المعارك فيهما كانت امتدادا للمعارك السابقة . واعتبرتهما مميزتين عن السنوات العشر الاولى لان المعارك فيهما جرت خارج اراضي السلطنة المملوكية ، ولان الظاهر ، فيهما يخيل الي لم يقم بها لمجرد الدفاع فقط .

وفي ذى الحجة من سنة ٦٦٤ هـ ارسل اباغا هدية ورسالة للظاهر بيبرس يعرض فيها المصالحة (١) ولكن هذه المحاولة فشلت . فعمد اباغا الى وسيلة اخرى لمجابهة خطر المماليك وهي الاتصال بالفرنجة للتحالف معهم وعاد الى مهاجمة بلاد الشام . وفي ٦٦٥ هـ ، اغارت قواته على الرحبة ونهبت وخربت (٢) . وفي صفر سنة ٦٦٦ هـ اغارت قواته على حلب لكنها تراجعت امام استعدادات الظاهر (٣) ثم اتصل بالبابا لعقد حلف لمحاصرة المماليك وما لاحت له تباشير نجاح هذه الخطة حتى ارسل للظاهر رسالة مع جماعة من التتر ومن اصحاب سير يهدده فيها ويندد باصله ثم يدعوه لعقد الصلح فرد الظاهر على ذلك بالمطالبة بالعراق والجزيرة وبلاد الروم وبلاد الشام (٤) .

---

١) اليونيني جـ ٢ ص ٤٦٧ . المقريزى ، السلوك ص ٥٥٣ . ابن تغرى بردى النجوم ، جـ ٧ ص ١٥٥ ، ١٥٦ — ... ٢ — ابن الفرات مج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٥ — ٣ — ابن الفرات مج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١٣ ، المقريزى ، السلوك ص ٥٦٤ — ٤٠ — ابن الفرات مج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٣٩ ، ٤٠ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٧٤ ، وابن تغرى بردى النجوم ، جـ ٧ ص ١٥٤ .

وبعد الاتفاق مع الفرنجة على ان يهاجموا ساحل بلاد الشام ، قامت قوات ابافا في صفر ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م بهجوم على حلب ، فارسل الظاهر علاء الدين البندقدارى الى شمالي بلاد الشام ليحول دون وصول الجيوش الفرنجية القادمة من مصر عبر البحر ، وسار بنفسه الى غزه في ربيع الاول ، ورد هجوما من فرنجة عكا على جينين وصفد ، وواصل المسير الى دمشق ودخلها في ٧ ربيع الاخر ، وفشلت هذه الحملة المشتركة لسرعة تحركات الظاهر من جهة ولانعدام الانسجام والتوقيت المضبوط بين القوات التترية والفرنجية ، زد الى هذا ان الحملة التي كان لويس التاسع يهيئها للشرق ، انحرفت الى تونس ، ولعل المصادفة ايضا بدا في انتصار الظاهر اذ ان ريحا عبثت على سفن القوات الفرنجية فاغرقتها (١) .

وعاد الظاهر الى القاهرة ، وفي محرم سنة ٦٧٠ هـ بدا بجولة تفتيشية في بلاد الشام فمر في الكرك ثم دخل دمشق في ١٢ صفر ، ثم قصد حماه في ١٦ صفر وعاد الى دمشق في ٢٦ منه ثم جاء الخبر بان ابافا امر البرواناه بقصد بلاد الشام بعشرة الاف جندى ، وفي ربيع الاول وصلت هذه القوات عينتاب وعمق حارم فاشاع الظاهر اخبار الزحف التترى بصورة قوية ليهرب السكان ، وتراجعت حاميته ليتوغل المغول لعله يستدرجهم الى الداخل فيبيدهم وما ان انتصف ربيع الاول حتى كانت قواته بقيادة بدر الدين بيسرى والسنقر الفارقاني وبعض جيوش العربان تقف امام التتر تردها على اعقابها ، ووصل بقواته الى البيره ودخلها في ٢٥ جمادى الاخرة .

اما التتر فتراجعوا عبر الفرات ، لكنهم عادوا الى مهاجمة حران في ٢٥ رمضان فردهم مرة اخرى ثم عاد الى دمشق فالقاهرة فدخلها في ٢٣ محرم سنة ٦٧١ هـ ، ثم عاد الى دمشق في ٢٩ منه وبقي فيها حتى ٥ جمادى الاولى .

---

١) المقريزى ، السلوك ص ٥٨٤ — ٥٨٥ .

ورأى ابافا نفسه عاجزا عن متابعة الحملة لا سيما وقد تحرك القبشاق والجغطاى (١) فعاد الى مفاوضة الظاهر مرة اخرى ، فارسل اليه في نهاية ٦٧٠ هـ ، بواسطة البرواناه يدعوه اليه لعقد الصلح ، ثم اسفرت هذه الاتصالات عن ارسال وفد من قبل الظاهر الى ابافا المتفاوض ، وطلب الوفد الظاهرى استعادة ما استولى عليه ابافا من بلاد المسلمين نرفض ابافا واقترح استمرار الوضع الراهن ، ثم حصلت مشادة بين الطرفين فعاد الوفد الى دمشق في ١٥ صفر ٦٧١ هـ (٢) .

ولما فشلت المفاوضات عاد التتر الى الهجوم مرة اخرى ، ففي ٥ محرم ٦٧١ هـ كان السلطان في دمشق فعلم بحركة التتر الى الرحبة فذهب الى القصير فعاد التتر الى البيرة ، وهنا قصد السلطان القاهرة ووصلها في ١٣ منه واصدر تعليماته للاستعداد للذهاب الى بلاد الشام ، ثم كتب الى نوابه وامرائه في بلاد الشام ليتهيأوا ، وفي ١٥ منه اجرى تمارين بحرية وفي يوم الاربعاء ١٩ منه ساق الى بلاد الشام ، ومرة اخرى اعاد ابافا المحاولة لعقد الصلح اذ ارسل وفدا يدعو الظاهر الى استنابة من يشاء للمفاوضة فرفض وتابع استعداداته وتدريباته واجرى استعراضا عسكريا في ظاهر دمشق حضره الوفد التترى ثم عاد الوفد في ٤ ربيع الاول سنة ٦٧١ هـ .

وفي ٥ جمادى الاول سنة ٦٧١ هـ كانون الاول ١٢٧٢ نزل التتر على البيرة ونصبوا عليها المجانيق وسدوا معابر الفرات ، وامام هذا الهجوم جهز الظاهر الامير فخر الدين الحمصي الى جهة حارم وجهز علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى الى جهة اخرى نحو الفرات ، وارسل جماعة الاستطلاع اخبار التتر فعلموا ان عددهم نحو ثلاثة الاف جندى

---

١) ابن ابي الفضائل ص ١٤٥ ، ابن الفرات جـ ٦ قسم ٢ ، ورقة ٣٨ ، ١٧١ ، المقريزى ، السلوك ص ٥٤٩ .

٢) اليونيني جـ ٢ ، ص ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، ابو الفداء جـ ٤ ص ٧ ، ابن الفرات جـ ٦ قسم ٢ ورقة ٩٠ ، ٩١ وورقة ١٠٠ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦٠٠ .

وفي ١٨ جمادى الاولى اتبع الظاهر الجيوش الثلاثة بجيش رابع بقيادته ومعه نحو عشرة مراكب صيادين مفككة جهزها في بحيرة حمص محمولة على جمال • ووصل الفرات فوجد التتر مرابطين على الشاطئ المقابل فانزل مراكبه في النهر ليصنع منها جسرا وشحنها بالجنود وتراموا مع التتر بالنبال والنشاب حتى استطاع قلاوون ان يخوض الفرات ومعه عدد من الجنود وعدة وافرة ثم تبعه بدر الدين بيسرى الشمسي في جمع اخر من الجند • ثم القى الجنود بانفسهم الى الفرات وعاموا فيه " الفارس الى جانب الفارس وهم متماسكون بالاعنة ومجاديفهم رماحهم وعلى خيولهم الحديد " واجتازوا النهر حشودا لا افرادا ثم انتشروا يأسرون وينهبون •ولم يجدوا للتتر اثرا فظن الظاهر ان التتر يكمنون له • فلم يتبعهم ، بل اكتفى بالاستيلاء على البيرة وكان جيشه قد لاقى مشقات كبيرة في هذه الحملة •

ثم منح نائب البيرة هبات وخلعا واموالا • ووزع العطايا على اهل البلد وزاد عدد جنود الحاميه ، ثم قفل راجعا الى دمشق ، فالقاهرة (١) •

وفي محرم سنة ٦٧٢ هـ / تموز ١٢٧٣ م عرف السلطان ، وهو في القاهرة ، ان ابافا توجه الى بغداد بجيش كبير ينوى اقتحام بلاد الشام • فاعلن الظاهر النفير العام • اذ اوجب على الجميع ان يتهيأوا للحرب ، ثم توجه الى دمشق فوصلها في ١٧ صفر / ايلول حيث علم ان التتر تراجعوا بعد ان علموا بوفاة البابا فريغورى العاشر واستحالة قدوم حملة صليبية مؤيدة لحملته من الشرق • فعاد الظاهر الى القاهرة • ثم عاد التتر للهجوم مرة اخرى في جمادى الاخرة سنة ٦٧٢ هـ ، فبعث السلطان الامير عيسى بن مهنا فتراجع التتر ظنا منهم انه السلطان وفي جمادى الاخرة سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ ، عاود التتر الهجوم على البيرة ، فتاهب السلطان لملاقاتهم فوصل الى حمص حيث علم انهم عادوا (٢) •

---

١) ابو الفداء ، جـ٤ ص٧ الذهبي مجـ٢ ص١٣٤ ، ابن ابي الفضائل ص٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ابن ابي الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٠٠ — ١٠٣ ، المقريزى ، السلوك ، ص٦٠٤ ، ٦٠٧ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص١٥٨ ، ١٥٩ •

٢ — ابو الفداء ، جـ ٤ ص٩ ، الذهبي جـ٢ ص ١٣٣ ، ابن ابي الفضائل ص٢١٧ ، ٢١٨ ، المقريزى السلوك ، ص٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢١ (F Sadeque) ، ص٦٣ •

وفي السنتين الاخيرتين من حكمه كانت الاصطدامات في آسيا الصغرى . هنا كان السلطان الظاهر قد اخذ يطمع باحتلال آسيا الصغرى، بعد ان عقد هدنة مع الفرنجة في بلاد الشام، وبعد ان فشلت محاولات التفاهم بين التتر والاوروبيين لتطويقه . لم يكن الدفاع هو العامل الذى حدا به لهذه الحملات الاخيرة وانما هو عامل التوسع .

وفي رمضان سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٧ ، استناب السلطان الامير اقسنقر الفارقاني في خدمة ابنه الملك السعيد وترك لهما خمسة الآف جندى، ثم خرج في ٢٠ منه الى المنزلة حيث عيد العيد . وفي ١٢ شوال غادر المنزلة الى بلاد الشام ومعه وزير الصحبة وكبار الامراء ووصل دمشق في ١٧ منه ، ثم دخل حلب في اول ذى القعدة، ثم غادرها الى حيلان، من قرى حلب وجعلها قاعدة للهجوم على بلاد السلاجقة . وهنا امر نور الدين علي بن مجلي نائب حلب ان يتوجه الى نهر الساجور في منبج ويقيم على الفرات ليحول دون عبور التتر الى بلاد الشام . وهنا ايضا انضم اليه ابن مهنا لنصرته ، ورد غزوة تترية واسر عددا ضخما من التتر(١) .

وفي ٣ ذى القعدة قسّم السلطان جيشه قسمين قاد احدهما بنفسه وقاد سنقر الاشقر القسم الآخر . وذهب السلطان الى كينوك او الحدث الحمراء في آسيا الصغرى، وكان احد قواده قد افتتحها له سنة ٦٧١ هـ (٢) ، ثم الى ككصو فاقجار بند وملكها كلها . اما سنقر الاشقر فاصطدم بنحو ثلاثة الآف جندى تترى وانتصر عليهم في ٩ ذى القعدة (٣) .

---

١) ابن الفرات، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٤٩ _ ٥٠ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧ ، ص ١٦٦ _ ١٦٧ . ٢ _ المقريزى، السلوك، ص ٦٠٨ . ٣ _ ابن الفرات، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٥٠ _ ٥١ ، وهو ينقل عن ابن عبد الظاهر وصفا دقيقا لطريق الحملة : المقريزى، السلوك، ص ٦٢٨ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧ ، ص ١٦٧ _ ١٦٨ .

ولم يكن هذا الانتصار سوى بداية حملة استغرقت نحوا من شهر •وبعد هذه المعركة احتشدت قوات الروم السلاجقة والتتر عند نهر جيحان • فارسل السلطان طليعة من جيشه تستكشف مكان العدو • فوجده في صحراء ابلستين منتظما في احد عشر طلبا ، في كل منهم الف فارس • وفي العاشر من ذي العقدة اصطدم الجيشان وكادت الجيوش التترية تنتصر، وجرت معركة عنيفة ترجل فيها فرسان التتر وقاتلوا قتالا عنيفا • لكن الجيوش الظاهرية اضطرتهم للتراجع والالتجاء الى المرتفعات المجاورة حيث احاطت بها قوات السلطان الظاهر وابادتها، وفر البرواناه وسلطان السلاجقة (١) •

وجرد السلطان سنقر الاشقر لمطاردة التتر ، فزحف نحو قيصرية الروم ومعه كتاب امان لاهلها • ثم لحقه حتى وصل العاصمة السلجوقية في ١٥ ذي العقدة فرحب به سكانها • وفي يوم الجمعة ، ١٧ منه ، وضع على راسه جتربني سلجوق ودخل دار السلطنة وجلس على عرش السلاجقة ، ثم دخل الجامع للصلاة وخطب باسمه في جوامع قيصرية السبعة (٢) •

وهناوصلته رسالة تهنئة من البرواناه الفار يعده فيها بالعودة اليه بعد ١٥ يوما لكن الظاهر لم يامن له • وفي ٢٠ ذي العقدة عاد الظاهر نحو بلاد الشام • وفي طريق العودة جرد جيشا بقيادة طيبرس الوزيري لمهاجمة الرمانة الارمنية لان هيثوم ناصر الروم في موقعة ابلستين ثم واصل سيره الى ابلستين وجمع بعض قتلى جيشه حتى اذا جاء اباغا الى الساحة توهم ان قتلى المماليك ليسوا كثيرا • ثم سار الى الدربند فحارم فانطاكية فحلب حتى وصل دمشق في ٥ محرم سنة ٦٧٦هـ • وما كاد يدخل دمشق حتى علم بقدوم اباغا الى اسية الصغرى، وتهيأ لقصد بلاد الشام ، فعاد الى الاستعداد لملاقاته • ولكن اباغا تراجع (٣) •

---

١) ابو الفداء ، جـ ٤ ، ص٩ ، ١٠ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ورقة ٥١ـ٥٢ ، المقريزي السلوك ص٦٣١ ، ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ،جـ ٧ ، ص١٦٧ـ١٧٠ •

٢) ابو الفداء ،جـ ٤ ص ١٠ ،الذهبي ،جـ ٢ ، ص ١٣٣ ،ـ ابن الفرات ،جـ ٦ ،قسم ٢ ، ورقة٥٢ـ٥٦، المقريزي ،السلوك ، ص٦٢٨ ـ ٦٣١ ،ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ،ابن اياس،جـ ١ ، ص١٠٩

٣) ابن الفوطي ، ص ٣٨٩ ، ابو الفداء ،جـ ٤ ، ص١٠ ،الذهبي ،جـ ٢ ، ص١٣٤ ،ابن ابي الفضائل ، ص ٢٥٧ ـ ٢٧٥ ، ابن الفرات ، جـ ٦ ،قسم ٢ ، ورقة٥٦ ـ ٥٩ وورقة ٦٠ ، المقريزي السلوك ، ص٦٣١ ـ٦٣٣ ، ٦٣٥ ،ابن بردي ، النجوم الزاهرة ،جـ ٧ ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ، ابن اياس، جـ ١ ، ص١٠٩ •

وهنا ينبغي ان نسأل سؤالين وهما : ما هو السبب المباشر لهذه الحملة ؟ وما هي فوائدها ؟ السبب الحقيقي للحملة هو استمرار الصراع بين السلطان الظاهر والتتر . اما السبب المباشر فهو ان البرواناه ، اتصل بالسلطان الظاهر سنة ٦٧٢ هـ يدعوه لاحتلال بلاد الروم ثم عاد فطلب من السلطان تأجيل حملته ، فاتصل امراء سلاجقة اخرون بالسلطان الظاهر يدعونه لاحتلال بلادهم ويعدونه بالعون . فعقد السلطان مجلسا عسكريا قرر فيه مهاجمة بلاد السلاجقة (١) وهكذا يكون السلطان قد هاجم قيصرية بناء على دعوة من بعض ابنائها .

ولئن كانت قيادة الحملة قد برهنت عن دراية عسكرية من حيث سد معابر الفرات الى بلاد الشام ، وارسال فرق استطلاعية قبل الهجوم ، وعدم انخداع بوعد البرواناه (٢) بالعودة اليه بعد ١٥ يوما فان نتائج هذه الحملة لم تكن شيئا بالنسبة لما تكبده فيها من نفقات ومشقات ، وخسائر بالارواح ، ولعلها لم تكن اقل من خسائر التتر . اليس من المعقول ان قتلاه كانت اكثر من قتلى التتر فعمد الى اخفاء هذه الحقيقة بدفن القتلى ؟ اما دخوله قيصرية وجلوسه على عرش السلاجقة فمن قبيل "المرجلة" الفارغة . الم يكن يكفيه انه رد التتر عن البيرة ، فلا داعي بعد ذلك لتحويل ميدان القتال الى اسية الصغرى . اتراه كان يتوقع البقاء في بلاد الروم ؟ الست احسب ذلك ممكنا وقد احس بذلك فور دخول قيصرية ، فعمد الى الانسحاب ، تاركا العاصمة السلجوقية للانتقام التتري . وحسب ان اباغا واصل زحفه على بلاد الشام في محرم ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ فماذا كان يحدث والسلطان مريض متبرم منه ، والجيش لا يزال متعبا ؟ وكأني بابن ابي الفضائل يعتبر هذه الحملة مغامرة لافائدة منها (٣) . وها هو المقريزي يقول ان الخوف والندم ظهرا عليه وهو في قيصرية لتوريط جيوشه في بلاد الروم (٤) . ثم ان (E. Blochet) يرى ان الحملة كانت حماقة لان الروم انفسهم لم يكونوا متفقين على دعوته (٥) .

---

١) اليونيني جـ ٢ ، ص٣٤٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ابن ابي الفضائل ، ص٢٤٤ ـ ٢٥٧ ، ابن الفرات جـ ٦ قسم ٢ ، ورقة ٣٤ ، المقريزي ، السلوك ص ٦٢١ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ .

٢) معنى الكلمة ، الحاجب ، وهو لقب مندوب التتر عند السلطان السلجوقي ، وقد لعب سليمان الدين البرواناه هذا دورا هاما في هذه المعركة . انظر ١٨٣ ادناه .

٣) ابن ابي الفضائل ، ص٢٤٢ ـ ٢٤٤ . ٤ ـ المقريزي ، السلوك ، ص٦٣٣ .

٥) (E. Blochet) النهج السديد ، ص٣٨٧ .

والى جانب هذه الحروب المتواصلة بين ايلخانات فارس والارمن والسلاجقة الروم من جهة والظاهر بيبرس من جهة ثانية ينبغي ان لا ننسى علاقات اخرى بين الطرفين تتناول لجوء الكثيرين من التتر والسلاجقة الى الظاهر بيبرس • ففي ٢٧ ذي القعدة سنة ٦٦٠ هـ جاء الى دمشق نحو ٢٠٠ فارس تتري ومعهم نساؤهم واولادهم هاربين من جيش هولاكو المنهزم امام جيش بركة (١) •

ويوم الخميس ٢٤ ذي الحجة من السنة نفسها جاءت الى مصر جماعة تترية مستأمنة فاكرمهم الظاهر ومنحهم اقطاعات كثيرة • ثم اخذ اللاجئون يتواترون جماعة اثر جماعة حتى خشي السلطان منهم وحذرهم • ففي رجب سنة ٦٦١ هـ علم ان طائفة كبيرة منهم قادمة اليه فخرج لملاقاتهم بالسلاح حتى اذا كانوا خصوما حاربهم واذا كانوا اصدقاء اكرمهم • وكانوا اصدقاء • فانعم عليهم وتزوج بنت مقدمهم كرمون (٢) •

وفي محرم سنة ٦٦٢ هـ وصلته جماعة اخرى مستامنة من بغداد • وفي جمادى الاخرة ايضا جاء بعض امراء العراق فرارا من هجوم هولاكو على بغداد • وفي سنة ٦٦٧ هـ بعد سلطنة ابنه جاءته دفعة اخرى (٣) • وفي صفر ٦٧٢ هـ وصله الامير شمس الدين بهادر امير طشت جلال الدين خوارزمشاه فاكرمه (٣) • وفي ١٧ محرم منه ٦٧٥ هـ جاء ، وهو في دمشق عدد كبير من المغول والسلاجقة لخلافهم مع البرواناه وتآمره عليهم عند ابغا (٤) ؛

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ •
٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٦ — ٨٨ ، ١٠٥ — ١٠٦ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٤ ، وج ٢ ص ١٩٥ ، الذهبي ، ج ٢ ص ١٥٦ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٠١ ، ٥١٥ • ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٠ •
٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٦ •
٤) المقريزي ، السلوك ، ص ٦١١ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٢٣٩ — ١٤٤ •

٢ - القبشاق ٠

القبشاق فرع من المغول استوطن الاصقاع الجنوبية من روسيا٠ ويدعون بالقفجاق ايضا٠ اما المؤرخون الفرنجة فيدعونهم بالقبيلة الذهبية ٠

كان بركة خان (١) (١٢٥٦ - ١٢٦٦) اول سلاطينهم المشهورين وقد اعتنق الاسلام واختلف مع هولاكو، وكانت عاصمته سراي شرقي ستالينغراد (٢) ٠ وفي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١ كان بركة خان قد اعلن اسلامه ٠ وفي سنة ٦٦٠هـ وقعت الحرب بين بركة خان وهولاكو لاستياء بركة من تاسيس دولة الايلخانات بفارس وامتناع عن اعطاء القبشاق نصيبهم من الاسلاب (٣) ٠ فكان طبيعيا بعد هذا ان يتصل السلطان بيبرس ببركة خان للتعاون معا على هولاكو٠

وفي محرم سنة ٦٦١هـ ارسل السلطان الظاهر الفقيه مجد الدين والامير سيف الدين كشريك برسالة وهدية الى بركة٠ وفي الرسالة حض على الجهاد وعرض لما يقوم به في سبيل الاسلام واخباره باحياء الخلافة (٤) ٠ والتقى وفد الظاهر في القسطنطينية بوفد من قبل بركة خان فعاد مجد الدين مع وفد بركة خان الى السلطان الظاهر، وتابع سيف الدين سيره الى بركة خان٠

---

١) كان " خفيف اللحية كبير الوجه في لونه اصفرار، يلف شعره عند اذنيه ٠ في اذنه حلقة فيها جوهرة ثمينة لبسه لباس يانو وعليه قباء خطائي، وعلى راسه سراقوج وحياصه من ذهب مجوهرة ٠ وفي وسطه سولق بلغاري اخضر وفي رجله خف احمر ٠٠ بلباد ابيغر وليس في وسطه سيف ٠ وفي حياصته قرون معوجه معممة بذهب ٠٠٠ جالس على تخت مرخي الرجلين على كرسي ٠٠ لان به وجع النقرس " يستقبل السفراء في خركاة وعنده ٥٠ او ٦٠ اميرا ومعه زوجته (اليونيني، جـ١، ص٥٤٢)٠

٢) اليونيني، جـ٢، ص٣٦٤، ابو الفداء، جـ٤، المقريزي، السلوك، ص٥٦١، W.Barthold مادة Bereke نقحها J.A.Boyle في الموسوعة الاسلامية، الطبعة الجديدة، مجلد١، ص١١٨٧-١١٨٨٠

٣) ابن عبد الظاهر، ص١١٦، اليونيني، جـ١ ص٤٨٧، ٥٣٦، جـ٢، ص١٦١ - ١٦٢، الذهبي، جـ٢، ص١٢٦، ابن ابي الفضائل، ص١٠١، ١٠٤، ١٢٠، المقريزي، السلوك، ص٣٩٤ - ٣٩٥، ٤٦٥، ٤٧٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٢٢، D'Ohosson ص٣٧٧٠

٤) ابن عبد الظاهر، ص٥٩-٦٠، ١١٣، ابن الفرات، جـ٦، ص١١، المقريزي، السلوك ص٤٧٩ - ٤٨٠٠

ووصل وفد بركة خان القاهرة فيرجب سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ عبر الاسكندرية ومعه رسالة مضمونها ان بركة خان " محب للدين وان هذا العدو يعني هولاكو قد تعدى على المسلمين واستولى على بلادهم ،وقد رايت ان تقصده ، من جهتك واقصده من جهتي ونصدمه صدمة واحدة فنقتله او نطرده من البلاد . ومتى كانت واحدة من هاتين اعطيتك ما كان في يده من البلاد التي استولى عليها "(١) .

هذا ما كان يريده الظاهر .

ثم واصل الوفد الظاهري برئاسة سيف الدين كشريك سيره الى بركة وعاد من عند بركة خان ومعه وفد اخر،وفي جمادى الاولى من سنة ٦٦٠ هـ ارسل الظاهر وفدا ثانيا الى بركة خان يعلن موافقته على ماورد في رسالته اليه ،ثم وصله وفد بركة في ذي القعدة سنة ٦٦٢ هـ والظاهر يتهيأ للاستعراض العسكري الكبير (٢) فعمل له دعوة باللوق (٣) وانعم على اعضائه بهدايا سنية .

وردا على ذلك جهز السلطان وفدا من اعضائه الامير فارس الدين اقوش المسعودي الى بركة خان برسالة وهدية . وكانت الرسالة في سبعين ورقة بغدادية تحتوي على ايات واحاديث ترغب بالجهاد وتصف كثرة جند مصر ، ثم توافق على مقترحات بركة خان . وكانت الهدية تتضمن الحيوانات الغريبة كالزرافة والقرد والهجين والخيل العربية والحمير المصرية الوحشية والخدم والاحباش والجواري والمشاعل والشمعدانات الفضية والحصر العبدانية والامتعة والثياب وما الى ذلك مما لا يحصى كثرة(٤) .

---

١) ابن عبد الظاهر ص٨١ ، اليونيني ج ١ ، ص٥٣٣ ، ٥٣٤ ، وج ٢ ص١٩٤ ، ١٩٥ ، ابن ابي الفضائل ص ١١٠ ، ١١١ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص١٢ و .

٢) ابن عبد الظاهر ص٦٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ابو شامه ، ص٢٣٢ ، المقريزي ،السلوك ص ٥١٧ ، ٥٣٨

٣) وهي بساتين ومزروعات ليس فيها ابنية الا ماعمره القاضي الفاضل ، ثم بنى الظاهر فيها الدور وانزل فيها التتر الوفود والمستامنين (المقريزي ،الخطط ج ٢ ، ص١١٧ ، السلوك، ص٤٧٤ ، ٤٧٥ ملحوظة ١ — ٢ .

٤) ابن عبد الظاهر ، ص٨٢ ، ٨٣ ، اليونيني ، ج ١ ص ٥٣٤ ، ٥٣٧ ، ج ٢ ص١٩٦ ، ١٩٧ ، ابن ابي الفضائل ، ص١١١ ، ١١٢ ، ابن الفرات ، ج٦ ، ص ٣١ ، ٣٢و ، المقريزي ، السلوك، ص٤٩٥ .

وفي ١٧ رمضان سار وفد السلطان من القاهرة الى القسطنطينية • وكان الاشكرى غائبا عن عاصمته في حرب مع الفرنجة ، وعنده وفد من قبل هولاكو، فسار الوفد الظاهرى اليه فاكرم اعضاءه ووعدهم بالمساعدة عندما يعود الى العاصمة • فعادوا الى القسطنطينية لكنه استمر يماطلهم سنة وثلاثة اشهر • فاستاذنه الوفد بمواصلة السير الى بركة خان اوبالعودة الى القاهرة • فاذن لاحد الاعضاء بالعودة الى القاهرة واحتجز البقية وبينهم الامير فارس الدين اقوش المسعودى ، نحو سنتين اخريين حتى هلك اكثر ما كان معه من الحيوان وفسد البقية (١) •

وفي هذه الفترة هاجم بركة خان القسطنطينية فهرب الاشكرى واستنجد بالامير فارس الدين فقال هذا لمقدم القبشاق ان الاشكرى صديق للظاهر ، واعطاه وثيقة بانه باق عند الاشكرى برضاه • ثم انسحبت الجيوش القبشاقية • وهنا سمح الاشكرى للوفد الظاهرى بمواصلة السير الى بركة خان ومعه رسالة تعهد فيها بغرامة سنوية معينة مقابل الصلح (٢) •

ثم سار الوفد الى بركة خان مارا على ساحل السوداق فالقريم حتى استقبله مندوب بركة خان وانزل اعضاءه منزلة حسنة حتى كان يوم المقابلة مع بركة خان • دخل اعضاء الوفد عليه بموجب الاداب المتبعة في بلاطه وثبتت الرسالة واعجب بها ، ثم اكرمهم واكرمتهم

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٨٢ ، اليونيني ، ج ١ ، ص٥٣٨ ، ٥٤٠ وج ٢ ، ص١٩٦ ، ابن ابي الفضائل ، ص١١١ - ١١٣ • ابن الفرات مج ٦ ، ص٤٧ و ص٥١ و •

٢) اليونيني مج ١ ، ص٥٣٨ ، ج ٢ ، ١٩٧ ، ابن ابي الفضائل ، ص١١٤ • ابن الفرات ، ج ٦ مص٤٧ و - ٤٧ ق •

زوجته ايضا ، وسألهم عن سبب التاخير ، وعني بالاسئلـــة عن مصر ، ثم كتب رسالة الـــى الظاهر ، وسيّـر وفدا بصحبتهم الى الظاهر (١) .

وكان طبيعيا ، عندما علم الظاهر بتاخير هذا الوفد عند الاشكرى ، ان يرسل وفـــدا اخر الى بركة في رمضان سنة ٦٦٣ (٢).

وتوفـى بركة خان في رجب سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م . وخلفه ابن اخيه منكوتمر وفي صفـر من سنة ٦٦٦ هـ ارسل الظاهر اليه يعزيه بوفاة عمه بركة خان ويعرض عليه استمرار التحالـــف بينهما لمجابهة ابافا فقبـل (٣) .

وفي سنة ٦٦٨ هـ هاجم منكوتمر القسطنطينية(٤) وفي السنة التالية جاء الـى الظاهـر رسالة من زعماء القبشاق يؤيدونه ويعلنون الولاء له فاجابهم السلطان مؤكدا استمرارالجهاد (٥)

وفي ذى القعدة سنة ٦٧٠ هـ وصل رسل منكوتمر الى الظاهر بدمشق عبر بلاد الاشكرى، فالبحر حيث استولى عليهم مركب من المتشابهين وادخلهم عكا ، فاوجب صاحبها تسييرهم الى السلطان بموجب حلف مع الظاهر . لكن المتشابهين لم يردوا الاسلاب فامر السلطان بمصادرة تجارهم في الاسكندرية، وكان مع الرسل رسالة مضمونهـا وعـد برد جميـــع ما استولـــى

---

١) اليونيني ، جـ ١ ، ص٥٣٩ ، ٥٤٢ ، جـ ٢ ، ص٣٦٢ ، ابن ابي الفضائل ، ص١١٨ ، ١١٩ ، ابن الفرات جـ ٦ ، ص ٥٢ و ـ ٥٢ ق اما الاداب المتبعة لديه فهي الدخول على اليســار حتى تؤخذ الرسائل فينتقل الوفد الى اليمين ، والجلوس على الركبتين ، والتجرد من الســلاح والعدة وعدم دوس عتبة الخركاة ، وعدم حمل قوس او نشاب وعدم اكل الثلج او غسل الثيـــاب في الخركاة (اليونيني ، جـ ١ ، ص ٥٤٢) واعتذر فارس الدين عن تاخره بان الاشكرى اخـره فابرز له بركة خان الوثيقة التي سلمها لمقدمه ولما عاد فارس الدين الى القاهرة في جمـادى الاخرة سنة ٦٦٥ هـ اعتقله السلطان وصادر امواله (اليونيني ، جـ ١ ، ص ٥٣٩ ، وجـ٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ابن ابي الفضائل ص ٤٥٦) ـ ٢ ـ المقريزى ، السلوك ، ص ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥٣٨ . ـ ٣ ـ اليونيني ، جـ ٢ ، ص٣٦٣ ، ٣٦٤ . ابو الفداء ، جـ ٤ ص ٤ ، ابن الفرات جـ٦ قسم ٢ ورقة ٣٤ ، المقريزى ، السلوك ص٥١٧ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ـ ٤ ـ ابو الفداء ، جـ ٤ ص٦ ـ ٥ ـ ابن الفرات ، جـ ٦ ، قسم ٢ ، ورقـة ٧٣ ـ ٧٤ .

عليه بيت هولاكو من بلاد الاسلام مقابل نجدة بيت بركة لاستئصال شافة بيت هولاكو • واجاب السلطان الظاهر على الرسالة بالقبول (١) •

وفي رجب سنة ٦٧٤ هـ بعث السلطان الظاهر بوفد ورسالة الى منكوتمر (٢) • ومع ان المصادر لاتشير الى مضمون الرسالة ، فالارجح انها ذات علاقة بحملة بيبرس على بلاد الروم وارمينيا •

وهكذا نرى ان العلاقات بين بيبرس والتتر كانت عدائية مع ايلخانات فارس في عهدى هولاكو وابنه ابافا ، وودية مع القبشاق في عهد بركة خان وابن اخيه منكوتمر •

٣ — الكرج •

في رجب سنة ٦٦٦ هـ عاد رسول الظاهر من بلاد الكرج بجواب مضمونه تاييد الظاهر والقبشاق وعداء الايلخانات فارس (٣) •

٤ — السلاجقة :

احتلت القوات التترية بلاد الروم سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م وابقى هولاكو ركن الدين بن غياث الدين سلطانا على البلاد لكنه جعل معه مقيما من قبله(٤) • وفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م • اختلف الاخوان ركن الدين وعز الدين فكان الخلاف فرصة للسلطان الظاهر للتدخل • ولما ايد التتر ركن الدين ايد السلطان الظاهر عز الدين فارسل هذا رسالة له يتنازل فيها عن نصف بلاده واستنجد به على اخيه ، فارسل الظاهر جيشا لنصرته(٥) ولكن عز الدين لم يستطع

---

١) اليونيني ، جـ ٢ ص٢٤٧ ، وابن ابي الفضائل ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، المقريزى ، السلوك، ص٦٠٧ والمتشابهين عند ابن ابي الفضائل ، هي البيسانيين ، عند اليونيني ولعلها نسبة الى بيزاء•

٢) المقريزى ، السلوك، ص٦٢١ • (٣) ابن الفرات جـ ٦ ، قسم اول ورقة ٧٧ و جـ ٦ ، قسم ٢ ورقة ١٧ و جـ ٧ ، ص ٥ •

٤) اليونيني ، جـ١ ، ص٨٦ ، (E.I. "Seljuks") مجلد ٤ ، ص٢١٢ •

٥) ابن عبد الظاهر ، ص٥٠ ، ٥١ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٧٠ •

مع ذلك ، الوقوف امام اخيه الذى يناصره التتر المحتلون • فهرب عز الدين الى انطاكيــه ثم الى القسطنطينيــة(١) •

ثم ساءت العلاقة بين المقيم التترى معين الدين سليمان البرواناه وركن الدين فاتصل البرواناه بالظاهر يدعوه الى بلاد الروم • ثم ذهب الى اباغا بناء على طلبه ولما عاد الى قيصرية ، دب الخلاف بينه وبين السلاجقة الذين كانوا اتصلوا بالظاهر معه ، فحاربهـــم ثم ادى هذا الى قدوم السلطان الظاهر في اواخر سنة ٦٧٥ هـ في حملة الى بلاد الروم (٢) •

٥ ـ ارمينيــــا :

كانت ارمينيــا دولة صغيرة ناشئة تريد تثبيت اقدامها في زمــن مضطرب وعاصمتها سيس "مدينة كبيرة ذات اسوار على جبل مستطيل ولها بساتين ونهر صغير" وكان طبيعيــا بعد امتداد سلطان التتر الى بلاد الروم ان تنشد هذه الدولة صداقة التتر • لذلك زار ملكهـــا هيثوم (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠) الخان التترى الاعظم في قراقورم سنة ١٢٥٥ ، واعلن ولاءه له • وطبيعــي بعد هذا ان يرى الظاهر في هذه الدولة عدوة له •

وكأن هذه الدولة الصغيرة الناشئة كانــت تطمع بشمال بلاد الشام لذلك كانــت منذ اوائل القرن الهجرى السابع /الميلادى الثالث عشر تغير على مدن بلاد الشام الشماليــة واتخذت انطاكية حليفتها ، قاعدة لهذه الغزوات على بلاد الشام • ففي شوال سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م • اغارت قوات ارمينيه على منطقة حلب فنهبت الفوعة وسرمين (او سلمين) وجبل بيلون ، فردهم نائب الظاهر في حلب وامر بعضهم وارسلهم الى القاهرة فوسطوا •

---

١) اليونيني ، جـ١ ، ص٤٥٨ ، جـ٢ ، ص١١٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، المقريزى ، السلــوك ، ص٤٧٠ ، • وبخصوص الــرسالة للظاهر راجع ابن الفرات جـ٦ قسم ١ ص٢ ق-٣و

٢) راجع ص١٥٧ ، وما يليها •

وفي صفر من سنة ٦٦١ هـ • جمع التكفور هيثوم جيشا اخر واغار على الجومة والعمق وجبل ليلون ومعرة مصرين وسرمين والفوعة بدلالة رجل من اهل الفوعة واسر عددا من ابناء الفوعـــة وهرب البقية الى دار الدعوة حيث نجوا وكاد القائد يقتـل (١)•

وفي هذه السنة ايضا زحفت جيوش هيثوم على سلاجقة الروم لتاييد التتر • وهنا فـــي عاصمة السلاجقة تحالف هيثوم والسلاجقة والتتر على محاربة المماليك(٢) •

وفي ربيع الاخر سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م هاجم هيثوم عينتاب ومعه نحو الف جندي فصدته جيوش حمص وحماه ، فاستجار بالتتر فارسلوا له نجدة من سبعماية فارس لكن الثلوج والامطار حالت دون وصول النجدة في الوقت المناسب • وفي جمادى الاخرة من السنة نفسها جرد جيشا جديدا لمهاجمة حمص والبس بعض جنوده البسة تترية ليوهم الخصوم ان التتـــر في نجدته • لكن قوات الظاهر ردته بعد ان كبدته خسائر جسيمـــة(٣) •

كان الظاهر في هذه الفترة يحاول تصفية خصومه الاقربين من فرنجة وارمن استعــــدادا للصراع المنتظر مع التتر • لذلك راى انه لابد له من حملة تاديبية على سيس ويبدو ان التكفور كان هادن الظاهر عند تسلمه العرش على خراج تراح يحمله بتاديته • وفي ١٩ شوال سنـــة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م بعد احتلال صفد ، قصد دمشق ودخلها يوم الخميس في اول ذي القعدة • وهنا جاءه رسل صاحب سيس بهدية ورسالة للمصالحة فرفض الهدية والرسالة واراهم رؤوس قتلى اتى بهم من غزوة على عكا (٤) • لقد جاءت محاولة الصلح هذه متاخرة فكان طبيعيـــا ان تفشل • •

---

١) اليونيني ج ١ ، ص٤٩٦ و ٥٣١ ، ج ٢ ، ص١٥٥ ، ١٩١ ــ ١٩٢ ، الذهبي ، ج٢ ، ، ص ٨٠ ــ ٨١ ، ابن ابي الفضائل ص١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ــ٢ــ ابن عبد الظاهر ص٩٧ •
٣) ابن عبد الظاهر ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ والمقريزى السلوك ص٥١٠ ، ٥١١ •
٤) ابن الفوطي ، ص ٣٥٥ ، اليونيني ج ٢ ، ص٣٢٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ لكنه يجعل تاريخ الحملـــة سنة ٦٦٣ هـ ، ابو الفداء ج ٤ ، ص٣ ، المقريزى السلوك ، ص٥٥١ ، ٥٥٩ ، و "نبذات تاريخية من صحائف منسية " لمؤلف مجهول ، نشر الاب شيخو في المشرق عدد ١٨ سنة ١٩٢٠ ص٦٠٣ ، •

عند ذلك اخذ هيثوم يستعد للحرب • وفي ٣ ذى القعدة سنة ٦٦٤ هـ تحرك جيش الظاهر بقيادة الامير اقسنقر الفارقاني وعز الدين بيدفان المعروف بسم الموت وقلاوون الالفي نحو الشمال ودخلوا قليقيا في ٢٢ ذى القعدة واسروا عددا كبيرا من الارمن بينهم ابن هيثوم وقتلوا منهم عددا كبيرا ايضا بينهم شقيق لهيثوم • ثم انتشر الجيش المملوكي الى جهة بلاد الروم والمصيصة وادنه واياس وطرسوس حتى وصلوا سيس في ذى الحجة ، حيث كان صاحب حماه ينتظرهم ثم تقلت قوات الظاهر راجعة الى بلاد الشام فخرج من دمشق يلاقيها محتفيا بها (١) •

وفي سنة ٦٦٥ هـ ارسل هيثوم رسالة الى الظاهر في صفد يدعوه للمصالحة • ولكن الظاهر رفض مرة اخرى (٢) • يبدو ان الظاهر لا يريد ان يصالحه الا بعد ان يقص جناحيه لذلك لم يرض بعقد الصلح مع هيثوم الا بعد ان احتل انطاكية سنة ٦٦٦ هـ • اذ وجد هيثوم نفسه مرغما على التنازل عن دربساك وبهسنا ومرزبان ورعنان وشيح الحديد والدوب ، وهي قلاع اعطاها له التتر عند احتلال بلاد الشام • ووعد ايضا بالتدخل لدى ابافا لاطلاق سراح الامير شمس الدين سنقر الاشقر الذى اسره التتر عند دخول حلب ، مقابل اطلاق سراح ليفون بن هيثوم وابن اخيه وغلمانهما المأسورين سنة ٦٦٤ هـ • وحاول هيثوم التملص من تنفيذ المعاهدة لكنه اضطر لتنفيذها لانقاذ ابنه من الاسر • وتسلمه في رمضان سنة ٦٦٦ هـ • وتم الصلح بين الظاهر وهيثوم ثم منحه بهسنا اقطاعا منه له (٣) •

---

(١) ابن الفوطي ، ص٣٥٥ ، اليونيني ، جـ ٢ ، ص٣٤٤ ، ابو الفداء ، جـ٤ ص٣ ، ابن ابي الفضائل ص١٥٥ ، ٢٣١ و ٢٣٢ ، المقريزى السلوك ، ص٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ابن تغرى بردى النجوم جـ ٧ ص١٤ ، ابن اياس جـ ١ ص ١٠٤ • (٢) • المقريزى السلوك ص٥٥٩ •

(٣) اليونيني ، جـ٢ ص٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ابن الفوطي ، ص٣٥٥ ، ابو الفداء جـ ٤ ، ص٥ ابن ابي الفضائل ص١٥١ ، ١٥٢ •

وبقي الصلح نحو سبع سنوات • ففي اواسط سنة ٦٧٣ هـ كتب الظاهر الى نائبه بحلب ان يستعد لغزو سيس ، وبالفعل ذهبت بعض طلائعه الى مرعش ثم عادت (١) • اما الظاهر فاستناب الامير شمس الدين اقسنقر الفارقاني بالديار المصرية وتوجه الى بلاد الشام في ٤ شعبان ٦٧٣ ، فدخل دمشق في ٢٩ منه ثم قصد حمص وحماه في رمضان • وجند عساكرهما وعربانهما • ثم وجه قسما من جيشه الى البيرة ليسد معابر الفرات على التتر• وساق بنفسه على راس القسم الاخر الى سيس مارا بدربساك فالدربند فباب اسكندرونه واستولى على ايماس وادنه ومصيصه وهاجم طرسوس ، ودخل سيس في رمضان ٦٧٣ هـ اذار ١٢٧٥ • واباد الكثير من الارمن وغنم الغنائم الكثيرة ، لكن جيوشه لاقت مشقات كبيرة • وفي ٢٠ شوال عاد بجيشه الى بلاد الشام حتى اذا وصل عمق حارم اعاد توزيع جميع المكاسب بين جنوده • ثم ذهب الى دمشق فدخلها في ذي الحجة ٦٧٣ هـ / حزيران ١٢٧٥ ، فالى القاهرة فدخلها في جمادى الاخرة سنة ٦٧٤ هـ : كانون الثاني ١٢٧٦ م (٢) •

ماهو سبب نقض الصلح ؟ وماهو سبب الحملة ؟ يقول ([illegible]) ان الظاهر كان يريد هذه الدولة ان تبقى فقيرة ضعيفة (٣) ولكنه يبدو لي ان مداخلات السلطان الظاهر في بلاد الروم جرته الى مثل هذه الحملة • وقد كتب البرواناه للسلطان الظاهر يحرضه على غزو سيس عام ٦٧٢ هـ على ان ينجده لفتح بلاد الروم في العام التالي (٤) ويبدو لي ايضا ان السلطان الظاهر اصبح بحاجة الى مواصلة الحروب • كانت لديه قوات عسكرية كبيرة ينبغي عليه ان يجد لها متنفسا •

---

١) ابو الغداء ، جـ ٤ ، ص ٩ ، المقريزى السلوك ، ص ٥٦٨ ـ ٥٧٠ ، ٦١٦ ، ابن الفرات جـ ٦ قسم ٢ ، ورقة ١ ظ ٢٩ ، ٣٠ •

٢) ابو الغداء جـ ٣ ، ص ٢٢٥ ، جـ ٤ ، ص ٩ • الذهبي ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ ، ابن ابي الفضائل ص ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٢٥ • المقريزى ، السلوك ، ص ٦١٦ ، ٦١٨ •

٣) (G. Wiet) ، ص ٤٢٤ •

٤) ابن ابي الفضائل ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٨ •

٦ — بيبـــرس والاشكـــرى :

كان الظاهر والاشكرى ميخائيل باليولوغوس خصوما للفرنجة ، ثم ان الصداقة بين السلطان الظاهر والقبشاق تحتم على الاشكرى ان يميل الى مصادقة الظاهر لينجو من هجمات القبشاق • ويزيد في ضرورة هذا ان مطامع التتر والسلاجقة في بلاد الروم لايمكن ان تتحقق الا على حساب الامبراطورية البيزنطية • من هنا يتوقع المرء ان يجد الاشكرى الى جانب الظاهر بوجه عـــام ولكن الواقع هو ان العلاقات بينهما لم تكن كذلك • فقد كان الاشكرى يناور بين المماليك والتتـــر ليوهم كل طرف انه ليس خصمه •

وقد بداء الظاهر بايفاد الرسل والهدايا الى الاشكرى لمصادقته • وفي سنـــة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م ارسل اليه وفدين • وكان اولهما بطريرك واساقفة كان الاشكرى قد طلبهم للنصـــارى الملكانيين في بيزنطيه • وعاد هذا الوفد في رجب • وثانيهما يحمل هدية فيها زرافة وتحف غريبة ورسالة قراهـــا الاشكرى احدى عشرة مرة • وعاد هذا الوفد في شعبان • وارسل الظاهـــر ايضا الادوات والالات اللازمة لترميم جامع في بيزنطيه مبني في سنة ٥١ هـ (١) •

وفي رمضان سنة ٦٦١ هـ اخر الاشكرى رسل الظاهر بيبرس الى بركة • ولما علم الظاهر بذلك جمع الاسافقة وابرز لهم نسخ يمين الاشكرى له على حسن الجوار ثم اطلعهم علـــى تصرف الاشكرى ازاء وفده الى بركة • فاجمعوا على ان عقاب مثل هذا العمل هو الحرم • فارسل الظاهر للاشكرى رسالة مع راهب يعلن فيها استعداده لمساعدته للتفاهم مع بركة وقد كـــان هذا هاجمه سنة ٦٦٢ هـ وادى هذا الى مساعدة فارس الدين المسعودى للرحيل الى بركة (٢)

هنا يمكن ان نعتبر ان العلاقات الودية بين الطرفين قد انتهت • كان الاشكرى فـــي طريق التفاهم مع هولاكو ولذلك اخر وفد الظاهر الـــى بركـــة • (٣)

---

١) ابن عبد الظاهر ص٥٠ ، المقريزى ، السلوك ص٤٦٩ • — ٢ — ابن عبد الظاهر ص٢٨ • ٥٠ و٥٣ ، والمقريزى السلوك ص٤٧١ ، ٤٧٢ •

٣) ابن عبد الظاهر ، ص١٠٥ ، المقريزى ،السلوك ، ص٥١٤ ، و ٥٣٨ •

وفي سنة ٦٦٢ هـ ، وسع الخرق بين الطرفين ، اذ ان الاشكرى اعتقل عز الدين كيكاوس اللاجئ اليه بعد خلافه مع اخيه ركن الدين حول سلطنة السلاجقة ، بتهمة التآمر مع امراء بيزنطيين لطلب الاشكرى من الحكم (١) . وعز الدين هذا صديق للظاهر ، واعقب الاشكرى هذا التدبير بان ارسل في رجب سنة ٦٦٣ هدية للظاهر كانه يحاول اصلاح الحال . واستمر في مناورته السياسية هذا بان ارسل هدية ايضا الى هولاكو في نفس السنة . وادت المفاوضات مع التتر الى عقد تحالف بينهما والى تزويج ابنه بابنة الاشكرى لتوطيد هذا التفاهم ، مما جعل العلاقات مع الظاهر سيئـــة (٢) .

وبهذا التفاهـم بين الاشكرى وايلخانات فارس من جهة ، والتفاهم بين الظاهر وبركة من جهة ثانية اخذ القبشاق يهاجمون القسطنطينية ، دخلوها سنة ٦٦٨ هـ مما حمل الاشكرى ان يكون اشد حذرا في علاقاته الخارجية وفي سنة ٦٦٧ هـ اتصل بالظاهر ، ثم لم يعـــد يتدخل في الحروب التي جرت بين الظاهر والتتر والسلاجقة والارمن . حتى انه في سنة ٦٧٠ هـ ارسل للظاهر وفدا وقابله السلطان بالمثل (٣) وتبادلا الرسائل سنة ٦٧٤ هـ ايضا (٤) .

وهكذا نجد ان السلطان الظاهر قد استطاع ان يصد التتر بسياسته التي وضعهـــا لنفسه اذ نجح بشق الخصوم المغول وبمحالفة قسم منهم وبانشاء جبهة متماسكة بوجه عـــام مدعومة بقوات مملوكية كبيرة. لقد كانت معاركه مع التتر تجرى في بلاد الشام في المرحلـة الاولى لكنه استطاع ان ينقل ميدان المعركة الى بلاد الروم الموالية للمغول . ولعل مقدرته في هذه المعركة الطويلة تتجلى على احسن وجه حين نجح في الحؤول دون قيام تحالف بين القوات التترية والقوات الصليبية المحلية والاوروبية . وبهذا مهد السبيل للسلطنة المملوكية بعده ان تقضي على ما تبقى من المراكز الصليبية في بلاد الشام وان تقف بوجه الزحفات التترية التالية .

---

١) ابو الفداء مج ٣ ص ٢٢٨ ، والمقريزى السلوك ، ص ٥٢٢ . — ٢ — المقريزى ، السلوك ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .

٣) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٣٦ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٨٨ ، ٦٠٧ . — ٤ — المقريزى ، السلوك ، ص ٦٢١ .

بيبرس في علاقاته الخارجية ، قسم ثان

٧ ــ الصليبيون ٠

يمكن النظر الى علاقاته مع الصليبيين من زاويتين، الزاوية الدينية المبدئية والزاوية السياسية العسكرية ٠ ولكن السلطان الظاهر لم يميز بين الناحيتين ٠ لم يكن عنده مكان للصليبيين في بلاد الشام ٠ لقد كان مسلما ينادي بحماية الاسلام والمسلمين من المعتدين ، وبنصرة الاسلام والمسلمين على المعتدين ٠

وكان السلطان بعد هذا مولد دولة المماليك ٠ وكان يرى في الصليبيين خصوما سياسيين لهذه الدولة الناشئة ٠ فمعركته اذا معهم معركة ثانية ٠ ولم يكن يهمه في ذلك انه قضي عليهم كقوة عسكرية وسياسية فعالة بعد معركة المنصورة ٠ ولم يكن ينسى ان الصليبيين عيون للمغول على الجيوش المغولية ٠ ونسي ان لويس التاسع اتصل بعز الدين ايبك التركماني سنة ١٢٥٢ للتحالف معه على الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وحلب ، وكان يحسب ذلك تدخلا منه في شؤون المنطقة ٠ ونسي ان الفرنجة في جنوب بلاد الشام ابدوا قطز في حربه مع التتر وعرضوا عليه المساعدة العسكرية ٠ ونسي ان بعض الصليبيين حاربوا التتر وان الكنيسة حرمت بوهمند لتحالفه مع التتر ٠ (١)

---

١) المقريزي ، السلوك ، ص ٣٨٣ ، R.Grousset ، ج ٣ ، ص ١٥٠ ، ٥٢٦ E.Blochet
النهج السديد ، ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣ ، جوزف نسيم يوسف ، ص ١٢٨ ٠

لقد كان الظاهر يستهدف في حروبه مع الصليبيين شيئا واحدا هو ان يبيدهم ابادة تامة غير مفرق بين الناحية السياسية والناحية الدينية وفي هذه الناحية اختلفت سياسة الظاهر عن سياسة صلاح الدين الايوبي . وقد كان هذا يعني القضاء على الصليبيين كقوة سياسية عسكرية محتلة لكنه لم يكن يرى بأسا من التعامل معهم كافراد او كمستوطنين .

ولم يكن السلطان الظاهر يستطيع القضاء عليهم جميعا مرة واحدة . فكان لابد من ضرب مراكزهم واحدا بعد واحد . وكان لابد له ايضا في هذه المعركة من ان يمنع عنهم الامدادات من اية ناحية . لذلك ينبغي ان نذكر هنا ان تحالفه مع القبشاق حال دون معونة ايلخانات فارس للدويلات الصليبية ، بصورة جدية منتظمة ، ولذلك ايضا انشاء محالفات مع بعض دول اوروبا كصقلية وارافونه وجنوى واستطاع بذلك عزل الفرنجة في بلاد الشام .

لما تسلم الظاهر بيبرس السلطنة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ كان الصليبيون يسيطرون على الشريط الساحلي من بلاد الشام . وبعد صراع دام استمر سبعة عشر عاما ضاق هذا الشريط وقصر بحيث لم يبق للصليبيين عند وفاة الظاهر الا بعضها بين عكا وطرابلس .

مرت علاقات الظاهر بالدول الصليبية في ثلاث مراحل . ففي السنوات الاولى من سلطنته حتى نهاية سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ كان يعاهد الدول الصليبية على الصلح ليتسنى له القيام باستعداداته العسكرية والسياسية ، في الداخل والخارج ، ليعود لمحاربة الدول الصليبية بعد ذلك . ثم كانت المرحلة الثانية وفيها احتل موقعين هامين هما قيسارية وصفد ، ثم كانت المرحلة الثالثة وفيها حطم التحالف بين التتر والدول الاوروبية عن طريق البابا واحتل مواقع صليبية هامة كانطاكية وحصن الاكراد ، وانحرفت الحملة الصليبية الاخيرة الى تونس . وعقد احلافا مع بعض الدول الاوروبية . فاستكان الصليبيون في بلاد الشام بعد ذلك الى الهدوء والحياد .

وبرزت الناحية الاقتصادية في هذه الحروب بشكل واضح . اذ عمد بعض الصليبيين الى محاربة المماليك اقتصاديا . وفي سنة ٦٥٨هـ زوروا الدراهم في يافا جاعلين نسبة الفضة فيهما الى النحاس بنسبة ١٥ الى ٨٥ بالمئة مما احدث الرعب بين الناس ، ولما اخرجوا هذه النقود المتخلة منها بشراء البضائع تزايدت الاسعار وافتقر قوم واستغنى اخرون (١) . ثم حاولت بعض الدول

---

١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

الصليبيــة منع التعامل التجارى مع المماليك بالاخشاب والحديد لانها مفيدة فــي الصناعات العسكريـة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية قامت علاقات السلطان الظاهر مع جنوى على التبادل التجارى . وكانت التجارة الهدف الاول من تبادل السفارات السياسية مع صقليـة . حتى اراغون فقد رات نفسها ، بعد فشل المعونة العسكرية لعكا ، مضطرة لعقد تحالــف تجارى مع المماليك . ثم ان بيروت لعبت دورا كبيرا في المبادلات التجارية عبر البحــر المتوسط . فقد وجه السلطان الظاهر الى بيروت اهتماما خاصا .

والى جانب الحملات العسكرية العنيفة فقد كانت في هذا الصراع، في مرحلتيه ، حملات صغيرة استكشافية استهدف منها الطرفان التخريب والالهاء .

اما ميدان هذا الصراع فكان بلاد الشام بصورة رئيسية ولكنه امتد في مرحلتـــه الثانية الى تونس وآسيــة الصغرى . وقد ظن الصليبيون ان مهاجمة تونس تمهد السبيـل لاحتلال مصر ، وقد اعلن السلطان الظاهر عزمه على مساعدة تونس لصد الصليبيين في محــرم سنة ٦٦٩ هـ ، كما ان حملاته على ارمينيا كانت ذات علاقة بالحروب الصليبية ايضا .

ونلاحظ ان السلطان الظاهر قد قاد الدفة في هذه الميادين بحنكة ومهارة . وما ان كانت سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ حتى كان الصليبيون في بلاد الشام قد اصبحوا خاضعين لــه او محايدين في حروبه مع التتر والارمن والسلاجقة . لقد كال الضربــات القاضية للصليبييــن في بلاد الشام بحيث انه استطاع، بعد سنة ٦٧٠ هـ ان ينقل ميدان الصراع مع التتر الــى اسية الصغرى . ومع انه لم يحتل عكــا وطرابلس فانه كان قد اضعفهما حتى ان احتلالهمـــا لم يتاخر بعده غير سنوات معدودة .

وهنالك نتيجة هامة اخرى لحروب الظاهر مع الصليبيين • لقد مهد السلطان الظاهر السبيل امام سياسة انعزال وانغلاق• الا يمكن القول ان انقطاع هذه المنطقة عن اوروبا يعود الى حد كبير ، الى مثل هذه السياسة التي انتهجها السلطان الظاهر ؟ احسب ان السلطان الظاهر حين كان يعمل لابادة الصليبيين في هذه المنطقة ، كان يعمل ايضا ، ولو عن غير ادراك ووعي ، لعزل هذه المنطقة • ولنتذكر هنا ان الحملات الاوروبية للاستكشافات الجغرافية بدأت في هذا القرن •

المرحلة الاولـــى •

كانت يد السلطان مغلولتين في السنتين الاوليين من حكمه بالثورات الداخلية • وكان الفرنجة يرسلون اليه والى نوابه شتى الشكاوى من غبن لحق بهم من استمرار الهدنة التي جرت بينهم وبين السلطان قطز سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ ويطلبون منه زرعين ، ويهاجمون بعض القرى ويأسرون سكانها ويستولون على ماشيتها •

ولما انتظمت الامور للسلطان الظاهر في دمشق وحلب واعتقل المغيث ، تفرغ الظاهر للفرنجة وجاء الطور في جمادى الاولى سنة ٦٦٢ هـ • وكانوا قد تذمروا من شروط الهدنة وطلبوا زرعين بحجة ان السلطان ايبك كان قد وعدهم بها (١) • ولم يأت الفرنجة لاستقباله فارسل قوات هاجمت عثليث وقيسارية واستردت ما كان الفرنجة سلبوه منها واتلفت قواته زرعا كان للفرنج (٢) • وهنا جاء نواب المراكز الصليبية في جنوب بلاد الشام للاجتماع به والتسليم عليه واتوا معهم بهدايا •

ثم زعموا انهم لم يعرفوا بقدومه فرد عليهم ان جهل قدوم جيش كبير مثل جيشه يثبت عليهم التقصير والغفلة ، ثم عاد وقبل الهدايا منهم واصدر تعليماته لقواته ان لا ينزلوا في زرع للفرنجة وان لا يتعرضوا لماشيتهم (٣) ثم طلب السلطان منهم ان يعرضوا عليه قضاياهم •

---

١) ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ١٦   S.Runciman ج ٣ ، ص ٣١٧ •

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ، ٦٨ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٦٤ ، ٤٨٠ـ٤٨٤ ، ٥١٣ •

٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ١٧ و ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٨٣ •

قال (١) السلطان ، ما تقولـون ؟

قالوا ، نتمسك بالهدنة التي بيننـا .

قال : لم لا كان هذا الكلام قبل حضورنا الى هذا المكان ، وانفاق الاموال التي لو جرت لكانت بحارا ؟ ونحن لما حضرنا الى ها هنا (٢) ما آذينا لكم زرعا ولا غيره ، ولا نهب لكم مال ولا ماشية ، ولا اسر لكم اسيرا (٣) .

ثم راح السلطان يعدد مخالفات الفرنج للهدنة فقال : انتم منعتم الجلب والميرة عن العسكر (وحرمتم خروج شيء من الغلات والاغنام وغير ذلك ، ومن انفرد من غلمان العسكر اسرتموه ؟) وسيرتم الينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يمين من عندنا لم تحلفوا عليها ، وعملتم انتم نسخة حلفتم عليها وشرط اليمين الاولى تتعلق بالثانية . وسيرنا الاسارى الى نابلس ومنها الى دمشق ، وما سيرتم انتم احدا ، وكل بيت يحيل على الاخر (وما سيرنا الاسارى الا وفاء بالعهد واقامة الحجة عليهم) . وسيرنا كمال الدين بن شيث رسولا يعلمكم بوصول الاسرى ، فلم تبعثوا احدا ، ولم ترحموا اهل ملتكم الاسرى وقد وصلوا الى ابواب بيوتكم كل ذلك حتى لا تبطل اشغالكم من اسرى المسلمين عندكم . واموال التجار شرطتم القيام بما اخذتموه منها ، ثم قلتم ما اخذت من بلادنا وانما اخذت في انطرسوس وحمل المال الى خزانة بيت الديوية والاسرى في بيت الديوية ، فان كانت انطرسوس ما هي لكم فالله يحقق ذلك . ثم انا سيرنا رسلا الى بلاد السلاجقة الروم وكتبنا اليكم بتسفيرهم في البحر ، فاشرتم عليهم بالسفر الى قبرس (فسافروا بكتابكم وامانكم) فاخذوا وقيدوا وضيق عليهم ، واتلف احدهم على ما ذكر .

---

١) النص في ابن عبد الظاهر وابن الفرات والمقريزى واحد الا في بعض عبارات ليست في ابن عبد الظاهر ولا ابن الفرات وضعتها بين معكوفين .

٢) ساقطة . لما حضرنا الى ها هنا ، من ابن الفرات ، جـ ٦ ، ص ١٧ و .

٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٨ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٨٤ .

هذا مع احساننا الى رسلكم (وتجاركم ، والوفاء احد اركان الملك) . وجرت عادة الرسل انها لا تؤدى ، وما زالت الحرب قائمة والرسل تتردد ، (وما القدرة على الرسول بشيء يسكن غيظنا) فان كان هذا بغير رضاكم فانه نقص في حرمتكم ، واذا كان صاحب جزيرة قبرص من اهل ملتكم يخرق حرمتكم (ولا يفي بعهدكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم ، فاى حرمة تبقى لكم واى ذمام يوثق به منكم واى شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجة ؟) ، وهل كانت الملوك الماضية تقي النفوس والرجال والاموال الا بحفظ الحرمة ؟ (١) (وما صاحب جزيرة قبرص ملككم ولا صاحب حصن منيع ، ولا قائد جيش كثير ولا هو خارج عنكم . بل) اكثر تعلقاته في عكا والساحل ، وله عندكم المراكب والتجار والاموال والرسل ، وليس هو منفرد بنفسه . وعنده الديوية وجميع البيوت والنواب مقيمون عنده . وعنده كند يافا وغيره . فلو كنتم لا تؤثرون ذلكم كنتم تمتم جميعكم عليه واحتطتم على كل ما يتعلق به واصحابه واسترحتم من هذه الفضيحة ، وكتبتم الى ملوك الفرنجية والى البابا فعله . (واذا قلتم صاحب قبرص لا يسمع منكم ولا يطيعكم ، فاذا لم يسمع منكم صاحب قبرص وهو من اهل ملتكم ، فمن يسمع منكم ؟ وهل لهذه التقدمة الا الامر والنهي ؟ ولا سيما وانتم تقولون ان اموركم دينية ، ومن ردها عصى المعبود ، ويغضب عليه المسيح فكيف لا يعصى المعبود ويغضب المسيح على صاحب قبرص ، وهو قد رد امركم واغرى بكم وقبح قولكم وكنا لو اشتهينا اخذنا حقنا منه ، وانما الحق عندكم نحن نطلب منكم وانتم تطلبون منه) . وانتم في ايام الملك الصالح اسماعيل (٢) اخذتم صفد والشقيف ، على انكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين ايوب . ونزلتم جميعكم في خدمته ونجدته وجرى ماجرى من خذلانه وقتلكم واسركم واسر ملوككم واسر مقدميكم ، وكل احد يتحقق ماجرى عليكم

---

١) في ابن عبد الظاهر (ص٦٩) ، وهل كانت الملوك تقني النفوس والاموال الا لحفظ الحرمة ؟
٢) عم الملك الصالح نجم الدين ايوب ، وصاحب دمشق لفترة .

من ذهاب الارواح والاموال . وقد انتقضت تلك الدولة ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد واحسن اليكم فقابلتم ذلك بان رحتم الى الريد افرنسر ، وساعدتموه واتيتم صحبته الى مصر ، حتى جرى ماجرى من القتل والاسر . فاعمره وفيتم فيها لمملكة مصر ام اى حركة اللحتم فيها ؟. وبالجملة فانتم اخذتم هذه البلاد من الملك اسماعيل لاعانة مملكة الشام ، وطاعة ملكها ونصرته (والخروج في خدمته وانفاق الاموال في نجدته . وقد صارت بحمد الله مملكة الشام وغيرها لي وما انا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم ، (ولم يبق لي عدو اخافه) فردوا ما اخذتموه من البلاد وفكوا اسرى المسلمين جميعهم ، فانني لا اقبل غير ذلك"(١) .

واجاب مقدم الاسبتارية ، صاحب ارسوف ، متذمرا من شدة شروط الهدنة . فقال له السلطان انه نقض العهد اذ بدأ ببناء ربض . فرد صاحب ارسوف ان الغاية من بناء الربض هي حماية الصعاليك ثم اضاف الى ذلك ان امورا "قد بلغتنا سوف تسمعونها".

ورفض السلطان حجته وقال ان البلاد لا تحفظ بالخنادق وانما بحسن الجوار وبذل الاحسان وكف الاذى والسيف والعزم . اما بخصوص ما عناه من قدوم التتر فعبيره ، بان الفرنجة يختبئون وراء الاسوار بينما يخرج المماليك لملاقاتهم(٢) .

وامام هذا الكلام بهت الفرنجة وقالوا :

ـ نحن لاننقض الهدنة ، وانما نطلب مراحم السلطان في استصحابها واستدامتها(٣)

ونحن نزيل شكوى النواب (ونخرج من جميع الدعاوى) ونفك الاسرى (ونستانف الخدمة) فرد السلطان : كان هذا قبل خروجي من مصر في هذا الشتاء ووصول العساكر الى هنا .

١) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٨ ، ٧٠ ، ابن الفرات ، ج ٦ ص ١٧ و ١٨ ق . المقريزي ، السلوك ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٨ ، (٣) استصحابها و ، في ابن عبد الظاهر ، ص ٧٠ ، وابن الفرات ، ج ٦ ص ١٨ و .

فرد السلطان : كان هذا قبل خروجي من مصر في هذا الشتاء ووصول العساكر الى هنا ٠

وهكذا نجد السلطان الظاهر ينطلق في معاملة الفرنجة من اساسين هما ،عداوتهم لمصر اولا ونكثهم بوعودهم ثانيا ٠ انه لايجتمع بهم للمفاوضة هذه المرة،ولكن ليسرد لهم تاريخ علاقاتهم بمصر وبلاد الشام في الامس القريب، وليؤكد لهم ان معايشتهم مستحيلة وان استرجاع مااستولوا عليه من بلاد الشام امر لابد منه ٠

القضية عنده سياسية قبل كل شيء ٠ صحيح ان الموجة الاولى من التتر كانت قد تقلصت، ولكن الخطر لايزال ماثلا لذلك لم يرد القلاع الصليبية مراكز مؤامرات وتجسس ٠

وهو ينفي ان تكون القضية دينية بقوله ان الدين يقضي عليهم بالوفاء بالعهود ٠

واخيرا فان الظاهر حريص على الهدوء والسلامة لان ذلك ضروري للتجارة ٠

وانتهى المؤتمر او بالاحرى انتهى بيان الظاهر (١) ثم اصدر امره باخراج المندوبين من الوطاق ولم يسمح لهم بالمبيت فيه (٢) ٠

ثم اراد ان يؤكد للفرنجة انه اقوى منهم وانه يستطيع التغلب عليهم والثأر منهم فراح يرسل حملات صغيرة ثأرية تخريبية على مراكزهم ٠ فارسل الامير علاء الدين طيبرس لتخريب كنيسه الناصرة، ثم ارسل جيشا آخر ليقتحم ابواب عكا وسار بنفسه على مراعي الجيوش الفرنجية واستولى على الكثير من ماشيتهم وعاد به الى دهليزه (٣) ٠

وقبل مغادرة الطور ضرب على ايدى العابثين المفسدين بيد من حديد اذ الزم الفلاحين في بلاد الساحل ان يحملوا الى بيت المال "جنايات "عما اخذوه من قتلى لاإرث لهم او اسلاب جهل مالكها ٠ وذلك لانهم كانوا يحملون اخباره الى الفرنجة (٤) ٠

---

(١) يقول S.Runciman (مجلد ٣ ،ص٣١٧) ان المفاوضات انقطعت بسبب رفض اعادة الاسرى المسلمين ٠ (٢) ابن عبد الظاهر ص٧٠ ،المقريزى ،السلوك ،ص٤٨٧ ٠
(٣) ابن عبد الظاهر ،ص٧٠ ،ابو الفداء ،ج ٣ ،ص٢٢٧ ،ابن الفرات ،ج ٦ ،ص١٨و ،المقريزى السلوك ،ص٤٨٧ S.Runciman ،ج ٣ ،ص٣١٧ (٤) ابن عبد الظاهر ص٧١ المقريزى السلوك ص ٤٨٨ـ

المرحلــــة الثانيــــة :

وفي سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ بدأت المرحلة الثانية من صراع السلطان الظاهر مع الصليبيين . فقام بحملة عنيفة احتل فيها قيسارية وعثليث وارسوف وصفد .

في رمضان سنة ٦٦١ هـ هاجم الظاهر قيسارية ونهب بلادها واسر بعض سكانها وقتل بعضا اخر واجبر مندوبيها ان يحملوا الفرنجة على رد ماكانوا قد استولوا عليه من الاسرى والمواشي في غارة سابقة(١) .

وفي محرم سنة ٦٦٣ هـ حين كان الظاهر وبعض امرائه في رحلة صيد في اوسيم بلغه الخبر بنزول التتر على البيرة ، فارسل جيشا لصدهم ثم تبعه بجيش في ربيع الاخر ومر في غزة في ٢٠ منه ثم في يبنى في ٢٦ منه ثم ساق للعوجاء حيث اقام بضعة ايام . ولما كان بعض امرائه يذهبون الى الصيد في غابة ارسوف حيث تكثر السباع، ليخدع الفرنجة ، ساق الى ارسوف وقيسارية في حملة استطلاعية ثم استدعى الجيش والات الحصار من دمشق وامر جنده بصنع عدة منجنيقات وسلالم حتى اذا تمت استعداداته هاجم قيسارية في ٨ جمادى الاولى على حين غفلــة وحاصرها بجنده مستعملا المجانيق والدبابات ورمي النشاب وارسل بعض جيشه في تجاريد للغارة على بيسان وعكا للحؤول دون قدوم نجدات لقيسارية .

وكان السلطان يشترك بنفسه في الهجوم فهو حينا يرابط في اعلى كنيسة تجاه القلعة وحينا اخر يعتلي دبابة ذات عجل ويسير الى السور ليرى النقوب ، ثم ليقاتل حينا ثالثا . وفي منتصف جمادى الاولى ، اذار ١٢٦٥ ، استسلمت القلعة ودخلها السلطان

١) ابن عبد الظاهر ، ص١٠٣ و ١٠٤ .

وفي منتصف جمادى الاولى / اذار ١٢٦٥ ، استسلمت القلعة ودخلها السلطان وامراؤه وجيشه (١) وفي سنة ٦٦٩هـ/ عندما علم بقدوم حملة لويس التاسع الى تونس جاءها الظاهر وهدم اسوارها (٢) ٠

كان الظاهر هاجمها في رمضان ٦٦١هـ ٠ وفي ١٦ جمادى الاولى ٠ بعد احتلال قيسارية ارسل فرقتين من جيشه لمهاجمة حيفا ٠ وارسل فرقة اخرى لدك الملوّحة ٠ ثم هجم بنفسه على عثليث (٣) وخربها في يوم واحد وعاد (٤) ٠

وبعد العودة من عثليث رأى الظاهر ان يهاجم ارسوف (٥) وفي مستهل جمادى الآخرة نزل عليها وجمع حولها الاحطاب تلالا ليجعل منها ستائر وحفر سربين من خندق القلعة الى خندق المدينة ،لكن الفرنجة احرقوا الاحطاب ولاقت القوات المهاجمة المشقة حتى ان الظاهر كان بنفسه يجر المجانيق ويرمي بالاسهم ، ويضرب بالقطاعة ويداه مجرحتان ثم حشد الفقهاء والمتعبدين والنساء الصالحات لسقي الماء في المعركة ،واطلق الرواتب للجميع حتى لايكون لاحد شغل في غير الحرب ٠ ثم تداعى احد الابراج وتسلقت القوات المملوكية الاسوار ورفعت الاعلام ثم منحت الامان للفرنج فاستسلمت القلعة في رجب ٦٦٣/ نيسان ١٢٦٥ ٠ ولم يتعرض لما في القلعة من غلال وذخائر وانما سرح الاسرى المسلمين وهدم السور (٦) ، وصارت ارسوف فيما بعد مرعى خصبا ينزلها الظاهر في طريقه الى بلاد الشام (٧) ٠

---

١) ابو شامه ،ص٢٣٣ ، ٢٣٤ ، اليونيني ،ج ٢ ،ص٣١٨ ، ٣١٩ ، ابو الفداء ، ج ٤ ،ص٢ — ابن ابي الفضائل ،ص١٣٢ — ١٣٣ ،ابن الفرات، ج ٦ ،ص٦٧ و — ٦٨ و ٠ المقريزى، السلوك ص٥٢٤ — ٥٢٨ ٠ (٢) ابن الفرات، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٧٤ — ٧٥ ٠ (٣) تقع للجنوب من الكرمل وقد اسسها الداوية سنة ١٢١٨ ٠ R.Grousset ج٣ ،ص٦٢٤ ٠

٤) المقريزى، السلوك ص٥٢٧ — ٥٢٨ ٠ (٥) ميناء صغير للشمال من حيفا ٠ سماها الصليبيون Azotus احتلها صلاح الدين منهم سنة ٥٨٣/١١٨٧ ثم استعادوها ٥٨٨/١١٩٢ ٠ H.A.R. Gibb, E of I.,Art" Arsof", (new ed) Vol.I ص٦٦٢ (٦) اليونيني ، ج٢ ص٣١٨ — ٣١٩ ، ابو الفداء ج ٤ ،ص٢ ٠ ابن ابي الفضائل ١٣٢ ، المقريزى، السلوك، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ٠

٧) اليونيني ، ج٢ ، ص٣١٩ ، ابن ابي الفضائل ، ص١٣٣ ٠

ثم عاد الى قيسارية وامر بكتابة البشائر الى القاهرة والى النواب فتزينت القاهرة لذلك(١) . ثم اخذ يعد الترتيبات الادارية اللازمة بعد الفتح . فتحقق من الارض الصالحة للزراعة في قيسارية وارسوف وطلب قاضي دمشق وعدولها ووكيل بيت المال وبعض الفقهاء والائمة وامر بتوزيع البلاد على الامراء المجاهدين الذين فتحوها . ثم كتبت التواقيع بذلك وامضيت من السلطان والوزير والخزندار وصاحب ديوان الجيوش ومستوفي الصحبة ثم وزعت على مستحقيها . ثم كتب كتاب تمليك شرعي جامع ووزعت نسخة على الجميع وكان فيه حمد الله وشكر له على النصر الذى احرزته جيوش المماليك على التتر والفرنجة ، ونخر بهذه القوات المظفرة " البانية الهادمة والقاسمة الراجمة " واشادة بالسلطان ومآتيه "حتى خرج الامر العالي .... ان يملك امراء وخواصه الذين يذكرون ...... ما يعين من البلاد والضياع ليبقى ذلك فيهم "للولد وولد الولد (٢) " .

وبعد استكمال الهدم ، والتمليك غادر ارسوف الثلاثاء ١٣ رجب ٦٦٣ هـ الى عزه ثم رحل الى مصر فخرج ابنه الملك السعيد والاتابك عز الدين الحلبي نائب السلطنة للقائه فاجتمعوا به عند بركة الحجاج ويوم الخميس ١١ شعبان دخل القاهرة والاسرى بين يديه ، وشقها حتى خرج من باب زويلة ، ثم صعد الى قلعة الجبل وبعد ان استراح ، استعرض مع الامير عز الدين الحلبي والصاحب بهاء الدين بن حنا ما حصلاه في الخزائن ثم خلع على جميع رجاله فلم يترك اميرا او موظفا او مقدما او مفرديا او احدا من خواصه وسائر حاشيته ثم احسن الى رسل بركة وكتب الى اليمن والقسطنطينية بالخبر ووزع الصدقات على الفقراء (٣).

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص ٥٧٣ .

٢) ابن ابي الفضائل ، ص١٣٧ – ١٤٤ . اليونيني ، ج ٢ ، ص٣١٨ . المقريزى ، السلوك ، ص ٥٢٧ ، ٥٣٠ – ٥٣٢ .

٣) اليونيني ، ج ٢ ، ص٤٧١ . المقريزى ، السلوك ، ص ٥٢٤ – ٥٢٥ .

في ٣ رجب سنة ٦٦٤/١٢٦٦ بينما كانت جيوش اباغا في حرب مع جيوش القبشاق التي غزت فارس، اصدر الظاهر تعليماته لولاته ليحضروا الاجناد للغزو، فتلكأوا في تلبية اوامره فارسل سلاحداريته الى سائر اعمال مصر وعلقوا الولاة المتأخرين في ايديهم ثلاثة ايام (١). ثم عين عز الدين ايدمر الحلي نائبا عنه في القاهرة والصاحب بهاء الدين وزيرا في خدمة ابنه السعيد، ثم خرج في اول شعبان قاصدا بلاد الشام. غادر القاهرة ونزل في بركة الحب حيث وزّع تعليماته للغزوة التي كان قد هيأها على صفد (٢). وهنا عيّن الامير ايدغدي العزيزي والامير سيف الدين قلاوون مقدمين على الجنود ومعهما امراء آخرون. وفي ٣ شعبان سارت الجيوش الثلاثة. فساق السلطان بنفسه الى غزة فالخليل فالقدس وابقى جيشيه الآخرين في مهاجمة عكا ثم تركهما يتابعان هجماتهما وبقي عند عين جالوت ينتظر عودتهما. اما الجيشان الآخران فزحفا على الساحل يعيثان فسادا ونهبا في منطقة عكا وصور وصيدا وعرقه وطرابلس وحلبا والقليعات وحصن الاكراد وشلبيب وارسوف وجبل عاملة والقرين. ثم عاد الجيشان في نهاية شعبان بغنائم لا تحصى (٣).

كانت الغاية من هذه الحملة الخاطفة ترويع الصليبيين ونشر الذعر والفوضى في صفوفهم لشل حركتهم فاصابت نجاحا اكيدا في ذلك حتى ان اهل عكا اخذوا يتحدثون في عقد صلح. لكن الظاهر بدأ بمحاصرة صفد في ٨ رمضان / تموز ١٢٦٦ . واتى بالمجانيق من دمشق على الجمال وعلى اكتاف الامراء والاجناد واسهم بذاته بجر الاخشاب لا يتعب ولا يمل حتى نصبت المجانيق ورميت القلعة بها في ٢٦ رمضان. لكن الجيوش الفرنجية صمدت للحصار حتى

---

١) المقريزي، السلوك، ص ٥٤٢ . ٢ — هي Saphet عند الفرنجة، كانت منذ البداية Templars وفي منطقتها حوالي عشرة الاف فرنج في نحو ستين قرية R.Grousset ، ج ٣ ، ص ٦٢٦.

٣) المقريزي، السلوك، ص ٥٤٢ ، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧ ، ص ١٢٨ . اليونيني، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ، والمقريزي، السلوك، ص ٥٤٢ . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧ ، ص ١٣٨ ، وفي هذه الرسالة منع النصارى من دخول الخليل (المقريزي، السلوك، ص ٥٤٢). اما القرين فلعلها القرين احدى قرى دمشق .

اقترح بعض امراء الظاهر ان يتراجعوا لا سيما وقد اغار اهل عكار على الشقيف . وهنا اضطر السلطان ان يعد الحجارين العشرة الاول بمكافآت مالية واعتقل الدين اشاروا بالمصالحة ودام القتال حتى ١٤ شوال ومع ذلك فان الفرنجة لم يستسلموا بل ان امراء الظاهر اخذوا يشعرون بالتعب ويذهبون الى صواوينهم للاستراحة . فذهب السلطان اليهم وضرب بعضهم بالدبابيس وسجن البعض الاخر . ثم عمد الظاهر الى حيلة لشق المدافعين من صفد بان منح الامان لسكانها الاصليين من المسيحيين دون الفرنجة عند ذلك ضعف شان المدافعين من القلعة ففاوضوه على الامان والصلح .

وكان شرط الصلح ان لا يحمل المستسلمون سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من الفضيات وان لا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة ، وان يخضعوا للتفتيش عند الخروج ، حتى اذا وجد مع اى منهم شيء من ذلك انتقض العهد . فقبل المدافعون بذلك واجلس السلطان الامير سيف الدين كرمون التترى مكانه في دست السلطنة لشبهه به واقسم لرسل صفد يمين الامان(١) . وفي ١٨ شوال / ٢٩ تموز ركب السلطان الظاهر الى بابه صفد واخذ الفرنجة يمرون والجنود المماليك يفتشون فوجدوا معهم اسلحة وفضيات واسرى مسلمين فوضع رجال الحاميه في خيمة تحت الحراسة وعددهم نحو الفي فارس ثم ضربت رقابهم جميعا الا اثنين اسلم احدهما واعيد الاخر للفرنج ليخبر بما شاهد .

ثم دخل الظاهر المدينة والقلعة فولي الامير مجد الدين الطورى ولاية القلعة والامير عز الدين العلائي نيابة المدينة والامير علاء الدين الكبكي مقدما للجيش ، ثم جمع امراءه وجنده في اليوم التالي وشكرهم على ما بذلوه من جهود واعتذر اليهم عما بدر منه من قسوة نحوهم مبررا ذلك برغبته في حثهم على الهجوم ووعد بعدم اللجوء الى ذلك مرة اخرى .

---

١) وفي راى ابن الفرات ، ج ٦ قسم ١ ، ص ١٠٤ و ، ان الامان لم يكن حقيقة .

وبقي السلطان في صفد الى آخر شوال وامر بعمارتها وبنقل الذخائر اليها وكان يقوم بذلك بذاته فتشبه البقيه به . ونقلوا الزردخاناه الى القلعة في ساعة واحدة . ثم اقطع امراء البلاد وامر ببناء جامع في القلعة وآخر في الربض . وقرر لحاميه القلعة نفقة شهرية قيمتها ٨٠ الف درهم نقرة ووزع الاسلاب والغنائم على امرائه . ثم اخذ يدعو الناس من دمشق للسكن في صفد (١) ولعل اهتمامه بصفد راجع الى انه سيجعلها قاعدة للهجوم على الفرنجة في الساحل .

وبينما هو منهمك في هذه الترتيبات جاء رسل عكا يطلبون منه ان يسمح لهم بنقل اجساد الشهداء . فقرر الثأر من اهل عكا . واحتفظ بالرسل عنده . وفي صبيحة اليوم التالي هاجم اهل عكا وهم خارجون من المدينة لقضاء حوائجهم . ثم عاد الى الرسل وقال لهم انه اوقع في عكا شهداء وكفي اهلها مؤونة نقل شهداء صفد .

ثم قصد دمشق ونزل قلعتها فاستقبلته المدينة باحسن زينة (٢) .

ثم امر بالزحف على سيس .

اما اسباب نقمة الظاهر على صفد فقد نتبين بعضها في ماذكره ابن العجمي في رسالته لابن خلكان واصفا المعركة اذ قال : ... صفد التي باء باثمها حاملها على النصرانية وسلطها بالنكاية على البلاد الاسلامية ... كم استبيح بسببها للاسلام من حمى وكم استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الاحرار ومسلما ،وكم تسرب منها جيش الفرنج الى بلاد المسلمين فحازوا مغنما وقوضوا معلما (٣) .

---

١) ابو شامة ،ص٢٤٠ . اليونيني ،ج٢ ،ص٣٣٧ ،٣٣٨ ،٣٤٣ ،٣٦١ . وهو يجعل الفتح سنة ٦٦٣هـ وفيه (٣٣٨ ــ ٣٤٢) نص لرسالة كمال الدين احمد بن العجمي لابن خلكان يصف فيها معركة صفد وصفا مبالغا فيه ،يبرز فيه شجاعة الفاتحين المسلمين ويندد بهزيمة النصارى المدافعين . ابن ابي الفضائل ،ص١٤٨ ــ ١٥١ ابن الفرات، ج٦ ،قسم ٢ ،ورقة ١١ ــ ١٢ ،المقريزى، السلوك، ص٥٤٥ ــ ٥٤٨ ،٥٥٩ . ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧ ،ص١٣٨ ،١٣٩ R.Grousset ج٣ ،ص٦٢٦ ، ٦٢٧ . S.Runciman ج٣ ،ص٣٢٠ ــ٣٢١ . وهو يتساءل ماذا كان المفاوض من قبل حامية صفد قد خان الحامية . (٢) ابن ابي الفضائل ،ص١٤٨ــ١٥١ ، المقريزى، السلوك، ص٥٥٩ .

٣) ابو شامه ص٢٤٠ . اليونيني ج٢ ص٣٤٠ .

وهنا نتساءل ما اذا كان يصح ان نعتبر فعلة الظاهر باهل صفد غدرا بالامان ، ومرة اخرى اقول انه ينبغي الا ننظر للقضايا السياسية بمنظار اخلاقي شخصي ، ان مهاجمة الظاهر لصفد تتمشى مع خطته في القضاء على مراكز الصليبيين العسكرية ، لاسيما ما كان منها يشكل خطرا على سلطانه ، كانت صفد تقهره فلا يجوز ان يبقي على اهلها وحاميتها باى ثمن كـــان وباية وسيلة كانت ، ان نية القضاء على صفد كقوة عسكرية واضحة عند الظاهر منذ ان هاجـــم القلعة ، وان نية الغدر بسكان صفد الفرنج واضحة ايضا منذ ان كلف شبيهه الامير كرمون التترى باعطاء اليمين خداعا للمستأمنين ولكن ينبغي لنا ان لاننسى ان الظاهر اعطى امانين لاهـــل صفد — اولهما لنصاراها من السكان الاصليين وثانيهما للفرنجة وقد حنث بالثاني اما الاول فلم يعدله (١) .

وصارت صفد مركزا لعملياتالحربية القادمة ، وقل ان جاء بلاد الشام دون ان يعـــرج عليها ، ففي جمادى الاخرة سنة ٦٦٥ هـ جاء بلاد الشام ومر بصفد وامر بعمارتها ، وفي رجـب سنة ٦٦٥ هـ واتى معه بالبنائين والنجارين واقام فيها مدة طويلة حتى جدد ما تخرب منهـــا اثناء عمليات الفتح وبنى ابراجا جديدة ايضا وجعل المسؤول المباشر عن عمارتها سيف الديـــن الزيني ، واوجب على الامراء المساهمة في بنائها واسهم بذلك بنفسه وحفر حولها خندقا وعمـل له ابوابا سرية ، ثم كتب عليها العبارة التاليـــة :

" ولقد كتبنـــا في الزبور من . . بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحـــون (الايـــة) ، امر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها وتكلمة "وتكميل" عمارتها وتحسينها من بعد ما "خلصها من ايدى" اسره "الفرنج الملاعين ورد ها

---

١) ويبدو لي ان استعمال المقريزى كلمتي النصارى والفرنجة ذو مغزى في هذا السبيل ، راجـــع ابن الفرات ج ٦ ، قسم اول ، ص١٠٤ و ، وص ١٨٤ اعلاه .

الى ايدى المسلمين ونقلها من مسكن اخوة الداوية الى سكن اخوة المؤمنين" حوزة الداوية الى حوزة" فاعادها للايمان كما بداها اول مرة وجعلها الكفار "للكفار" خسارة وحسرة. ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد وبدل الكفر بالايمان والناقوس بالاذان والانجيل ووقف بنفسه التي هي اعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه ومن خواصه على الرؤوس ، سلطان الاسلام والمسلمين ... سيد التتار ، فاتح القلاع والحصون والامصار وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن ابو الفتح بيبرس قسيم امير المؤمنين (١).

وفي ذي القعدة من سنة ٦٦٤ هـ استولى الظاهر على هونين وتبنين والرملة فجعل هذه الاخيرة عملا ولّى عليه واليا من قبله (٢).

وفي محرم سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٥ م هاجم الفرنجة طبرجة لكنهم قلبوا على امرهم (٣)

---

١) اليونيني جـ ٢ ، ص ٣٦٤ . المقريزى ، السلوك ، ص ٥٥٨ ، ٥٦٣ . وقد نقلت النص عن سرور (ص ٨٣) وهذا بدوره نقلها من مخطوطه النويرى (جـ ٢٨ قسم اول ص ١٣٦) وهي موجودة في السلوك (ص ٥٦٣) لكنها تختلف ببعض الكلمات وقد اشرت اليها بخط تحتها للدلالة انها ليست في نص النويرى، واشرت الى كلمات السلوك حين تختلف بمعكوفين صغيرين. وبعد كلمة سلطان يجعلها المقريزى (ص ٥٦٢) : "السلطان الملك الظاهر ابو الفتح بيبرس . فمن صارت اليه هذه القلعة من ملوك الاسلام ومن سكنها من المجاهدين فليجعل له نصيبا من اجره ولا يخله من الترحم في سره وجهره . فقد صار يقال عمر الله سرحها بعد ما كان يقال بحمد الله فتحها والعاقبة للمتقين الى يوم الدين".

٢) المقريزى ، السلوك ، ص ٥٥٠ .

٣) ابن الفرات جـ ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١ .

المرحلـــة الثالثـــة :

ثم كانـــت المرحلـــة الثالثة • وفيها ، كما قلنا سابقا ، حطم التحالف الذي كان بين اباقا والبابا كلمنــت الرابع (Clement IV) وخلفه البابا فريغوري العاشر ([illegible]) سنة ١٢٦٧ و ١٢٧٤ ، وبوهمند صاحب طرابلـــس واباقـــا • وكان على الفرنجة بموجب هذا التحالف ، ان يقوموا بمناوشات محلية تلهي الظاهر ريثما يحتل التتر البيرة ويستعد الاوروبيـــون لحملة صليبية منظمة فبادر الظاهر لاحتـــلال المواقع الصليبيـــة الهامة قبل وصول النجدات التترية وقبل وصول النجدة الاوروبية الى عكا ايضا •ولما وصل ادوارد الاول ملك انكلترا • الى عكا سنة ١٢٧١ وجد الصليبيين هنا قد خضعوا للسلطان وعقدوا صلحا معه (١) •

وكذلك استطاع السلطان الظاهر باتصالاته بصقليه ان يحول الحملة المتوقعـــة الى تونس • وقد حالفه الحظ ايضا بوفاة البابا فريغري العاشر ، فاستحال بعد ذلـــك تحضيـــر حملة صليبيـــة •

وفي هذه المرحلة احتل يافا والشقيـــف وبانياس وانطاكية وعسقـــلان وحصـــن الاكـــراد وعكـــار والقريـــن •

يافـــا : يبـــدو ان علاقات السلطان الظاهر بيافا كانت جيدة في البداية • ففي سنة ٦٥٩ هـ ، اتصل كند يافا به في طريقه الى دمشق واعلن ولاءه له وسلمه الحوجاء، فكتب الظاهر له منشورا بها (٢) • ومنع جنده من تخريب زرعها • لكنه عاد فهاجمهـــا

---

١) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٩٠ ، ([illegible]) ج ٣ ، ص ٦٦٠ ، (F Sadeque) ص ٦٢ ،

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٦ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٤ ، المقريزي ، ص ٤٦٤ •

سنة ٦٦١ هـ ، بحجة انها آوت عددا من الفرنجة الهاربين ولم يقبل عذر صاحبها ولا هداياه . ثم احتلها في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ وعوّض على اهلها خسائرهم وسمح لمن شاء منهم ان ينتقل الى عكا . ثم هدم القلعة ، وامر ببناء الجوامع فيها ورتب فيها حرس الساحل ثم اتى ببعض التركمان واسكنهم فيها لحمايتها (١) .

الشقيف (٢) : بقي في يافا حتى يوم الاربعاء ١٢ رجب سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨ م ثم قرّر احتلال شقيف ارنون . فامر جيشه بالسير نحو دمشق . وسلم قواده رسالة شرط ان لا يفضوها قبل الوصول الى بانياس . فسار القواد حتى بلغوا بانياس حيث فضوا الرسالة فوجدوا فيها امرا بمحاصرة قلعة الشقيف . فباشروا ذلك يوم الثلاثاء في ١٨ رجب فنصبوا عليه ٢٦ منجنيقا وشددوا عليه الحصار لكن القوات الفرنجية لم تستسلم فعمد الظاهر الى حيلة يسرتها له رسالة من اهل عكا للقوات الفرنجية في الشقيف يدعونهم للمقاومة والاصطبار امام هجمات المماليك ويلفتون انظارهم الى نقاط ضعف في الحصن . فكتب الظاهر رسالتين احداهما للوزير في القلعة يحذره من القائد وثانيتهما للقائد يحذره من الوزير . فكان هذا سببا في الخلاف بين الطرفين . ثم ان الظاهر استفاد من اشارات اهل عكا لنقاط الضعف في الحصن وشدد الهجوم فاحتل الباشورة في ٢٦ رجب وهنا رضي المدافعون عن القلعة بالاستسلام مقابل الامان على حياتهم . فدخل القلعة يوم الاحد ٢٩ منه . وسمح للنساء والاولاد بالرحيل الى صور واخذ الرجال اسرى وعين الامير صارم الدين قايماز نائبا على القلعة ثم عين فيها قاضيا وخطيبا .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٣ . اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ . ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٦١ — ١٦٢ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٤ — ١٥ . المقريزي السلوك ، ص ٥٦٤ — ٥٦٥ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

٢) قلعة على مرتفع حصين مشرف على نهر الليطاني بين صيد ومرجعيون تعرف بشقيف ارنون وهذا تصحيف لـ Arnauld . يعرفها الفرنجة باسم قلعة Beaufort

وهدم القلعة القديمة ثم عين الامير سيف الدين بلبان الزيني لبناء ما كان متهدما منها منذ ٦٥٨ هـ ، ولما تم الترميم نقل اليها الزردخاناه والذخائر ووضع فيها حامية ووزع فيهم مبلغا ضخما من المال (١) .

وفي عاشر شعبان ٦٦٦ هـ ، ارسل الظاهر اكثر الحمولة الى دمشق ثم عزم على مهاجمة بانياس (٢) ، بنفسه فجهز الاميرعز الدين اوغان والامير بدر الدين الايدمري في جيشين مختلفين لحفظ الطرقات على العرنجة . واتجه الى منطقة طرابلس فشن عليها الغارة فقطع اشجارها وخرب دراها وهاجم طرابلس بالذات ثم اتجه الى حصن الاكراد وهاجم بانياس من ثم قصد حماه وافاميه واعد العدة لمهاجمة انطاكية (٣) .

<u>انطاكية (٤) :</u> اعتبرها السلطان عدوا لان اميرها بوهمند ذهب على راس فرقة من الخيالة لمناصرة جيش هولاكو يوم دخوله دمشق (٥) . ثم انها مركز للصليبيين ، صريحة في انحيازها الى التتر ، خصوم المماليك . لذلك بدأت غزواته على انطاكية واعمالها منذ سنة ٦٥٩ هـ . ففي هذه السنة كانت جيوشه تحارب البرلي في حلب ، فذهب في غارة على انطاكية وفي السنة التالية ايضا اغار شمس الدين الرومي وصاحبا حمص وحماه على انطاكية واحرقوا ميناءها . وفي سنة ٦٦٤ هـ ، حين كانت جيوش الظاهر عائدة من غزوة سيس ، اغارت جيوشه عليها وضيقت عليها الحصار لان صاحبها اغار على حمص (٦) .

---

(١) اليونيني ج ٢ ، ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ . ابن ابي الفضائل ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٦ ــ ١٧ . المقريزي ، السلوك ، ٥١١ ــ ٥٦٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٤٧ ، ١٤٢ . (٢) مدينة قديمة جنوب اللاذقية تعرف باسم ([illegible]) كانت للاسبتارية منذ ١١٨٦ م / ٥٧٢ هـ ، وقد دخلها قلاوون سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م (Thomine JS "Banias" EI new ed.) ج ١ و ل ص ١٠١٦ ــ ١٠١٧ . (٣) ابن ابي الفضائل ص ١٦٥ ــ ١٦٦ . المقريزي ، السلوك ، ص ٥٦٦ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٤٢ . (٤) احتلها العرب سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ ، استردها البيزنطيون سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م وبقيت بايديهم حتى سنة ٤٧٧ هـ ثم دخلها الصليبيون سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م وبقيت تحت حكم سلالة بوهمند ([illegible]) النورمانية حتى استعادها السلطان الظاهر . (٥) ([illegible]) ، ص ٣٩ (٦) ابن عبد الظاهر ص ٥٥ ، ابن الفوطي ، ص ٣٥٥ . اليونيني ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ . ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ ، المقريزي السلوك ، ص ٤٧٢ .

واخيرا قرر السلطان احتلال انطاكية ، قسم جيوشه ثلاثة اقسام قاد احدها بنفسه . وبعد ان قام القسمان الاخران بهجمات على قرى مجاورة التقت الجيوش الثلاثة على انطاكية في اول رمضان سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ وحاصرتها من جميع الجهات حتى استحالت نجدتها وتضايقت المدينة فراى اهلها ان لابد من المفاوضة لكن السلطان رفض شروطهم وشدد الحصار عليها . وفي ١٤ رمضان تسلق جنود الظاهر اسوار المدينة من جهة الجبل ونزلوا اسواقها . فاخذ اهلها يفرون امام الفاتحين لكن السلطان وضع الحراس على ابواب المدينة كي لا يفروا ولا ياخذوا معهم شيئا مما في المدينة والقلعة . كان في المدينة نحو مئة الف من السكان اسروا جميعا ووزعوا على الامراء والاجناد الا عدد سمح له بالذهاب الى طرابلس ، ثم احرقت انطاكية حتى استولى الناس على كميات كبيرة من حديد ابوابها ورصاصها . وقد بلغت الغنائم اكداسا هائلة حتى لم يكن لدى السلطان وقت كاف لعدها فاخذ يوزعها على امرائه واجناده بالطاسات ، وبلغ عدد الغلمان والجوارى والنساء ما اقتضاه يومين لتوزيعه وقد قيل ان عدد القتلى بلغ نحو ١٧ الف قتيل (١) . اما القلعة فلم يتسلمها الا في اليوم التالي بعد اعطاء اهلها الامان(٢) .

وبعد هذا كان على السلطان ان يقوم بالترتيبات الادارية ، فسلم القلعة لبدر الدين بيليك الخزندار والامير بدر الدين بيسرى الشمسي . ثم كتب الى نوابه في بلاد الشام ومصر يبلغهم خبر النصر ثم كتب الى بوهمند صاحب طرابلس وانطاكية يبلغه الخبر ايضا . قال له: قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام الاسد الضرغام بيمند فخر الامة المسيحية رئيس الطائفة النصرانية كبير الملة العيسوية الهمه الله رشده وقرن الخير قصده وجعل النصيحة

---

١) اليونيني مج ٢ ، ص ٣٨٢ ، ابو الفداء ، جـ ٤ ، ص ٤ ـ ٥ . وابن ابي الفضائل ص ١٦٦ـ ١٦٧ و ١٧١ ، ابن الفرات ، جـ ٦ قسم ٢ ، ورقة ٢٦ ـ ٢٧ و ٢٩ . المقريزى ، السلوك ، ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨ . وابن تغرى بردى ، النجوم جـ ٧ ص ١٤٢ (R. Grousset) جـ ٣ ص ٦٤١ .

٢) ابن ابي الفضائل ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

محفوظة عنده ماكان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر والاعمار وكيف كنست تلك الكنائس على بساط الارض ودارت الدوائر على كل دار وكيف كيف حصلت تلك الجزائر من الاجساد على كل ساحل البحر كالجزائر وكيف قتلت الرجال واستخدمت الاولاد وتملكت الحرائر • وكيف قطعت الاشجار ولم نترك الا مايصلح لاعواد المجانيق ان شاء الله والستاير وكيف نهبت لك ولرعيتك الاموال والمواشي وكيف استغنى الفقير وتاهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشي ، هذا وانت تنظر نظر المغشي عليه من الموت واذا سمعت صوتا قلت فزعا على هذا الصوت وكيف رحلنا من عندك رحيل من يعود واخرناك وما كان تاخيرك الا الى اجل معلوم معدود وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية الا وهي لدينا ماشية ولا جارية الاوهي لدينا جارية ولا سارية الا وهي في ايدى المعاول سارية ولا زرع الا وهو محصود ولاموجود لك الا وهو مفقود • ولا منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ولا تلك الاودية التي هي في التخوم مخترقة وللعقول خارقة • وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا الى مدينتك انطاكية خبر وكيف وصلنا اليها وانت لا تصدق انا نبعد عنك وان بعدنا فسنعود على الاثر • وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذى عليك قد عم • رحلنا عنك من طرابلس يوم الاربعاء ٢٤ شعبان (٦٦٦هـ) ونزلنا انطاكية في مستهل رمضان وفي حالة النزول خرجت عساكرك الى المبارزة فكسروا وتناصروا فما نصروا واسر من بينهم كندا سطبل فسال في مراجعة اقرانك ودخل الى المدينة وخرج هو وجماعة من رهبانك واعيان اعوانك فتحدثوا معنا فرايناهم الى ارايك؟ من اتلاف النفوس بالغرض الفاسد وان رايهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد • فلما رايناهم قد فات منهم الفوت وانهم قد قدّر الله عليهم بالموت رددناهم وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر وهذا هو الاول في الانذار والاخر فرجعوا وهم متشبهين بفعلك ومعتقدين انك تدركهم بخيلك ورجلك وفي بعض ساعة مرشان المرشان وداخل الرعب الرهبان وبان البلاء للقسطلان وجاءهم الموت من كل مكان • وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت ١٤ رمضان وقتلنا من احتوته لحفظها والمحاماة عنها وما كان احد منهم الا وعنده شيء من الدنيا فما بقي احد منا الا وعنده شيء منهم ومنها وبعد هذه المكاتبة لاينبغي لك ان تكذب

لنا خبرا كما ان بعد هذه المخاطبة يجب ان لا تسأل بعدها مخبرا (١).

وباحتلال انطاكية اخذت الحصون المجاورة تستسلم للظاهر . فتسلمت جيوشه بغراس ودربساك ودركوش وبلميس وكفردوبين وحجر شغلان وارسوز بغير سوء (٢) . اما القصير بين حارم وانطاكية، فصولحت مناصفة وفي جمادى الاولى سنة ٦٧٤ هـ . حاصرها حتى اضطر تسييرها للظاهر ولتسليمها في ٢٢ منه واستسلمه بلاطنس في اوائل العام التالي (٣) ثم استسلمت جبلة بعد ذلك (٤).

<u>عسـقلان :</u> (٥) في ٧ صفر سنة ٦٦٩ هـ/١٢٧٠ م . بعد علمه بخبر انهزام حملة تونس، غادر الظاهر القاهرة بجيش صغير وهدم سور عسقلان (٦).

<u>صـور :</u> حضر مندوبها اجتماع الطور . وفي رمضان سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ م عقد صلح لعشر سنوات على ان يكون لصور ١٠ قرية مجاورة لها مقابل دفع ١٥ الف دينار صورية دية

---

١) ابن ابي الفضائل، ص١٦٧ ـ ١٧١ ، ويقول هذا ان بوهمند كان في طرابلس ولم يعلم بخبر انطاكية الا من رسالة الظاهر . ويقول E.Blochet انه قابل هذا النص من النويري فوجدهما متشابهين الا في الفاظ نسبية . ابن الفرات ، جـ٦، قسم ٢ ، ورقة ٢٧ ـ ٢٨ ، وهنالك اختلافات توحي بان ابن ابي الفضائل اختصرها ، وان ابن الفرات يقول ان بيموند عرف خبر احتلال انطاكية من هذه الرسالة . (٢) ابن الفرات ، جـ٦، قسم ٢ ، ورقة ٢١ ـ ٢٢ انظر ملحوظة ٤ ادناه .

٣) ابن الفرات، جـ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٣٢ وورقة ٤٤ و جـ٧ ، ص٣٣ ، ٤٠ . (٤) اليونيني ، جـ٢ ، ص٣٨٤ ، ابو الفداء ، جـ٤ ، ص٥ . ابن ابي الفضائل، ص١٧٢ . ابن الفرات، جـ٦ ، قسم ٢ ، وورقة ٤٢٩ R.Grousset جـ٣ ، ص٦٤١ . المقريزي، السلوك، ص٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٦٢١ . ابن تغري بردي، النجوم ، جـ٧ ، ص١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٥ .

٥) احتلها الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م وجعلوها منطلقا للهجوم على مصر . استعادها صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ ثم استعادها الصليبيون من بعده . B.Lewis مادة عسقلان، الموسوعة الاسلامية طبعة جديدة، جزء ١ ص ١ ـ ١١ .

٦) اليونيني ، جـ٢ ، ص٤٤٣ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص١٤٦ . ابن ابي الفضائل ، ص١٨٤ ، ابن الفرات ، جـ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٤٢ ـ ٤٤ ، المقريزي، السلوك ، ص٥٩٠ .

قتيل ، وتسلم الاسرى المسلمين(١) • ولكن الاحتكاكات استمرت • وفي رمضان سنة٦٦٧ هـ/ تموز ١٢٦٨ م ، هاجم الظاهر صور ونهب من اعمالها الكثير لان صاحب صور اعتقل تاجرا دخل مدينته (٢) • وهاجمها مرة اخرى في اواخر السنة حتى انعقد الصلح في شوال ٦٦٩ هـ على ان يكون لصور عشرة اعمال فقط وان يكون للسلطان خمسة • اما بقية الاعمال فمناصفة (٣)•

حصن الاكراد •

كان هذا الحصن للاسبتاريه • وقد صالحهم السلطان ورفعوا القطائع عن الاسماعيلية وحماه وشيزر وافاميه(٤) • ثم هاجمه الظاهر في طريقه لاحتلال انطاكية سنة ٦٦٦ هـ • لكنه لم يفتحه حين اتصل به وفد من حاميته للمصالحة طلب منهم دية عن جندي قتلوه له • وكأنه لم يشأ انذاك اثارة هذه الحامية وهو مقبل على محاصرة انطاكية• وفي جمادى الاولى سنة ٦٦٨ هـ اتجه السلطان الى قلعة المرقب وفي ٣ جمادى الاخرة هاجم حصن الاكراد بمئتي فارس وكسر جماعة من حاميته خرجت له • ثم تغير وضعه في سنة ٦٦٩هـ • ففي جمادى الاخرة استناب عنه الامير شمس الدين اقسنقر الفارقاني في القاهرة وفي ١٢ منه خرج الى دمشق مصطحبا معه ابنه والخزندار في قيادة قسم من الجيش وقاد القسم الاخر بنفسه وغادروا دمشق في جولة هجومية على جبلة واللاذقية والمرقب ومرقيه والقليعات وحلبا وصافيتا والمجدل وانطرسوس في الساحل الشمالي من بلاد الشام ، على ان يجتمع الجيشان في مكان معين •

واجتمع الجيشان حسب المقرر واتجها نحو حصن الاكراد • وفي ١٩ رجب سنة ٦٦٩ هـ نصبت المجانيق عليه واشتد الحصار حتى خرق سوره الاول بعد يومين ، اما السور الثاني ففي ٧ شعبان وفتح السور الثالث في ١٥ منه ، بعد قتال عنيف سقط فيه عدد كبير من القتلى•

---

١) المقريزي ، السلوك ، ص٥٥٩ •
٢) اليونيني ، جـ٢ ، ص ٤٠٨ • ابن تغري بردي النجوم الزاهرة • جـ ٧ ، ص١٤٧ •
٣) المقريزي ، السلوك ، ص٥٩٥ •
٤) ابن الفرات ، جـ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٧ •

اما اهل القلعة فاستسلموا في ٢٥ منه ولم تنفع محاولة عكا لنجدته بعد ان منحهم الظاهر الامان وسمح لمن شاء منهم ان يتوجه الى طرابلس .

وبعد احتلال الحصن اجرى الظاهر الترتيبات الادارية اللازمة فعين الامير عز الدين الافرم لعمارته والامير عز الدين الموصلي نائبا عنه في المدينة . وعين فيه قاضيا وخطيبا وجعل كنيسته جامعا تقام فيه الجمعة . وكتب ايضا لنوابه يخبرهم بالواقع ثم كتب لرئيس فرسان الاسبتار الفريراوك يعلمه بالفتح ويتمنى عليه ان لا يعاند القدر . وكان الظاهر يعود اليه لتفقده كما فعل في ذي الحجة من السنة ٦٧٠ هـ اذ جاء لمراقبة عمارته وتحصينه (١) .

<u>عكار</u>: بعد عقد معاهدة مع صاحب طرابلس ، بعد الظاهر صافيتا ، وهي على معاهدة معه منذ شعبان سنة ٦٦٦ هـ . ثم عاد رهافي ٤ رمضان سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ واذن لصاحبي حمص وحماه بالعودة الى مدينتهما . اما هو فزحف باتجاه حصن عكار حتى اشرف عليه في ١٧ منه . وفي ٢٢ رمضان نصب عليه المجانيق واخذ يرميه بشدة بينما قاتلته الحامية بقوة . وفي ٢٩ منه قبلت الحامية تسليم القلعة مقابل السماح لمن شاء من افرادها ان يذهبوا الى طرابلس .

وفي ٤ شوال عاد الظاهر الى مخيمه في برج صافيتا ووصلته رسالة من صاحب طرابلس يلتمس ابقاء القلعة له فرفض لانه تكبد الخسائر الكثيرة لاحتلالها (٢) .

---

١) اليونيني ، ج ٢ ص ٤٤٤ — ٤٤٥ و ٤٧٢ . ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ص ١٥٠ — ١٥١ ، و ١٥٣ . ابو الفداء ج ٤ ص ٦ . ابن ابي الفضائل ص ١٨٥ — ١٨٧ ، ١٩٧ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٦٧ ، وورقة ٧٦ — ٧٧ ، ويجعل تاريخ الهجوم ٩ رجب . المقريزى السلوك ، ص ٦٠٢ . السلوك ٥٩١ ، ملحوظة ٣ وسرور ص ٩٠ — ٩١ .

٢) اليونيني ، ج ٢ ص ٣٨٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٦ ، ٧ ، ابن ابي الفضائل ص ١٩٠ ، ١٩٧ — ٢٠١ ، ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٧٥ ، و ٧٨ — ٧٩ ، . المقريزى ، السلوك ، ٥٦٧ ، ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ . وباحتلال عكار قال ابن عبد الظاهر : ان سلطان البرايا زاده الله سعاده
ضمر الاعداء رعبا وله بالنصر عاده
حصن عكار منيع هو عكا وزياده

القرين : في ١١ شوال رحل الى دمشق ووصلها في ١٥ منه • وفي ٢٨ منه نازل قلعه القرين واحتلها بعد قتال عنيف في ٢ ذى القعدة سنة ٦٦٩هـ/ حزيران ١٢٧١ وآمن اطفالها ونساءها • وامر بهدم القلعة •

وفي ٢٦ ذى القعدة امر بالعودة الى مصر فمر على كردانه في منطقة عكا ثم على الصالحيه ودخل القاهرة في ١٥ ذى الحجة سنة ٦٦٩هـ • وبذلك تمت حملة استغرقت نحوا من سنة وكلفت ١٨٠ الف دينار عينا (١) •

بيروت : اتصل صاحب بيروت بالظاهر وهو في دمشق سنة ٦٥٩هـ وانعقد الصلح بينهما • ثم حضر مندوب صاحب بيروت مؤتمر الطور • ومع ان الظاهر لم يعقد صلحا مع الصليبيين عامة في هذا المؤتمر فانه كان يدرك ان لبيروت وضعا خاصا • ففي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣ ـ ١٢٦٤ توفي صاحبها Jean II D'Ibelin من غير ان يعقب ذكرا يرثه • وخطبت ابنته ووريثته ايزابيلا لملك قبرص هيوغ الثاني ثم مات هذا وعمره ١٤ عاما • وفي رجب سنة ٦٦٥هـ ارسلت ايزابيلا وفدها للظاهر في صفد تعتذر له عن اعتقال اخيها لبعض التجار ومصادرة اموالهم وبضائعهم وتعد بالتعويض عليهم عما فقدوه • وفي شعبان من السنة التالية اطلق سراح التجار وردت اموالهم • وفي رمضان سنة ٦٦٧هـ/ جاء رسول صاحب بيروت الى الظاهر ومعه اسرى مسلمون فاطلق سراحهم في الحال • وفي عام ٦٧١هـ/١٢٧٢ تزوجت ايزابيلا من Edmond L'Etranger فوضع هذا زوجته وامارة بيروت تحت حماية السلطان • ولما توفي الزوج انتقلت المدينة لحماية الظاهر بصورة نهائية ورسمية (٢) •

---

١) اليونيني ، ج٢ ، ص٤٥٣ ، ابن الفرات ، ج٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٨١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٥٣ : راجع مصادر ملحوظة ٢ من الصفحة السابقة •

٢) ابن عبد الظاهر ، ص٤٦ ، ابن الفرات ، ج٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٧ وورقة ١٧ ـ ١٨ ، وج٧ ، ص٣٥ ، المقريزى ، السلوك ، ص٤٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٨٠ : ومحمد مصطفى زيادة ، ملحوظة ١ ، ص٥٥٩ ، السلوك •

يبدو ان العلاقات بين بيروت والظاهر كانت ودية عموما • وقد كانت هذه المدينة هامة من الناحية التجارية •

بقيت مدينتان هما طرابلس وعكا وينبغي ان نتحدث عن علاقاتهما بالسلطان الظاهر بصورة اكثر تفصيلا ، ولو اننا اشرنا اليهما في معرض الحديث عن مدن اخرى •

طرابلس : كان الظاهر بيبرس يرى في بيموند صاحب طرابلس وانطاكية العدو الاكبر له بين امراء الفرنجة لانه كان يتلقى النجدات من اوروبا ويعين التتر في غزواتهم على بلاد الشام • وكثيرا ما كان يقوم بغزوات تخريبية على مدن بلاد الشام • كما فعل سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ بحمص •

لذلك كان الظاهر يجهد لاحتلال طرابلس • وقد هاجمها مباشرة لكنه عجز عن احتلالها فعمد الى خطة احتلال القلاع المجاورة لها • ففي سنة ٦٦٤ هـ ، ارسل جيشه من صفد ليقوم بحملة ترويع وتخريب • وفي سنة ٦٦٦ هـ ، هاجم طرابلس بعد احتلال انطاكية وفي سنة ٦٦٩ هـ هاجمها في طريقه لمهاجمة حصن الاكراد • واذ دخل هذا الحصن اصبحت المنافذ الى طرابلس بيد السلطان الظاهر • وبعد فتح حصن الاكراد كتب له الظاهر رسالة هدده فيها وتدبر به ثم ارسل اليه صيدا ورسالة فيها ازدراء لخشيته من الخروج الى الصيد • وفي شوال سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ هاجم السلطان طرابلس ، فوجد صاحبها ان لا بد من المفاوضة •

واجتمع الوفدان الظاهري والفرنجي للتفاوض فطلب الوفد الظاهري ان يتنازل بوهمند له عن نصف اعمال طرابلس ، وان يدفع له نفقة الحملة العسكرية ، وان يسمح له بانشاء دار وكالة لجمع الزكاة • فرفض بوهمند • ووجد الظاهر نفسه مضطرا للتساهل لعقد الصلح امام تهديدات التتر واخيرا انعقد الاتفاق على مايلي :

١ ـ عرقه وجبيل واعمالهما لبوهمند على ان تكون الاولى "صدقة من السلطان "له•

٢) نصف قرى انطرسوس والمرقب وبانياس للسلطان والنصف الآخر للداوية والاسبتارية

٣) قريتا بارين وحمص القديمة للسلطان وحده .

٤) مدة العقد عشر سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام .

وفي سنة ٦٧٣ هـ/١٢٧٥ توفي بوهمند . وفي ٢٨ محرم من السنة التالية عقدت معاهدة صلح جديدة مع صاحبها الجديد على ان يدفع للظاهر مبلغ عشرين الف دينار (١).

وبعد انعقاد الاتفاقية، رأى صاحبا المرقب (٢) وانطرسوس التعاقد مع الظاهر تفاديا لهجماته المتكررة عليهما . وفي اول رمضان وقعت الاتفاقية على المناصفة لعشر سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام، تأكيدا للاتفاقية مع بوهمند . ثم ارسل الظاهر نائبين من قبله الى القلعتين (٣)

عكـــــا:

هاجم السلطان الظاهر بيبرس عكا اكثر من مرة اثناء سلطنته لكنه لم يستطع احتلالها كان لا يستطيع ان ينسى انها آوت لويس التاسع سنة ١٢٥٠ . لكن هذه الهجمات ادت الى اضعاف المدينة بحيث استطاع السلطان الاشرف خليل بن قلاوون ان يحتلها بعد ١٥ سنة من وفاة الظاهر والى انعزالها بعد الضربات عنها فغدت غير قادرة على مد يد المعونة المجدية الى المراكز الصليبية الاخرى . غير ان هذا ينبغي ان لا يعني ان العلاقات بين المماليك وعكا كانت علاقة حرب باستمرار، حقا ان حقد الواحد منهما على الآخر كان يسير تصرفاته ازاء الثاني ولكنهما عرفا فترات هدوء ومهادنة .

---

١) اليونيني، ج ٢، ص ٣٨٢، ٤٥٠ . ابو الفداء، ج ٤، ص ٣، ابن ابي الفضائل، ص ١١١ ــ ١١٥ . ابن الفرات، ج ٦، قسم ٢، ورقة ٢٠ ــ ٢١، وورقة ٧٦ . المقريزي، السلوك، ص ٥٦٦ ــ ٥٦٨، ٥٩١ ــ ٥٩٣، ٦١٩ . ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٢، ١٤٣، ١٥٢ . C.Cahen ص ٧١٥ . (٢) هي Castrum Merghatum عند الصليبيين .

٢) اليونيني، ج ٢، ص ٤٤٨ . ابن ابي الفضائل، ص ١٨٦ . المقريزي، السلوك، ص ٥٦٠، ٥٨٦، ٥٩٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٨، ١٥١ .

في اوائل سنة ٦٦٢ هـ/ اغارت العساكر المملوكية على السواحل ووصلت ابواب عكا (١).

وليلة السبت ٤ جمادى الآخرة استناب السلطان الامير شجاع الدين الشبلي المهمندار في دهليزه في منزلة الطور ثم سار بنفسه الى عكا فوصل اعمالها عند الصبح ثم جال حولها من ناحية البر، ثم حاصر بعض رجاله برجا قريبا من عكا حتى المغرب، ثم رجع الى دهليزه في الطور (٢). وفي اليوم التالي عاد الى مهاجمة عكا مرة اخرى، بعد هذه الاستكشافات، فوجد ان الحامية قد حفرت خندقا حول تل الفضول واوجدت متاريس في الطريق، لكن جيشه اقتحم الخندق والتل فانهزم جند عكا واقفلوا ابواب المدينة (٣). وهكذا اثبت لاهل عكا انه غير عاجز عن تحديهم في عقر دارهم. ولعله لم يكن يقصد احتلال المدينة، وانما كان يقصد تحديهم وحسب.

وصعد السلطان ببعض جيشه الى تل الفضول وهدم بعض الابراج المجاورة.

وفي اوائل سنة ٦٦٣ هـ/ نوفمبر ١٢٦٤ استغل الفرنجة في عكا انشغال الظاهر بمحاربة المغول فاغاروا على بيسان. وفي ذي القعدة من السنة التالية امر الظاهر بالقيام بغارة ثأرية على المراكز الصليبية. فاغار جيشه على نيحا وقتل نحو مئتين واستولى على الكثير من المواشي لان الفرنجة كانوا قد قتلوا اربعة من المسلمين المعتقلين (٤). وفي رجب من سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ علم وهو في صفد ان بعض الفرنجة في عكا يخرجون غدوة الى البساتين لقضاء حوائجهم فقرر مفاجأتهم. وفي الليل امر جماعة من جنده وزحفوا الى ابواب عكا. وما ان خرج الفرنجة حتى فتك بهم جنده فتكا ذريعا. ثم اعاد الكرة في العصر التالي ابانها فاحرق الاشجار واسر بعض الفرنجة ثم عاد الى صفد (٥).

---

١) ابن عبد الظاهر، ص١٠٠ (٢) ابن عبد الظاهر ص٧١ . (٣) ابن عبد الظاهر ص٧٢ ، والمقريزي، السلوك، ص٤/٨ . (٤) المقريزي السلوك ، ص٥٥٥ ص٤ د . (٥) ابو شامة ، ص٢٤٠ ، ابن الفرات ، ج٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٦ ، المقريزي السلوك ص٥٥٨ و ٥٥٩.

F.Sadeque

وفي سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م ، راى اهل عكا انه لابد من مصالحة السلطان • ففي ١٣ شوال سنة ٦٦٦ هـ وصل رسولهم الى السلطان ومعه هديه لمفاوضته حول الصلح • وتم الاتفاق بين فرنجة عكا والظاهر على ان يكون للسلطان نصف مدينة عكا وبلاد الكرمـــل ، والمناطق الجبلية من صيدا ، وان تبقى حيفا وثلاث قرى من اعمالها للفرنجة • ووافق الطرفان بعد ذلك على اطلاق الاسرى وان يبقى الصلح لعشر سنوات ، ثم ارسل الظاهر القاضي محي الدين بن عبد الظاهر والامير كمال الدين بن شيث الى صاحب عكا ليحلف لهما علـى الاتفاق فوصلا عكا في ٢٠ شوال / تموز ١٢٦٨ واجتمعا بصاحبها وامرا بناء على تعليمات من السلطان ، على الجلوس على كرسيين بحالة صاحب المدينة ، وعلى تسليم رسالة الظاهر لـه بالذات • ولما لم يوافق صاحب عكا على الشروط التي كان رسله قبلوا بها ، فقد عاد الوفـــد الظاهر من غير ان يتم الصلح (١) •

ثم عادت المناوشات بين الطرفين • واشاع الفرنجة في عكا وفاة السلطان (٢) • وصـل الظاهر دمشق في ربيع الاخر سنة ٦٦٨ هـ وعلم ان جنود عكا يهاجمون جنده المرابطيـن بجوار صفد والشقيف فامر بالزحف على عكا بجيش من ١٥ الف جندي • وقسم الجيش الى فرق زحف بعضها الى عكا على ان يتراجع امام جيش عكا اذا هاجمته جيوشها بينمـا كمـن الظاهر ببعض جيشه الاخر لابادة جيش عكا اذا انخدع بالحيلة • وجرى كما توقع الظاهر فاستطاع ان يكسر الاعداء ويأسر منهم عددا كبيرا • ولعل وصول جيش من اراغون لمناصـرة عكا في هذه الفترة انقذها (٣) •

---

١) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٣٣ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٧٤
٢) ابن الفرات ، ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ٤٣ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ •
٣) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٣١ • ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٦٦ ــ ٦٧ ، المقريزي ، السلوك ص ٥٥٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٧ ([illegible])
ج ٣ ، ص ٤٦٥ •

وفي اوائل ربيع الاول سنة ٦٦٩ هـ علم الظاهر ان فرنجة عكا اعدموا نحو مئة اسير مسلم فثأر لذلك باغراق عدد من اعيان اسرى عكا في البحر(١). وبينما كان عائدا الى مصر بعد فتح حصن الاكراد من سنة ٦٦٩ هـ نزل على كردانه في يوم الاثنين ٢٦ ذي القعدة وسار بعسكره حتى اشرف على عكا ثم عاد فواصل طريقه الى القاهرة، فدخلها الخميس ١٢ ذي الحجة. وهنا هاجم اهل عكا الشاغور واحرقوا الغلال (٢) .

وفي سنة ٦٧٠ هـ قام فرنجة عكا وعثليث بهجوم على قاقون بناء على اتفاق مع التتر واخذوا عددا من الاسرى واستولوا على كثير من الغنائم، ولما علم الظاهر بذلك اعتقل القواد والمسؤولين عن الدفاع وارسل جمال الدين اقوش الشمسي يطارد المهاجمين حتى استردوا الاسرى والغنائم واستولى على بعض ماشية الفرنجة واتلف مؤونتهم (٣).

وفي شعبان سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ بعد انقطاع الامل بوصول حملة لويس التاسع الى الشرق سار الظاهر الى بلاد الشام وخيم بين قيسارية وارسوف ثم اغار على عكا لترويع اهلها وتخريب زرعها . لكن جنوده تضايقوا بسبب الامطار .

وهنا وجدت عكا انه لابد من المصالحة . وفي ٢١ رمضان ارسل الظاهر وفده الى عكا وانعقد الصلح بين الظاهر وعكا لعشر سنوات ثم خرج اهل عكا يتفرجون على قوات الظاهر المسلحة تقوم بمناورات عسكرية(٤) . ومع ان الظاهر شغل فيما بعد بمهاجمة السلاجقة في آسيا الصغرى فان عكا بقيت هادئة .

---

١) ابن ابي الفضائل ، ص١٨٤ .
٢) المقريزي ، السلوك ، ص٥٩٦ . ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص١٥٣ .
٣) اليونيني ،ج٢ ،ص٤٦٨ . ابن الفرات ،ج٦ ، قسم ٢ ورقة ٨٩ ، المقريزي ،السلوك ص ٦٠١ ، ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ، ج٧ ص ١٥٧ .
٤) ابن الفوطي ص، ٤٧ . اليونيني ، ج٢ ، ص٤٧١ . المقريزي ، السلوك ، ص٦٠١ . ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٥٧ .

قبـــرص : لم تقتصر حروب الظاهر بيبرص على المواقع البرية وحسب ، وقد اعد الظاهر الاسكندرية لتقوم بدورها في رد الصليبيين وخرّب ميناء دمياط لكي لا يستعملوها مرة اخـرى للنزول الى البر المصرى .

وكانت قبرص مركزا للصليبيين خطرا عليه لا سيما وقد كان صاحبها يطمع باستعادة ما احتله من مدن الصليبيين في بلاد الشام ، لذلك اتسمت علاقات الظاهر بقبـرص بالحقـــد والعداء .

في محرم سنة ٦٦٥ هـ ارسل صاحب قبرص نجده الى عكا لتهاجم طبرية(١) ولكن سقوط انطاكية بيد السلطان الظاهر حمل صاحب قبرص على مفاوضة السلطان ، ويبدو انها لم تسفر عن نتيجة ، وفي رجب سنة ٦٦٨ هـ ١٢٧٠ علم الظاهر ان الفرنجة استولـــوا على سفينتين بالاسكندرية ، وفي ٥ شوال علم انهم يتهيأون للقدوم الى عكا ، وهاجموا الاسكندرية مرة اخرى واستولوا على مركب تجارى فيها ، فقصد الظاهر الاسكندرية واتخذ التدابير الاحتياطية لرد اى عدوان ، ثم قصد دمياط وبنى جسرين بين الجيزة والجزيرة وبقي فيها حتى عرف بانحراف الحملة الى تونـس(٢) .

وبسبـب وضع قبرص الجغرافـي لم يكن السلطان يستطيع مناوشتها ، لكنه بعد هاتين المحاولتين قرر مهاجمتها ، وفي شوال سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ امر رئيـــــس الاسكندريـة ورئيس دمياط بتجهيز اسطول وقدم عليهما جمال الدين بكي بن حسون وهاجموا قبرص في اسطول من ١٧ شينيا وذلك ليشغل صاحب قبرص عن نصرة عكا ، ودخلت الشوانــي الجزيرة ليلا وهاجت الريح وانكسر الشيني ثم تبعته الشواني الاخرى من غير ان تدرى بمـا حدث للشيني الاول حتى تحطم ١١ شينيا واسر بحارتها وعددهم نحو ١٨٠٠ .

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص٥٥٥ .
٢) اليونيني ، ج ٢ ، ص٤٢١ – ٤٢٣ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٤٨ .

وهرب رئيس الاسكندرية والمقدم (١).

وفي ١٠ ذى القعدة وصلته رسالة من نائبه في القاهرة يخبره فيها بالكارثة ، فشكر السلطان الظاهر اللهعلى ان الكارثة لم تكن اعظم ، ثم جاءه رسول صاحب قبرص فخبره بما جرى للاسطول شامتا به فرد عليه السلطان بانه احتل في حملته ١٤ حصنا من الصليبيين . ثم كتب لصاحب قبرص رسالة ارعد فيها وابرق (٢) ، ثم بشره بفتح القلاع والحصون الصليبية ، وجعل فتح هذه اهم من الاستيلاء على الخشب والحديد وهدده ببناء اسطول جديد (٣).

وفي ذى القعدة سنة ٦٦٩ هـ عندما احتل الظاهر القرين ، بعد فشل حملة قبرص جاءه رسول من صاحبها يطلب منه الرحيل عن القرين وتسليم بعلبك ونابلس مقابل الصلح بين الطرفين ،فرفض الظاهر العروض وهدد باخذ كل حصون الصليبيين اولا بأول (٤) .

وفي سنة ٦٧٣ هـ استطاع الظاهر استعادة بعض كبار الاسرى من قبرص اذ ان بعض امرائه استطاعوا رشوة حراس السجن في عكا فاطلقوا سراحهم (٥) .

وهكذا نجد ان العلاقة بين الظاهر وقبرص كانت عدائية ،ولكن كون قبرص جزيرة حال دون مهاجمتها جديا . وقد اسفرت محاولة احتلال قبرص عن الفشل .

---

١) اليونيني ، ج ٢ ، ص٤٥٤ . ابو الفداء ، ج٤ ص٧ ، ابن ابي الفضائل ، ص١٩٩ . ابن الفرات ، ج٦ ، قسم ٢ ورقة ٨٢ ، المقريزى السلوك ، ص٥٩٤ . ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٥٤ .

٢) ابن ابي الفضائل ، ص١٩٩ ، ٢٠٠ ، المقريزى السلوك ، ص٥٩٤ .

٣) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص٧ ،ابن ابي الفضائل ، ص١٩٩ . المقريزى ،السلوك ، ص٥٩٤ . ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص١٥٥ .

٤) ابن ابي الفضائل ، ص١٩٩ ، ابن الفرات ، ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ٨٢-٨٣ .

٥) ابو الفداء ،ج٤ ، ص٦ . المقريزى ،السلوك ، ص٦١٥ .

٨ - الدول الاوروبيــة - صقليه ، جنوى ، اراغـون ، اشبيليــه :

لقد عمل الظاهر في علاقاته الخارجية على عدة جبهات • لم يكن الميدان العسكرى وحده كافيا لتوطيد النصر وقد كان يعلم ان التتر يتصلون بالصليبيين في بلاد الشام وبالاوروبيين للحصول على نجدات لذلك عمد الى مصادقة صقليه وجنوى • فكان هذا كافيــا للحؤول دون وصول نجدات عسكرية الى عكا وانطاكية والتتر ، عدا انه كانت لهذه العلاقــات فائدة تجاريــة •

وفي سنة ٦٥٩ هـ قرر الظاهر ايفاد رسول الى صقلية • وبالفعل فانه ارسل المؤرخ ابن واصل مندوبا منه الى منفريد بن فردريك امير صقليه حاملا هدية ورسالة فيها عرض للتعاون والصداقة •وفي سنة ٦٦٢ هـ رمضان ، كتب امير صقلي للظاهر يقول ان الملك شارل شقيق لويس التاسع امره ان يستجيب لاوامر الظاهر مهما كانت • وكان شارل هذا هو الذى حول الحملـة الصليبية الاخيرة الى تونس (١) •

وفي جمادى الاولى سنة ٦٧٠ هـ ارسل روجر صاحب صقليه للظاهر وفدا يهـدف فيما يبدو للشفاعة بصاحب عكا لكن الغاية الحقيقية كانت الناحية التجارية • وقد كانت بينهمـا معاهدة تجارية منذ ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤م •

اما مع جنوى والبندقية فكانت العلاقات تجارية بالدرجة الاولى • وقد رغبت هذه ان تبيعه الاخشاب والحديد لبناء السفن وصنع الاسلحة ، وان تبيعه الرقيق للجندية(٢) •

---

١) يبدو ان القواد الصليبيين اختلفوا حول الخطة • اراد شارل القسطنطينية والقد مرامـه • بينما ارتأى اخرون ان فتح تونس يمهد السبيل لغزو مصر من البر • ([illegible]) جـ٣ ، ص ٦٥٩ ، (F Sadeque) ، ص٦٠ ؛

٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٤ ، اليونيني ، جـ٢ ، ص١٢٥ • ابن ابي الفضائل ، ص١٢١ - ١٢٢ المقريزى ، السلوك ، ص٦٠١ ؛ R. Grousset جـ٣ ص٦٥٩ (F Sadeque) ص٦٠ ، (S Runciman) جـ ٣ ، ٣٢٥ •

وفي سنة ٦٧٤ هـ ، تبادلا الرسل (١) .

واما اراعون فكانت علاقاتها بالظاهر سيئة ، وكانت تواصل ارسال العدد لعكا كما جرى في ربيع الاخر سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م لكن جيمس ملك اراعون راى بعد مصالحة عكا والظاهر ، ان يتصل بالسلطان لعقد معاهدة تجارية ، وفي سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ تبودلت الوفود والهدايا حتى تم الاتفاق على التبادل التجاري (٢) .

وكانت لمعاهدة تجارية مع اشبيليه منذ سنة ٦٦٩ هـ (٣) .

يبدو لي ان الظاهر اصاب نجاحا كبيرا في هذا الميدان ، فهو من جهة ، عزل الصليبيين في الشرق ، وحال دون التحالف مع التتر ، ثم استطاع من جهة اخرى ان يعقد المعاهدات التجارية وامن بذلك الموارد المالية الضخمة الضرورية له من الناحية العسكرية .

اسباب نجاح الظاهر على التتر والصليبيين :

لاريب ان الظاهر ، فيمايبدو اصاب نجاحا باهرا في حروبه مع التتر والصليبيين اما اسباب ذلك فهي :

١) جيشه المنظم تحت قيادته واخلاص القادة له والمبادرة الى تنفيذ اوامره على الفور .

٢) وجود قادة ماهرين اكفاء يحيطون بالظاهر .

٣) محالفته مع القبشاق والدويلات الاوروبية لاسيما صقلية وجنوى ، مما ادى الى توزيع نوى خصومه والحيلولة دون اتحادهم .

٤) انقسام التتر الى ايلخانات فارس وجغطاى وقبشاق متنافرين .

٥) انقطاع المدد العسكري من اوروبا للصليبيين والتتر .

---

١) المقريزي ، السلوك ، ص ٦٢١ . (٢) المقريزي ، السلوك ، ص ٥٨٥ .

٣) المقريزي ، السلوك ص ٦٢١ ، وملحوظة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ملحوظة ٢ ، ص ٦٢١ ، في السلوك ، للمقريزي .

٩ — بيبــرس واليمــــن :

كانت علاقات الظاهر باليمن علاقات ود وصداقة . يدل على ذلك ان التجار كانوا ياتونه مرتين في السنة . وكان التجار واصحاب الاموال يامنون المرور في اراضي سلطنته بسبب عدله والامن السائد في البـلاد (١) .

وفي سنة ٦٦١هـ جاء رسل صاحب اليمن بهدية الى الامراء والخواص في مصر فاستقبل الظاهر الرسل وسمح لهم بتوزيع الهدايا على امرائه وخواصـه (٢) .

وفي اواخر سنة ٦٦٥هـ كان الظاهر قد انتصر على التتر والصليبيين في معارك عديدة فارسل اليه صاحب اليمن هدية فيها عشرون فرسا وعليها لامة حرب ، وفيل وحمار وحشي ابيض واسود ، وخيول وصيني ، وتحف ، ورسالة يطلب فيها محالفته مقابل الخطبه له في بلاد اليمن . ولما عاد الظاهر من دمشق في صفر سنة ٦٦٦هـ . اجتمع بالرسل في جمادى الاول ثم رد على صاحب اليمن بهديه ورسالة وافق فيها على طلبـه .

ولما حج الظاهر الى مكة سنة ٦٦٧هـ اتصل بصاحب اليمن وحرضه على الاسهام في محاربة التتر . وفي ذى الحجة سنة ٦٦٩هـ وفي رجب سنة ٦٧٤هـ ارسل صاحب اليمـن هدايا للظاهر (٣) .

وهكذا قامت العلاقات بين الظاهر وصاحب اليمن على التهادى وتبادل التأييد المعنوى من ناحية ، وعلى تأمين مرور التجار من ناحية ثانية . واذا لم تكن الناحية الاولى ذات اثر فعال فلا ريب ان الناحية الثانية كانت ذات أثر بارز في حياة المماليك الاقتصادية عامة . ولعل هذا هو مادفعه لتوطيد سلطانه على النوبة .

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٥٤ (٢) ابن عبد الظاهر ص٨٨ ، والمقريزى ، السلوك ص٥٠١ .
٣) اليونيني ، ج٢ ، ص٣٧٤ . ابن الفرات ، ج٦ ، قسم٢ ، ورقة ١٢ ، المقريزى ، السلوك ، ص٥٦٤ و ٥٩٥ و ٦٢١ . ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٧ ، ص١٤١ .

١٠ - الحبشـــــه :

وكانـت بـلاد الحبشـه على عـلاقـه وديـة مع الظاهـر بيبرس · ويبدو ان الظاهـر لم يتفـرغ للبـلاد الواقعـة جنـوب مصـر الا بعد ان كان قد وجّـه ضربات قاصمة للصليبيين وحال دون التحالف التترى الاوروبي · ففي سنة ٦٧٢هـ · ارسـل ملك الحبشـه عن طريـق صاحـب اليمن رسـالة للظاهر بيبرس تحدث فيهـا عن كثـرة جيوشـه وعن وجود المسلمين والنصارى فيها وعن استعداده لمناصرته ويعلن له الخضوع ويصف له حسن معاملتـه للمسـلمين الوافدين عليه ثم يطلـب منـه مطـرانا لبـلاده · فـرد عليـه الظاهر مخاطبا اياه " بصديق الملـوك والسـلاطيـن (١) " ·

---

١) ابن ابي الفضائل، ص٢١٩ - ٢٢٢ و ٣٨٣ - ٣٨٥ · ابن الفرات، ج٧، ص٢٣ · القلقشندى، ج ٨، ص١١٩ - ١٢٠ · المقريزى، السلوك، ص٦١٥، ٦١٦ · لكن هذا الاخير يجعل تاريخ الرسالة سنة ٦٧٣هـ ·

شخصيـة الظاهر بيبرس ومنشـاتـه

تناولنـا حتى الان حياة الظاهر العامة في حروبه وخططه في داخل سلطنته وخارجها • ويجب علينا هنا ان نتناول نواحي اخرى من حياته لنستكمل وصف شخصيتـــه وتحديدها ، ولنستطيع ، بعد ذلك ، ان نحدد مكانتـه •

اولا ـ حياته الخاصـة :

تزوج الظاهر خمس نساء ، هن الشهرزورية التي تزوجها في الكرك ، لما كان فارا من وجه عز الدين ايبك ، ثم عاد فطلقها لما تسلطن(١) • ثم بنت الامير سيف الديـــن نوكاى التترى ، ثم ابنة الامير سيف الدين كراى التترى(٢) • ثم ام الملك السعيد بركة خان (٣) ثم ابنة حسام الدين بركة بن دولة خان التترى (٤) •

وكان له ثلاثة ابناء وسبع بنات (٥) وكان السعيد اكبر ابنائه الذكور • ويبدو ان العلاقة بين الظاهر وابنه هذا ، كانت اوثق منها بولديه الاخرين • كانت علاقة ابوة وزمالة في وقـت واحد • وقد تحدثنا عن علاقاتهما الرسمية اما الناحية الابوية فلعلها تتضح بقوة لنا من الحادثـة التاليـة : في ٢٢ ربيع الاول سنة ٦٧٣ هـ كان الظاهر وابنه السعيد عائدين من الشوبك وصرع السعيد في الطريق طيرا فقيل له : لمن تدعى ؟ فقـال :
لمن ادعو بحياته ومن اتقرب الى الله بدعواته ، الذى حسبي افتخارا ان اقول والدى ، ومن يتمرن لصرع اعدائه ساعدى ؟ وهنا تقدم الظاهر منه وقبلـه (٦) •

---

١) المقريزى ، السلوك ، ص ٦٤٠ • وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص١٧٩
٢) ابن ابي الفضائل ص٢٩٤ • المقريزى ، السلوك ، ص٦٤٠ ـ ٦٤١ (٣) المقريزى ، السلـوك ص٦٤٠ ـ ٦٤١ وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ص١٧٩ • (٤) ابن ابي الفضائل ص٢٩٤ والمقريزى ، السلوك ص٦٤٠ • وهنالك ان ركن الدين بيبرس تزوج من خوارزميـه حين انضم اليهم على الملك الصالح نجم الدين سنة ٦٤٣ هـ • (المقريزى السلوك، ص٣٢٢) لكنه ليس السلطان الظاهر بيبرس • (٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٧ ص ١٧٩ • (٦) المقريزى ، السلوك، ص٦١٥ • وقد تسلطن السعيد سنة ٦٧٦ ثم خلع سنة ٦٧٨ هـ • حين تولى السلطنـة اخوه بدر الدين سلامش، ثم خلع في نفس السنة وتولاها قلاوون •ولم يتـول نجم الدين خضر السلطنـة •

كيف كان الظاهر يقضي اوقات فراغه ؟ او هل كانت لديه اوقات فراغ يقضيها بصورة ما ؟ ان المعلومات التي لدي لا توحي بوجود اوقات فراغ • وانما تصور لنا الظاهر دائم الحركة من ميدان تدريب الى ميدان تدريب اخر ومن لعبة القبق الى الرمي بالنشاب ••• لم يكن لديه فراغ يلهو فيه • هنالك قصص عن بعض امرائه يقضون جلسات يتندرون فيها يشربون ويتماجنون • ولكن الظاهر كان يتجنب مثل هذه الجلسات • والواقع انه كان يمنعها (١) •

ويبدو انه كان للظاهر انواع اخرى من التسلية هي اللعبة التي نسميها اليوم بالبولو والسباحة ولعب الكرة وركوب الخيل والصيد • وقد احب هذه الهواية الاخيرة حبا جما ومارسها بصورة متواصلة حتى اننا نستطيع ان نقول ان رحلات الصيد كانت استعراضات مصغرة • كان يقوم برحلات الصيد في كل مناسبة اذ انه جمع فيها بين التسلية الشخصية والتدريب العسكري له ولجنوده • ولا يتخلى عن رحلة الصيد حتى حين يكون في طريقه الى معركة او في رحلة تفتيشية في سلطنته (٢) •

وكانت البلاد ، فيما يبدو ، مليئة بانواع الحيوانات للصيد • اما امكنة الصيد فكانت تروجه واوسيم والصالحية وبركة زيزاء في الغالب •

ففي محرم سنة ٦٦١ هـ • خرج يتصيد في اوسيم ثم قصد البركة • وفي ربيع الاخر من السنة نفسها خرج الى بلاد الشام ولما وصل غزة خرج في حلقة صيد ومعه ثلاثة الاف فارس (٣) • وفي شوال من السنة نفسها توجه الى تروجه ثم دخل البرية للصيد (٤) وفي صفر

---

١) انظر سياسته نحو الخمور ••• ص٢٢٤ ادناه ملحوظة ٣ •

٢) اليونيني ، ج٢ ص٣٢٧ والمقريزي السلوك ص١٠٦ • (٣) ابن عبد الظاهر ص٥٥٥ ٦ والمقريزي ، السلوك ، ص ٤٨١ • وفي هذه الرحلة تنفطر الاميران شمس الدين سنقر الرومي وسيف الدين قلاوون فعني السلطان بهما حتى شفيا •(٤) ابن عبد الظاهر ص٨٤ ! •

سنة ٦٦٢ هـ ذهب الى اوسيم ثم الى الغربية جامعا بين الرغبة بالصيد والرغبة بتفقد احوال الرعية • وبعد التحقيق باحوال الناس وشكاويهم توجه الى منزلة ابن حسون وتصيد (١) •

وتتبين لنا عنايته بالصيد من انه ما ان فرغ من الاستعراض العسكري سنة ٦٦٢ هـ حتى قصد الاسكندرية للصيد (٢) •

وفي محرم من السنة التالية قصد اوسيم والعباسية للصيد • وفي هذه الرحلة "ادعى له جماعة من الصيادين " (٣) • وفي هذه السنة ، حين ذهب لبلاد الشام قاصدا البيرة لصد التتر مر قريبا من صيدا للصيد فتقنطر به الفرس وانهشم وجهه وانسلخ جلده • وبقي في يبنى ريثما شفي • وهنا جاءه خبر تراجع التتر (٤) •

وفي ذي القعدة من سنة ٦٦٤ هـ ، خرج الظاهر للصيد في جرود معلولا ووصل الى افاميه (٥) •

وفي محرم سنة ٦٦٥ خرج الى بركة زيزاء للصيد فسقط عن فرسه وانكسرت رجله (٦) •

واحب الظاهر السباحة لمسافات طويلة • وقد بلغ من حسن سباحته انه جر في النيل بسطا كبيرة فوقها اميران بفروسيهما (٧) • واحب لعب الكرة حتى انه عيّن لها كل يوم سبت وثلاثاء (٨) •

اما ولعه بركوب الخيل فكان شديدا • ولا غرو في ذلك فالخيل ضرورة عسكرية •

وهكذا نجد ان الظاهر كان رياضيا من الدرجة الاولى ، الى جانب كونه جنديـــا •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٩٢ • (٢) ابن عبد الظاهر ص٩٢ • (٣) ابن عبد الظاهر ص١١٨ والمقريزي ، السلوك ، ص٥٢٣ • ويفهم من هذا انه كانت عادة الصيادين ان ينقسموا بين مبتدئين وهواة • وكان المبتدئون ينتسبون او يدعون الانتساب لاحد الهواة • (مصطفى زيادة ، حاشية ١ ص٥٢٣ من السلوك للمقريزي) • (٤) ابن عبد الظاهر ، ص١٢٠ • (٥) المقريزي ، السلوك ، ص٥٤٩ •

٦) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١ — ٢ • (٧) المقريزي ،السلوك ، ص٦٠٨ •

٨) ابن عبد الظاهر ، ص ٨١ •

ثانيا ـ هيئة الظاهر :

كان الظاهر طويل القامة ، اسمر اللون ، حسن الوجه ، في عينيه زرقة ، وفي احداهما نقطة صغيرة . وكان مستدير اللحية يغلب عليها البياض . وكان جهوري الصوت (١) . وكان يتمتع بقوة جسدية كبيرة توحي بها المشقات الكثيرة التي تكبدها في حروبه . وهذه الصفات اساسية لنا لو شئنا ان ننحت للظاهر تمثالا . ولكن يجب ان نحرص على ان تظهر في التمثال صفات اخرى ليست واضحة كهذه . وانما يجب ان نتلمسها تلمسا .

ثالثا ـ صفات الظاهر :

كان الظاهر شجاعا ، شديد الشجاعة ، وتدل على ذلك مواقفه الكثيرة في مختلف المعارك التي خاضها . فقد كان "كالاسد بين الاشبال الخادرة" (٢) .

ثم انه كان ذا انفة وإباء محبا للمخلصين له من الامراء . لكنه كان الى ذلك سريع الغضب ، عسوفا عجولا (٣) . وكان سخيا جدا . فما كادت تمر سنة الا ويتصدق فيها بالمبالغ الطائلة وبالاقمشة الكثيرة وبالخلع الوافرة . ولنذكر هنا معاملته لامرائه المخلصين والتخلي لابنائهم عن نصيب الادارة من ثروات المتوفين منهم (٤) .

وكانت للسلطان الظاهر هيبة وحرمة في نفوس امرائه وفي نفوس خصومه ايضا . فقد كان يهودي دفن مصاغا في قلعة جعبر عندما قصدها التتر ولما تراجعوا اخذ اليهودي اذنا من السلطان للعودة الى جعبر لنبش امواله فسمح له ولما رآه بعض الاعراب وعرفوا انه مأذون من الظاهر ساعدوه على استعادة امواله وحموه حتى وصل حماه (٥) .

---

١) المقريزي ، السلوك ، ص٦٣٧ وابن اياس ، ج ١ ص١١٠ . (٢) ابن عبد الظاهر ص؟ .
٣) المقريزي ، السلوك ، ص٦٣٧ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج٧ ، ص ١٨٠ . (٤) المقريزي ، السلوك ، ص٥٩٥ ، ٥٩٨ . (٥) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

وقيل ان كتبغا التترى اشار الى شجاعته في حديث له مع بعض امرائه وخواصه (١) •

ومر تجار اعجام بسيس في طريقهم الى مصر فاستولى صاحبها على بضائعهم فتهدده الظاهر فافرج عنهم • وكان يعطي التجار تواقيع منه ليمروا في بلاد فارس وكرمان والقبشاق وكانت هذه التواقيع تحترم (٢) •

وفي ذي الحجة سنة ٦٦١ هـ ، ضرب احد امرائه دلالا حتى مات فغضب السلطان ولجأ الامير الى سيف الدين قلاوون لانقاذه • فعمد هذا الى دفع مبلغ من المال لورثة القتيل ليقولوا ان اباهم مات قضاء وقدرا • فعرف الظاهر بالحيلة وغضب لكنه كان مضطرا للسكوت امام المخرج الشرعي (٣) •

وينبغي الا ننسى هنا انه كان فيه استعداد الطبع • فقسمت الى تربي منازل الملك نفسه (٤) •

والى جانب هذه الصفات ينسب اليه المؤرخون صفة الغدر وقد اشرنا الى ما فعله بالمغيث وبحامية صفد ولكنني لست ارى في هذا غدرا بالمعنى الاخلاقي • لقد قلت ان الظاهر كان يبني دولة ، وكان مصمما على ازالة جميع العقبات امامه • فهل يصح مع هذا ان نصمه بالغدر؟ ماذا كان المغيث يفعل به لو نجح في مقاومته ؟ لقد كانت المصلحة التي يعمل من اجلها هي التي تحتم عليه تصرفاته واذا نظرنا اليوم الى مايجرى في بعض انحاء العالم باسم العدالة لما جاز لنا ان نعتبره غادرا •

واخيرا ينبغي ان لاننسى ان ملامح الشر كانت تلوح عليه منذ الصغر • ولذلك اشارت ام صاحب حماه على ابنها ان لاتشتريه ولعلها الملامح التي طبعتها على وجهه قساوة التشرد والنخاسة •

---

١) ابن عبد الظاهر ص١٥ — ٢ — ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٨٤ •
٢) المقريزى ، السلوك ، ص٤٥٠ — ٤ — ابن عبد الظاهر ص٢ •

رابعا - منشآته :

عني المماليك بوجه عام بالانشاء والتعمير (١) • ويهمنا هنا ماكان منها في عهد الظاهر بيبرس • وقبل ان اذكر هذه المنشآت ينبغي ان اسجل الملاحظات التالية :

اولا : كان القسم الاكبر من هذه المنشآت ذا صبغة عمرانية ودينية وقد كان اكثرها في مصر •

ثانيا : كان القسم الاكبر من المنشآت في بلاد الشام ذا صبغة عسكرية •

للظاهر بيبرس من الآثار الحسنة الكثيرة مالم يبن مثله في زمن الخلفاء وملوك بني ايوب مع انه كان منهمكا في الحروب الكثيرة (٢) • وقد تعددت انواع المنشآت فكانت مدارس وجوامع واسبلة واربطه (٣) وبالطبع ينبغي ان لاننسى بناء القلاع •

فما ان تسلم الظاهر السلطة حتى عهد للامير جمال الدين بن يغمور بترميم ماتهدم من قلعة جزيرة الروضة • فقام الامير بذلك ورمّ ماكان تخرب من قاعاتها ثم فرّق ابراجها على الامراء قلاوون وعز الدين الحلبي وعز الدين اوغان وبدر الدين بيسري واوجب على كل منهم ان يبني فيها اصطبلاته ومنازله (٤) •

وفي سنة ٦٦٥هـ ، شيد برجا في قلعة الجبل • وعمر فيها دار الذهب • وبنى في رحبة الحبارج قبة عظيمة لها ١٢ عمودا من رخام ملون • واسكن في هذه القبه رجال حاشيته وامراءه • ثم عمّر فيها طبقتين على رحبة جامعها • وانشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة • واخرج منه رواشن وبنى عليه قبة مزخرفة السقف ، وشيد بجواره طباقا لسكن المماليك •

---

١) لخصها ابن شاكر الكتبي ، جا ، ص١٦٨ - ١٦٩ • (٢) ابن كثير ، ج١٣ ، ص٢٧٦ • ابن تغرى بردى النجوم ، ج٧ ص١٨١ • ٣ - ابن عبد الظاهر ، ص٢٩ • المقريزى ، السلوك ، ص٤٤٦ • ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٩٢ • (٤) ابن عبد الظاهر ص٢٩ • المقريزى ، السلوك ، ص٤٤٦ •

وفي رحبتها بني دارا كبيره لولده السعيد فيها ١٦ عقدا ٠
وبنى بظاهر القاهرة دورا واصطبلات للامراء ليبعد المماليك عن القاهره وعن سكانها ٠
وبنى لابنه حماما في سوق الخيل وميدانا في البورجي غرس فيه النخيل وبلغت نفقاتها ١٦ الف دينـار ٠

والى جانب ذلك بنى مناظر وقاعات وبيوتات كثيرة (١) واكمل بناء دار عند باب السر الذى يفتح على سوق الخيل وجعلها دارا للدعوات التي يقيمها للامراء (٢) ٠
وفي اواخر سنة ٦٦١هـ امر ببناء دار العدل تحت قلعة الجبل (٣) ٠
وفي سنة ٦٦٦هـ بنى قرية الظاهرية عند العباسـية (٤) ٠

كانت له في بلاد الشام ومصر ٤٦ قلعة (٥) وكان طبيعيا ان يباشر بالانشاءات ذات الصبغة العسكرية ، بحكم الظروف التي كان فيها ٠ وقد بدا ذلك في بلاد الشام ٠
امر ببناء مشهد في عين جالوت عرف بمشهد النصر تخليدا لذكرى صد الزحف المغولي (٦) ٠
رسم بترميم ما خربه التتر من قلاع الشام كقلعة دمشق التي كان التتر هدموا شرازيفها ورؤوس ابراجها فجددها ودهن سقوفها وبنى فيها منظرة وقلعة الصلت وقلعة عجلون وقلعة صرخد وقلعة بصرى وقلعة بعلبك وقلعة شيزر وقلعة الصبيبه وقلعة شميميش بجوار حمص، وقلعة حمص، فتم اصلاحها جميعا "ونظفت خنادقها ووسعت ابراجها وشحنت بالعدد وجرّد اليها المماليك والاجناد وخزنت بها الغلات والازواد"، ثم جدد اسوار حصن الاكراد وعمّر قلعتها (٧) ٠ وفي جمادى الاخرة من سنة ٦٦١هـ ، ثم بناء برج في قارا ٠ وامر ببناء برج آخر اكبر منه لحفظ الامن والدفاع ضد الفرنجة المجاورين (٨) ٠

---

١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧ ص١٩١ (٢) المقريزى، السلوك، ص٥٤٤ (٣) ابن عبد الظاهر، ص٩٠ (٤) المقريزى، السلوك، ص٥٦٤ ٠ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٥ ٠ ابن اياس ج١، ص١١٢ ٠ (٥) ابن ابي الفضائل ص٤٦٦ ٠ (٦) ابن عبد الظاهر ص٢٩ المقريزى، السلوك ٤٤٦ و ٤٦٥ ٠ (٧) ابن عبد الظاهر ص١٣ ٠ المقريزى، السلوك ص٤٤٦ ٠ ابن تغرى بردى النجوم، ج٧، ص١٩٦ ٠ ابن اياس ج١، ص١١١ ٠ (٨) ابن عبد الظاهر ص١٠٠ ، المقريزى السلوك ص٥١ ٠ وقد جعل تاريخ قلعة قارا سنة ٦٦٢ هـ ٠

وامر ايضا ببناء اسوار الاسكندرية وخصص لذلك نفقات شهرية وبنى مرقبا لكشف البحر في ثغر رشيد وامر بردم بحر دمياط كي يضيق ويتعذر دخوله على السفن • وفي سنة ٦٦٢ هـ ارسل من ينظف خليج الاسكندرية •وفي رمضان من السنة التالية وجه اميرا الى بحر اشموم ثم تبعه في ٢ شوال لتنظيفه مما تجمع فيه من الوحول وغرّق فيه عددا من السفن • وفي صفر سنة ٦٦٤ هـ ذهب الى الاسكندرية للمشاركة في حفره ثم غرّق فيه المراكب ليستحيل على سفن العدو الدخول اليه (١) •

امر بتجديد عمارة ثغر دمياط وبنى وجدد فيه سلسلة الحديد من البر الى البر ، وردم الناحية التي تدخل منها مراكب الفرنجة (٢) •

وفي جزيرة مصر قلعة العمودين •وفي السويس بنى قلعة ايضا (٣) •

وهدم قلعتي قيسارية وارسوف وبنى قلعة في قاقون بدلا منهما (٤)• وفي الكرك هدم برجين صغيرين ثم جدد بناءهما (٥) •

وجدد باشورة في قلعة صفد وعمر فيها ابراجا وبدنات ثم انشأ في القلعة صهريجا كبيرا مدرجا وبنى عليه برجا بلغ مئة ذراع (٦) •

وجدد ايضا بناء قلعة الصبيبة وكان التتر قد هدموها (٧) •

---

١) ابن عبد الظاهر ص٢٩ — ٣٠ • المقريزي السلوك ص٤٤٦ ، ٥١٠ ، ٥٣٧ ، ٥٤٤ •
القلقشندي ج ٣ ص ٤٠٤ •اليونيني مج٢ ص ٣٢٢ •(٢) ابن اياس ج١ ص٨٧ •
٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ص ١٩٢ •(٤) ابن الفرات مج٦ قسم ٢ ورقة ٤ ،
المقريزي ،السلوك ص٥٥٧ •
٥) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٩٥ • (٦) المصدر السابق ، ص ١٩٥ •
٧) المصدر السابق ص ١٩٥ •

وفي منتصف سنة ٦٦٤هـ/ شباط ١٢٦٦ م ، كلف السلطان جمال الدين محمد بن نهار ومحمد بن رحال والى نابلس والاغوار ببناء جسر سلطاني (١) على نهر الشريعة ، في الغور • وتم بناءه في رمضان سنة ٦٧١هـ • لكن اركانه تزعزعت • فاعيد اصلاحه بعد جهد جهيد اذ ان الماء كانت تحول دون ترميمه حتى صدف ان توقفت عن الجرى في ٨ كانون الاول سنة ١٢٦٧ زمنا كافيا بسبب هبوط قطعة كبيرة من الارض المجاورة فيه فتم اصلاحه ثم عادت الماء للجرى كالعادة (٢) •

وانشاء جسورا اخرى في الغور والساحل (٣) •

وبنى جسرا في كل من القليوبية ودمياط (٤) •

وبنى جسرا بين قلعة الصبيبة والمدينة (٥) •

لم يحصر الظاهر نشاطه العمراني في مصر في ميدان معين • وقد تناول شتى الميادين العلمية والدينية والزراعية •

---

١) الجسور نوعان ـ سلطانية وبلدية • الاولى عامة جامعة للبلاد ينفق عليها من الديوان السلطاني تحت اشراف كاشف الجسور • والبلدية منها يتولاها المقطعون من اموال اقطاعاتهم (زيادة حاشية ٣، السلوك ص٦٣٨ • القلقشندى ج ٣ ص٤٤٨ • المقريزى الخطط ج ٣ ص١٦٥) • (٢) اليونيني ج٢ ، ص ٣٤٦ • المقريزى، السلوك، ص٥٤٤ • ابن تغرى بردى النجوم، ج ٧، ص١٤٠ ـ ١٤١ ، لكن تاريخه محرم سنة ٦٦٥هـ : M.Clement Ganneau, JA., 8eme Serie, Tome X, Nov. Dec. 1887 pp509. صدر الامر ببناء الجسر عام ٦٦٤هـ وتم بناءه سنة ٦٧١ هـ • ولا يزال باقيا لليوم وعليه اسم المهندس والسلطان في اربعة اسطر : بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد وصحبه اجمعين • امر بعمارة هذا الجسر المبارك مولانا السلطان الاعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بن عبد الله في ايام ولده مولانا السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان اعز الله انصارهم وغفر لهما وذلك بولاية العبد الفقير الى رحمة الله علاء الدين على السواق غفر الله له ولوالديه في شهر رمضان سنة احدى وسبعين وسبعماية : ملحوظة ٦ ص١٤٠ ـ ١٤١ من النجوم ج ٧ ، ابن تغرى بردى • (٣) ابن تغرى بردى النجوم، ج٧ ، ص١٩٥ (٤) المقريزى، السلوك، ص٦٣٨ و ٦٣٩ • ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، ج ٧ ، ص١٩٢ •

٥) ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٧ ، ص١٩٥ •

ولعل اروع مابناه في مصر هو المدرسة المعروفة باسمه بين القصرين · فقد بدئ ببنائها في ربيع الآخر سنة ٦٦٠ هـ وانتهت عمارتها في سنة ٦٦٢ هـ · وكان لهذه المدرسة اربعة ايوانات وفيها خزانة كتب تحتوى على امهات الكتب في مختلف العلوم · ثم بني بجوارها مكتبا يتعلم فيه الايتام القرآن · وبنى فيها سقاية ماء ·

وتقع هذه المدرسة بجوار قبة الملك الصالح نجم الدين · وكان لهذه المدرسة باب جميل من النحاس ، حسن الصنع متقن الزخرفة منقوش عليه اسم الملك الظاهر وسنة ٦٦١ هـ ·

ثم رتب فيها مدرسين للمذاهب الشافعية والحنفية والمالكية دون الحنبلية · ورتب شيخا لتدريس الحديث، ومقرئين لاقراء القرآن وخصص لهم جميعا طعاما وكسوة ·

وابتدأ التدريس فيها في ١٣ صفر سنة ٦٦٢ هـ وقد حضر حفلة الافتتاح السلطان والوزير ابن حنا واستاذ الدار ابن يغمور وعدد من الامراء والاعيان · والقى الشعراء قصائدهم احتفاء بهذه المناسبة (١) ·

في رجب ٦٦٢ هـ بلغه ان على المشهد الحسيني جامعا بقربه موضع للقصر · وكان مكان الجامع قد بيع وارسل المبلغ للديوان فامر الظاهر برد المبلغ وبناء المسجد (٢) ·

---

١) احتلت المدرسة قاعتي الخيام واللوتس في قصر الفاطميين الذى استولى عليه الظاهر باسم بيت المال · والقصران احدهما قصر بناه كافور الاخشيدى وثانيهما بناه جوهر الصقلي · ابن عبد الظاهر ص٢٩ ، اليونيني جـ ١ ص ٥٥١ ـ ٥٥٢ و جـ ٢ ص ٢٣٠ ، ابن ابي الفضائل ص ٤٦٦ ، ابن الفرات جـ ٦ قسم ١ ، ص ٣٧ ق ـ ٣٨ و ، المقريزى، السلوك ص ٥٠٣ و ٥٥٦ ، الخطط، جـ ٢ ص ٤٠٠ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ١٢٠ ، ١٢١ · Margoliouth, DS., Cairo, Jerusalem, and Damascus, three chief cities of the Egyptian Sultans, Dodd, Mead & Coy, N.Y. 1907 ص ٢٢ ـ ٢٣ ، F. Sadeque ص ١١٤ ملحوظة ٢ ، وينبغي ان نلاحظ ان التواريخ بشأن بناء المدرسة وافتتاحها ليست كلها واحدة ·

٢) المقريزى، السلوك، ص ٥١١ ـ ٥١٢ ·

وفي جمادى الآخرة من سنة ٦٦٤ هـ بدى ببناء جامع الظاهر في ميدان قراقوش بالحسينية بجوار مدرسته وانفق عليه مايزيد على مليون درهم ٠ وسبب بنائه كثرة الزوار لزاوية الشيخ خضر هناك٠

شرع في بنائه في ربيع الاول سنة ٦٦٥ هـ ودشنه بحضور الوزير في ٨ ربيع الاخر ٠ وجلبت له الاخشاب وحجارة الرخام وغيرها من ادوات البناء من سائر انحاء السلطنه ٠ وزينه بنقوش حتى صار احسن مثل للمساجد الفخمة التي بنيت في عهد المماليك البحرية ٠

ثم رتب له اماما حنفيا (١) ٠

وفي هذه السنة اجرى ترميمات هامة في الجامع الازهر (٢) ٠

وانشأ في مصر عدة جوامع اخرى (٣) وفي سنة ربيع الآخر سنة ٦٦٩ هـ تم بناء جامع المنشية واول ماأقيمت فيه خطبه الجمعة كان يوم ٢٨ ربيع الآخر (٤) ٠

شـيد قناطر السباع على الخليج (٥) ٠

وفي سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م بوشر ببناء قنطرة على بحر ابي المنجا ٠ وفي محرم سنة ٦٧٧ هـ اعيد فتح البحر (٦) وفي السنة التالية تمت القناطر فكانت عجيبة في بنائها متقنة (٧) وبنى قناطر كثيرة منها قنطرة منية السرج والقصير على بحر ابراش ذات سبعة ابواب وفي الجسر الموصل الى دمياط ذات ١٦ قنطرة وعلى خليج الاسكندرية (٨)٠ وامر بتكمله عمارة بئر الليون

---

(١) ابن الفرات، ج٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١ و ٢ ٠ المقريزى، السلوك ص٥٥٦ و ٥٨٨ ٠ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج٧ ، ص١٩٢ ٠ اليونيني ج٢ ص٣٦١ ٠ ابن ابي الفضائل ص١٦١ ٠ حسن ص٤٢ ٠ ويسمى ايضا جامع العافيه وهو الان خرب ويسمى مكانه ميدان الظاهر ٠ (٢) ابن الفرات ج٦ ، قسم ٢ ورقة ٤ ٠ (٣) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٩٢ ٠ (٤) اليونيني ، ج٢ ، ص٤٤٣ ٠ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج٧ ، ص١٥٠ ٠ (٥) المقريزى السلوك، ج٢ ص١٤٦ (٦) ابن الفرات، ج٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٨ ، المقريزى السلوك ص ٥٦ و ٥٧٣ و ٦٣٩ ٠ وكان قد انشئ في عهد الآمر بالله الفاطمي تحت اشراف ابي المنجا شعيا اليهودى فعرف باسمه (المقريزى الخطط ج٢ ص٣٨١ ـ ٣٨٢، وابن تغرى بردى النجوم ج٧ ص١٩٣) (٧) اليونيني ج٢ ص٤٣٢ و٤٣٣ ٠ المقريزى السلوك ص٦٣٩ ٠ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج٧ ص١٤٨ و ١٤٩ ٠ والنهاية من العمل في القناطر كانت ٦٦٩ هـ عند اليونيني وابن تغرى بردى (٨) المقريزى، السلوك ص٦٣٨ وابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج٧ ص١٩٣ ٠

بجوار الاسكندرية في شعبان سنة ٦٦٢ هـ (١) ٠

وحفر خلجانا كثيرة منها خليج الاسكندرية ٠ وبحر اشميم، وترعة الصلاح وخورسخا، والحامدى، والكافورى، وبحر الصمصام وسردوس وبحفر ترعة ابي الفضل (٢) ٠

وبالقياس عمر قبة رفيعة مزخرفة (٣) ٠

وفي سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦١م امر بعمارة القناطر بجسر شبرامنت من الجيزة احياء للاراضي التي لم تكن تصلها الماء (٤) ٠

وفي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، امر ببناء قرية الظاهرية عند العباسة (٥) ٠

وتناول نشاطه العمراني ببلاد الشام نواحي مختلفة منها الناحية العسكرية والدينية والتعليمية والاجتماعية فقد نالت دمشق حظا كبيرا من عنايته ٠ فقد بنى فيها مدرسة عرفت باسمه ايضا (٦) ٠ وهي من ابدع ابنية الشرق بحجارتها الملونة ونقوشها بالفسيفساء المذهبة والملونة البديعه الممثلة نباتات مشتبكة واشجارا وابنية واشكالا هندسية (٧) ٠ وفي رمضان سنة ٦٦٣هـ شرع بتبليط قسم من الجامع الاموى وجدد بعضه ، وامر بترخيم حائطه الشمالي وجدد مشهد زين العابدين، وبنى فيه بركة ماء ٠ وفي اوائل سنة ٦٦٤هـ جدد بناء حوض في شرقي القناة بباب البريد (٨) ٠

وفي سنة ٦٦٥هـ انشأ القصر الابلق في الميدان الاخضر على نهر بردى، وكان بناؤه بالرخام الابيض والاسود ٠ وكانت البساتين تحيط به من كل جانب (٩)

وبنى فيها حماما خارج باب النصر وجدد بناء ثلاثة اصطبلات ٠ ورمّ شعث مغارة الدم (١٠)

---

١) ابن عبد الظاهر ص٣٠٩٢ (٢) ابن عبد الظاهر ص٢٨ ، المقريزى، السلوك، ص٦٣٩ ٠ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج٧ ص١٩٣ ٠ وبحر الصمصام هو بحر الصماصم في السلوك، ص٦٣٩ ٠ (٣) ابن تغرى بردى النجوم ج ٧ ص١٩٢ (٤) ابن عبد الظاهر ص٢٩ المقريزى السلوك ص٤٤٦ (٥) ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٣ (٦) ابن كثير ج١٣ ص٢٧٦ وابن تغرى بردى النجوم ج ٧ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ٠ ابن اياس ج ١ ص١١١ (٧) مقال "صدى اعمال المجمع العلمي العربي" مجلة المجمع ج ٢ ص٢٢٠ ٠ (٨) ابو شامه ج٢٣٧ ومصادر الملحوظة السابقة (٩) ابن الفرات، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٨ المقريزى السلوك ص٥٦١ (١٠) انظر ملحوظة ٦ ٠

وفي سنة ٦٦١هـ اوعز الظاهر ببناء خان فيها وجيء له بباب من القاهرة كان على دهليز قصر من قصور الفاطميين · واوقف عليه غلات بساتين في امكنه مختلفة من بلاد الشام لتصرف على اطعام ابناء السبيل واصلاح نعال المسافرين · وبنى له طاحونا وفرنا (١) وفي سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م ، امر باصلاح قناة المياه (٢) ·

في صفر سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م ، امر ببناء مسجد الخليل (٣) ·

وفي سنة ٦٧١ هـ/ ١٢٧٢ م ،تم بناء صخرة بيت المقدس (٤) · ثم جدد جامع الرملة وقبر جعفر الطيار وقبر نوح في الكرك (٥) ·

وفي قاقون بنى جامعا وحوضا لابناء السبيل (٦) وغيّر كنيسة صفد الى جامع وانشأ فيها رباطا (٧) وانشاء في الصبيبة دارا لنائبه فيها ومنارة لجامعها (٨) ·

اما قارا فجعل كنيستها جامعـا ·

وفي ربيع الآخر سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧٠ كان الظاهر في حلب فبني دارا شمالي قلعتها ثم اضاف دارا اخرى اليها (٩) ·

وفي المدينة المنورة اتم عمارة مسجد الرسول · ثم جعل للضريح درا بزينا ولوّن سـقوفه بالذهب وبيض جدرانه وبنى فيها مستشفى جهزّه بالادوية والاطبـاء (١٠) ·

---

١) اليونيني ج ١ ص٥٥٤ وج٢ ص٢٣١ ـ ٢٣٢ · المقريزى السلوك ص٤٩١ ، ٥٢١ · ابن تغرى بردى النجوم ج ٧ ص١٢١ و ١٩٤ · جعل اليونيني التاريخ سنة ٦٦٢ هـ (٢) ابن الفرات، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٨ · (٣) المقريزى السلوك ص٥٦٣ ، ٥٦٥ · ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص١٩٤ · (٤) ابن عبد الظاهر ص٢٨ · المقريزى السلوك ص٦٠٨ · ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ج ٧ ١٩٤ (٥) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص١٩٤ ـ ١٩٥ ـ ١٩٦ · ابن كثير ج ١٣ ص٢٧٦ · (٦) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص١٩٥ (٧) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص١٩٥ · (٨) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ج ٧ ص١٩٥ · (٩) اليونيني ج ٢ ، ص٤٦٨ · ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ج ٧ ص١٥٦ · (١٠) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص١٩٤ ·

وهكذا يبدو لنا ان السلطان الظاهر لم يكن يكتفي بسماع قعقعة السلاح وحسب ، وانما كان يعنى الى درجة كبيرة بالناحية العمرانية ، كانه كان يحب ان يسمع رنة الادوات البنائية ايضا . " بنى ...... ما لم يبن في ايام الخلفاء المصريين ولا ملوك بني ايوب من الابنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات ... " حتى انتشرت عمائره " من قريب مسجد التبن الى اسوار القاهرة الى الخليج وارض الطبالة واتصلت العمائر الى باب المقسم الى اللوق الى البورجي ، ومن الشارع الى الكبش وحدرة بني قميحة الى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة الى السور الجراوني " (١) وكذلك عني بالبناء في بلاد الشام . ولكننا نلاحظ انه لم يعن بالناحية الزراعية في بلاد الشام .

---

١) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧ . مناظر الكبش قصور انشأها الملك الصالح نجم الدين ايوب على جبل يشكر بجوار الجامع الطولوني مشرفة على برك وبساتين وعلى النيل . بقيت منازل ملكية حتى هدمت سنة ٧٦٨ هـ . (النجوم جـ ٧ ص ١١٩ ملحوظة ٢) .

الفصل الثامـن •

حـول المجتمـع المملوكـي في عهـد الظاهـر •

ليس المقصود هنا ان اتناول المجتمع المملوكي في عهد السلطان الظاهر • ومثل هذا البحث لايصح في فترة لم تتجاوز سبعة عشر عاما لم تكن كافية ليتبلور فيها المجتمع المملوكي • ولكنني رأيت ان اضع هنا بعض ماعثرت عليه وبعض مااستنتجته ، حول هذه الناحية ، اثناء مطالعاتي (١) •

كان المجتمع المملوكي يتكون من عناصر مختلفة اكثرها عددا هم السكان الاصليون • وهنالك الاكراد والتركمان • لكن المماليك كانوا فوق هؤلاء جميعا ولو ان عددهم كان يقل عن عدد السكان الاصليين بكثير • واحسب ان عددهم (٢) لم يكن ليزيد عن بضعة وعشرين الفا • وعن هؤلاء ساقصر حديثي الآن •

وقد تميز المجتمع المملوكي هذا بصفات هامة هـي :

اولا ــ كان المماليك طائفة منفصلة عمن حواليهم من السكان وظلوا كذلك ولم يختلطوا بالسكان الاصليين ، ولا سمحوا لهؤلاء بالاختلاط بهم ولم يتزوجوا من بنات السكان الاصليين الا نادرا ، بل كانوا يتزوجون الرقيقـات •

---

١) وقد تناول D.Ayalon المجتمع المملوكي من ناحية العلاقات بين الاستاذ ومماليكه في دراسة صغيرة بعنوان L'Esclavage du Mamelouk وهو يرى ان معلوماتنا عن حياة المملوك ونشاطه اثناء استرقاقه ليست كافية • لكنها اوفر حين تتناول اثر الاسترقاق في علاقات المماليك بالاستاذ • وقد كانت الفرقة تبقى بعد وفاة السلطان ، الى ان يموت جميع اعضائها وقل ان تذوب في فرقة اخرى لسلطان آخر • (٢) لاتشير المصادر بصورة واضحة الى عدد المماليك • وانما هنالك تلميحات حملتني الى مثل هذا التقدير • فقد ذكر المقريزى (السلوك ، ص٥١٤) ان عدد مماليك الظاهر كان كبيرا جدا حتى انه كان يعتق ثلاثين نسمة كل ليلة من ليالي رمضان • وجاء في النجوم الزاهرة ، (ج٧ ، ص١٧٩) انه "كان للملك الظاهر اربعة آلاف مملوك مشتريات امراء وخاصكيه واصحاب وظائف " • ولنذكر هنا ان عدد امراء المئة ، مقدمي الالف ، كان ٢٤ اميرا اى ان عدد الجنود كان ٢٤ الفا على ابعد تقدير • راجع المقريزى ، الخطط ، ج٣ ، ص١٤٢ وما بعدها •

ثانيا ـ تميز المماليك الجدد عن ابناء المماليك القدماء ـ اولاد الناس ـ

ثالثا ـ لم يسمحوا للسكان الاصليين بالانخراط بالجندية ، بل سمحوا للطليين منهم بالاشتغال بالاعمال الادارية ، ووجهوهم للعمل في الشؤون الزراعية والصناعية والتجارية .

كان التجنيد محصورا بالارقاء الجدد .

رابعا ـ انقسم المماليك فيما بينهم ، على رغم اتحادهم ازاء السكان الاصليين . وقد كانوا كتلا متناوئة تحارب الواحدة منهم الاخرى . كان انتسابهم الى استاذهم بالدرجة الاولى ولم اجد انهم انقسموا على اساس اصولهم . لكن مثل هذا الانقسام ، على هذا الاساس الاخير كان لابد له من الظهور في دور المماليك الجراكسة .

خامسا ـ كانت رابطة المملوك باستاذه وثيقة في حالتي الضراء والسراء . والواحد منهما خشداشي الاخر ويستولي على موجوداته عند وفاته(١) . وقد يصل المملوك الى اعلى مرتبة لكن اسمه يظل مربوطا باسم استاذه . ولا تنقطع هذه الصلة بوفاة الاستاذ .

سادسا ـ الترقي من مرتبة الى اخرى مفتوح للجميع ، لكنه مبني على المقدرة الجسدية والعسكرية ، وعلى الحنكة في التآمر والغدر . وكان مماليك السلطان اصحاب الاسبقية في الترقي منهم نواة الجيش متى اعتدوا ادخلوا في حرمه . ولا اعتبار للاصل ولا للموطن ولا للنشأة .

سابعا ـ كثر الفقراء وذوو العاهات في هذا المجتمع فكان لابد للظاهر من العناية بهم وجمعهم في امكنة خاصة ، لاسيما في اوقات المجاعات . ولعل هذا هو ما جعل الظاهر يكثر من انشاء الخانات والاوقاف (٢) .

---

١) ابطل الظاهر هذه العادة سنة ٦٦٢ هـ . انظر ص ١٤٣ اعلاه .
٢) المقريزى ، السلوك ، ص ٥٥٣ .

ثامنا — لم يكن للمرأة احترام في هذا المجتمع · وقد شدد المماليك وضيقوا عليهن ·

تاسعا — كان المماليك ازدواجيين في حياتهم · فهم في حياتهم الخاصة "لا يتورعون عن اتيان اشنع المنكرات والتعسف في اذى الخلق واهراق الدماء بلا اكتراث بابسط المبادئ الانسانية "لكنهم على عكس ذلك في الحياة العامة يتمسكون " بقواعد الدين الحنيف من حيث الصلاة والزكاة وتشييد العمائر الدينيــة (١) ·

كان عصرهم عصر انحلال خلقي · ومع ان بذور هذا الانحلال كانت موجودة من قبلهم فانها نمت في عهدهم · "واخبار الاسراف في صنع الخمور وشربها وانتشار الزنا وتعاطي المخدرات والشذوذ الجنسي "كثيرة تدلنا على ذلك حلقاتهم الغنائية المتعددة · وقصة الوليمة التي اقامها لاجين بن عبد الله الامير حسام الدين الجوكندار العزيزى مشهورة (٢) ·

وقد عمد الظاهر الى كبح هذه العيوب ومحاربتها · ولذلك اصدر عدة مراسيم (٣) ·

---

١) على ابراهيم حسن، ص٢٥ · (٢) اليونيني، ج٢، ص٣٠٠ — ٣٠٣ · توفي الامير سنة ٦٦٢هـ ·
٣) حرم السلطان الظاهر الحشيشة والخمور لاسباب دينية وعسكرية وراقب تنفيذ هذا التحريم · ففي سنتي ٦٦٢ هـ و ٦٦٣ هـ حرم المذر واغلق بيوته ومنع النساء من التزيي بازياء الرجال · وفي ذى القعدة من السنة التالية الغى ضمان الحشيشة وادب اكليها (المقريزى السلوك ٥٥٠، ٥٥٣) واعاد اعلان هذا المرسوم سنة ٦٦٥ هـ · ومنعت النساء من العمل في الحانات حتى انه امر بصلب ابن الكازروني في حالة سكره وعلق الكاس والجره في عنقه (ابن شاكر الكتبي، ج١، ص١٧٠ — ١٧١، المقريزى، السلوك ص٥٥٣، ابن اياس، ج١، ص١٠٤) وخاف الناس وامتنعوا عن الشراب حتى قال الشاعر

مات ياقوم شيخنا ابليس وخلا منه ربعه المأنوس ·

وفي سنة ٦٦٧ هـ امر بازالة الخمور والغاء بيوت النساء والخواطي (المقريزى، السلوك ٥٧٨) وفي سنة ٦٦٨ هـ قام بحملة تفتيشية على حانات الشراب والمواخير · وفي سنة ٦٦٩هـ اعاد اعلان تعليماته مرة اخرى وفي سنة ٦٧٠ هـ امر "باراقة الخمور وازالة المنكرات "وفي سنة ٦٧١ هـ رفض ان يمنح المغنيين خلعا وهدايا · وفي سنة ٦٧٤ هـ شنق مملوكا شرب الخمر (ابن عبد الظاهر ص٩٠، اليونيني، ج٢ ص٤٥٤، الذهبي، ج٢ ص١٢٩ — ١٣٠، ابن شاكر الكتبي ج١ ص١٧٠ — ١٧١ ابن الفرات، ج٦ قسم ٢، ورقة ٤٣، ٨٣، ٨٦، المقريزى السلوك ص٥٠٣، ٥٢٥، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٩٥، ٥٩٧، ٦١٢، الخطط ج١ ص١٨٨ ج٢، ص١٠٤، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٥٤، ابن اياس، ج١، ص١٠٤ — ١٠٧) ·

للحد منها ، لكن كثرة اصدار المراسيم تدل على انه لم يوفق الى حد بعيد للقضاء عليها .
وقد انتشرت من بعده .

عاشرا - كان هذا المجتمع هرميا في شكله قاعدته السكان الاصليون فالمماليك الامراء وراسه السلطان . ولكن طبقات هذا المجتمع كانت متمايزة الى حد بعيد ، لاصلة بين الاعلى والادنى الا صلة السيد بالمسود . فهو جدار قائم مدماكا فوق مدماك ولكن الحجارة في هذا المدماك ليست مشدودة بعضها الى بعض .

الحالة الاقتصادية العامـــة .

وهنا ايضا ليس صوابا ان نتحدث عن الحالة الاقتصادية العامة في فتـــرة وجيزة كفترتنا هذه . ولكنه لابد من تسجيل بعض ملاحظات سريعة من خلال ماعثرت عليـه في المصادر . وقد يكون هذا نواة لدراسة مقبلة اكثر شمولا ، تتناول عهد المماليك كله .

كانت مصادر الثروة في عهد الظاهر اربعة انواع هي :

اولا - غلات الارض المقطعة للامراء والخواص والاجناد . وقد كان قسم منهـــا يعود الى الاهراء السلطانية بالاضافة الى الغلة التي تعود اليها من اراضيه السلطانية .

ثانيا - الضرائب التي تؤخذ من التجار كالعشر على التجار القادمين الى مصـر وعلى المرور في ثغورها ورسو السفن فيها . وقد كانت مصر طريقا للقوافل التجارية بيـــن الهند واوروبـــا .

ثالثا ـ الضرائب العادية كالخراج والزكاة والجزية والجوالي والضريبة على المعادن وعلى تركات المواريث •ومحصول دار الضرب (١) •

رابعا ـ المصادرات والاستخراجات • وقد كثرت هذه في عهد الظاهر • وهنالك امثلة منها ضرب ابن الفقاعي في ١٠ شعبان سنة ٦٦٦ هـ حتى الموت بعد اخذ موافقته الخطية على تسليم امواله للسلطان(٢) • ومنها مصادرة اموال شيخ حنبلي في ٢ شعبان سنة ٦٧٢هـ (٣) ومصادرة اموال الواشي على هذا الشيخ • والدافع للمصادرة هي التهمة بالقدح في الدولة

خامسا ـ الضرائب التي كانت تفرض على الناس عامة في الظروف الاستثنائية • وقد كان يصادر الدواوين ويجبي الاموال مضاعفة من الرعية ، لاسيما جوالي النصارى • وكان يصادر ارباب الاموال (٤) •

وبلغت مداخيل السلطان الظاهر ارقاما كبيرة ولا ريب ، يدل على ذلك ما انفقه على الحملات العسكرية الكثيرة • وكذلك كثرت الثروات الخاصة وبلغت ارقاما خيالية(٥) •

وكان دخل المملوك ، ايا كانت رتبته ، من غلة اقطاعه بالدرجة الاولى • اضف الى هذا ما كان يعطى له قبل الحملة او بعدها ، وعند انتقال السلطنة ، وهو ما يسمى بنفقة البيعة ، او ما يوزع عليه في مناسبات خاصة من لحوم وكسوة وعليق وخيل وجمال •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٢٤ القلقشندى ، ج ٣ ، ص ٤٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهره ، ج ٧ ، ص١٩٨ • (٢) اليونيني ج ٢ ، ص ٣٧٤ • (٣) اليونيني ج ٢ ، ص ٤٧٠ •

٤) ابن عبد الظاهر ، ص٢٤ ، القلقشندى ، ج٣ ، ص٤٥٢ ، المقريزى السلوك ، ص٦٤٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص١٩٨ •

٥) ابن شاكر الكتبي ، ج١ ، ص٣٧ •

وكانت النفقات ،تبعا لذلك ،كبيرة ايضا • فهناك النفقات في البيوت السلطانية وقد بلغت نحو نصف مليون دينار في احدى السنوات • والنفقات على الجيش ، وما يعطى للمماليك من جامكيات ، وقد كانت تبلغ نحو ٢٨٠ الف دينار في السنة ، ونفقات دور الملوك واولادهم ، ثم الرواتب للفقراء والمستخدمين في القصور ، والطعام والعلف والكسوات والهديات حتى بلغ ماينفقه السلطان في سنة نحو مليون وستماية الف دينار وحواله ٣٠٠ مركب من الغلال (١) • هذا غير ما كان الامراء ينفقونه •

وعلى كثرة هذه النفقات فقد كان الظاهر حريصا ان لايخل بالتوازن بين الدخل والانفاق • ولذلك عين امينا خاصا لبيت المال وكان يتشدد في جمع الضرائب ويلجأ الى المصادرة والتهديد بالاحراق والضرب بالمقارع (٢) • وكان يشرف بنفسه على ذلك كي لايختل التوازن • وقد رايناه يقوم بحملات على الاعراب لاجبارهم على الدفع •

وكانت في عهده انواع من الدراهم هي الكاملية والناصرية واليافية • وقد ضرب نقودا باسمه فيها ٧٠ بالمئة فضة و ٣٠ بالمئة نحاسا ووضع عليها رنكه الاسد واستعملت مع الدراهم الاخرى في مصر وبلاد الشام (٣) •

وكان طبيعيا ان يعنى الظاهر بمصادر الثروة الداخلية كالزراعة والصناعة والتجارة • وقد كان السكان الاصليون يعملون بالزراعة والصناعة بالدرجة الاولى •

---

١) ابن عبد الظاهر ، ص٢٤ ، ٩٠ ؛ابن شاكر الكتبي ،ج١ ، ١٧٠ ؛ القلقشندي ،ج ٣ ، ص ٤٥٢ — ٤٦٣ ؛المقريزي ، السلوك ، ص٥٠٦ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٩٧ ، ١٩٨ •

٢) ابن الفرات ، ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ٥ ، المقريزي السلوك ، ص٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٦٤٠ •

٣) المقريزي ، كتاب النقود الاسلامية ص١٥ •

الزراعـــــــة .

كانت اراضـــي مصر في عهد الظاهر موزعة بين السلطان والامراء والاجناد . كانت للسلطان اربعة قراريط وكان الباقي موزعا بالتساوى بين الامراء والاجناد .

اما في بلاد الشام فقد اختلف التقسيم . وقد راينا الظاهر يقطع الارض على امرائـــه بعد فتح قيسارية .

وعني الظاهر بالزراعة عناية خاصة واوصى بالمحافظة على المزروعات وانشاء التـــرع والخلجان والقنوات والقناطر والجسور كما يتبين مما ذكرناه في فصل سابق عن انشاءات هـــذا الرجل (١) .

الصناعـــــة .

وعني ايضا بالصناعات المعدنية ، تدل على ذلك حديته لبركة خان (٢) . وعنايــــة ايضا بصناعة الادوية وصناعة السفن ، والنسيج والزجاج والالات الحربية (٣) . ولعلنا لا نعـــدو الصواب اذا قلنا ان الصناعة كانت حربية بصورة عامة كما نستدل من الاسواق الخاصة بالادوات الحربية ، وزخرفية كما نستدل من الاثار .

التجـــارة .

وفي عهد الظاهر نشطت الحركة التجارية . وقد عمل على ذلك بنفسه فعقد المعاهـــدات التجارية مع صقلية وقشتاله واراغون والبندقية وجنوى وسيلان واليمن وغصت اسواق مصر بمختلف انواع البضائع (٤) .

ولتشجيع التجارة كان يعنى بالمحافظة على سلامة الطرق التجارية من البحر الاحمـــر فالبحر المتوسط عبر مصر (٥) ولذلك وجه عناية للاستيلاء على بيروت .

---

١) الفصل السابع
٢) ابن تغرى الفضائل ص١١٢
٣) المقريزى السلوك ، ص٤٥١ و ٥٥٦
٤) القلقشندى ج ١٣ ص٣٤٢ ، المقريزى ، السلوك ص٧١٣ ، وعاشور ص٢٠٩
٥) القلقشندى ج٣ ص٤٦٨ .

المجاعـــات :

ولئن كانت الزراعة والصناعة والتجارة مزدهرة في عهد الظاهر ، ولئن كانت المداخيل كبيرة والنفقات كثيرة فان هذا لايعني ان الناس عامة كانوا في خير . فقد كثرت المجاعـــات في عهد المماليك عامة . وكان منها في عهد الظاهر عدد كبير وتعود اسباب هذه المجاعات الى سوء معاملة المماليك البحرية كافراد للناس والى كثرة الضرائب المفروضة عليهم، والـــى استغلال التجار والمتمولين اخبار الحروب والارجافات بالزحوف الخارجية ، والى الغـــش في ضرب النقود (١) والى الحركات الداخلية (٢) واخيرا الى شح النيل (٣) .

وفي سنة ٦٦٠ هـ اشتد الغلاء ببلاد الشام عامة ، ومات الكثيرون من الجوع (٤) وفي ربيع الاخر سنة ٦٦٢ هـ غلت الاسعار في مصر فلجأ السلطان الى خفض التسعير لكن الحالة ازدادت تأزما فجمع الفقراء ووزع بعضهم على الامراء ، وامر الامراء السلطانية ببيع ٥٠٠ اردب كل يوم بكميات قليلة ، واستبقى لنفسه بعضا منهم لاطعامهم (٥) . ثم الغى بعض النقـــود المزيفة كالناصرية وعمد الى تخفيض مبلغ ضمان ضرب النقود (٦) . ثم امر بالغاء الضرائب (٧) .

---

١) حدث غلاء عام ٦٥٨ هـ لان الفرنجة ضربوا نقودا يافية مغشوشة فيها ٠١٥٪ . فضة فكان الناس يخرجونها بكثرة للتخلص منها فيقع الغلاء (ابو شامة ، تراجم ص ٢١١) والنقـــود التي ضربت في عهد الكامل تغيرت فصار الدرهم منها ٢٤ فلسا بعد ان كان ٤٨ . (المقريزي، اغاثة الامة ، ص٦٩ - ٧٠

٢) تحركات سنجر الحلبي والبرلي (ابن عبد الظاهر ص٣٤) . (٣) كما في سنة ٦٦١ و ٦٧١ و ٦٧٢ هـ ابن اياس ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٨ (٤) اليونيني ج ١ ص ٤٩٩ ، وج ٢ ص ١٦٦ ، (٥) ابن عبد الظاهر ص٩٤ - ٩٥ . اليونيني ج ١ ، ص٥٥٥ وج ٢ ص٢٣٢ . المقريزي السلوك ، ص٥٠٦ - ٥٠٨ . ابن تغري بردي ، النجوم ج ٧ ص٢١٣ - ٢١٤ وابن اياس ج ١ ص ١٠٣ . (٦) ابن عبد الظاهر ص ٩٥ . المقريزي ، السلوك ، ص٥٠٨ (٧) المقريزي السلوك ص ٥١٤ .

وكانت الحالة العامة في السنوات الاولى من عهد الظاهر سيئة حتى انه اضطر لاعلان الاعفاء من الرسوم في رمضان سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٣ م وفي ذي الحجة سنة ٦٦٣ هـ (١)/ ١٢٦٥ م.

وهكذا نستطيع القول ان المماليك وعددهم لم يتجاوز العشرين الفا كانوا طبقة تحكم البلاد على هواها وتستغل خيراتها، كأنها شركة يتقاسم افرادها المنتوجات فيمـــا بينهم باشراف السلطات وتظل كثرة السكان تحت رحمتهـــم.

معاملـــة النصارى:

كانت معاملة السلطان الظاهر بيبرس للنصارى الاصليين من سكان البلاد عنيفة بوجه عام. اما تحليل هذا فليس بالشيء اليسير. قد يسهل فهم عدائه للنصارى الصليبيين الغزاة، ولكن المعاملة التي لقيها النصارى من سكان البلاد الاصليين، على يديه، بعد حسن علاقته مع الحبشة باستمرار ومع الاسكرى، احيانا، لا يمكن ان يفسر الا بانه تأثـــر بموقفه من الفرنجة من جهة وتخطيه لمصادرة اموالهم من جهـــة ثانية.

وفي جمادى الآخرة سنة ٦٦٣ هـ وقع حريق في الباطليه في القاهرة، فاحترقت ٦١ دارا جامعة بينها ربع فرج لاشراف المدينة وربع العادل الموقوف على العادلية.

واتهم الظاهر النصارى واليهود بذلك وفي ١٨ شعبان امر بالتبض عليهم جميعا وبوضعهم

---

١) ابن عبد الظاهر، ص١٠٤ • اليونيني، ج٢، ص٣٢٤.

في جورة وحولهم الاحطاب المشتعلة، لكن راهبا يعرف بالحبيس وعد الظاهر بالتعويض عن الحرائق بنصف مليون دينار فعفا عنهم (١).

وفي ذي الحجة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦ خرج الظاهر من دمشق لملاقاة جيشه عائدا من غارة ناجحة على سيس فمرّ في قارا فنهبها وقبض على الرهبان ووسطهم وافنى اهل البلد الى ظاهرها وضربت رقابهم جميعا واسر منهم نحو الف رجل وامرأة وولد . ثم احرقها وخرب كنيستها ثم حولها جامعا . واستبدل سكانها بتركمان . وسبب ذلك ان اهل قارا كانوا يخطفون التجار واهل الضياع ويستولون على اموالهم وبضائعهم ويبيعونهم اسرى للفرنجة (٢).

وفي سنة ٦٦٦ هـ احضر الظاهر الراهب (٣) وطلب منه المال كله ففرغ هذا تأديته دفعة واحدة لانه يسعف به المصادرين والمعوزين فامر السلطان بتعذيبه حتى مات وهو بظاهر القلعة . ثم افتى فقهاء الاسكندرية بشرعية مقتله لان في اعماله ما قد يؤثر على ضعاف النفوس من المسلمين .

---

(١) ابن شاكر الكتبي ج١ ص١٥٩ . ابن تغري بردي النجوم ج٧ ص١٤٠ . اليونيني ج٢ ص٣٢٠ — ٣٢٢ . ابن ابي الفضائل ص١٣٥ — ١٣٧ . المقريزي السلوك ص٥٣٥ . ابن اياس ج١ ص١٠٤ . على انه ينبغي ان انوه هنا بثلاثة اشياء اولها ان المقريزي يقول انه "اشيع ان ذلك من النصارى" مما يوحي بانه لم يكن متأكدا من الرواية . وثانيهما ان المبلغ ٥٠٠ الف عند ابن ابي الفضائل واليونيني وهو خمسون الفا عند المقريزي . وثالثها ان الذي ضمن دفع التعويض هو البطرك عند المقريزي، لا الراهب المعروف بالحبيس . ثم ان اليونيني وابن ابي الفضائل يتفقان على ان الراهب كان يستخدم هذه الاموال لمساعدة الذين يصادر اموالهم من "سائر الطوائف" اما النويري (نقلا عن E.Blochet ، النهج السديد ص٣٥٦ و ٤٧٦) فيقول ان الحرائق سببها النصارى في مصر انتقاما لما فعله الظاهر بالفرنجة ببلاد الشام . (٢) اليونيني ، ج٢ ص٣٤٤ — ٣٤٥ . ابو الفداء ، ج٤ ، ص٤ . ابن ابي الفضائل ص٤٩٥ — ٤٩٧ . ابن الفرات ج٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٧٨ . المقريزي السلوك ص٥٥٢ — ٥٥٣ . (٣) كان كاتبا ثم ترهب . مصادر ملحوظة ٢ ص٢٢٣ . واليونيني ج٢ — ص٣٩٠

بيبرس والعلم والادب :

لم يكن الظاهر ليغفل اهمية اثر المدارس في تثبيت سلطانه وفي القضاء على المذاهب الدينية المعارضة . لذلك لم تكد تستهل سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٢ حتى درس المدرسة الظاهرية بباب القصرين يوم الاحد ٥ صفر . وفي هذه المناسبة القيت قصائد كثيرة، لم يحفظ لنا منها الا القليل .

ثم بنى الى جانبها خزانة كتب جليلة، وبنى ايضا مكتبا قرر لمن فيه من الايتام خبزا يوميا وكسوة لفصلي الصيف والشتاء (١).

وكذلك بنى في دمشق مدرسة ثانية عرفت بالظاهرية ايضا . وهي المعروفة بالمدرسة الظاهرية الجوانية بجوار الجامع الاموي . وقد كانت دار والد صلاح الدين الايوبي . ثم صارت دارا للعقيقي فمدرسة وتربة للسلطان الظاهر (٢) . ويبدو ان المماليك عامة زادوا عدد المدارس عن الايوبيين (٣).

اما الناحية الادبية، فارى ان اسجل عنها بعض ملاحظات .

اولا: كان في عهد الظاهر عدد من الشعراء لكنه لم يؤثر عن احدهم مجموعة كبيرة من الشعر ليضعه في صف البهاء زهير مثلا . وقد توفي هذا سنة ٦٥٦ هـ . ولهؤلاء الشعراء نتف محفوظة في المجموعات التاريخية .

ثانيا : قيل هذا الشعر بمناسبة الانتصارات العسكرية على الفرنجة او التتر او الارمن وهي مقطوعات قصيرة قل ان تجاوزت الابيات القليلة . فلو اخذنا ما اثر لنا من شعر عن انتصارات

---

١) ابن عبد الظاهر ص٩١ ـ ٩٢ . المقريزي السلوك ص٥٠٤ .
٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق . سنة ١٩٤٨، جا ص٣٤٨ ـ ٣٤٩ .
٣) القلقشندي، ج٣ ، ص٣٦٧ .

صلاح الدين في " كتاب الروضتين " لكان ضخما بالنسبة لما اثر لنا من شعر عن انتصارات الظاهر • ويقول ابن تغرى بردى ان عددا من الشعراء نظموا الشعر بمناسبة حملة الظاهر الاخيرة الى آسيا الصغرى لكنه لم يحفظ لنا الا قصيدة واحدة (١) ، واكبر مجموعة من الشعر قيلت في مناسبة ظفر الظاهر ذكرها ابن شاكر الكتبي (٢) وهي ايضا قليلة •

ثالثا : ان القسم الاكبر من الشعر الماثور عن عهد الظاهر بيبرس قاله ابن عبد الظاهر كاتب انشائه • فهل ان بقية الشعراء لم يقولوا فيه شعرا ام انه ضائع كله ؟ وحين مات الظاهر لم يرثه الا كاتب انشائه ابن عبد الظاهر، بقصيدة طويلة حفظ ابن الفرات القسم الاوفر منها (٣) •

اما النثر فكان تتضمن اولهما الرسائل المتبادلة بين السلطان وولاته والدول الاجنبية وهي ركيكة ضعيفة عموما الا ما كتبه له ابن عبد الظاهر • ومراجعة " ذيل مرآة الزمان " لليونيني تعطينا صورة عن المستوى الذي كان سائدا في هذه الفترة اما ما كتبه ابن عبد الظاهر فمجموع تتوفر فيه المحسنات اللفظيه • واما الادب في هذه الفترة فكان تقليدا يعوزه الابداع، ولذلك استعاض المؤلفون عن ذلك بالحجم فصارت المؤلفات مجمعات (٤) •

وهنا يبدو لي ان عهد الظاهر كان عهد توطيد سلطان وتثبيت اركان فلم يكن فيه مجال للنشاط الادبي • انه لم يستطع ان يترك في هذا الميدان اثرا كالذي تركه صلاح الدين الايوبي •

---

١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٧٠ •
٢) ابن شاكر الكتبي ج١ ، ص١٦٣ ــ ١٦٤ •
٣) ابن الفرات ج٧ ، ص٩٠ ــ ٩٢ •
٤) E.Blochet النهج السديد ص٣٦٧ •

الفصل التاسع :

وفاة الظاهر بيبرس ومكانته – خاتمة

كان الظاهر بيبرس في غزوته في آسيا الصغرى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٧م وانتصر في هذه الغزوة ، ثم عاد الى حلب فدمشق حيث توفي عصر يوم الخميس ٢٨ محرم سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م ، بعد مرض استمر ثلاثة عشر يوما وقد تجاوزت سنه الخمسين سنة وبعد ملك دام ١٧ سنة وشهرين واثني عشر يوما (١) .

نهار الخميس الواقع في ١٤ محرم سنة ٦٧٦ / حزيران ١٢٧٧ جلس السلطان يشرب القمز . وفي اليوم التالي احس بحرارة في باطنه وتقيأ ثم ركب الى الميدان بعد الصلاة وعاد الى القصر الابلق آخر النهار . وتزايدت الحرارة في احشائه واستعمل دواء لم يشر به عليه طبيب فتزايد الالم . واستدعى الاطباء فاعطوه دواء ولما لم يفده هذا الدواء وصفوا له دواء آخر فزاد في اسهال معدته فتضاعفت الحمى ورمى دما ثم مات .

هذه هي العناصر الاساسية لقصة وفاته ويتفق عليها المؤرخون جميعا (٢) .

ليس في مثل هذه القصة شيء غريب . رجل جندي يرهو نفسه ويشرب القمز ثم يشعر بالحمى ويموت . ولكنه لم يكن بد من نسج اسطورة حول وفاته .

غزا الظاهر آسيا الصغرى ومعه الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن المعظم عيسى بن العادل ابي بكر ايوب فابلى هذا بلاء حسنا في المعارك بحيث اخذ الناس يلهجون باسمه بينما شعر الظاهر بالندم والخوف من توريط جنده في هذه الحملة . ثم ان

---

١) الفوطي ص٣٩٣ . المقريزى ، السلوك ص٦٣٦ ، ابن تغرى بردى النجوم ، وهي ٢٧ محرم في المصدرين الاولين ويذكر ابن الفرات التاريخ ويرجح ٢٧ محرم . (ج٧ ص٨٩) . وهي ٢٧ محرم عند ابن عبد الظاهر . (ابن الفرات ج٧ ص٨٨) .

٢) الفوطي ص٣٩٢ ـ ٣٩٣ . ابو الفداء ج٤ ص١٠ . ابن الفرات ج٧ ص٨٨ ابن ابي الفضائل ص٢٧٦ ـ ٢٧٧ . المقريزى ، السلوك ص٦٣٥ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ص١٧٥ ـ ١٧٧ .

المنجمين ، وقد اولع الظاهر بهم ، قالوا ان ملكا سيموت بالسم بدمشق سنة ٦٧٦ هـ · ومات الظاهر بيبرس في هذه السنة فكان لابد من ايجاد علاقة بين قول المنجمين والوفاة وكانت صلة الوصل بينهما حكاية الملك القاهر وتسميمه · ثم كانت بعد ذلك محاولة تعليل التسميم ·

شعر الظاهر بالحسد من القاهر بهاء الدين ، او لعله اراد صرف النظر عنه بان اراد تسميم القاهر ، فدعاه للشراب معه واعد له سما ليدسه في كاسه · وكانت للظاهر ثلاث كاسات يشرب بها وحده ولا يسقي فيها معه الا من يختصه بمكرمة · وحدث ان قام الملك القاهر لبعض حاجته فدس السلطان السم في كاس امسكها بيده الى ان يعود القاهر · فلما عاد هذا ناوله اياها ليشرب وقام بدوره لبعض حاجته · فشرب القاهر ما في الكأس واعطاها للساقي · ولما عاد الظاهر كان الساقي قد اعاد ملء الكاسات وشرب الظاهر من احداها من غير ان يفطن الى ان الساقي قد يكون خلط بين الكاسات من غير ان يدري · وللحال احس الظاهر بالتغير فعلم انه شرب بقايا السم الذى كان في الكاس ·

هذه هي القصة التي تروى عن كيفية وفاة الظاهر نقلا عن اليونيني · وينفرد ركن الدين بيبرس الدواداري في " زبدة الفكرة " بالقول بان التسمم يعود الى رغبة الظاهر في ان يصرف عنه ما قالته النجوم · ويشير ابو الفداء الى القصتين قائلا ان الظاهر نسي انه امر الساقي بالتسميم للملك القاهر وشرب بنفس الكأس · وينفرد ابن ابي الفضائل بعدم الاشارة الى قصة التسميم ويرد الوفاة الى الاكثار من شرب القمز واضطراب المعدة · ويرى ابن الفوطي ان الظاهر "سم في الماء الذى يستعمله في الطهور " ثم يروى حكاية رغبته بتسميم امير اراد التخلص منه فسقاه القمز المسموم ثم شرب في ذات الكأس · اما المقريزى فلا يؤيد تعليلا على تعليل · لكن ابن تغرى بردى يؤيد حكاية التسميم خوفا مما قالته النجوم (١) ·

---

١) ابن الفوطي ، ص٣٩٢ · ابو الفداء ، جـ٤ ص١٠ · ابن ابي الفضائل ، ص٢٧٦ — ٢٧٧ ، المقريزى ، السلوك ، ص٦٣٥ — ٦٣٦ · ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص١٧٧ — ١٧٩ ، والحاشية رقم ١ ، ص١٧٨ منه ·

وروى ابن الفرات التعليلات المتعددة بشأن وفاة الظاهر فقال ان خاطر الشيخ الامام محي الدين النووي تغير عليه لنكثه بوعده له باعفاء اهل دمشق من جباية الاموال ومطالبته بجبايتها كاملة غير منقوصة . وقال ان شدة الفرح من نصره في آسيا الصغرى حملته على الاكثار من شرب القمز فاحس بتوعك . وقال ان حسده من القاهر ولوم هذا الاخير له لتورطه في حملة آسيا الصغرى جعلا الظاهر يعمل على تسميمه . وكان التسميم بيد الظاهر نفسه على رواية، وبيد الساقي بامر منه ،في رواية اخرى ، ثم شرب الظاهر من ذات الكأس على جهل منه بحقيقتها فكان تسممه ومرضه ووفاته .

نقل ابن الفرات حكاية التسميم عن اليونيني . اما عن ابن عبد الظاهر فنقل الكثير مما قاله هذا بشأن وفاة السلطان ولكن يبدو ان ابن عبد الظاهر لم يذكر شيئا عن حكاية التسمم . بل قال ان السلطان ركب عصر يوم الجمعة ١٤ محرم "في ميدانه كله مودع لاخدانه ومتزودا من رؤية موكبه وركوب حصانه ونزل والتات جسمه تلك الليلة بعض التيات واصبح واصبح وليس عنده ذلك الانبعاث (١) ."

وابن شداد ايضا لا يأتي على حكاية التسمم . وانما يبدو انه يجعل الاكثار من شراب القمز سبب المرض والوفاة . ويقول ان الاطباء ظنوه مسموما حين دفع دما محتقنا (٢) .

ويقول S.Runciman ان بعض الاخباريين الفرنجة قالوا انه مات متأثرا بجراحه في المعركة (٣) . وهكذا يبدو ان حكاية التسميم والتسمم موضوع جدل ولعل نفيها هو الاصوب . وقد سكت ابن الفرات والمقريزي عن نفيها او تأييدها . ولمثل هذا السكوت معنى . ثم ان ابن عبد الظاهر وابن شداد لم يأتيا على ذكر مثل هذه القصة . وكذلك

---

١) ابن الفرات، ج ٧ ، ص ٨٤ ـ ٩٠ .
٢) ابن شاكر الكتبي ، ج ٢١ ، ص ١٣٥ .
٣) S.Runciman ج ٣ ، ص ٣٤٨ .

فعل ابن ابي الفضائل . واخيرا فان الأرقة التي قيل ان التسميم حدث بها لست مما يتفق ووسائل الظاهر . انه لم يتخذ الحذر الكافي وقد عودنا السلطان ان يكون حذرا، مبالغا في حذره . ثم ان موضع الظاهر ان يقتل الملك القاهر اذا كان لا بد من اقصائه ويتركه في معتقله يموت شيئا فشيئا . ثم ان مسألة الظاهر بان يحول عنه ما يقوله المنجمون ليس منطقيا . لماذا يكون هذا التسميم الذي سيموت في دمشق هو الظاهر منه ؟ ولعل منشأ حكاية التسمم يعود الى ان الاطباء ظنوا الظاهر مسموما .

ولما مات السلطان كتم نائب السلطنة الامير بدر الدين بيليك الخزندار موته وكتب للسعيد ابنه يعلمه بوفاة ابيه . ثم حملت الجثة على محفة في الليل كان السلطان مريض ونقلت من القصر الابلق الى قلعة دمشق . وقد حمل الجثة كبار الامراء امثال سيف الدين قلاوون وشمس الدين سنقر الاشقر وبدر الدين بيسري وبدر الدين بيليك الخزندار وعز الدين أقوش الافرم وعز الدين ايبك الحموي وشمس الدين سنقر الالفي وعلم الدين سنجر الحموي. ثم غسلوه وحنطوه وتركوا الجثة بالقلعة . واشيع انه مريض . ثم سار الخزندار بالجيش بمحفة فارغة الى مصـــر .

ثم ان السعيد لما وصلته الرسالة فانه اظهر الفرح تضليلا للناس ثم ركب على عادته ثم وصل الخزندار القاهرة في ٢٦ صفر تحت السناجق الظاهرية . ولما تسلم السعيد الخزائن والحيسر اعلن خبر الوفاة وصاح الحاجب : يا امراء ترحموا على السلطان الملك الظاهر . ثم جددت الايمان للسعيد . وفي اليوم التالي يوم الجمعة ٢٧ صفر، دعا الخطباء للملك السعيد وصلوا على الملك الظاهر صلاة الغائب

كان الظاهر قد اوصى ان يدفن على الطريق السالكة قريبا من داريا . لذلك كانت جثة الظاهر لا تزال في دمشق . فامر السعيد بشراء دار العقيقي وجعلها مدرسة للشافعية والحنفية، وانشأ فيها قبة لدفن الظاهر . وتم البناء في آخر جمادى الاخرة . عندها ارسل السعيد الامراء الى دمشق ، وفي ليلة الجمعة ٥ رجب حملوا جثة السلطان من القلعة على الاعناق الى جامع امية حيث صلي عليها ثم حملت ودفنت بقبة المدرسة (١) .

وهكذا انتهت حياة هذا الرجـــل .

وكان طبيعيا ان تترك وفاته اثرا في الادب . وقد رثاه ابن عبد الظاهر بعدة مراث نقل ابن الفرات احداها . ولعل اجمل ما قاله ابن عبد الظاهر فيه هو ما ختم به سيرة السلطان : نزل في قصره بالميدان الاخضر معتقدا ان الدنيا قد حصلت في يده ... واذا المنية قد نشبت اظفارها ... ووجه السرور قد قطب واسو لبس الحزن قد حطب .. ورماح الخط وقد قالت لاقلام الخط اصبحت في لبس الحداد من المداد والسيوف والقلوب وقد قالت عند شق الجيوب نحن احق منك بهذا المراد ، والعيون وقد قالت لقصوره الابلق ما كان بناؤك على هذه الصورة الا فألا بما يسود الجدران به عند الفجائع من السواد ... فاي عين لم تبكه بدموع محاجرها حتى عيون الارض واي قلم لم يأس عليه واي حد لم يلطم عليـــه ... (٢) " .

---

١) ابو الفداء، ج٤ ، ص ١١ ، ابن ابي الفضائل، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٤ ، ابن الفرات، ج٧ ، ص٨٩ . المقريزي، السلوك، ص٦٤١ ـ ٦٤٣ ، ٦٤٦ . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٧٥ ـ ١٧٧ . ابن اياس، ج١ ، ص١١١

٢) ابن الفرات، ج٧ ، ص٨٧ ـ ٨٨ .

والآن بعد ان تناولنا سيرة هذا السلطان بتفصيل اردنا ان نعمد الى تقدير مكانته واثره وان نقول الى اى حد كان مبدعا والى اى حد كان مقلدا في ما قام به (١).

وقبل الادلاء برأى في شخصية السلطان الظاهر بيبرس اردنا ان استعرض ما قاله المؤرخون المحدثون والقدامـــى .

---

١) للظاهر مكانة عظيمة في القصص الشعبي . ولكنني لست انوي معالجة هذا الموضوع هنا . وقد تناوله عبد الحميد يونس في مؤلف صغير عنوانه " الظاهر بيبرس في القصص الشعبي " (سلسلة المكتبة الثقافية، رقم ٣، الادارة العامة للثقافة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دار القلم — مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ). ويرى عبد الحميد يونس ان السيرة " ترسم الظاهر بيبرس كما يحب الشعب " ان يكون، ويعتبرها " صورة الشعب الذى تحكي ملامحه وقسماته " (ص٥). وهو يدرسها من ناحية ادبية وفنية . ويراها وثيقة " تصلح لدراسة المجتمع العربي الاسلامي " في عصر كتابتها (ص١٧) . والظاهر بيبرس في هذه القصة، "منقذ" ينتظره الشعب بفارغ صبر (ص١٤) . وميزة هذه السيرة انها تعنى ببيبرس قبل وصوله الى السلطنة (ص٢١).

والطابع العام الذى يطبع السيرة، خيالي . والسلطان الظاهر فيها حاكم عادل يعنى بالدفاع عن رعاياه، وبحمايتهم . واهمية هذه السيرة التاريخية هي انها تمثل الغذاء العقلي الذى كانت الجماعات الكبيرة من المسلمين تتقبله في القاهرة في العصور الوسيطة المتأخرة R.Paret مادة Baybars Romance، الموسوعة الاسلامية، الطبعة الجديدة، مجلد ١ ص١١٢٦ — ١١٢٧ .

ويستدل من المصادر ان حياة الظاهر بيبرس كانت ذات اهمية اسطورية في عهده يدل على ذلك قلق الناس عليه يوم تقنطر عن فرسه في محرم سنة ٦٦٥ هـ، وتعيد عند بركة زيزاء وفرحهم يوم ضربت البشائر بشفائه . ويدل على ذلك ايضا حكاية وجود صندوق عليه "كتابة اسم الملك الظاهر هذا ونعته " في حفرة تحت باب من قصور الخلفاء الفاطميين (المقريزي، السلوك، ص٥٥٥ . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٦٢).

هناك فئة قليلة لم تر له فضلا في كل ما قام به اذ انه ورث اركان السياسة الخارجية والنظم الداخلية عن الدولة الايوبية التي نشأت تلبية للشعور بالخطر الصليبي (١) وهو ظالم يفرض الضرائب بحجة الحاجة للمال لانفاقه في سبيل الجهاد (٢) لكن اكثرية المؤرخين يتناولون هذا السلطان بتفصيل اوسع وينظر اليه من زوايا مختلفة . وقد رأيت استعراض هذه الاراء كما يلـــي :ـ

١) سعة الدولة والادارة : كان السلطان الظاهر اول السلاطين المماليك الاقوياء الذين " ابتنوا امبراطورية واسعة الارجاء ممتدة الاطراف " ونقل مقر الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة واخذ بتنظيم الدواوين وتحديد اختصاصات كبار الموظفين وتأسيس اول جيش ثابت في مصر في العصور الوسطى (٣) . واشار آخر الى اهمية نقل مركز الخلافة والتنظيمات الادارية (٤) . ونوّه Muir بسعة الدولة المملوكية في عهد الظاهر من الفرات حتى النيل ومن آسيا الصغرى حتى سواكن باستثناء بعض القلاع الصليبية وان انـــه وطد سلطانه بادارته الحكيمة واكتسب ثقة الناس بوسائله السريعة التي كان يلجأ اليهـــا ويحسن معاملة مماليكه (٥) وهو في طليعة حكام عصره من حيث تصريف الشؤون الادارية بحكمة ولباقة ومن حيث وضوح الاهداف (٦).

---

١) عاشور، ص٥١.

٢) رزق، محمود سليم، ج١، قسم ١، ص٣٤ .

٣) عطيه، عزيز سوريال، مقدمة الطبعة الثانية، دراسات في تاريخ المماليك لحسني ابراهيم حسن صفحة ج .

٤) حسن، زكي محمد، مصر والحضارة الاسلامية، نقلتها عن المصدر السابق ص٢؟ .

٥) Sir W.Muir ص XII و ٥، ١٤، ١٧، ١٨، ٣٠، ٣١، ٢٢٠

٦) S.Runciman ، ج٣، ص٣٤٨.

٢) نشاطه ومقدرتـه : والدولة المملوكية فريده من نوعها اذ استطاع جماعة عسكرية تتزايد باستمرارعن طريق الشراء ،ان تسود بلادا غنية لمدة تزيد عن القرنين • لاسباب عديدة منها ظهور الظاهر بيبرس في اول عهد هذه الدولة (١) وهو مثل رائع على النشاط الذى ادى الى الانتعاش السياسي ،غير المتوقع • ففي هذا السلطان الذى لامثيل لـه فرضت مصر سيادتها على الشرق ، على رغم الاضطراب الذى اعقب سقوط الخلافة العباسية والمحاولات التي قام بها الصليبيون والتتر للتحالف والمؤامرات التي حاكها الامراء الايوبيون والامراء المماليك ذوو المصالح الشخصية • لقد كان الظاهر عبقريا حين رحب بالاجئ العباسي واعترف به خليفة فجنى من هذا العمل السيادة على الحجاز واستطاع بذلـك ان يزعم ان مصر دولة اسـلاميـة •

وكانت حياته سلسلة من الحملات العسكرية • ففي ١٧ سنة قام بثماني وثلاثين حملة عسكرية قاد منها ١٥ بنفسه • وكانت تسع منها ضد المغول ، وخمس ضد ارمينيا وثلاث ضد الاسماعيلية واحدى وعشرون ضد الصليبيين • وقد قطع في هذه الحملات اكثر من اربعين الف ميل • ولقد كان نشيطا قبل السلطنه وظل كذلك بعدها (٢) •

٣) القسـوة والغـدر: والظاهر بيبرس هو المملوك النموذجي في حسناته وسيئاته معا • ان اعمال الغدر والابتزاز والخيانة التي قام بها لوثت اسمه الذى كان ، لولاها ، نظيفا بصفته حاكما قام بخدمات كثيرة ، وبانشاءات دينية وعمرانية عامة • كان عادلا في ادارته لكنه كان يصغي الى الوشايات المريبة ويستهين بالحياة البشرية • وكان الغدر ابرز

---

١) E.Blochet ص٣٤٥ ـ ٣٤٥ و Sir W. Muir ص٢١٥ •
٢) G.Wiet ، مادة بيبرس بالموسوعة الاسلامية ،الطبعة الجديدة ، ج ١ ، ص١١٢٥ ـ ١١٢٦ •

صفاته ، وكان لايتورع عن اللجوء الى اية وسيلة لبلوغ اهدافـه · والمثال على ذلك مافعلـه بالمغيث بعد ان اقسم له الايمان المغلظة على امانـه · لكنه اكرم عائلتـه (١) ·

٤) اثــــره : لقد كان ذا عقلية متفتحه بحيث انه ترك في المصريين اثرا ابعد مما تركه صلاح الدين · وكان له دور هام في تنظيم الجيوش المملوكية ، وكان لهذا التنظيـم على اساس الولاء المذهبي ، اثر في تنظيم الجيوش الاوروبيـة في القرون الوسطى على نفس الاساس ايضا (٢) · وكان سببا رئيسيا مكّن لجماعة عسكرية تتزايد باستمرار عن طريق الشراء ان تسود بلادا غنية لمدة تزيد عن قرنين (٣) ·

ومجدّه اخرون حتى صار الظاهر بطلا وطنيا "حفظ وطننا المحبوب من غارات اعدائه" وبذلك اظهر "الحضارة المصريـة بمظهر يعتبـر نـواة لنهضة دولة المماليك التي قامـت عليها نهضتنا الحديثة من قريـب او من بعيد" (٤)، وصار عصر المماليك، بفضل انشـاءات الظاهر من ازهى عصور "تاريخ مصر القومي" (٥) ·

واری ان اختم هذه المحاولة لجمع آراء المؤرخين بالظاهر برأيين احدهما لستيفنسن والآخر لكاهن · وفيهما موجـز لجميـع هذه الاراء · قال الاول :

كانت سلطنه الظاهر بيبرس بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية · ان سياسته التي كانت عودة لسياسة صلاح الدين الايوبي ، كانت كتلك مبنية على نشاط متواصل وبعد نظر سياسي ، لكن الرجلين كانا متباعدين من حيث الخلق الشخصي · "لقد كان السلطان الجديد هو الرجل المناسب لاستغلال الوضع على افضل وجه" وهو شخصيـة فذة

---

١) Sir W.Muir ، ص XII، ٥، ١٤، ١٧، ١٨، ٣٠، ٣١، ٢٢٠ و F.Sadeque ص ٦٩ ـ ٧٣ ، و S.Runciman ج٣ ص٣٤٨ ، و R.Grousset ج٣ ، ص١٧ و ٣٠ من المقدمة (٢) F.Sadeque ٣، ١٥، ١٦، ١٧ من المقدمة و ص٦٩ ـ ٧٣ ·

٣) E.Blochet ، النهج السديد ص٣٤٥ ـ ٣٤٦ و Sir W.Muir ، ص٢١٥ ·

٤) سـرور، ص٧ · (٥) ملحوظة ٣ ص٢٤٠ عاليه ·

اخذ على عاتقه ان يستعيد بلاد الشام من الصليبيين . وكان المتوقع ان لا يلاقي صعوبات في ذلك بسبب ضعف الصليبيين ، لكن حروبه مع شعوب اخرى والمصاعب التي صادفها في سبيل الاحتفاظ بممتلكاته جعلت هذه المهمة صعبة . وقد نجح في هذه المهمة بسبب صفاته الخاصة قبل كل شيء . اما الخيانه والقسوة اللتان صبغتا سيرته فافادتاه اذ انهما لم تسنحا لخصومه ان يكونوا خطرين عليه . وتمتع فوق ذلك بصفات حسنه ابرزها نشاطه المتواصل وسرعة حركاته السرية التي كانت تأخذ الخصوم على غرة . وكان جنديا شجاعا وقائدا قديرا وسياسيا ثاقب النظر . وكان يعنى بالفنون والآداب والبناء . ولم يكن يتمتع بحب اي طبقة من طبقات الرعية لكن الجميع كانوا يحترمونه ويخافونه لشجاعته ونجاحه . كان يكفيه فخرا انه احتل انطاكيـة (١) .

وقال الثاني : السلطان الظاهر شخصية غريبة عجيبة . تدرج من رقيق الى مرتبة السلطنة . فهو اذا شخصية نادرة في عصور الاسلام المتأخرة يجمع بين الغدر والقسـوة والشجاعة والاقدام والاحتيال من جهة . لكنه ، يتمتع الى جانب ذلك ، بذكاء سـياسي مقرون بالحزم والجرأة والحذر ، وباحساس دبلوماسي حاد ، وبمعرفة تامة بالشؤون العسكرية . وبالاختصار . فقد كان بيبرس رجل دولة عظيما ، استطاع ان يستغل الظروف الناشئة من الغزو المغولي لاقامة دولة لعلها اقوى دولة عرفها الاسـلام (٢) .

ومن هذا الاستعراض ، يتبين لنا ان المؤرخين الآقلة منهم ، اجمعوا على الاعتراف بشخصية الظاهر الفذة القوية وبمآثيه الرائعه في الميدانين الداخلي والخارجي .

---

(١) Stevenson ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، ٣٤٦ .

(٢) C.Cahen. ، ص ٧١٣ .

ولكن المؤرخين المصريين يجعلون منه مثالا للوطنية، غايته الدفاع عن مصر، ومثالا للحاكم الصالح في تشجيعه الفنون والآداب، كأنه قام بذلك عن وعي وادراك. وايدتهم في ذلك فاطمة صادق الى حد بعيد. وكأني بها تعتبر الولاء للسلطان والولاء للدولة شيئا واحدا. وكأني بها تراه موضوع ملحمة انسانية اشبه بقصة عنترة. ولم يشر هؤلاء الى الناحية الخلقية فيه.

اما المؤرخون الغربيون، فاشاروا الى مقدرته العسكرية والادارية، والى سعة نشاطه في مختلف الميادين، لاسيما في ميدان الحروب مع التتر والصليبيين. لكنهم ابرزوا الناحية الخلقية السيئة عنده.

وقبل متابعة مناقشة هذه الآراء ينبغي ان اذكر آراء المؤرخين القدماء بالسلطان الظاهر.

السلطان الظاهر فارس، شجاع خبير بمداخل الحروب ومخارجها — عادل لا يسمح بوقوع مظلمه، حليم يعفو ولو انه قادر على غير الحلم والعفو، يرفض ان يستولي على شيء ليس له، كريم يبذل بسخاء على امرائه واجناده. وهو شخصية مشرقة لامعة، منقذة، تجمع افضل الصفات الانسانية وانبلها. كان عبدا فصار سلطانا. كان دائم النشاط والحركة، محدد الاهداف، واضح الخطوات، يسهم بنفسه في تنفيذ التعليمات التي يوصي بتنفيذها(١).

ويتبين لنا من النتف التي لدينا من سيرة ابن شداد ان هذا ايضا يجاري ابن عبد الظاهر في النظر الى السلطان، ولو انه لا يمتنع عن اظهار ما فعله الظاهر بخصوص الضرائب.

---

١) ابن عبد الظاهر، ص ١، ٢٠ — ٢٧.

وقال عنه شافعي بن علي بن عباس صاحب " المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " انه احسن القيام باعباء المملكة واقام منار الاسلام وحارب الفرنج والتتر واحتل الحصون وكان مظفرا في جميع حملاته . ثم انه كان ماضي العزائم، احرز الانتصارات المتواصلة على اعداء اللـه "(١) .

وكذلك امتدحه ابن الفوطي (٢) .

وقال ابو الفداء انه "كان ملكا جليلا شجاعا عاقلا مهيبا (٣) " وقال الذهبي عنه "انه البطل الهمام فارس الاسلام ليث الحروب السلطان الكبير .... اشتهر بالفروسية والاقدام ثم كان طليعة الاسلام يوم عين جالوت (٤) " ونقل ابن تغري بردى عنه انه قال ان الظاهر "كان خليقا بالملك لولا ما كان فيه من الظلم والله يرحمه ويغفر له فان له اياما بيضاء في الاسلام ومواقف مشهورة وفتوحات معدودة (٥) .

وقال ابن ابي الفضائل ان الظاهر "كان شجاعا بطلا مقداما هماما عسوفا عجولا جبارا محبا للاموال كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصا لاهل دمشق . فانه كان يكرههم ويكرهونه وعزم مرتين على خلوها وتحريقها"(٦) .

وقال ابن كثير فيه انه "كان شهما شجاعا عالي الهمة مقداما جسورا معتنيا بامر السلطنه ، يشفق على الاسلام، متحليا بالملك له قصد صالح في نصرة الاسلام واهله ، واقامة شعار الملك ...."(٧) .

---

١) نقلها عن سرور ص١٧١ . ورقة ١٣ أ ـ ب . (٢) ص٣٩٢ ـ ٣٩٣ . (٣) ج٤ ص١١ .
٤) دول الاسلام ج٢ ،ص١٣٤ . (٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة، ج٧ ،ص١٧٨ .
٦) ابن ابي الفضائل ،ص٢٨٣ . (٧) ج١٣ ص٢٧٥ و ٢٧٦ .

وقال المقريزي انه "كان من خير ملوك الاسلام" بوجه عام . وقد كان امراؤه يخافونه مخافة شديدة حتى لم يجسر احد ان يدخل عليه في مرضه بغير اذن . "وكان خفيف الركاب طول ايامه ، يسير على الهجن وخيول البريد لكشف القلاع والنظر في الممالك . فركب للعب الكرة في الاسبوع يومين يوما بمصر ويوما بدمشق (١) .

وقال فيه ابن تغرى بردى انه اطال ترجمته لانه "مستحق لذلك لانه فرع فاق اصله ، كونه كان من حملة مماليك الصالح نجم الدين ايوب فزادت محاسنه عليه .... وكان .... ملكا شجاعا مقداما غازيا مجاهدا مرابطا خليقا بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه (٢) ."

واما رأى ابن الفرات فيه فواضح من انه كتب سيرته في جزئين وبعض جزء . ومع انه يشير عادة الى الاراء المختلفة في الظاهر . عند اختلاف الرأى في عمل من اعماله ، فان الطابع العام الذى يطبع سيرته هو اظهار هذا السلطان بمظهر الرجل القوى الذكي الذى يعرف كل شيء ولا تفوته شاردة ولا واردة .

وقال ابن اياس عنه انه "كان شجاعا بطلا "اظهر من الشجاعة مالم يسمع بمثله . وقال انه "كان ملكا عظيما جليلا مهيبا كثير الغزوات خفيف الركاب ... وكان يلقب بابي الفتوحات في ايامه ... وكان كريما سخيا على الرعية باسط اليدين ... وكان محبا لجمع الاموال كثير المصادرات للرعية لاجل الغزوات والتجاريد ... وكان كفوءا للسلطنة منقادا للشريعة يحب العلماء والصالحين ويحب فعل الخير وله بر ومعروف وآثار لاسيما رد الخلافة لبني العباس ... وكان من خيار ملوك الترك"(٣)

---

١) المقريزى السلوك ، ص٦٣٨ و ٦٤١ . (٢) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص١٧٧ و ١٩٩ . (٣) ابن اياس ج١ ص٩٨ و ١٠٩ — ١١٠ .

وقال عنه النعيمي ان "له فتوحات مشهورة ومواقف مشهودة ، ولولا ظلمه وجبروته في بعض الاحايين ،لعد من الملوك العادلين "(١) ٠

ونستنتج من هذا ان المؤرخين القدماء رأوا في الظاهر شخصية ذات ثلاثة جوانب — صفاته الشخصية العسكرية — ونجاحه في محاربة "اعداء الله " — وصفاته الشخصية الخلقيــة ٠ فاثنوا على مقدرته الشخصية العسكرية وشجاعته واجمعوا على انتصاراتــه على الخصوم من تتر وفرنجة ٠ اما الصفات الشخصية الخلقية فكان بين المؤرخين اختلاف بشأنها ،كما راينا ٠

وهنا لابد من مناقشة هذه الآراء ، جديدها وقديمها ، قبل محاولة تكوين راي بصدد هذا السلطان ٠

لناخذ الناحية العسكرية من جميع وجوهها — من حيث مقدرته الشخصية وكفاءتــه العسكرية وانتصاراته ، واهمية هذه الانتصارات ٠

ويبدو انه لامجال للجدال في كفاءاته العسكرية وشجاعته وانتصاراته ٠ بيد انــه يبقى لنا سؤالان : ماهي اسباب الانتصارات اولا وما هي اهمية هذه الانتصارات ثانيا ؟ لاريب ان انتصاراته تعود بالدرجة الاولى الى مقدرته العسكرية وحسن تنظيم جيوشـــه والى دبلوماسيته من جهة ،والى ضعف خصومه الصليبيين والى تعذر اتفاقهم مع التتر من جهة ثانية ٠ لقد ابدى الظاهر حنكة ودراية في الميدانين العسكري والدبلوماسي ،ولكن ينبغي الا نستهين بالناحية الاخرى ،وهي ان خصوم الظاهر كانوا ضعافا من الناحية العسكرية وضرب الصليبيين قبل ان تصلهم نجدات التتر والاوروبيين ٠

---

١) النعيمي ،الدارس في تاريخ المدارس ،ج١ ،ص٣٥٠ ٠

اما اهمية هذه الانتصارات فكبيرة ولكن ينبغي الا نبالغ فيها . يرى C. H. Becker ان طرد الصليبيين كان اقل اهمية من صد الزحف المغولي . وعنده ان انتصار عين جالوت لم يكن صدفه ، اذ ان المماليك استطاعوا النصر في المعارك التالية مرة بعد مرة (١) . هذا صحيح ويرى مؤرخ ان الحضارة العربية كان مصيرها الزوال لو قدر للتتر ان ينتصروا في عين جالوت (٢) . ويبالغ كذلك جمال الدين سرور في اهمية هذه المعركة التي انقذت "وطننا المحبوب" وحفظت الثقافة التي كانت اساس النهضة المصرية الحديثة (٣) في هذا مبالغة كبيرة . ان معركة عين جالوت كانت هامة ولكنها لم تكن حاسمة . اليس في الانقسامات التترية عبر الفرات سبب هام لهذا النصر المملوكي ؟ الم يكن بعض التتر يشيرون على كتبغا ، قائدهم ، ان لا ينازل قطز وعدة جيشه نحو المئة الف ؟ ثم هل كان دور الظاهر في هذه الحملة التي ادت الى نصر عين جالوت ، اعظم من الدور الذي قام به قطز . كلا ، قد كان قطز منظم الحملة وقائدها ، ولم يكن للظاهر اكثر من دور الجندي المنفذ بمقدرة ومهارة ، خطة القائد الحكيم .

وبعد فهل كان بامكان التتر ان يبقوا في بلاد الشام فيما لو انتصروا في عين جالوت او ان يمتدوا الى مصر ؟ ان جوابي على هذا السؤال هو بالنفي . فبعد ان عاد هولاكو من حلب على اثر وفاة الخاقان الاعظم ، لم يكن بامكانهم البقاء في بلاد الشام . لان عددهم كان قليلا ، نحو العشرين الفا ، ولان انقسامهم وراء الفرات ، حال دون وصول نجدات جديدة واذا تذكرنا ان التتر لم يستطيعوا قبل قرن ونصف من الزمن ان يتوغلوا في بلاد الشام ، كان لنا ان نحكم ان التتر كانوا قد وصلوا الى الحد الاقصى من امتدادهم في بلاد الشام . كان لابد للتتر من التراجع لكن المماليك عجلوا فيه .

---

(١) E of I Art Egypt, VolII ص١٠ — ١١ . (٢) E.Blcohet النهج السديد ص ٣٦٦ . (٣) سرور ص ٧ .

وهنا اود ان اتساءل : الم يكن قدوم التتر هو الذى سهل للمماليك قيام دولتهم ؟ هذا معقول جدا . فلولا انتصار التتر على الخليفة لما كانت مصر الملجأ البعيد المضمون جغرافيا للهاربين من التتر . ثم ان الناصر صلاح الدين يوسف كان في سبيل توحيد بلاد الشام لمقاومة التتر ، لولا اصطدامه بالمماليك وانشغاله بهم عن الخطر الاساسي . ثم ان قطز وعد الناصر بالنجده ولكنه لم يعجل بها .

واما انتصاراته على الصليبيين فكبيرة حقا . ولكنه ينبغي لنا ان لاننسى ان الصليبيين كانوا منقسمين ايضا وانه لم يكن بامكانهم البقاء طويلا في هذه الحال . التتر لا يستطيعون مساعدتهم والاوروبيين لا يقدرون ان ينجدوهم . ان احتلاله انطاكية وحصن الاكراد عمل عسكرى مجيد عجّل في القضاء على الصليبيين بحيث لم يبقوا بعده اكثر من خمسة عشر عاما حين سقطت عكا آخر معقل لهم بيد الاشرف خليل . واذا كان الظاهر فعل اكثر من اضعاف الصليبيين فلماذا لم يستطع ان يحتل عكا وهي اقرب اليه ؟ ولماذا قبل بالصلح مع طرابلس ؟ . لقد كان يعلم ان القضاء على الصليبيين لا يمكن ان يتم دفعة واحدة فينبغي ان تصيب فيهم نقطة الضعف .

ثم اليس يحق لنا ان نساءل قليلا عن حسن تقدير الظاهر لنتائج بعض حملاته العسكرية ؟ اليس يحق لنا ان نتساءل عن الفائدة التي جناها ، او توخاها ، من حملته الاخيرة على آسيا الصغرى ؟ ان فائدة هذه الحملة اقل بكثير من النفقات المالية والضحايا البشرية التي هدرت فيها . اتراه كان يتوخى احتلال آسيا الصغرى ؟ مثل هذا الحلم دليل على سوء تقدير لامكانياته العسكرية . ام تراه كان يدافع عن بلاد الشام ؟ وهنا ايضا ارى ان السلاجقة كانوا اضعف من ان يهددوا بلاد الشام . ام ان الحملة كانت ترتدى طابعا تظاهريا وحسب ؟ هذا مايخيل الي . لقد كان يريد ان يرى خصومه انه يستطيع دخول

عواصمهم غير مبال بالثمن • وقد قال [illegible] انه قام بتسع حملات عسكرية ضد المغول كانت هجوما معاكسا ، الا حملته الاخيرة فقد كانت بدافع منه (١) • حقا لقد كان مستهترا بالارواح البشرية•

وبعد فلماذا يكون النصر على التتر عملا ضخما؟ ان انتصاره على التتر حمى الثقافة العربية• ولكن هل كان الظاهر يعني حماية هذه الثقافة؟ وهل كانت لديه مثل هذه المفاهيم ؟ وليس بوسعي هنا ان اناقش في نوع الثقافة العربية التي ازدهرت بعد انتصاره على التتر• ينبغي لنا مثلا ان نقابل ما فعله ايلخانات فارس للثقافة لنرى ما اذا كان الظاهر بصورة خاصة ، والمماليك بصورة عامة ، كانوا اشد حدبا على الثقافة •

ان المماليك حين حاربوا التتر والصليبيين ، كانوا يعملون للمحافظة على سلطانهم • ومع هذه الرغبة والعمل لتحقيقها ، تحققت بعض المنافع المادية لمصر وحسب•

ولنأخذ الان ناحية ثانية هي الصفات الشخصية الخلقية• قد لا نستطيع ان ننكر ان الظاهر كان قاسيا عسوفا عجولا ، وانه كان غدارا• ثم اننا لن نستطيع ان ننكر انه كان سخيا كريما ايضا ، وانه كان حليما بارا احيانا اخرى• يبدو انه كان يجمع حقا بين المتناقضات ، او انه كان مثالا نموذجيا على حسنات السلاطين المماليك وسيئاتهم • وقد ضخم ابن عبد الظاهر صفاته الحسنة ولم يذكر له عيبا • لكن مؤرخين اخرين ذكروا له الكثير من الصفات الحسنة والصفات السيئة• وهذا طبيعي الا اذا شئنا ان ننسى ان الظاهر انسان اولا • فهو عرضة للتأثر بكل ما يتأثر به انسان في ظروفه • فهو كريم حقا ولكن للذين يناصرونه ، وهو حليم ايضا ولكن على الذين يؤيدونه • اما ما ينسب اليه من

---

١) الموسوعة الاسلامية، الطبعة الجديدة، مادة بيبرس، جاول ص ١١٢٥

ا لغدر والقسوة فليس غدرا ولا قسوة اذا تذكرنا ان الظاهر كان اولا واخيرا يحاول توطيد دولة فهو لن يسمح ببقاء ماقد يضعف مثل هذه الامنية · لقد لاحظ اليونيني ان التهم التي نسبت للمغيث ليست صحيحة ، ولكن المغيث كان ايوبيا قد يدعي الحق بالسلطنة ثم انه لذلك خطر عليه اذا حاول الاستقلال ،كما فعل سنحر الحلبي بدمشق او البرلي بحلب · اذا لابد من القضاء عليه · الم يوص ابنه بضرورة التخلص ممن يقف في سبيل مصلحته ؟ ·

اما من حيث علاقته بعائلته وبالامراء كافراد ،فيبدو لي انه كان لطيفا رقيقا ، حسن الخلق حادبا على ابنائه وعلى امرائه واجناده وابناء الامراء · لقد كان يعنى بهم جميعا لانهم المادة الخام التي ترتكز عليها الدولة ·

ولنتناول ،بعد هذا ،الناحية الادارية · تبين لنا من دراسة النظم الادارية في عهد الظاهر انه اتبع الخطة الطبيعية التي لابد من ان يتبعها كل رجل دولة حكيم · فقد اعتمد الهيكل الاداري الايوبي السابق واضاف عليه بعض التفاصيل الجديدة او حدّد اختصاصات بعض رجال الادارة او غيّر بعض هذه الاختصاصات · ولابد لنا من ان نسجل له مقدرته على مراقبة هذا الجهاز مراقبة دقيقة ، كان حازما نشيطا في ادارته ،سريعا في تنفيذ احكامه ·

واحب الظاهر العمران والبناء حبا عظيما · وقد تناولنا هذه الناحية في فصل سابق ·

لعل الظاهر كان يتشبه بصلاح الدين الايوبي · والواقع هو ان بعض المؤرخين القدامى والحديثين فعلوا ذلك · وقد اشار ابن عبد الظاهر الى الاثنين ثم فضل السلطان على سلفه (١) وقد اشرت عند تقييم الظاهر في فصل سابق الى كثيرين آخرين ممن قابلوا بين الاثنين ·

---

١) ابن عبد الظاهر، ص٤٧ ·

ويرى G.Wiet ان الظاهر اختلف عن صلاح الدين في شيئين : الاول هو الغاء الاقطاعيه · ولم يكن للظاهر سلالة كما كان لصلاح الدين ، فاضعف الاقطاعية · والثاني هو انه كان يقوم بزحوف منظمة على الخصوم ويقيم دفاعا في المكان الذى يحتله بينما كان احتلال صلاح الدين للقدس رعدا بلا مطر (١) وفضلته فاطمة صادق على صلاح الدين في نواحي كثيرة· اما S.Runciman فكان مغايرا لهما في رأيه ·

صحيح انه لم يكن للظاهر سلالة كما كان لصلاح الدين ، ولكنه حاول انشاءها ، ثم ان المماليك الذين احاطوا بالظاهر كانوا اشبه بسلالة صلاح الدين مع فارق هو ان الظاهر كان اشد مراقبة عليهم · اما القول بان فتح القدس كان رعدا بلا مطر فغريب · ولئن صح ان الصليبين انتعشوا بعد موت صلاح الدين واستعادوا القدس بتحالف مع الكامل ، لكن شوكتهم العسكرية كانت قد خضدت ·

انا لا ارى في الظاهر مقلدا لصلاح الدين ولكني ارى فيه سائرا على مخطط سلفه ولو اختلفت وسائلهما باختلاف الظروف والاحوال ·

فما هو الرأى الذى ينبغي ان نخلص اليه بعد هذا بخصوص السلطان الظاهر ؟ حقا لقد جمع الظاهر الصفات الشخصية النبيلة والصفات العسكرية العالية الى جانب الصفات السيئة ، ولكن الناحية السياسية كانت طاغية عليه · لقد كان يود توطيد دولة المماليك دفاعا عن الاسلام ، لذلك حارب الصليبين والتتر بقسوة وعنف لانهم الخصوم السياسيون من غير ان ينظر اليهم على انهم خصوم دينيون او مضرون من الناحية الثقافية · وكان يود توطيد هذه الدولة في سلالته بأى ثمن كان ولذلك لجا الى جميع الوسائل بقطع النظر عن ناحيتها الاخلاقية ·

---

(١) G.Wiet ، مادة بيبرس ، الموسوعة الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، ج ١ ، ص ١١٢٥ ·

ونجح الظاهر لانه كان يتمتع باحساس دبلوماسي عميق وقوة عسكرية لم تعط لغيره آنذاك ٠ انه موطد دولة المماليك وكفى ٠ اما محاربة الصليبيين والتتر ، فقد فرضتها الظروف عليه ،فساعدته عبقريته العسكرية ودرايته الدبلوماسية على القيام بذلك ، من غير ان تكون له يد فيما نتج عن ذلك من منافع او مضار في السياسة او في الثقافة ٠

تاريخ ابن الفـــــــرات

وهـــو

تاريخ الـدول والملـــوك

المجلد السادس ـ الجـــزء الاول

لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات

Submitted in partial fulfillment of the requirements of the Degree of Master of Arts in the History Department of the American University of Beirut

BEIRUT - LEBANON.

1961.

تاريخ ابن الفرات

المجلد السادس ـ الجزء الاول

تحقيق ميخائيل خوري

باشراف الدكتور قسطنطين زريق

توطئـــــة

ينبغي ان اشير هنا بايجاز الى الطريقة التي اتبعتها في تحقيق هذه المخطوطة ·
ولما كانت هذه المخطوطة جزءا من مؤلف متعدد الاجزاء كان الدكتور زريق قد بدأ بتحقيقه ونشره فقد اعتمدت ذات الطريقة التي كان الدكتور قد اعتمدها ، مع تغييرات طفيفة اقتضتها ضرورات الآلة الطابعة · وفيما يلي خطوطها الاساسية (١) :

١) التقيد بالاصل ما امكن ذلك الا في بعض الكلمات حين وفقت بين المحافظة على الاصل وبين طرق الاملاء الحديثة ، كاثبات الهمزة بعد الف المد ، او حيث اسقطت في وسط الكلمات او حيث خففت الى ياء في وسط الافعال ·

٢) وضعت النقاط حيث يهملها المؤلف ــ وهو كثيرا مايفعل ذلك ــ دفعا للالتباس ·

٣) قسمت الكتاب الى فقرات لتسهيل المطالعة · وعند بداية كل سنة سجلت في اعلى الصفحة تاريخ الحوادث التي يرويها المؤلف بالسنة الهجرية وبالسنة الميلادية معا ·

٤) اما الكلمات والعناوين التي ارادها المؤلف مميزة وكتبها بحبر احمر ، فقد وضعت خطا تحتها · ووضعت الكلمات التي زدتها على الاصل ضمن قوسين () · ووضعت علامتي اقتباس "" حول الكلمـات التي لم اتمكـن من تحقيقها او لم استطع التثبت من صحة قراءتها · ووضعت نقاطا ····· مكان الكلمات التي لم استطع قراءتها · وكنت اشير الى ذلك في الهامش ·

---

١) الدكتور زريق ، توطئة الناشر · تاريخ ابن الفرات · مجلد ٩ جا ، سلسلة العلوم الشرقية الحلقة التاسعة ، بيروت ١٩٣٦ ، ص ل ــ ن ·

٥) اعتمدت ارقام صفحات نسخة فيينا وارفقتها ب "و" او "ق" للدلالة على صفحة الوجه (recto) او القفا (Verso).

(او) الرومي وجماعة من البحرية والحلقة فسافروا من القاهرة المحروسة في رابع جمادى الاول من هذه السنة • وكتب الى دمشق بخروج عسكرها صحبة الامير (١) علاء الدين والحاج طيبرس • ورحل عسكر مصر وعسكر الشام من دمشق في عاشر جمادى الاخره من هذه السنة والله اعلم • وفي هذه السنة ولي عز الدين ابن وداعه الوزاره بدمشق • وفيها تسلم السلطان الملك الظاهر قلعة البيرة • وفيها وصل الخبر الى دمشق بأن الخلف وقع بين التتار ببلاد العجم وتفرقت كلمتهم وانتصر بركة قان على هولاكو • وكان ماسنذكره ٠٠٠٠٠ الله تعالى • وفيها في ثالث عشرى المحرم ٠٠٠٠٠٠ الامير عز الدين بيليك الخزندار على بنت بدر الدين (٢) •

ذكر صلح الملك الظاهر مع صاحب الكرك •

كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي لما ملكه الله تعالى قد ترددت بينه وبين الملك المغيث صاحب الكرك عدة رسايل • وكان الملك المغيث قد سير في الباطن الى جماعة من الشهرزورية فاستمالهم اليه وهربوا الى الكرك • وكان الملك الظاهر قد سير عسكرا مقدمه الامير شجاع الدين طغريل الشبلي الى جهة الشوبك فأغاروا على البلاد مرة بعد مرة (٣) •

---

١) في الاصل " للامير " •

٢) الكلام هنا غير مقروء كله وهو على الهامش في الاصل وهذا ماجاء في اليونيني جزأ ١ ص٤٥٢ وج٢ ص١٠٧ : وفيها (سنة ٦٥٩ هـ) في ثالث عشر شوال استدعى (الظاهر بيبرس) اولاد بدر الدين صاحب الموصل وعرفهم مكانة الامير بدر الدين بيليك الخزندار عنده ومحله منه وطلب منهم ان يزوجوه بأختهم فبذلوا جهد الاستطاعة في السمع والطاعة فعقد عقده وملكه بانياس والصبيبة بعد البيع الشرعي وجعل ذلك مكافأة لخدمته له ومصابرته معه في حالتي الشدة والرخاء •

٣) ابن عبد الظاهر (ص٤٨) •

وكتب السلطان يردهم ويصدهم (١) . ثم جرد السلطان الامير جمال الدين المحمدى وتوجه الى الكرك فحاصرها فنزل عليها وضايقها . ثم رحل عنها الى جهة حلب وقال السلطان : والله ما قصدته بسوء حتى ابتدأ به (٢) وسير الى بلادى افسد الشهرزوريه واستعان بهم على فساد البلاد . وشرع السلطان في تجهيز عسكر آخر . فوردت رسل صاحبها الملك المغيث الى الخليفة المستنصر بالله قبل خروجه من الديار المصرية يسأله الشفاعة . فكتب الى السلطان وشفع وعاود فقبل السلطان شفاعته ولم يسيرا احدا . وسير الخليفة رسولا صحبة رسول السلطان. ولما خرج السلطان الملك الظاهر صحبة الخليفة الى جهة الشام كما قدمنا شرحه وردت الرسل من جهته ولم يتقرر حاله . والوافدون من جهته تتواصل واهل البلاد يطلبون رضى السلطان . وكان الملك المغيث قد سير ولده الى هلاكوا (او) ملك التتار . وعاد الى دمشق قبل كسر التتار على عين جالوت . فلما كسرهم الملك المظفر قطز كما سبق ذكره ودخل الى دمشق قبض على الملك العزيز بن الملك المغيث واحضره الى مصر فاعتقل بها . فلما تملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس واتفق ما قدمنا شرحه ضاق الحال على الملك المغيث وقلت حيلته ورأى الامر عليه قد صعب سرح في استعطاف السلطان الملك الظاهر فأبقى عليه الكرك وبلادها واطلق الملك العزيز بن الملك المغيث واقطعه "ديبان" (٣) بمنشور شريف . وحلف السلطان لوالده الملك المغيث . ثم بعد ذلك سير السلطان له سنجقا وشعار السلطنة فقبل عقب السنجق وركب بشعار السلطنة . وكان ما سنذكره ان شاء الله تعالى . واستأمن الشهرزوريه الى السلطان فعفى عنهم وامر بعضهم والله اعلم .

---

١) في ابن عبد الظاهر (ص٤٨) "وعسكر السلطان يردهم ويصدهم"

٢) في الاصل " ابتدى"

٣) كذا في ابن عبد الظاهر ص٤٩ لكنها بغير تنقيط في الاصل .

ذكر تحليف الناس لولد الملك الظاهر بولاية العهد

باشر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي عرض العساكر بنفسه • وحلف الناس لولي العهد الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركه خان • فحلف الناس بآمال منبسطه وطاعة غير مستردة وعهود بالوفا مغتبطه واتم الله نعمته عليه كما اتمها على ابويه من قبل • وسيرت نسخ الايمان الى القلاع فحلف الناس جميعهم والله اعلم •

ذكر وصول الحاكم بأمر الله العباس الى مصر

لما كسر التتار الخليفة المستنصر بالله واصحابه ورجع الحاكم بأمر الله ومن معه كما قدمنا شرحه وصل الحاكم بأمر الله الى دمشق المحروسة ودخلها يوم الاحد ثاني عشرى صفر من هذه السنة • ثم (٢ و) سافر من دمشق الى مصر في يوم الخميس سادس عشرى صفر الشهر المذكور فوصل الى القاهرة المحروسة في السابع والعشرين من شهر ربيع الاول من هذه السنة • واحتفل السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي للقايه وانزله في البرج داخل القلعه بقلعة الجبل المحروسة ورتب له ما يحتاج اليه • وكان ما سنذكره ان شاء الله تعالى •

وقال صاحب "كتاب نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" : في نصف شهر رجب الفرد من هذه السنة وردت جماعة من البغادده مماليك الخليفة الذين كانوا تأخروا في بلاد العراق بعد قتل الخليفة ومقدمهم الامير سيف الدين سلار • فالتقاهم السلطان بالاحسان واعطى الامير سيف الدين سلار خمسين فارسا فى الشام نصف (١) مدينة نابلس • ثم غيره له واعطاه طبلخاناه بمصر • فلما شاهد احسان السلطان كتب الى من تأخر من خشداشيته والى اصحابه من خلفه يعلمهم بالحال كما قال

---

١) لعل المقصود (ونصف)

الله تعالى " يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين " (١)

وكان قد جرى من الامير سيف الدين قليج البغدادى المستنصرى امر اوجب اعتقاله بعد ان كان السلطان اعطاه الاقطاعات العظيمة (له) (٢) ولولده . فلما كان في بعض الايام افتكره السلطان وعلم انه لعظم ذنبه لم يجسر احد من الامراء يشفع عنده فيه وان الاسباب انقطعت عنه فأطلقه بغير شفيع وجعله يلعب معه الكرة وشاهده البغادده الواصلون على هذه الحاله فدعوا للسلطان وشكروا حلمه والله اعلم .

وفي شعبان من هذه السنة وصل الى الابواب الشريفه (٢ ف) الامير سيف الدين الكرزى والقاضي اصيل الدين خواجا امام رسل السلطان الذين كانا توجها الى الانبرور ملك الفرنج وصحبتهما كتابة . وذكرا انه اهتم بهما اهتماما عظيما واحضرهما ساعة الوصول قبل ان يستريحا . وان الانبرور تجمل لهما تجملا عظيما . وعرضت عليه الهدية فأعجبته الزرافة اعجابا عظيما وشاهد التتار المسيرين اليه وقرئ عليه كتاب السلطان وهو يردده ويتفهمه وجهز رسولا وهديه تحضر صحبة رسله فيما بعد . ولما وصل رسل السلطان المذكورون كان في جملتهم نفران من البحريه امر السلطان بتأديبهما لانه بلغه سوء اعتمادهما . وسيرهما الى قلعة الجزيرة بروضه مصر المحروسة يعملان فيها .

ووصل ايضا الى الابواب الشريفه الامير شرف الدين الحاكي والشريف عماد الدين الهاشمي من عند صاحب الروم السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو وصحبتهما الامير ناصر الدين نصر الله بن كرج رسلان امير صاحب والصدر صدر الدين الاخلاطي رسولان منه ومعهما كتابان الى السلطان الملك الظاهر يتنزل فيه تنزلا عظيما .

---

١) سورة يس (٣٦) رقم ٢٥ و ٢٦ .
٢) ابن عبد الظاهر (ص٥٠).

وانه نزل للسلطان عن نصف بلاده • وسير درجا فيها علايم بما يقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمره ويكتب له من جهته منشورا قرين منشور صاحب الروم•

ولما وصل الرسل المذكورون اكرمهم السلطان الملك الظاهر وسكن جاشهم وشرع في تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم • وامر بكتب المناشير وعين الامير ناصر الدين اغلمس السلاح دار الصالحي لتقدمة العسكر وعين له ثلاثماية فارس واقطاعه (٣ و) في الروم • ووصلت تذكره على يد الامير ناصر الدين المذكور ونسختها بالعربية — بمقتضى الوقت والمال حصل من جهة حضرة جلال السلطنة اجلها الله الجناب المحروس الاسفهسلار الاجل الكبير العالم العادل المؤيد المنصور المظفر المجاهد المثاغر المعاون المساعد المفاخر ناصر الدين نصرة الاسلام عدة الملك عمدة الممالك ذخيره الحضره كهف الجيوش قايد العساكر نصرة الغزاة سيد الامراء والحجاب صاحب السيف والقلم عضد الملوك والسلاطين "ساسلع ملكا رمادار حاص سوباشي " سيد الامراء والخواص ملك الحجاب ناصر الدين حاكما مطلقا وسلم اليه المناشير وشرفه (١) بما يليق به • ورسم له بالسنجق والمنديل واليد كجارى العادة • وسير الى خدمه الجناب العالى المولوى الملكي الظاهرى خلد الله سلطانه واقسمنا بالله سبحانه وتعالى وابتدأنا (٢) بو الله والله وبالله وبالله وتالله وتالله وتالله الطالب الغالب الضار النافع المدرك المهلك الحي القيوم الذى ارسل ماية الف نبي اربعة وعشرين الف نبي الى الخلايق كافة وبالحلال والحرام يعني الطلاق انه مهما امر مولانا السلطان الملك الظاهر خلد الله سلطانه بحضور الامير ناصر الدين هو مقرر على ما يتقرر من غير تبديل ولا تغيير على جماعة الامراء وغيرهم لا يتطرق الى ذلك كلام احد ولا يسمع في ذلك قول قايل ولا ينقضه (٣)

---

١) في الاصل "وشرف "
٢) في الاصل "وابتدينا "
٣) في الاصل "ينقصه "

وهذه اليمين يميني وقد حلفت بها مهما ..... (١) من المدن والاقطاعات والملكية وغير ذلك مهما قرر ورسم يكون مقررا على الوجه الذي يؤمر به . ولا يعزل احدا من الجماعة المذكورين وكل من احضر من الديوان العالي المولوى السلطاني الملكي الظاهرى مثالا (٣ ق) او توقيعا بمثل ذلك بعد اليوم وصار البيتان واحدا والمحبة الكلية تؤكد . والله على ما نقول وكيل . كتب في اواخر جمادى الاخرة سنة ستين وستماية"

وكتب السلطان الملك الظاهر للامير ناصر الدين الرسول المذكور منشورا بثلاثماية طواشي واقطعه آمد واعمالها . وتقرر سفره صحبة العسكر وان يتوجه صدر الدين الرسول الاخر صحبة رسل السلطان في البحر الى السلطان عز الدين واعلامه بأن السلطان قد اجاب داعيه ولبى مناديه ووقع الاهتمام في كتب المناشير وتجريد الامراء من حلب والشام .

وفي شهر رجب من هذه السنة ايضا وصل الى الابواب الشريفه الامير عماد الدين بن الامير مظفر الدين صاحب صهيون رسولا من جهة اخيه الامير سيف الدين وصحبته الهدايا الحسنة . فأحسن اليه السلطان . وكتب له منشورا في بلاد حلب بثلاثين فارسا وكتب له منشورا آخر في البلاد الرومية بماية طواشي .

وفي هذا التاريخ وصل كتاب صاحب الروم يذكر فيه ان العدو لما بلغهم اتفاقه مع السلطان خافوا من هيبته فولوا هاربين وانه سير الى قونيه يحاصرها ليأخذ من بها من اصحاب اخيه .

وفي هذا التاريخ وصل كتاب السلطان الى الملك المنصور صاحب حماه وصحبته قصاد وصلوا اليه من التتار وعلى ايديهم فرمان للملك المنصور . فشكر السلطان على ذلك واعتقل القصاد .

---

١) في الاصل بياض بقدر كلمه .

وفي هذا التاريخ وصلت كتب الامير عز الدين الافرم امير جاندار مقدم العسكر المتوجه الى جهة الصعيد للعربان بتبديد شملهم وسبب ذلك طمعهم بتغيير الممالك ونفاقهم وسوء اعتمادهم وتعديهم على الامير عز الدين الحواس (١) والى قوص وقتلهم وانه اراح المسلمين من فسادهم والله لا يحب الفساد •

وفي شعبان (٤ و) من هذه السنة توالى وصول جماعة ممن كان صحبة الامير البرلي من العزيزيه والناصرية فأحسن اليهم السلطان الملك الظاهر ولم يؤاخذ احدا منهم بشيء مما جرى •

وكان الاشكرى سير الى السلطان الملك الظاهر يلتمس منه بطركا للنصارى الملكيين فعين الرشيد الكحال لذلك وسيره اليه صحبة الامير فارس الدين اقوش المسعودى فأكرمه الاشكرى واكرم البطرك واكرم من صحبه من جماعة الاساقفة واعطاه ووصل الامير فارس الدين اقوش المسعودى الذى كان توجه رسولا الى الاشكرى في هذه الايام وصحبته البطرك المذكور • ولما وصل البطرك احضر الى السلطان الملك الظاهر هديه كبيره من جملتها مصوغ من فضة وتماثيل ذهب وما تحصل له من مال • فرد السلطان ذلك عليه • وصادف وصول الامير فارس الدين الى الاشكرى عند فتحه للقسطنطينيه فركب الاشكرى يوما ليفرج الامير فارس الدين المذكور فيها وفي عمايرها ثم عبر على مكان فقال : جامع • وقد ابقيته ليكون ثوابه للسلطان • واذ قد جرى ذكر القسطنطينيه وهذا الجامع فلنذكر يزيد بن معاويه ومسلمة بن عبد الملك وغزوها القسطنطينيه وبناية الجامع •

كان يزيد بن امير المؤمنين معاويه بن ابي سفيان الاموى رضي الله عنهما في سنة احدى وخمسين للهجرة في خلافة والده غزا القسطنطينيه ومعه ابو ايوب الانصارى

---

١) "الهواس" في السلوك للمقريزى ج ١ ص ٤٧١ • وفي الاصل بدون تنقيط •

رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم • فلما حضرته الوفاه وصى

انه يترك تحت ارجل الخيل حتى تدوسه خيل المجاهدين ففعل ذلك • وقيل

انه دفن تحت سورها • والروم الى الان يستسقون المطر اذا انحبس عليهم الغيث

بقبره ويدعون الله تعالى به • ونقل ابن حمدون في (٤ ق) كتابه التذكــره

ان سبب بنايه الجامع بقسطنطينيه ان في سنة ست وتسعين للهجرة وقع الصلح مع

الروم على ان يبنى بها مسجد جامع فبني • ولما طالت مدته جعلوه حبسا • وقال

غيره ان الصلح كان تقرر على ان يبنى مسجد قدر جلد بعير • وتقررت العهــود

على ذلك • فلما استقر الحال عمد المسلمون الى جلد بعير فقدوه سيورا ومدوها •

فانكر الروم ذلك • فقال المسلمون ان هذا جلدا لبعير ما زدنا عليه شيئا وكــان

عليه الاتفاق فسكتوا • وقيل ان بانيه الامير مسلمة بن امير المؤمنين عبد الملك بــن

امير المؤمنين مروان بن الحكم الاموي في ايام اخيه امير المؤمنين الوليد لما غزا القسطنطينيه

كما سبق ذكر ذلك في موضعه من هذا الكتــاب•

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى

بن مروان الايوبي لما صالح ملك قسطنطينيه اراد ان يعمر هذا الجامع ويخطب له

فيه • وسير ابن البزار (١) في هذا السبب فما اجابه الروم ولا مكنوه منه • واخر

الله تعالى ذلك ليكون اجره للسلطان الملك الظاهر وفخره لدولته • فلما رجع

الامير فارس الدين اقوش من عند الاشكرى وبلغه ما قال له الاشكرى في امر جامــع

القسطنطينيه فرح واعجبه كون الله سبحانه وتعالى هيأ هذه الحسنة في ايامــه

وجعل شعار الاسلام في بلاد الكفر بهيبته • وامر لوقته بتجهيز الحصر العبدانــي

والقناديل المذهبة والستورة المرقومه والمباخر والسجادات والمسك وماء الورد والعنبر

---

١) كذا في الاصل • وفي ابن عبد الظاهر (ص٥٤) "البرار" • اشار ابو شامه (كتاب الروضتين جـ٢ ص١٥٩ ــ ١٦٠) لذلك ولم يذكر الاسم • وكذلك فعل ابن شداد في "سيرة صلاح الدين" (ص١١٥ ــ ١١٦) ولكنه لم يذكر الاسم •

والحود • وذكر الله فيه بطريقه وهذا عمل صالح للملك الظاهر مكتوب في صحيفته لان الله تعالى يقول : ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب (ه و) لهم به عمل صالح " (١) والله اعلم •

ذكر نزول عسكر الملك الظاهر على انطاكيه ورجوعهم عنها •

كنا قدمنا ان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ارسل عسكرا الى جهة حلب • ولما استدرت بالبلاد الحلبية صلحت الامور وحفظت الغلات • وكان البرنس صاحب انطاكيه مستمرا على ما هو عليه من التخوف من المهابه السلطانية • فحصل التقدم للعساكر بالاغارة على بلاده فتوجهت العساكر اليها صحبة الامير شمس الدين سنقر الرومي • وكان من جملة من صحبه صاحب حمص وصاحب حماه والامراء كلهم فنازلتها العساكر واخذت المينا واحرقت المراكب • واخذت حواصلها • وحاصرت السويداء واخذتها • وقتلت واسرت وجاهدت احسن جهاد • وعادت ودخلت القاهرة المحروسة في يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ستين هذه السنة صحبة الامير المذكور • وصحبته الاسرا وهم مايتان نيف وخمسون اسيرا • فأحسن السلطان الملك الظاهر الى الامير المذكور مقدم العساكر والامراء • وسير الخلع الى الملكين المذكورين الى بلادهما والله اعلم •

ورأيت بخط صاحبنا الامير صارم الدين ابراهيم بن الامير ناصر الدين محمد بن الامير عز الدين ايد مردقماق في ترجمة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس من كتابه الذى الفه وسماه "الدر المنضد في وفيات اعيان امة محمد صلى الله عليه وسلم" ما صيغته : وفي سنة ستين وستماية رتب السلطان الملك الظاهر في مصر اربع قضاة وجعل لكل قاضي نايب (ه ق) انتهى كلامه والا ظهر ان ذلك كان في سنة ثلاث وستين كما

---

١) سوره التوبة ٩ آية ١١٩ —

سنذكره فيما ان شاء الله تعالى • لكن الذى اتفق وقوعه في هذه السنة ان السلطان الملك الظاهر في ثالث شهر رمضان من هذه السنة عزل قاضي القضاة برهان الدين عبد الوهاب بن بنت الاعز الى قضاء مصر والوجه القبلي مضافا لقضاء القاهرة والوجه البحرى • وكان قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الاعز متشددا في الاوامر الضرورية السلطانية فأوجب الامر السلطاني اليه ان يستنيب عنه في الاحكام مدرسي المدرسة الصالحية النجمية التي بين القصرين داخل القاهرة المحروسة على المذاهب الاربعة ففعل ذلك • وجلس القاضي صدر الدين سليمان الحنفي والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي والقاضي شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي • وذلك في العشر الاواخر من ذى القعدة من سنة ستين هذه السنة • وتم هذا الامر ثم جرى ما سنذكره ان شاء الله تعالى •

قال بعض اهل التاريخ في يوم الاربعاء رابع ذى القعده من هذه السنة قبض الملك الظاهر ركن الدين بيبرس على نايبه بدمشق وهو الامير علاء الدين طيبرس الوزيرى • وكان قد تولى دمشق بعد مسير الامير علاء الدين ايدكين البند قدار عنها • وسبب القبض على علاء الدين طيبرس ان الملك الظاهر بلغه عنه امور كرهها • فأرسل اليه عسكرا مع الامير عز الدين الدمياطي والامير علاء الدين ايدغدى الحاج الركني وغيرهما من الامراء • فلما وصلوا الى دمشق خرج الامير طيبرس لتلقيهم • فقبضوا عليه وارسلوه الى مصر فحبسه الملك الظاهر واستمر في الحبس سنة (٦ و) وشهرا • وكانت مدة ولايته بدمشق سنة وشهرا ايضا • ولما قبض على الامير علاء الدين طيبرس حكم في دمشق الامير علاء الدين ايدغدى الحاج الركني •

وفى ذى الحجه من هذه السنة ظهر بين القصرين بالركن المخلق (١) بالقرب

---

١) في الاصل المحلق ، وقد جاء في الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٤٧ انه قد سمي "الركن المخوق بواو بعد الخاء • • • • الخواء الصحراء التي لا ماء بها ويقال الواسعة واخوق واسع فلعله سمي المخوق بمعنى الاتساع • • • او يكون المخلق • • • اى مستواملس • وسمته العامة بعد ذلك الركن المخلق بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام وفتحها •

من رحبه باب العيد بالقاهرة المحروسة معبد وفيه حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى بن عمران عليه السلام فجددت عمارته وهو الان يعرف بمعبد موسى وهو منزل مبارك وفيه انس كثير وفيه مساكن والله اعلم ٠

ذكر وصول جماعة من التتار الى الباب الشريف ودخولهم في طاعة الملك الظاهر

لم يزل السلطان مهتما بأمر الاعداء ومحترزا من مكايدهم وآخذا بالحزم في امرهم وقصاده لاتنقطع من بغداد وخلاط وغيرهما من بلاد الشرق والعجم ٠ وهو يغرم عليهم الاموال الكثيرة لان من يسافر في هذا المهم ويسخوا بنفسه لابد ان يأخذ مثل ديته ولولا ذلك ماغرر احد بنفسه ٠ فلما ارشد الله السلطان لهذه المصلحة ترددت القصاد وتعرفت بمن يطلعها في البواطن وكاتبهم السلطان وسير اليهم التحف ٠ وسيروا يعرفون ان هلاون خزاه الله جمع جمعا كثيرا ولم يعلم قصده ٠ فاحترز السلطان وسير الكشافة من خواصه وجرد معهم جماعة من الترك الخفاف بالخيول المسومة والجنايب وسير الكشافة جمال الدين الرومي السلحدار من الخواص ومعه خيول منها حجرة من خيل خفاجة سابقة وغيرها من الخيل كل فرس بألف دينار واكثر ثم الامير علاء الدين اقسنقر الناصرى كذلك حتى اخذ السلطان الاخبار ٠ وقبض من وسط التتار ناسا اخذ الاخبار منهم وكانوا مسلمين ،فأطلقهم وكتب الى الشام باردافهم بجماعة ٠ وارسل (٦ ق) امراء العربان معهم فساقوا الى حدود العراق ٠ وفي نصف شهر رمضان من هذه السنة وقع بدمشق ارجاف من جهة التتار وتجهز اكثر الناس للهرب للديار المصرية وباع الامراء حواصلهم وجفل الناس من حمص وحماه ودخلوا الى دمشق وذكروا ان مثل هذا الارجاف حصل ببلاد الفرنج ٠

ولما تواترت الاخبار بحركة هلاون عمل السلطان بالحزم ٠ وتقدم الى اهل دمشق بالحضور الى القاهرة بأثاليهم لتخف ظهورهم وترخص الاسعار ويؤمن نفاق من له ميل الى جهة العدو ٠ فحضرت جماعة كبيرة ٠ وكتب السلطان بتخفيرهم من ولاية الى ولاية الى باب القاهرة وان لا يؤخذ منهم حق ضريبة ولا زكاة ولا غيرها ولا يتعرض الى ما معهم من تجر وقماش ولا تفتش لهم محاير ولا شدات ٠ فوصلوا الى القاهرة سالمين ٠ وكتب الى النواب بحلب بحريق الاعشاب ٠ وسير جماعة الى بلاد آمد ومواضع الاعشاب التي جرت عادة هلاون بنزولها ٠ لما وصل الى حلب وكانت محمية بحريق الاعشاب فتوجهوا واحرقوا تلك المروج مسيرة عشرة ايام الى ان صارت جميعها رمادا ٠ وفعل في احراق اعشاب بلاد خلاط كذلك ٠ وقطع السبيل (١) احترازا ٠ ثم سير كشافة أخر مثل الاولى وصحبتهم العربان ٠ وفي اثناء هذه الحال بلغ الملك الظاهر امور عن الامير علاء الدين طيبرس الوزيري النائب بدمشق انكرها ٠ فسير الامير عز الدين الدمياطي والامير علاء الدين ايدغدي الحاج الركني فقبضوا عليه وارسلوه الى القاهرة ٠ وتسلم الامير علاء الدين المذكور دمشق ينظر فيها الى حين حضور نايب مستقل كما قدمنا شرحه ٠ وسير الامير علاء الدين ايدغدي الحاج الكشافة جماعة بعد جماعة ٠ ثم وصل كتاب الحاج علاء الدين بأن الكشافة وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين الى الباب الشريف لانهم من اصحاب الملك بركه ٠ وكانوا نجده عند هلاون ٠ فلما وقع بينهما كتب الملك بركه اليهم بالحضور اليه وان لم يقدروا على ذلك يتجاوزن الى عسكر الديار المصرية ويذكرون (٧و) ان العداوة قد استحكمت بينهما ٠ وان ولد هلاون قتل في المصاف وان عسكر هولاكو كسره ابن عمه بركه قان وهرب جماعة هولاكو في البلاد وقصدت كل طايفه منهم جهة ٠ وان هولاكو هرب الى قلعة تيملا وهي في وسط بحيرة اذربيجان قد خلبها وقطع عنها الطريق فصار كالمحبوس

---

١) في الاصل " السبل "

فيها ... (١) وانهم فوق المايتي فارس .

فكتب السلطان الى نواب الشام باكرامهم والاقامة لهم . وحمل الخلع اليهم والى نسائهم واحسن الى مقدميهم الاربعة وسير اليهم الاقامات من مصر من الاغنام والسكر والشعير والحوايج خاناه . ووصلوا في يوم الخميس رابع عشرى ذى الحجة من هذه السنة . وخرج السلطان الملك الظاهر للقايهم يوم السبت السادس والعشرين منه . ولم يبق احد من اهل القاهرة ومصر حتى خرج وكان يوما عظيما وراوا من كثرة العساكر وكثرة العالم شيئا بهر عقولهم وكان السلطان قد رسم بعماره ادر ومساكن لهم قريب اللوق . وفي يوم السبت سادس عشرى الشهر المذكور عملت لهم دعوة عظيمة في اللوق وحملت اليهم الخلع وسيبت الخيول وفرقت فيهم الاموال ولعبوا الكرة مع السلطان ثم امر كبراءهم بماية فارس فما دونها وباقيهم نزلهم في جملة بحريته ومماليكه وصار كل منهم كامير مستقل له الاجناد والغلمان واسبغت عليهم النعم ظاهرة وباطنه وافردت لهم جهات يستخرج منها مرتبهم وحسن اسلام جميعهم . وبلغ التتار ذلك فتوافدوا جماعة بعد جماعة والسلطان يعتمد معهم الاحسان ويفرقهم كل جماعة بين اضعافها من المماليك السلطانية .

ثم ان السلطان نظر في مصلحة عامة الاسلام وهي انفاذ رسل الى الملك بركه فسير الفقيه مجد الدين والامير سيف الدين كشريك (٢) ومعهما نفران من التتار الواصلين اصحاب صراعان (٣) وكتب على ايديهم الكتب بأحوال الاسلام ومبايعه الخليفة ماسنذكره ان شاء الله تعالى .

---

١) كلمات غير مقروءة .

٢) في الاصل بدون نقط . ولكنها كشريك في ابن عبد الظاهر (ص ٦) وهي كشريك في السلوك للمقريزى (ص ٤٧٩)

٣) كذا في الاصل ولكنها صراغان في السلوك للمقريزى (ص ٥٠١) .

وفي هذه السنة اخذ قاع بحر النيل المبارك فكان ستة اذرع وسبعه اصابع وانتهت الزيادة الى ثمانية عشر ذراع فقط •

قال بعض اهل التاريخ • وفيها وصل التتار ومقدمهم صدعون (١) وصحبتهم الملك المظفر صاحب ماردين الموصل ونزلوا عليه (٧ ق) وكان في الموصل مع الملك الصالح ركن الدين اسماعيل سبعماية فارس ونصبوا عليها خمسة وعشرين منجنيق ولم يكن بها سلاح يقاتلون به ولاقوت فغلا بها السعر حتى بلغ المكوك اربعة وعشرون دينارا • فاستصرخ الملك الصالح اسماعيل صاحب الموصل الامير شمس الدين البرلي فخرج اليه من حلب وسار الى ان وصل سنجار • فلما اتصل بالتتار وصوله عزموا على الهروب فاتفق وصول الزين الحافظي اليهم من عند هولاكوا فعرفهم ان الجماعة الذين مع البرلي قليلون والمصلحة ان يلاقوهم فقوى عزم التتار على ملاقاة البرلي فسار صدعون (١) بطايفه ممن كانوا على الموصل عدتهم عشره الاف • وقصد سنجار وبها الامير شمس الدين البرلي ومعه تسعماية فارس واربعماية من التركمان ومائة من العرب فخرج اليهم والتقاهم يوم الاحد رابع عشر جمادى الاخره فكانت الكسرة عليه فانهزم جريحا وقتل من كان معه من الامراء وغيرهم • ووصل الى البيره فأرسل اليه هولاكو يطلبه اليه ليقطعه بلاد فأرسل طلب الاذن من الملك الظاهر في دخوله الى الشام فأذن فخرج من البيره في تاسع عشر شهر رمضان • ودخل الى الديار المصرية في العشر الاول من ذى القعدة فأنعم عليه الملك الظاهر بالمال والخلع واعطاه امرة سبعين فارس •

واما صدعون (١) فانه رجع الى الموصل وداوم عليها الحصار • ثم ارسل يقول للملك الصالح ان لم تسلمها والا لاتلوم الا نفسك اذا دخلناها بالسيف فجمع امراء • وشاورهم • فأشاروا عليه بالخروج فخرج اليهم يوم الجمعة خامس عشر شعبان بعد الصلوة • فلما وصل اليهم احتاطوا عليه وعلى من معه ونادوا في اهل البلد بالامان • فظهر الناس

---

١) كذا في الاصل • وهو صندغون في راى الدكتور زيادة في السلوك للمقريزى (ص ٤٦٧) ملحوظة ٤

وشرع التتار في خرب الاسوار • فلما اطمأن الناس وباعوا واشتروا دخل التتار البلد ووضعوا السيف فيهم سبعة ايام • ووسطوا علا الدين ابن الملك الصالح وعلقوه على باب السجن ثم دخلوا وقتلوا الملك الصالح اسماعيل وهم متوجهين الى هولاكوا •

وتولى نيابة حلب بعد البرلي الامير عز الدين ايدمر الشهابي • وعاد عسكر سيس من انطاكيه على الفوعه من بلاد حلب فنهبوا وافسدوا فخرج اليهم الامير عز الدين الشهابي نايب حلب فكسرهم واخذ منهم جماعة وارسلهم الى مصر فوسطوا بها وقيل غير ذلك •

(٨و) ذكر وفاة من توفي من الاعيان في هذه السنة وبعض اخبارهم •

احمد بن الحسين بن الحسن بن ابراهيم بن سنان بن موسى بن حسن بن بشر بن ابراهيم الجذامي الداري الخليلي الاصل المصري يكنى ابا العباس ولد في سنة ثمان وثمانين وخمسماية وتوفي بمصر في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الاخر من هذه السنة سنة ستين وستمايه ودفن بسفح المقطم •

عبد العزيز بن عبد السلام بن ابى القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي يكنى ابا محمد ويلقب عز الدين بن حضر ابا الحسين احمد الموازيني الخشوعي وسمع عبد اللطيف بن اسماعيل الصوفي والقسم بن عساكر وابن طبرزد وحنبل المكبر وابن الحرستاني وغيرهم وخرج له الدمياطي اربعين حديثا عوالى وروى عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد والدمياطي وابو الحسين اليونيني وغيرهم وتفقه على الامام فخر الدين ابن عساكر وقرأ الاصول والعربيه ودرس وافتى وصنف وبرع في المذهب وبلغ رتبه الاجتهاد وقصدته الطلبه من البلاد وتخرج به ايمه وله الفتاوى السديده ومن مصنفاته "القواعد الكبرى والقواعد الصغرى" • واختصر "نهاية المطلب" • وله "مقاصد الرعايه" وكان يكتب خطا حسنا • وكان مع امامته وعلمه ناسكا ورعا امارا بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخاف في الله لومة لايم • ولي خطابة جامع دمشق بعد الدولعي فلما تملك الملك الصالح عماد الدين اسماعيل دمشق واعطى الفرنج

صفد والشقيف نال الشيخ ابن عبد السلام منه على المنبر وترك الدعاء له فعزله عن الخطابة وحبسه ثم اطلقه فنزح الى مصر فلما (٨ ق) قدمها تلقاه الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب الديار المصرية وبالغ في احترامه واتفق موت قاضي القضاة شرف الدين ابن عين الدولة فولى قاضي القضاة بدر الدين السنجاري قضاء القاهرة والوجه البحري وولي عز الدين ابن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلي مع خطابة جامع مصر . ثم ان بعض غلمان وزير الملك الصالح وهو معين الدين الشيخ بنا بنيانا على سطح مسجد بمصر وجعل فيه طبلخاناه معين الدين فأنكر قاضي القضاة عز الدين ذلك ومضى لجماعته وهدم البنيان وعلم ان السلطان والوزير يغضبان فاشهد عليه باسقاط عدالة الوزير وعزل نفسه عن القضاء فعظم ذلك على السلطان الملك الصالح وقيل له اعزله عن الخطابة والا شنع عليك على المنبر كما فعل في دمشق فعزله فأقام بيته يشغل الناس وفيه يقول الشيخ جمال الدين ابو الحسين الجزار ......

سار عبد العزيز في الحكم سيرا لم يسره سوى ابن عبد العزيز

عمنا حكمه بعدل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز

وكان قاضي القضاة عز الدين ابن عبد السلام رحمه الله تعالى مع شدته حسن المحاضرة بالنادرة والشعر . ويقال انه لما حضر بيعة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قال له . يا ركن الدين انا اعرفك مملوك البندقدار فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن رقه الى الملك الصالح نجم الدين ايوب وعتقه . ولد في سنة سبع او ثمان وسبعين وخمسماية . ولما مرض مرض موته قيل له ان السلطان الملك الظاهر يقول لك عين مناصبك لمن تريد من اولادك فقال ما فيهم من يصلح . وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ففوضت اليه بعده . وتوفي في يوم الاحد عاشر (٩ و) جمادى الاول من هذه السنة سنة ستين وشهد الملك الظاهر جنازته والخلايق .

عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسين بن عساكر الدمشقي توفي بمكـــه المشرفة في يوم الاثنين حادى عشر جمادى الاول من هذه السنة •

عمر بن قاضي القضاة نجم الدين ابي الحسن احمد بن هبة الله بن محمد هبـة الله بن احمد بن يحيى بن زهر بن هرون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن ابي جـرادة الحلبي الاصل المصرى الوفاة يلقب كمال الدين ويعرف بابن العديم الفقيه الحنفي المذهب كان واحد عصره اصلا وفضلا وبلاغة ونبلا جليل القدر كثير العلوم والوقار اوحد في الكتابـــة صنف تاريخا لحلب سماه " بغيه الطلب في تاريخ حلب " وله نظم رايق (١) وشعر رايق • وولي الوزارة وكان سفيرا للخلافة المعظمة في الامور المفخمة • وكان من فضيلته وعلو رتبته ومنزلته كثير التواضع يلتقط الناس من فرايده ويقتبسون من فوايده • ارسله الملـــك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي صاحب حلب الى الديوان العزيز ببغداد رسولا مرارا • وكلما قدم الى بغداد طلع موكب الخليفة لتلقيه وحضر الى باب الخلافة لتقبيل العتبـــة على جارى عادة الرسل فخرجت اليه سجادة وامر ان يصلي ركعتين شكرا لما حصل لــه من الرفعة وامر الخليفة برفع ذكره ثم خرج له امر الخليفة : نحن نعظم الرسل لاجل مرسلها ونحن الان نعظم مرسلك لاجلك " • ومـــن شعر الصاحب كمال الدين المذكـــور قوله حين وصل الى الديار المصرية وحمل اليه الشيخ ايدمر مولى محى الدين وزير الجزيرة المسمى (٢) فيما بعد بابراهيم الصوفي ديوان شعره ليطالعه (٩ ى) فتصفحه وطالعه وكتب عليه من نظمــه ••••••

وكنت اظن الترك تختص اعينــا (٣)	لهــم ان رنت بالسحر منها واجفــان
الى ان اتانـــى من بديع قريضهـم	قوافي هي السحر الحلال وديـــوان
فأيقنت ان السحر اجمعــه لهـــم	يقر لهم هاروت فيه وسحبـــــان

١) بغير تنقيط اصلا •
٢) في الاصل " المسمي "
٣) الاصوب " اعـين "

ولـه .....

قلبي وطرفي منـزلاه لانـه قمـر وتلـك منـازل الاقمـار
ياسـاكن الجفـن القريح وليته يرعـى لجارى الدمع حق الجـار

ولـد في العشر الاول من ذى الحجة سنه ثمان وثمانين وخمسماية بحلب وتوفي في العشرين من جمادى الاول من هذه السنة بظاهر مصر ودفن في يومه بسفح المقطم .

محمد بن احمد بن ابراهيم بن سراقه الشاطبي الاندلسي المحذب روى لاحمد بن صابر اولغيره ......

هجرتـم وقلتـم بـراه الضـنى فغيـرتموني وعيـرتمونـي
وجرتـم وقلتـم اقـم او نسـر فحيـرتمونـي وخيـرتمونـي

توفي هذه السنة .

محمد بن سليمان بن ابي الفضل بن ابي الفتوح بن يوسف بن يونس الانصاري الصقلي الاصل الدمشقي وفـاة . يكنى ابا عبد الله الدلال كـان شخصا صالحا راويا للحديث عنه رواية عالية . روى عن ابي الله محمد بن علي بن محمد بن الحسن الحراني وغيره . ولد ليلة الفطر سنة ثلاث وسبعين وخمسماية . وتوفي في صفر سنة ستين هذه السنة بدمشق .

---

٦٦١ هـ (١٥ ت ٢ ١٢٦٢ ـ ٤ ت ٢ ١٢٦٣)

(١٠ و) ذكر الحوادث في سنة احدى وستين وستماية

ذكر البيعة للامام الحاكم بامر الله احمد العباسي ثاني خلفاء بني العباس واول من اقام بها (١) منهم .

كنا قدمنا في السنة الماضية ان عسكر التتار التقوا مع الخليفة المستنصر بالله العباسي وهزموا من معه . وممن نجا من الوقعة الامير احمد بن ابي علي بن علي بن ابي بكر بن امير المؤمنين المسترشد بالله العباسي . فلما وصل الى القاهره التقاه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي واكرمه وقدمه . وانزله في البرج الكبير داخل القلعة بقلعة الجبل المحروسة . وادر عليه النفقات . وكذلك جميع من معه . ثم ان السلطان امر بعمل نسبة الامام احمد المذكور الى النبي صلى الله عليه وسلم وثبت نسبه على قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز .

فلما كان يوم الخميس ثاني شهر الله المحرم من هذه السنة سنة احدى وستين وستماية جلس السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس مجلسا عاما فيه جميع الناس وجماعة التتار الوافدين من العراق ورسل السلطان المتوجهون الى الملك بركه الذين جهزهم ليسافروا اليه كما سنذكره ان شاء الله تعالى . واحضر الامير احمد العباسي راكبا الى الايوان الكبير بقلعة الجبل المحروس وبسط له الى جانب السلطان وقرئ شجرة نسب الخليفة بين يديه على الناس . قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر ماصيغته : حضر الامام الحاكم سلام الله عليه راكبا الى الايوان الكبير بقلعة الجبل

---

(١) يقصد القاهره .

المحروس وبسط له الى جانب السلطان وذلك بعد ثبوت نسبه الشريف وامر السلطان بعمل شجرة نسب له فعملتها وقرأتها بين يديه على الناس " . ورأيت بخط صاحبنا الاميــر صارم الدين محمد ابراهيم الشهير بأبن دقماق ماصيغته : في ثامن محرم عقد مجلس عظيم لعقد البيعة للامام الحاكم بأمر الله فأحضر ابو العباس احمد بن الامير محمد بن الحســن بن ابي بكر بن الحسن بن علي القبي (١) بن الحسن بن امير المؤمنين الراشد باللــه . وقيــل كان ذلك في يوم الخميس تاسع المحرم الشهر المذكور وحضر الصاحب بهاء الديــن وولده فخر الدين وقاضي القضاة تاج الدين واعيان الامراء وارباب الدولة وقرى نســب الخليفة على قاضي القضــاة وشهد به عنده فلما اثبته مد يده فبايعه " . وبعد ذلــك اقبل السلطان الملك الظاهر عليه وبايعه على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد اعداء الله واخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها والوفاء بالعهود واقامة الحدود وما يجب على الايمة فعله في امور الديــن وحراسه (١٠ ق) المسلمين ، وعند ذلــك تلقب بالحاكم بامر الله . واقبل على السلطان وقلده امور البلاد والعباد ووكل اليه تدبير الخلق وجعله قسيمه في القيام بالحق وفوض اليه ساير الامور وعدق به صلاح الجمهور . ثم اخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعته فلم يبق ملك ولا امير ولا وزير ولا قاضي ولا مشير ولا جندى ولا فقيه الا وبايعه . وتمــت هذه البيعة المباركة وحصل الحديث معه في انفاذ الرسل الى الملك بركه فوافق علــى ذلك وانفصــل المجلــس .

---

١) في الاصل غير واضحة . راجع السيوطي "الخلفاء" تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، (ص٤٧٨) .

ولما كان يوم الجمعة ثاني هذا اليوم اجتمع الناس وحضر الرسل الذين جهزهم الملك الظاهر الى الملك بركه وخطب الخليفة بالجامع وصلى بالناس وهذه الخطبة المباركة :

الحمد لله الذى اقام لآل العباس ركنا وظهيرا . وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا احمده على السراء والضراء واستنصره على دفع الاعداء واشهد ان لااله الا الله وحده لاشريك له واشهد ان محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وايمة الاقتداء الاربعة الخلفاء وعلى العباس عمه وكاشف غمه . ابي السادة الخلفاء الراشدين والايمة المهديين (١) وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بأحسان الى يوم الدين . ايها الناس اعلموا ان الامامة فرض من فروض الاسلام والجهاد محتوم على جميع الانام . ولا يقوم علم الجهاد الا باجتماع كلمة العباد منها . ولا سبيت الحرم الا بانتهاك المحارم . ولا سفكت الدماء الا بارتكاب المآثم . فلو شاهدتم اعداء الاسلام حين دخلوا دار السلام واستباحوا الدماء والاموال وقتلوا الرجال والابطال والاطفال . وهتكوا حرم الخليفه والحريم واذاقوا (١١و) من استبقوا العذاب الاليم . فارتفعت الاصوات بالبكاء والعويل وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمايه . وكم طفل بكى فلم يرحم لبكاءه فشمروا عن ساق الاجتهاد في احياء فرض الجهاد واتقوا الله مااستطعتم . واسمعوا واطيعوا وابتغوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . فلم تبق معذرة عن القعود عن اعداء الدين والمحاماة عن المسلمين . وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الاجل العالم العادل المجاهد المرابط ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الامامة عند قلة الانصار .

---

١) " المهذبيين " في ابن عبد الظاهر (ص٦٢) .

وشرد جيوش الكفر بعد ان جاسوا خلال الديار · فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود والدولة العباسية به متكاثرة الجنود · فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة واخلصوا نياتكم تنصروا وقاتلوا اولياء الشيطان تظفروا ولا يروعنكم ماجرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين والدهر يومان والاخرى للمؤمنين جمع الله على التقوى امركم · واعز بالايمان نصركم · واستغفر الله العظيم لي ولكم ولساير المسلمين فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم ·

الخطبة الثانية : الحمد لله حمدا يقوم بشكر نعمايه واشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له عدة عند لقايه · واشهد ان محمدا سيد رسله وانبيايه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه عدد ماخلق في ارضه وسمايه اوصيكم عباد الله بتقوى الله ان احسن ماوعظ به الانسان كلام الملك الديان "يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم · فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله (١١ ق) والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تاويلا (١) نفعنا الله واياكم بكتابه واجزل لنا ولكم من ثوابه وغفر لي ولكم وللمسلمين اجمعين والحمد لله رب العالمين ·

وخطب للخليفة في هذا اليوم على المنابر بجميع الجوامع وبدمشق في سادس عشر المحرم الشهر المذكور ·

وكتب بدعوته الى الافاق وتعلل بذكرها الرفاق وكتب الله للسلطان هذه الحسنة التي يجدها يوم ينفد كل شيء وما عند الله باق والله اعلم ·

---

١) سورة النساء / ٤ آية ٥٨ ·

ذكر ارسال الرسل الى الملك بركه

لما وصلت جماعة التتار الذين وصلوا اولا الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي كما قدمنا شرحه واستطلع منهم الحال وعرف احوال الملك بركه ومقامه والطريق اليه جهز الفقيه مجد الدين والامير سيف الدين كشرتث (١) . وكتب على ايديهم الكتب بأحوال الاسلام ومبايعة الخليفه الحاكم بامر الله عليه السلام . وامر بعمل نسبته الطاهره الى النبي صلى الله عليه وسلم فكتبت واذهبت وسيرها الى الملك بركه وسير ثبوت نسبه مسجولا على قاضي القضاة تاج الدين . ولما تجهزت هذه الكتب احضر الملك الظاهر الامراء والمفارده وغيرهم وقرأ الكتب على الجميع واستشارهم في ذلك فاستصوبوا رأيه . وسير صحبة الرسل نفرين من التتار المذكورين من غلمان الملك واصحابه وممن يعرف البلاد . وكتب على ايديهم كتابا فيه شيء عظيم من الاستمالة والحث على الجهاد ووصف العساكر الاسلامية وكثرتهم وعدة اجناسهم ومن فيها من خيل وتركمان وعشاير اكراد وقبايل عربان ومن اطاعهما من الملوك الاسلامية والفرنجية ومن خالفهما ووافقهما ومن هاداها وهادنها . وان جميعها في طاعته وسامعه لاشارته الى غير ذلك من الانراء بهلاوون خزاه الله وتهوين امره والاستيلاء (٢) عليه وتقبيح (١٢و) الغفلة عنه وافهامها ان كلما يفعله عناد له ويعلم بوصول جماعه التتار الذين وصلوا وادعوا انهم من اصحابه وان الاحسان اليهم انما هو من اجله . ولما جهزهم السلطان وركبهم في "الجرايد" اعطاهم زوادة شهور كثيرة . ولما بويع الخليفه الحاكم بأمر الله بحضورهم وحضروا خطبته المباركة واجتمعوا به حملهم السلطان من المشافهة مافيه

---

١) ملحوظة ٢ (ص١٣) اعلاه .
٢) بدون نقاط اصلا .

صلاح الاسلام وعرف الرسل من التتر اصحابهم التتار احوال عساكر السلطان وكثرتها وما هو بصدده من جهاد واستخدام وما يبذله من نصرة الدين وقتال الاعداء المشركين وانه محب في الملك بركه وداع له بالنصر على الاعداء وموافق له على مافيه صلاح العالم ·

وتوجه الرسل من الديار المصرية في المحرم من هذه السنة سنة احدى وستين ووصلوا بلاد الاشكرى فأحسن اليهم · وصادف وصولهم رسل الملك بركة الى الملك الاشكرى فسيرهم صحبتهم · ورجع الفقيه مجد الدين لمرض حصل له صحبة رسل الملك بركه الامير جلال الدين والشيخ نور الدين علي وسافر الامير سيف الدين كشرتت (١) ورفقته · ووصلت كتب الملك الاشكرى بان رسل السلطان الملك الظاهر وصلوا اليه وانه جهزهم وتوجهوا سالمين وربما وصلوا الى جهة الملك بركة صحبة رسله خدمه للسلطان والله اعلم ·

ذكر تفويض نيابة دمشق الى الامير جمال الدين النجيبي

لما تسلم الامير علاء الدين ادغدى الحاج الركني تدبير دمشق بعد القبض على الامير علاء الدين طيبرس الوزيرى كما قدمنا شرحه اختار السلطان الملك الظاهر الامير جمال الدين اقوش النجيبي الصالحي وعينه لنيابة السلطنة بها · وتقدم الصاحب عز الدين بن عبد العزيز بن وداعة (١٢ ق) وزير الشام · وكان قد جرت بينه وبين الامير علاء الدين طيبرس الوزيرى مفاوضات اوجبت حضوره الى مصر صحبه الركاب الشريف بالعود الى وزارته ومباشرة ماهو معدوق به · وكتب على ايديهما تذكرة تشتمل على كل شيء من الكليات والجزئيات واحوال الحصون وذخايرها يستعين من يتولى من الامور بالنظر فيها والاستمداد منها وفيها من الامور الملوكية والاسباب الدينية واحوال الاموال وعرض الرجال

---

١) راجع ملحوظة ٢ ص ١٣ اعلاه ·

مالو كتب بمفرده لكان كتابا ينتفع به في تدبير الملك . وخلع السلطان الملك الظاهر عليهما واعطاهما [illegible] قطاعات في الشام وتوجها في هذه السنة والله اعلم .

ذكر مسير الملك الظاهر الى جهة الطور ونزوله عليها

في شهر ربيع الاول من هذه السنة سنة احدى وستين وستماية عزم السلطان الملك الظاهر على التوجه الى الشام . فتجهز الناس وخرج من قلعته في سابع شهر ربيع الاول . واقام على باب القاهره مخيما الى حين تجهز الناس . وسافر في حادى عشر الشهر المذكور فوصل الى محروسة غزه وهو يديم الصيد في الطريق . وضرب حلقة بالعريش بثلاثة الاف فارس كلهم خواصه . وكان في هذه الحلقه من الصيد شيء كثير . وتقنطر الامير شمس الدين سنقر الرومي فساق السلطان اليه ونزل عنده وجعل راسه على ركبته واخرج من خريطته موميا فسقاه وسار به الى خيمته . وكذلك الامير سيف الدين قلاون الالفي تقنطر ايضا . فاعتمد السلطان معه هذا الاعتماد .

ووصل الى غزه فوجد فيها والدة الملك المغيث صاحب الكرك . فاقبل عليها واكرمها واحسن اليها وانعم عليها واعطاها شيئا كثيرا وحصل الحديث في حضور ولدها . وتقررت الامور على مالم يعلمه احد . واعاد عليها العطاء والانعام وعلى كل من حضر معها حتى انه حمل في جمله ذلك من الصيد (١٣ و) خمسة عشر حملا وردها الى الكرك ، وتوجه صحبتها الامير شرف الدين الجاكي المهمندار برسم الاقامات وتجهيزها للملك المغيث اذا حضر . وكان ما سنذكره ان شاء الله تعالى .

ونظر السلطان الملك الظاهر في امر امراء التركمان وخلع عليهم واحضر امراء العايد وجرم وثعلبه وضمنهم البلاد والزمهم بالعدد وشرط عليهم البريد واحضار الخيل برسمه . ورأى اعمال الحيله البعيدة المرامي في امر العدو المخذول وكتب الى ملك

شيراز وملك اللور والي حفاجه يستجيشهم على هولاكوا ملك التتار ويعرفهم بما وصلت به الاخبار من جهة الروم في البر والبحر من كسر الملك بركه له مرة بعد مرة ·

وسار من غزة فنزل الطور في ثاني عشر جمادى الاول (١) وسير الملك الاشرف صاحب حمص يلتمس الاذن له في الحضور الى الخدمة فأذن له فحضر في نصف الشهر فتلقاه السلطان واحسن اليه وسير اليه سبعين غزالا جملة واحدة وقال صيد هذا اليوم جعلته لك والله اعلم ·

ذكر احوال الكرك من ابتداء امره الى هذه السنة والقبض على الملك المغيث صاحب الكرك ·

قال القاضي الامام الرئيس الاوحد العالم عز الدين محمد بن علي بن شداد الحلبي في تأليفه " كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة " : ومما هو مستحدث ذكره في كورة الجبال من البلاد الكرك والشوبك، فاما الكرك فهو في عصرنا حصن منيع ومعقل حصين وله ربض عليه سور وهو وربضه على جبل وبين الربض والقلعة خندق عميق نحو ستين ذراعا ويدخل الى فضاء الحصن من حنية منحوتة في الجبل طويله عليها بابه وحراسه · قال ولما لم اجد له ذكرا فيما طالعته من كتب التواريخ الموضوعة في صدر الاسلام ولا في الكتب المصنفة في المسالك والممالك لم ازل (١٣ ق) ابحث عنه الى ان اخبرني ثقة اعتمد عليه انه كان ديرا للنصارى · وكانت العرب تختطف من فيه من الرهبان مقيم فشيد الرهبان بناءه وحصنوه ولم يزل ذلك دأبهم في توسعته وتحصينه الى ان صار حصنا واستدعوا اليه طايفة من الفرنج المجاورين لهم ······ (٢) فيه عندهم يثقوون بهم على من يقصد اذا هم فزاده الفرنج تحصينا واقاموا فيه حاكما ورتبوا له جندا وجعلوا يشنون منه الغارات على ماداناهم من القرى والضياع الى ان اجلوا

---

١) ابن الفرات يستعمل جمادى مونثا هنا على غير عادته ·

٢) كلمة غير مقروءة ·

عنها كثيرا من اهلها واستولوا عليها وصيروها له عملا لتحميه سيوفهم ٠٠٠٠ (١) ايديهم الى ان ملكه البرنس ارناط صاحب انطاكيه وسبب ملكه له انه لما تخلص من اسر السلطان (٢) وراه بن محمود بعد موته تزوج وجد صاحب الكرك بحكم ان زوجها مات فملكه • وكان نور الدين قد قصده في سنة خمس وستين وخمسماية فقصدته الفرنج في جموع كثيرة فرحل عنه ثم قصده مرة اخرى في سنة ثماني وستين وخمسماية وحاصره ثم رحل عنه لسبب ومات ولم يظفر منه بغرض •

ولما ملك السلطان صلاح الدين يوسف قصده في سنة سبع وسبعين وخمسماية قصده عز الدين فرخشاه نايب الملك الناصر صلاح الدين على دمشق والملك العادل من مصر • وسبب ذلك ان البرنس ارناط صاحب الكرك كان من شياطين الانس واشدهم عداوة للمسلمين فجمع عسكرا وعزم على المسير الى ٠٠٠ (٣) ومنها الى المدينة المعظمة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم (٤) ليستولي على تلك البلاد • فسمع الامير عز الدين بذلك فجمع العساكر (٥) الدمشقية وسار الى بلده فنهبها • فلما بلغ ارناط ذلك علم (٦) ان المسلمين لا يعودون

---

١) كلمة غير مقروءة •
٢) كلمة مطموسة •
٣) كلمة غير مفهومة •
٤) في الاصل "وسـ ٠٠٠٠" •
٥) غير ظاهر الا "العـ ٠٠٠٠٠" •
٦) في الاصل "ع ٠٠٠٠٠٠٠" •

الى بلادهم حتى يفرق جموعه ففرقها وانقطع طمعه عما قصده فعاد عز الدين الى دمشق • وغزاه (١٤ و) السلطان صلاح الدين بنفسه في سنة تسع وسبعين وخمسماية فملك ربضه وتسلط على حصاره ونصب عليه المجانيق فلم ينل منه طايلا• ورحل عنه في منتصف شعبان• ثم غزاه في شهر ربيع الاخر سنة ثمانين وخمسماية فنصب المجانيق على ربضه واشتد عليه القتال حتى ملك وبقي الخندق (١) وامر صلاح الدين بالقاء الاحجار في المجانيق ليطمه ولم يجسر احد على الدنو منه لكثرة الرمي بالنشاب واحجار المجانيق فأرسل من فيه الى الفرنج يستنجدونهم (٢) فساروا اليهم •••• (٢) فلما بلغ الملك الناصر رحل عنه وسار الى نابلس فنهبها واخربها وحرقها ثم ان اللعين البرنس طلب الموادعة والمهادنة من السلطان صلاح الدين فأجابه ولم يف وذلك انه •••• (٤) بالسويك قفل من الديار المصرية في حالة المهادنة لينزلوا عنده بالامان فغدر بهم وقتلهم فنذر صلاح الدين نفسه (٥) انه متى ظفر به قتله •

فلما كانت سنة ثلاث وثمانين وستماية (٦) جمع الجموع من الموصل (٧) وديار بكر والجزيرة واربل وبلاد الشرق وبلاد الشام • وسير •• (٨) على الكرك فحصره وضيق عليه ثم بلغه ان الفرنج جمعت لدفعه عن الكرك فرحل وترك عليه اخاه الملك العادل في عسكر والتقى السلطان صلاح الدين بالفرنج على حطين وكانت الوقعة التي اسرت فيها اسرهم وثلث عروشهم وزعزعت اسرتهم • ولم يزل حصن الكرك محاصرا الى ان فتحه الله تعالى في شهر رمضان سنة اربع وثمانين من نايب البرنس ارناط بالامان بعد

---

١) الكلمة في الاصل غير واضحة •
٢) في الاصل بدون نقط •
٣) كلمات غير مفهومة •
٤) كلمة غير واضحة •
٥) كلمة مطموسة •
٦) يجب ان تكون خمسماية •
٧) غير واضحة في الاصل •
٨) غير واضحة في الاصل •

ان حوصر سنة ونصفا • واعطاه لاخيه الملك العادل واخذ منه عسقلان • وكان البرنس قد اخذه الملك الناصر في وقعه حطين اسيرا فوفى بقتله نذره • وكان ذلك على الله يسيرا •

ولم يزل في يد نواب الملك العادل الى سنة خمس عشرة وستماية (١٤ ق) وقبل وفاته بمدة يسيره سامه لولده الملك المعظم عيسى بجميع ما فيه من الخزاين والذخاير فزاد في عمارته وتحصينه ونقل اليه ارباب الصناعات حتى جعله مدينة لا تحتاج الى غيره ونصب في قراه الاشجار واجرى خلالها العيون • ولم يزل في يده الى ان توفي سلخ ذى القعدة سنة اربع وعشرين وستماية • وانتقل الى ولده الملك الناصر داود ولم يزل في يده الى ان خرج عنه ووفد الى حلب مستغيثا بالملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد علي الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر فانــه كان قد سير الى الحصن الامير فخر الدين بن الشيخ فحاصره وضايقه حتى قلــت به الاقوات فخرج عنه لهذا السبب في شهر ربيع الاول سنة سبع واربعين وستمايــة وترك به اولاده وجعل ولاية عهده فيه لولده الملك الامجد فراسله الملك الصالــح وقرر معه انه متى سلم اليه الحصن عوضه عنه خمسين الف دينار واقطاعا بمصر • فاجابه الى ذلك وسير اليه الملك الصالح جمال الدين اقوش النجيبي مملوكه وبعث معه بدر الدين الصوابي وفوض اليه الحكم فيه • وولى كمال الدين ابن شكر النظر فيه وفــي اعماله • وحمل اليه خزانة مقدارها الف دينار ومايتي الف دينار • وولي الربــض لرجل يسمى الهمام • ولم يزل في يده الى ان توفي في سنة سبع واربعين وملــك بعده ولده الملك المعظم • ولما قتل في المحرم سنة ثمان واربعين وستماية وملك دمشق الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب بعث بدر الدين الصوابي الــى قلعة الشوبك من احضر الملك المغيث عمر بن الملك العادل زين الدين ابي بكــر بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل ابي بكر بن نجم الدين ايــوب

في خفية . وكان الملك الصالح نجم الدين ايوب قد حبسه (١٥ و) بها فدخل به الكرك ثالث عشر شهر ربيع الاول سنة ثمان واربعين وستماية واعتقاه . ثم ان رسولا من الملك الناصر صاحب دمشق وصل من دمشق يطلب من بدر الدين تسليم الكرك فأنزله واكرمه وبعث الى من معه في الحصن من سيحفظه . وعرفهم انه لا ينبغي ان يخرج الحصن عن احد من اولاد الملك الكامل فانهم مواليه واريد منكم الموافقة على ما اردت . فأجابوه الى ما اراد . فأمر باحضار الملك المغيث فحضر وحلفهم له وملكه الكرك . ثم استدعى الرسول وقال له هذا صاحب الحصن فتحدث معه . فالتفت اليه وبلغه الرسالة فأجابه بكلام كان قد قرر معه بعد ان قام وقبل الارض مضمونه . اني كنت في الحبس وقد من الله باطلاقي وليس لي ولا لمن بقي من اهلي موضع ينضوون اليه ويستمدون في النفع عليه والسلطان اعز الله نصره اذا اخذ هذا الحصن لا بد له نايب والمملوك نايبه فيه لا اصدر ولا ارد الا عن رأيه ومراسمه . فلم يعارضه الملك الناصر وقبل هذا القول منه وذلك في العشر الاواخر من جمادى الاول . ولما صار في يده من غير منازع له فيه ملك بلد الشوبك . وبقي الحصن في يده الى ان استولت التتار على دمشق في سنة ثمان وخمسين وستماية فانتمى اليهم وسيروا معه نايبا في الحصن . ثم كانت هزيمة التتار على عين جالوت في شهر رمضان من سنة ثمان . وتولى الملك المظفر قطز على بلاد الشام فكاتبه الملك المغيث في ابقايه على ما في يده فأجابه الى ان يبقى معه الكرك لا غير . وحل عنه ما كان الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق اضاف اليه من النواحي وهي الصلت والخليل والبلقاء . ثم قتل الملك المظفر قطز في بقية السنة وملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي (١٥ ظ) البلاد فحمل الملك المغيث الحسد على ان كتب الى التتار عدة كتب ووصلته الاجوبة على يد رسول منهم فخاف ان ينم عليه ذلك فسيره تحت الحوطة الى ابواب السلطان

بالقاهرة · فما زال السلطان يتحيل على الرسول ويبسط امله الى ان اعترف له لما كاتب به الملك المغيث الى هولاكو ملك التتر من حثه على النهوض الى بلاد الشام ثم ردف ذلك بأن كتبه وصلت الى الشهرزورية الذين كانوا تحت حرم السلطان الملك الظاهر بالقاهرة بأفسادهم · فتوجه اليه يعقوب بن بدل واعمامه واهله · ووصلت العرب القصاد الذين قفلوا من عند هولاكو الى السلطان فأوقف السلطان الفقهاء على الكتب واخذ فتاويهم بأن قتاله يتعين ·

وبرز من القاهرة، ووصل الى غزه فوصلت اليه عليها ام الملك المغيث وقيل وجد فيها ام الملك المغيث وفعل ما قدمنا شرحه · وسار الى الطور فنزل عليها يوم الاثنين حادى عشر وقيل ثاني عشر جمادى الاول من سنة احدى وستين وستماية هذه السنة كما قدمنا شرحه وكاتب الملك الظاهر الملك المغيث بالحضور اليه فسوف ووعد بالحضور وصارت رسله تتوالى الى السلطان وهو يعطيهم وينعم عليهم · وخرج الملك المغيث من الكرك بعد مدافعه كثيرة واقام مدة في الطريق · واظهر السلطان من الاحتفال شيئا كبيرا وخدعه اعظم خديعه واتى بيوت الخداع من ابوابها وكتم امره عن كل احد ... ولم يستشر في امره غير نفسه ولم يرض الا قائم السيف صاحبا ·

وقيل نزل الملك المغيث من الكرك وجماعة من اصحابه في خدمته منهم ابن مزهر وكان ناظر خزانة المغيث · قال ابن مزهر · وشرعت البريدية تقبل الى الملك المغيث كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر ويرسل صحبتهم الغزلان ونحوها والملك المغيث يخلع عليهم حتى نفد ماكان بخزانته من الخلع · ومن جملة ماكتب اليه في بعض المكاتبات الملوكية ينشد في قدوم مولانا ·

خليلي هل ابصرتما او سمعتما بأكرم من مولى تمشى الى عبد

فلما وقف الملك المغيث على هذه المكاتبة سار لوقته ·

ولما وصل الملك المغيث الى بيسان وكان ابن مزهر قد حذره من الملك الظاهر فلم يسمع منه ركب الملك الظاهر لتلقيه يوم السبت سابع وقيل سادس عشرى جمادى الاول (١٦ و) من هذه السنة وسار في احسن زي . فالتقى الملك المغيث فلما شاهد الملك المغيث الملك الظاهر ترجل فمنعه الملك الظاهر من ذلك واركبه وساق الى جانب السلطان . ولما وصل الى باب الدهليز ترجل الى الخيمه المتصورة . ودخل به الى خركاه وقبض عليه وعلى اصحابه . وشفى السلطان غيظه .

وكان السلطان الملك الظاهر قد استدعى قبل ذلك قاضي القضاة بدمشق ... (١) واظهر ان ذلك للملك ولمبايعته . ولم يطلع احد على غير ذلك . فلما وقعت الحوطه على الملك المغيث احضر السلطان الملوك والامراء والقاضي والشهود والاجناد ورسل الفرنجيه والملك المغيث واخرج كتبه الى التتار وكتبا من جهة العدو المخذول اليه والفتاوى واحضر القصاد الذين كانوا يسفرون بينه وبين هولاكوا ملك التتار وقال الامير اتابك الملك الظاهر: السلطان يسلم عليكم ويقول ما اخذت الملك المغيث الا بهذا السبب . وقرئت هذه الكتب على الناس فعذره من لم يكن يعرف الباطن في قبضه عليه . وانصرف الملك الاشرف صاحب حمص والجماعة كلهم . وقال السلطان للقاضي ولجماعة العلماء : ما طلبتكم الا بهذا السبب . وكتب مكتوب بصورة الحال وكتب فيه القاضي والجماعة . ثم جهز الملك الاشرف وركب السلطان لوداعه .

وفي اليوم الذي قبض فيه على الملك المغيث جلس الملك الظاهر بعد انقضاء المجلس وامر بالكتب الى الكرك بعد من فيها بالاحسان ويحذرهم عواقب الطغيان وسير الامير بدر الدين بيسرى الشمسي والامير عز الدين الظاهري استاد الدار العاليه الى جهة الكرك وجهز الخلع والاموال ليلحقها بهم . وجهز الملك المغيث عشيه الى الديار المصرية صحبة الامير شمس الدين آقسنقر السلحدار الفارقاني استادالدار فوصل به الى

---

(١) كلمة غير واضحة .

قلعة الجبل بالديار المصرية فحبسه فيها · واطلق السلطان اهله وحاشيته (١٦ ق)
وسير حريمه الى مصر واطلق لهم الرواتب · وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالي ·

ذكر الامور التي اوجبت انحراف الملك الظاهر عن الفرنج
خذلهم الله تعالى وماجرى بينه وبين رسلهم من الخطاب
وانفصالهم عن غير رضى الى عكا ·

كنا قدمنا حديث الصلح مع الفرنج خذلهم الله تعالى · ولما راوا احسان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي شرعوا يحيدون عن الحق ويطلبون زرعين والسلطان يجاوبهم بأنكم اخذتم عوضها في الايام الناصرية ضياع من مرج عيون وقايضتم صاحب تبنين · وصارت كتبهم ترد الى السلطان بان سلوحا سرقونا من جهة الاطرون وتارة من جهة بانياس والسلطان يأمر برد كلامهم · ووصلت كتب نواب الشام يشكون منهم وانهم اعتمدوا امورا تفسخ الهدنة · ولما سار السلطان من الديار المصرية الى الشام كما قدمنا شرحه وصار في وسط بلادهم ورد رسول منهم يهنونه بالسلامة ويقولون ماعرفنا بوصول السلطان فكان الجواب : ان من يريد يتولى امرا ينبغي ان يكون فيه يقظه ومن خفي عنه خروج هذه العساكر وجهل ماعلمته الوحوش في الفلاة والحيتان في المياه من كثرة هذه العساكر التي بيوتكم مافيها موضع الا ويكنس منه التراب الذى اثارته خيل هذه العساكر · ولعل وقع سنابكها قد اصم اسماع من وراء البحر من الفرنج وفي موغان من التتار · اذا كانت هذه العساكر تصل جميعها الى ابواب بيوتكم ولاتدرون فأى شيء تعلمون ؟ " ·

وانفصل الرسول على هذا الحال (١٧ و) ووصلت نواب يافا ونواب ارسوف بهدية اخذت منهم تطمينا وتسكينا لقلوبهم · هذا والسلطان يأمر ان لاينزل احد لهم في زرع ولا يسيب فرس ولا تؤذى لهم ورقة خضراء ولا يتعرض الى شيء من مواشيهم ولا فلاحيهم · ورفق بهم

اتم رفق انتظارا لرجوعهم عن الغي وكانت كتبهم قبل توجه السلطان الى الشام مضمونها طلب فسخ الهدنة والندم عليها • وصارت عند قرب السلطان ترد بأنهم باقون على العهد مستمسكون بأذيال المواثيق • وكان مقدم الاسبتار قد كتب عدة كتب منها جواب عن مشافهة على لسان افريو صاماح كمندور الديوية بقبرس مضمونها : انكم نقضتم العهد بأمور منها ان شرط الهدنة لايحدث (١) بناء • وقد شرع بيت الاستبار في بناء ربض على ارسوف "• فكان جوابهم : اننا لم نبن هذا الربض الا لحماية الصعاليك من متحومة (٢) المسلمين ولامور قد بلغتنا سوف تسمونها يعني اخبار التتار "• فكان الجواب اليه : اما تجديد الربط لحفظ الصعاليك فالبلاد ماتحفظ بالاسوار ولا تحفظ الرعية بالخنادق ولا تحفظ الا بأحد امرين اما بالسيوف والعزايم واما بحسن الجيره وبذل الاحسان وكف الاذى • ومن يخاف من اللصوص لم لايخاف من غيرهم • واما امر التتار فقد علم كل احد انا عندما تحصنتم بالاسوار والخنادق خرجنا الى التتار وما جعلنا حصوننا الا خيولنا ولا خنادقنا الا سيوفنا ولا اسوارنا الا رجالنا "•

ولم تزل رسلهم تتردد في هذا ومثله الى ان فرغ السلطان من شغله الذى كان في نفسه وهو حديث الملك المغيث • فلما كان اليوم الذى قبض عليه فيه احضر الملك الظاهر بيوت الفرنجية وقال : ماتقولون ؟ قالوا نتمسك بالهدنة التي بيننا • فكان الجواب : لم لاكان هذا قبل حضورنا الى هذا المكان وانفاق الاموال التي لوجرت (١٧ ق) لكانت بحارا ونحن (٣) ما آذينا لكم زرعا ولا غيره • وانتم منعتم الجلب والميره عن العسكر (٤) وسيرتم

---

١) " يجدد "في ابن عبد الظاهر ص٦٨ • (٢) متحرمة، في ابن عبد الظاهر ص٦٨ •
٣) في المقريزى السلوك • ص٤٨٤ ونحن لما حضرنا الى هاهنا ما اذينا لكم زرعا ولا غيره ولانهب لكم مال ولا ماشية ولا اسر لكم اسيرا (٤) في المقريزى، السلوك ص٤٨٥ "وحرمتم خروج شيء من الغلات والاغنام وغير ذلك "•

الينا الى دمشق (١) نسخة يمـين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يميـن (٢) لم تحلفوا عليها وعلمتم انتم نسخة حلفتم عليها وشرط اليمين الاولى تتعلق (٣) بالثانية • وسيرنا الاسارى الى نابلس ومنها الى دمشق وما سيرتم انتم احدا الا كل بيت (٤) يحبس على الآخر (٥) وسيرنا كمال الدين بن شيث رسولا يعلمكم بوصول الاسرى فلم تبعثوا احدا ولم ترحموا اهل ملتكم الاسرى وقد وصلوا الى ابواب بيوتكم • كل ذلك حتى لاتبطل اشغالكم مـن اسرى المسلمين عندكم واموال التجار شرطتم القيام بما اخذتموه (٦) لهم • ثم قلتم ما أخذت من بلادنا وانما قلتم اخذها (٧) في انطرطوس وحمل المال الى خزانة (٨) الديوية والاسرى في بيت الديوية (٩) فان كانت انطرطوس ماهي لكم فالله يحقق ذلك • ثم اننا سيرنا رسلا الى جهة (١٠) الروم وكتبنا اليكم بتسفيرهم في البحر فاشرتم عليهم بالسفر الى قبرس (١١) فاخذوا وقيدوا وضيق عليهم واتلف احدهم على ماذكر (١٢) مع احساننا الى رسلكم (١٣) • وجرت عادة الرسل انها لاتؤذى وما زالت الحـروب

---

١) هي " بدمشق " في المقريزى، السلوك ص٤٨٥ ، بدل الى دمشـق •
٢) في المقريزى، السلوك، ص٤٨٥ من عندنا بعد كلمة يميـن •
٣) متعلق، في ابن عبد الظاهر ص٦٩ •
٤) في المقريزى، السلوك، ص٤٨٥ ، هي "وكل بيـت" •
٥) بعدها "وما سيرنا الاسرى الا وفاء بالعهد وإقامة الحجة عليكم "المقريزى السلوك ص٤٨٥ •
٦) منها عند المقريزى السلوك ص٤٨٥ •
٧) عند المقريزى السلوك ص٤٨٥ "اخذت في " •
٨) بعدها كلمة بيت عند المقريزى السلوك، ص٤٨٥ •
٩) او الاسرى في بيت الديوية في ابن عبد الظاهر ١ ص٦٨ •
١٠) بلاد السلاجقة في المقريزى، السلوك ص٤٨٥ •
١١) فسافروا بكتابكم وأمانكم، في المقريزى، السلوك ص٤٨٥ •
١٢) فان كان هذا برضاكم فقبيح ان يعتمدوا هذا الاعتماد • هذا في المقريزى السلوك ص٤٨٥ •
١٣) وتجا ركم والوفاء احد اركان الملك "المقريزى السلوك، ص٤٨٥ •

قائمة والرسل تتردد (١) . وان كان هذا بغير رضاكم فهذا (٢) تقصفي حرمتكم (٣) . وهل كانت الملوك (٤) تقي (٥) النفوس (٦) والاموال الا بحفظ (٧) الحرمة وصاحب (٨) قبرس اكثر تعلقاته في عكا والساحل وله عندكم المراكب والتجار (٩) وها (١٠) هو منفرد بنفسه عنده (١١) الديوية وجميع البيوت والنواب مقيمون (١٢) وعنده كند يافا (١٣) فلو كنتم لاتؤثرون ذلك كنتم جميعكم عليه واحتطتم (١٤) على كلما يتعلق به (١٥) وكتبتم الى ملوك الفرنجيه والى الباب (١٦) بما فعله . وكان الواجب على .... (١٧) احرامه .

---

١) وما القدرة على الرسول بشيء يسكن غيظا ، المقريزى، السلوك، ص٤٨٥ .
٢) فانه "في المقريزى، السلوك ص ٤٨٥ .
٣) واذا كان صاحب جزيرة قبرس من اهل ملتكم، يخرق حرمتكم ولا يفي بعهدكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم، فاى حرمة تبقى لكم واى ذمام يوثق به منكم، واى شفاعة تعبل عند المسلمين والفرنجيه المقريزى السلوك ص٤٨٥ ، اما ابن عبد الظاهر ص ٦٩ ، فلم يذكر "قبرس" بعد "حزيرة" ثم لم يذكر مابعد "حرمتكم" .
٤) بعدها الماضية في المقريزى السلوك ص٤٨٥ .
٥) "تقي" في ابن عبد الظاهر ص٦٩ وهي هنا اصح .
٦) بعدها "والرجال "في المقريزى السلوك ص ٤٨٥ .
٧) "لحفظ "في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ وهي هنا اصح .
٨) "وما صاحب جزيرة قبرس ملك عظيم ولا صاحب حصن منيع، ولا قائد جيش كثير، ولا هو خارج عنكم بل " المقريزى، السلوك، ص٤٨٥ — ٤٨٦ .
٩)" والاموال والرسل " المقريزى، السلوك ص٤٨٦ .
١٠) "وما "في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ "وليس "في المقريزى، السلوك ص ٤٨٦ .
١١) "وعنده "المقريزى، السلوك ص ٤٨٦ .
١٢) المقيمون عنده "في ابن عبد الظاهر ص٦٩ والمقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
١٣) بعدها "وغيره "في المقريزى، السلوك، ص٤٨٦ .
١٤) "واحطتم "في المقريزى، السلوك ص٤٨٦ .
١٥) بعدها "واصحابه واسترحتم من هذه الفضيحة "المقريزى، السلوك، ص ٤٨٦ .
١٦) "البابا "في المقريزى، السلوك ص٤٨٦ . راجع ابن عبد الظاهر ص ٦٩ ، ملحوظة ١ .
١٧) كلمة غير واضحة ولكنها "الكاظ "في ابن عبد الظاهر ص٦٩ . اما المقريزى، السلوك ص ٤٨٦ فيقول : واذا قلتم صاحب قبرس لا يسمع منكم ولا يطيعكم، فاذا لم يسمع منكم صاحب قبرس وهو من اهل ملتكم، فمن يسمع منكم ؟ وهل لهذه التقدمة الا الامر والنهي ؟ ولا سيما وانتم تقولون ان اموركم دينية، ومن ردها عصى المعبود، ويغضب عليه المسيح . فكيف لا يعصى المعبود ويغضب المسيح على صاحب قبرس، وقد رد امركم واغرى بكم وقبح قولكم ؟ وكنا لو اشتهينا اخذنا حقنا منه ، وانما الحق عندكم نحن نطلب منكم وانتم تطلبون منه ." .

وقال السلطان : انتم (١) في ايام (٢) الصالح اسماعيل اخذتم صفد والشقيف على انكم تنجدونه على السلطان الشهيد (١٨ و) الملك الصالح (٣) وخرجتم جميعكم في خدمته ونجدته يجري ماجرى من خذلانه وقتلكم واسركم واسر ملوككم ومقدميكم (٤) . وكل احد يتحقق (٥) ماجرى عليكم من ذهاب الارواح والاموال . وانقضت (٦) تلك الدولة وانقضت (٧) ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد . واحسن اليكم فقابلتم ذلك بأنكم (٨) رحتم الى الريد افرانس وساعدتموه واتيتم صحبته الى مصر حتى جرى عليكم (٩) ماجرى من القتل والاسر . فأي مرة وفيتم فيها لمملكة مصر ام اى حركة افلحتم (١٠) ؟ وبالجملة فأنتم اخذتم هذه البلاد من الصالح (١١) اسماعيل لاعانة مملكة الشام واطاعة (١٢) ملكها ونصرته (١٣) وقد صارت مملكة الشام (١٤) وغيرها الـي (١٥) وما انا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم (١٦) . فتردوا (١٧) مـا

---

١) " وانتم " في المقريزى، السلوك ص ٤٨٦ .
٢) " الملك " بعدها ، المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
٣) بعدها " نجم الدين ايوب " المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
٤) " واسر مقدميكم " المقريزى ، السلوك ، ص ٤٨٦ .
٥) " تتحقق " في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ .
٦) قبلها " وقد " المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
٧) ليست في نص المقريزى ، السلوك ، ص ٤٨٦ .
٨) " بأن " المقريزى ، السلوك ، ص ٤٨٦ .
٩) ليست في نص المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
١٠) بعدها " فيها " في ابن عبد الظاهر ص ٧٠ ، والمقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
١١) " الملك الصالح " المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
١٢) " وطاعة " المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
١٣) بعدها " والخروج في خدمته ، وانفاق الاموال في نجدته " المقريزى السلوك ص ٤٨٦ .
١٤) بعدها " بحمد الله " المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
١٥) " لي " ابن عبد الظاهر ، ص ٧٠ المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
١٦) بعدها " ولم يبق لي عدو اخافه " المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
١٧) " فردوا " المقريزى ، السلوك ، ص ٤٨٦ و " فتردون " ابن عبد الظاهر ص ٧٠ .

اخذتموه للاسلام (١) بهذا الطريق وتفكون (٢) اسرى المسلمين جميعهم . وغير ذلك لااقبلــه (٣) .

فلما سمعوا هذه المقالة بهت الذين كفروا وقالوا : نحن لاننقض الهدنة ونطلب (٤) مراحم السلطان في استصحابها واستدامتها (٥) ونحن نزيل شكوى النواب جميعها (٦) ونفك الاســرى " . فقال السلطان : كان هذا قبــل خروجي (٧) في (٨) هذا الشتاء وهذه الامطار ووصول العساكر (٩) وانفصلوا على هذه الصورة وامــر السـلطان انهم لايبيتون في الوطاق .

ذكــر هــدم كنيســة الناصــرة ومســير تجريده الى عكا ورجوعهم وما فعله الملــك الظاهــر في مقامــه بالطــور

لما جرى لرسل الفرنج مع السلطان الملك الظاهر ماقدمنا شرحه رسم بهــدم كنيسة الناصرة وهي اكبر مواطن العبادات التي لهم . ويقولون ان منها خرج ديــن النصرانية . فوجه الامير علاء الدين طيبرس اليها وهدمها الى الارض . فلم يجســر احد من ساير الفرنجية ان يخرج من باب عكا ولا يتكلم بكلمــة (١٨ و) واحــدة .

---

١) " اخذتم للاسلام " في ابن عبد الظاهر ص ٧٠ و "اخذتموه من البلاد "في المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ وليس فيه ، بهذا الطريــق .
٢) وفكوا ، المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
٣) فاني لااقبل غير ذلك ، المقريزى ، السلوك ص ٤٨٦ .
٤) وانما نطلب ، المقريزى ، السلوك ص ٤٨٧ .
٥) في استدامتها ، المقريزى ، السلوك ص ٤٨٧ .
٦) ليس في المقريزى ، وبدلها : النواب ونخرج من جميع الدعاوى " السلوك ص ٤٨٧ .
٧) بعدها ، من مصر ، المقريزى ، السلوك ص ٤٨٧ .
٨) من ، في ابن عبد الظاهر ص ٧٠ .
٩) بعدها الى هنا ، ابن عبد الظاهر ص ٧٠ ، المقريزى ، السلوك ص ٤٨٧ .

ثم جرد الامير بدر الدين الايدمرى وصحبته جماعة فتوجهوا الى جهة عكا وهجموا على ابوابها . ثم توجه الامير المذكور مرة اخرى فأغار على المواشي واستباح منها شيئا كثيرا وحضر بجميع ذلك الى المخيم المنصور .

واستمر جلوس السلطان كل يوم على باب الدهليز وعلى الصفة التي عمرها هناك وكتب اسمه عليها . وهي مبنية بالحجر المنحوت لا يحتجب عن احد . ومن وقف له احضره واخذ قصته وانصفه . وهو لا يشتغل بغير امر ونهي وعطاء وتدبير في امر الكرك وارسال خلع ومال واستجلاب اهلها .

ووصلت رسل دار الدعوة ومعهم الهدايا ووصل ولدا الصاحبين مقدمي الدعوة فأحسن السلطان اليهما وتوجها .

ولم يخل السلطان وقتا من تأمير جماعة في الشام والساحل . ومن جملة من امر الامير علاء الدين ايدكين البندقدار اعطاه اقطاعا جيدا في مصر وطبلخاناه .
وكذلك الامير سيف الدين الكاملي والامير شمس الدين سنقر الخزندار العمادى . امرهما بالشام واعطاهما الطبلخاناه . وكذلك الامير حسام الدين العنتابي امره في بلاد حلب واعطاه طبلخاناه . وكتب للامير جمال الدين ايدغدى العزيزى زيادة جماعة جنده . وخاض في الشام وهي ثلاثون فارسا . ووجد اهل البلاد والاهواء قد عانوا وتسلطوا على الرعية ولزمتهم ديات بذلك مجهولة المصرف وفيهم عيون الفرنج ووجد هم فلاحي البلاد ولا يمكن اتلافهم فقرر عليهم جنايات يقومون بها لبيت المال عن ديات من قتل وليس له وارث وعما نهبوا من مال جهل مالكه فحملت جمل كثيرة من البلاد الساحلية والجبال النابلسية وانكسرت شوكتهم .

ثم جرد الامير بدر الدين الايدمرى وصحبته جماعة فتوجهوا الى جهة عكا وهجموا على ابوابها . ثم توجه الامير المذكور مرة اخرى فأغار على المواشي واستباح منها شيئا كثيرا وحضر بجميع ذلك الى المخيم المنصور .

واستمر جلوس السلطان كل يوم على باب الدهليز وعلى الصفة التي عمرها هناك وكتب اسمه عليها . وهي مبنية بالحجر المنحوت لا يحتجب عن احد . ومن وقف له احضره واخذ قصته وانصفه . وهو لا يشتغل بغير امر ونهي وعطاء وتدبير في امر الكرك وارسال خلع ومال واستجلاب اهلها .

ووصلت رسل دار الدعوة ومعهم الهدايا ووصل ولدا الصاحبين مقدمي الدعوة فأحسن السلطان اليهما وتوجها .

ولم يخل السلطان وقتا من تأمير جماعة في الشام والساحل . ومن جملة من امر الامير علاء الدين ايدكين البندقدار اعطاه اقطاعا جيدا في مصر وطبلخاناه . وكذلك الامير سيف الدين الكاملي والامير شمس الدين سنقر الخزندار العمادى امرهما بالشام واعطاهما الطبلخاناه . وكذلك الامير حسام الدين العنتابي امره في بلاد حلب واعطاه طبلخاناه . وكتب للامير جمال الدين ايدغدى العزيزى زيادة جماعة جنده . وخاض في الشام وهي ثلاثون فارسا . ووجد اهل البلاد والاهواء قد عانوا وتسلطوا على الرعية ولزمتهم ديات بذلك مجهولة المصرف وفيهم عيون الفرنج ووجدهم فلاحي البلاد ولا يمكن اتلافهم فقرر عليهم جنايات يقومون بها لبيت المال عن ديات من قتل وليس له وارث وعما نهبوا من مال جهل مالكه فحملت جمل كثيرة من البلاد الساحلية والجبال النابلسية وانكسرت شوكتهم .

وركب السلطان مرارا الى قبر دحيه الكلبي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٩ و) وزاره وزار في طريقه قبر ابي هريره رضي الله عنهما في يبنا والله اعلم ٠

ذكر مسير السلطان الملك الظاهر الى عكا وقتله للفرنج واسرهم ورجوعه سالما ٠

لما كان ليلة السبت رابع جمادى الاخره من هذه السنة ركب السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي وجرد من كل عشرة فارسا واحدا صحبته واستناب الامير شجاع الدين الشبلي امير مهمندار في الدهليز ٠ وساق من منزله الطور نصف الليل ٠ فلما اصبح وقف قريب عكا في الوادى الذى يقاربها ومنه يشرف عليها ٠ وامر الناس تلبس السلاح ورتب العسكر ٠ ولم يزل سايقا الى ان اطاف بعكا من جهة البر ٠ وسير جماعة الى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصره وللوقت احدث فيه الثقوب ٠ وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة انما هو لكشفها ٠ وكان الفرنج يقولون ان احدا لايجسر ان يقرب منها ولم يزل كذلك الى قريب المغرب والفرنج ينظرون من ابواب المدينة وتل الفضول ٠ ثم رجع الى الدهليز قريب البرج المذكور عند المساء ٠ ولما اصبح ركب وركب الناس في خدمته وساق اليها ٠ وكان الفرنج خذلهم الله قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر في الطريق ٠ ووقف الفرنج صفوفا على التل المذكور ٠ ولما اخذت العساكر اهبة القتال والسلطان نفسه يسوق ميمنة وميسرة ويرتب الناس حتى انه مما يذكر الله سبحانه وتعالى ويأمر الناس به عن التهليل والتكبير ويندب اليه من المطالع شوش من صوته ٠ وللوقت ردمت الخنادق بحوافر الخيل وبأيدى الرجال من غلمان العساكر والفقرا المجاهدين وطلع الناس الى تل الفضول وانهزمت الفرنج الى المدينة (١٩ ق) وحرق الناس ماحول

عكا من الابراج والاسوار وقطعوا الاشجار وحرقوا الثمار . فلا يرى الناس الا دخانا اوعجاجا وسيوفا لامعة واسنة قاطعة ساطعة . وساق العسكر الى ابواب عكا يقتلون ويأسرون . ففي ساعة واحدة قتل جماعة من كنودهم وفرسانهم وخيالتهم واسرت جماعة خيولهم . وخرج اكابرهم وحف بهم البلاء وطمع فيهم الناس وربوهم الخنادق بخيولهم وفيهم جماعة من الديوية والاسبتار . وهرب من بقى من الفرنج الى الابواب من جهة الاسوار وتدلوا لحفظ الابواب ويزعقون بصوت واحد . الباب الباب خوفا من الهجوم عليهم والسلطان واقف على رأس التل مما يلي عنا ينعم ويعد . وحضر اليه رجل اسمه جليس من اصحاب ابن اطلس خان بفارس طعنه ورماه . وقامت الضجة لاجل رميه من الفرنج . فأسره فأعطاه السلطان منديله بأربعين فارسا . وضرب السلطان مشورة من اى جهة يأخذها . وعرف احوالها وحمل الامراء واحد ثم واحد الى الابواب فجرح في ذلك النهار من اعيان الامراء جمال الدين ايدغدى العزيزى في ركبته جرحا خفيفا . ثم حمل الناس حملة واحدة الى ان رموا الفرنج في الخنادق . وهلك جماعة منهم في الابواب . فكان اول ماوقف السلطان ساق الامير على الشهرزورى عند اللقاء اصلح رمحا من يد احد الخيالة اخذه وساق . وكان مما احضر تسعة حصن ببركصطوانات وثنى بعد ذلك عنان فرسه امهالا وسار عايدا الى عسكره المنصور . فخلص واحسن الى من جاهد . وفرق كتب البشاير على من عمل صالحا في ذلك اليوم (٢٠و) ولم يزل منتصبا كذلك الى قريب العصر لايبرح عدته . وساق الى البرج الذى كان النقابون علقوه . فوقف حتى رمى واخرج منه بأمانه اربعة خياله اخوه ونيف وثلاثون راجلا .

ولما خرج الامير جمال الدين ايدغدى العزيزى ساق اليه السلطان وسلم عليه وسير اليه تشريفا من ملابسه الخاص . وبات واصبح راجعا وعبر على بلادهم

وكشفها مكانا مكانا . وعبر على كنيسة الناصرة . وكان فيما قيل قد سير اليها الامير عز الدين الافرم امير جاندار غلقها وخربها وهدمها الى الارض .

ولما رجع السلطان ونزل جلس على المصطبة التي امر ببنيانها قباله الطور واحضر الشموع بالمنجنيقا ونصب عليها خيمة واحضر الصاحب فخر الدين وزير الصحبة وجماعة كتاب الدرج الشريف وهم سبعة : الصاحب فخر الدين ابن لقمان ، والصدر بدر الدين حسن الموصلي ، والصدر كمال الدين احمد بن العجمي ، والصدر فتح الدين ابن القيسراني ، والصدر شهاب الدين احمد بن على بن عبيد الله ، والصدر برهان الدين ، وكتاب الجيش وهم الصاحب فتح الدين ابن سناء الملك ، والشريف الطاهر شرف الاسلام المطرى ، والقاضي جمال الدين الحنفي وبقية كتاب الجيش والسديد مستوفي الصحبة ، و جعل الامير سيف الدين الزيني امير علم جالسا عند ديوان الجيش لكتابة المناشير وتجهيز الطبلخاناه والاتابك بين يدى السلطان . واستدعى من دساراته خمسماية فرس برسم الطبلخاناه وخيول الامراء واحضرت الخلع الكثيرة بين يديه وامر سلاح داريه بان يستريحوا بالنوبة ويحضروا . ولم تزل المثالات والمناشير تكتب وهو يعلم (٢٠ ق) واعطى تلك الليلة الحراس الهنود جملة . وكتب بين يديه تلك الليلة ستة وخمسون منشورا كبارا بخطب وطفر لامراء كبار . والصاحب فخر الدين يعلم وصاحب ديوان الحراس فتح الدين بن سناء الملك حاضر وهو صاحب ديوان الجيوش المنصورة يعلم . والامير بدر الدين الخزندار واقف يعلم والمستوفي ينزل حتى كملت بين يديه واصبح السلطان فذلا بنفسه وجهز الطبلخاناه والسناجق والخيل والخلع الى الامراء وجعل الامير ناصر الدين القيمرى نايب السلطنة بالفتوحات الساحلية .

ذكر رحيل الملك الظاهر من الطور الى بيت المقدس وذكر بعض اخبار بيت المقدس الى ان دخلها الملك الظاهر في هذه السنة وكذلك مدينة الخليل عليه السلام وهما من بلاد جند فلسطين البرية الذى وعدنا بذكرها ٠

لما رجع السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي من عكا وفعل ماقدمنا شرحه رحل من الطور يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الاخره ٠ ثم جرد جماعة صحبته وجماعة الى الصالحية فوجه صحبتهم الامير علاء الدين امير جاندار ٠

قد قدمنا سبب بناية بيت المقدس ومن بناه وكيف خرب ثم اعيد وبعض فضايله وسبب فتحه في زمن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٠ ونذكر هنا لمعه من خبر من ملكه الى ان دخله الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في هذه السنة ٠

قال القاضي عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الحلبي في تأليفه "كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة "ماصيغته : الصفة التي عليها مدينة بيت (٢١ و) المقدس في عصرنا انها على جبل يصعد اليها من كل جانب وهي طويلة في طرفها الغربي باب المحراب ٠ وهذا الباب عليه قبه داود عليه السلام٠ وفي طرفها الشرقي باب الرحمة وهومغلق لايفتح الا في عيد الزيتون ٠ ولها من جهة المحراب باب يسمى باب صهيون ومن الشمال باب يسمى باب الغراب ٠ ومتى دخل الداخل من باب المحراب يسير نحو المشرق في زقاق شارع الى الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامه والمسلمون يسمونها قمامه ٠ وهي من عجائب الدنيا بناء ٠

وقال البلاذرى : قدم ابوعبيده على عمرو بن العاصي وهو ظاهر ايليا في سنة ست عشرة للهجرة فطلب اهلها من ابي عبيده الامان والصلح على مثل ما صولح

عليه اهل مدن الشام من اداء الجزية والخراج على ان يكون متولي العقد لهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه . فكتب ابو عبيده الى عمر رضي الله عنهما بذلك فسار عمر رضي الله عنه حتى نزل الجابية من دمشق ثم صار الى ايليا فانفذ صلح اهلها وكتب لهم بذلك وذلك في سنة سبع عشرة للهجرة . وقد قدمنا ذلك مفصلا .

ولم تزل بعد الفتح في الولاية على ماقررناه في غيرها من البلاد المضافة الى الاجناد . فلما صارت الى المستنصر العبيدى صاحب الديار المصرية خرج الامير اتسز بن لوق التركي فقصد ارض فلسطين فملك الرملة وبين المقدس من نوابه سنة ثلاث وستين واربعماية . فخرج الامير بدر المستنصرى في سنة خمس وستين واربعماية فاستعاد الرملة والقدس وولى فيهما نايبا من جهته ثم عاد الى مصر في سنة ست وستين واربعماية فعاد اتسز الى القدس فملكه في بقية السنة .. ولم يزل في يده الى ان قصد مصر بعسكره فكسر . في شهر (٣١ و) رجب سنة تسع وستين واربعماية وعاد منهزما الى دمشق فجمع وخرج الى القدس . وكان من فيه وثبوا على من عندهم من الاتراك من اصحابه فقتلوا اكثرهم والتجاء (١) من بقي منهم الى محراب داود تحصنوا به واقاموا حتى وصل اتسز الى القدس فراسل اهله في الدخول في الطاعة . فابوا فنازلهم في شعبان . واقام يحاصرهم الى ان فتح له القيم محراب داود فدخل المدينة بالسيف وقتل عامة اهلها . واستمر القتل فيها ثلاثة ايام . ولم يبق منهم الا من استجار بالصخرة والمسجد الاقصى . وبقي بيت المقدس في يده الى ان خرج الامير نصير الدولة الجيوشي فأسترجع القدس وما كان قد استولى عليه اتسز من بلاد فلسطين والاردن . ونزل على دمشق فحاصرها . فكتب الامير اتسز صاحب دمشق الى الامير

---

١) في الأصل " والتجى " .

تاج الدولة صاحب حلب يستنجده · فلما سار اليه رحل الامير نصير الدولة ورجع الى مصر · فلما قتل تاج الدولة اتسز سار الى القدس فملكه فيما ملك وذلك في سنة احدى وسبعين واربعماية · ولم يزل القدس في ايدى نوابه الى ان اقطعه الامير ارتق بن اكست وبقي في يده وبيد ولديه من بعده ايلغازى وسكمان الى ان قصدهما الافضل امير الجيوش شاهنشاه بن امير الجيوش بدر المستنصرى من مصر في عسكر · فنزل عليها في شعبان سنة تسعين واربعماية وحاصرها وضايقها ونصب عليها المجانيق فهدم بها ثلمة من السور واشرف من فيها على الغلب · فبعث سكمان الى الافضل يطلب منه الامان له ولأخيه ايلغازى ولاصحابهما · فأجابهما وتسلم البلد وولى فيه من قبله وذلك في سنة احدى وتسعين واربعماية · وخرج سكمان واخوه الى دمشق ·

وبقي القدس في أيدى (٢٢و) المصريين الى ان قصدها الفرنج في سنة اثنتين وتسعين واربعماية وحاصروها اشد حصار حتى ملكوه في اليوم الثاني من شعبان من السنة عنوة · بعد اعطائهم الامان لمن فيه · فأحرقوا المصاحف واخربوا المساجد وكان ملكهم يومئذ كندفرى · واقام فيه الى ان مات وصار الى جهنم وبئس المصير · وولى اخوه اللعين بغدوين بعده ودام ملكه الى ان اصابه جرح على العرش فمات منه في التاسع من ذى الحجة سنة احدى عشرة وخمسماية · وتولاه بعده القمص بغدوين صاحب الرها بعهد من بغدوين الاول لعنهما الله · فسار اليه وملكه وسكنه وبقي في يده الى ان مات بالفالج بين نابلس والقدس ليلة الاثنين حادى عشرى شهر رمضان سنة خمس وعشرين وخمسماية وملكه بعده بعهد منه زوج ابنته اللعين فلك ابن فلك وبقي في يده الى ان وقع عن فرسه وهو طارد ارنبا في ارض عكا · فغاصت رقبته في صدره وعجل الله بروحه الى النار وذلك في سنة ثمان وثلاثين وخمسماية ·

وولي بعده البلاد اكبر اولاده اللعين بغدوين وبقي حاكما على ماكان بيد ابيه من البلاد الى ان مات في سنة ثمان وخمسين وخمسماية وتولى بعده اخوه " بعمدى "(١) وهلك في سنة ثمانين وخمسماية . وتولى بعده ولد صغير وفوض تدبير دولته للقمومص بن مارذان صاحب طرابلس وكان ابن عمه .

وبقي في يده الى ان قصده السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي . فنصب عليه المحانيق وسلط على سوره النقوب مما يلي وادي جهنم الى ان تسلمه يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسماية كما قدمنا (٢٢ و) شرحه . ولم يزل القدس في يد السلطان صلاح الدين يوسف الى ان اقطع البلاد من اولاده فكان للافضل من دمشق الى العريش خلا الكرك والشوبك . فانهما كانا للملك العادل ابن بكر بن نجم الدين ايوب شادى بن مروان الايوبي . فاقطع الافضل القدس للامير عز الدين جرديك النورى . ثم اخذها العزيز عثمان قطعها علم الدين قيصر سنة تسعين وخمسماية . ثم وقع الاتفاق على ان تبقى فلسطين للملك العزيز والاردن للملك الافضل . فاقطع العزيز القدس لابي الهيجا السمين فعصى عليه في سنة اثنتين وتسعين وخمسماية .

وفيها ملك الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين يوسف صاحب الديار المصرية دمشق وسلمها لعمه العادل ونزل له عن القدس فأسترجعه من ابي الهيجا واقطعه سنقر الكبير . ثم استعاده منه واقطعه ميمون القصرى في سنة اربع وتسعين وخمسماية ومات العزيز في سنة خمس وتسعين وخمسماية .

ولما مات الملك العادل ابي بكر بن ايوب البلاد اقطع دمشق والاردن وفلسطين لولده الملك المعظم عيسى فاستمرت في يده الى ان قصدت الفرنج دمياط واستولوا

---

١) كذا في الاصل والمعروف ان لفلك ولدين احدهما بغدوين الثالث والاخر امالريك الاول .

عليها فاستنجده اخوه الملك الكامل صاحب الديار المصرية • فلما وصل اليه شكى له ما الفرنج عليه من القوة وسأله ان يخرب القدس وكوكب والطور ليعطيها للفرنج عوضا عن دمياط فأسرها في نفسه ووعده فيها بما طاب به قلبه • ولما تضايق بالملك الكامل الامر في حصار دمياط بعث اخاه الملك المعظم الى اخيه الملك الاشرف يستنجده وهو بحران • فأخرب القدس في طريقه وكوكب حتى لا يشفع بهما الفرنج ولا يرغبون فيهما •

وبقي القدس في يده خرابا الى ان توفي في (٦٢٢) سنة اربع وعشرين وستماية • فخرج الملك الكامل الى الشام في شوال سنة خمس وعشرين وستماية فولى في بلاد فلسطين • وكان الانبرطور ملك الفرنج قد وصل الى عكا والملك الكامل بنابلس فكتب اليه الانبرطور اما ان تسلم الى القدس وجميع ما فتحه السلطان صلاح الدين او تلثاني • وترددت الرسل بينهما في ذلك • وكان للملك الكامل غرض في تملك دمشق فجمع الامراء واستشارهم فكل منهم اشار بالعود الى تل العجول خلا الامير سيف الدين ابن ابي زكري فأنه قال : ابن دمشق على ابن اخيك الملك الناصر داود واطلبه واطلب اخاك الملك الاشرف وعسكر حلب وقاتل هذا العدو فأما لنا واما علينا • ولا يقال عن السلطان انه اعطى الفرنج القدس • فامتعض لذلك وقبض عليه وسيره الى مصر فحبسه فيها • وعاد الى تل العجول واستدعى الملك الاشرف من دمشق • وكان قد وصل اليها • ولما غلب على الملك الكامل رغبته في تملك دمشق اذن لتسليم القدس للانبرطور فتسلمه في حادي عشر ربيع الاول سنة ست وعشرين وستماية • واستمر القدس في ايدي الفرنج الى ان توفي الملك الكامل في سنة خمس وثلاثين وستماية •

وملك الملك الجواد بعده دمشق فقابل الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الملك الكامل عن دمشق بسنجار • فوصل الى دمشق ثم خرج منها الى نابلس في سنة

سبع وثلاثين وستماية قاصدا مصر وفيها اخوه الملك العادل فاستولى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل ابي بكر بن ايوب على دمشق وقهر الملك الناصر داود صاحب الكرك على الملك الصالح نجم الدين ايوب بنابلس وحبسه في الكرك . وجمع عسكرا (٢٣ ق) عظيما ونزل به على القدس يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الاول من السنة وكان الفرنج قد عمروا به برجا يعرف ببرج داود وحصنوه . فنصب عليه المجانيق وضايقه الى ان تسلمه يوم الاثنين ثامن جمادى الاخره وملك بيت المقدس وولى فيه من قبله وكتب كتابا بيده ومن انشائه الى الخليفة المستنصر بالله امير المؤمنين نسخته تقدمنا ذكرها .

ولم يزل القدس في يد الناصر داود الى ان اتفق مع الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق والمنصور ابراهيم صاحب حمص على مصالحة الفرنج ليعينوهم على قتال الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب الديار المصرية واعطوهم صفد والشقيف والقدس . فدخل الفرنج القدس ورفعوا الصليب على الصخرة واخرجوا من فيه من المجاورين الى مدينة الخليل عليه السلام .

واستمر القدس في ايدى الفرنج الى ان جاءت الخوارزميه الى الشام في سنة احدى واربعين وستماية باتفاق مع الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب الديار المصرية وهجموا القدس وقتلوا من فيه من الفرنج وطهروا الصخرة من اوساخهم وذلك في سنة اثنتين واربعين وستماية . ثم خرج اليهم من مصر عسكر مقدمه الامير ركن الدين الكنجي فقاتلوا الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص والفرنج على غزه فكسروهم وتبعوهم فانحازت الفرنج الى برج داود فحاصروهم فيه حتى اخذوهم وقتلوهم . وولي في القدس من قبل الملك الصالح نجم الدين ايوب واقطع بلاده الخوارزميه . ومابرحوا في تلك البلاد يدينون

بالعبث والفساد الى ان كسرهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب على حمص القصب من اعمال حمص في (٢٤ و) سنة اربع واربعين وستماية، وبقيت منهم شرذمة رجعت الى القدس وتغلبوا عليه فخرج اليهم عسكر من مصر مقدمه الامير فخر الدين بن الشيخ فأتى على بقيتهم . واستعاد القدس . ثم نزل اليه الملك الناصر داود صاحب الكرك من الكرك واستولى عليه في بقيه سنة اربع واربعين وستماية . ثم استعاده الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر في سنة خمس واربعين وستماية وبقي في يده ويد ولده الملك المعظم تور انشاه من بعده . ثم ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب دمشق والاردن وفلسطين . فلم يزل القدس في يده الى ان صالح الملك المعز ايبك صاحب الديار المصرية ونزل له عنه في سنة احدى وخمسين وستماية . ولما قتل الفارس اقطاي في شعبان سنة اثنتين وخمسين وستماية وخرج من مصر مماليك الملك الصالح نجم الدين ايوب البحرية الى الملك الناصر صاحب دمشق يستنصرونه سير عسكر الى القدس فاستعاده ولما استولى التتار على البلاد دخلوا القدس وقتلوا بـه .... (١) وبقي في ايديهم الى ان كسروا على عين جالوت وصارت البلاد للملك المظفر قطز فلما قتل قطز وصارت البلاد للملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي وسار الى الطور ورحل منه كما قدمنا شرحه .

وفي يوم الجمعه سابع عشر جمادى الاخره وصل الملك الظاهر الى البيت المقدس وزار مواضع الزيارة وطلع على القبة التي على الصخرة من خارجها هو شيخ الحرم وشاهد ما ذكر انه محتاج الى العمارة ورأى ذلك (٢) بنفسه . وطاف ورأى تلك البقاع

---

١) كلمة غير واضحة .
٢) مكررة في الاصل .

الشريفة ثم صلى الجمعة وتصدق ونظر في الاوقاف وتحرير ريعها ومصروفها (٢٤) وكتب بحماية اوقافه وانه مهما طلب من الشام برسم العماير يسير سريعا . ورتب له في كل سنة خمسة الاف درهم برسم مصالح الحرم . ورسم ان يبنى بخارج البلد خان للسبيل . ونقل اليه الباب الذى كان على دهليز القصر الذى يدخل منه الى البيمارستان بالقاهره . وبنى فرنا وطاحونا ووقف عليه وقفا . وتم ذلك في سنة اثنتين وستين السنة الاتية . ونادى الملك الظاهر في القدس بأن احدا لاينزل في زرع بحيث ضرب الاتابك احد مماليكه على شيء يسير من حشيش اطعمه لفرسه وسار السلطان الى جهة الكرك . ولما نزل راجعا في العوجا طارت جارح (١) اخذها الناس باليد وتفاءل السلطان الملك بامساكها وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالى .

قد ذكرنا حال القدس الشريف فلنذكر حال مدينة الخليل عليه السلام . قال ابن حوقل النصيبي مدينة الخليل عليه السلام صغيره كالقرية تعرف بمسجد ابراهيم. وفي مسجدها الذى يقام فيه الجمعة قبر ابراهيم الخليل واسحق ويعقوب بن اسحق بن ابراهيم على سيدنا ونبينا محمد رسول الله وعليهم افضل الصلاة والسلام صفا كل قبر منها باتجاه قبر امرأته والمدينة في وهدة بين جبال كثيفة الاشجار من الزيتون والتين والجميز .

قال القاضي عز الدين محمد بن على بن ابراهيم بن شداد الحلبي في تأليفه " كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة " قرأت في كتاب ابي يعلي حمزه بن اسد التميمي الذى وضعه ذيلا لتاريخ دمشق . قال : وفي هذه

---

١) في الاصل غير منقطة .

السنة يعني سنة ثلاث عشره وخمسماية ورد الخبر من بيت المقدس بظهور قبور الخليل وولديه اسحق يعقوب عليهم السلام وهم مجتمعون في (٢٥ و) مغارة بارض بيت المقدس وكأنهم احياء لم تبل اجسادهم ولا رم لهم عظم . وحكى على بن ابي بكر الهروى السائح : حدثني جماعة من مشايخ الخليل عليه السلام لما كان زمان بغدوين ملك الفرنج انخسف موضع في هذه المغارة فدخل جماعة من الفرنج اليها باذن الملك فوجدوا فيها ابراهيم واسحق ويعقوب وقد بليت اكفانهم . وهم مستندون الى حايط ورؤسهم مكشوفة فجدد الملك اكفانهم ثم سد الموضع وذلك في سنة ثلاث عشره وخمسماية . ولم يزل حكم هذه المدينة في الولايات حكم ماتقدم من بلاد هذا الجند الى ان اخذ الفرنج القدس في سنة اثنتين وتسعين واربعماية . فاستولوا عليها لانها ضمنا وتبعا للقدس . ولم تزل في ايديهم الى ان فتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب عند فتحه القدس الشريف .

ولما ملك السلطان صلاح الدين مدينة الخليل عليه السلام بني القبه والجامع ووقف عليه وقوفا برسم الواردين عليه وهي التي تسمى ضيافة الخليل . ولم تزل في يد من يلي دمشق الى ان مات الملك المعظم صاحب دمشق وخرج الملك الكامل من مصر فولي فيه . ولما سلم دمشق للملك الاشرف اعطى الخليل للملك الناصر داود بن الملك المعظم الى ان استدعى الملك الصالح نجم الدين ايوب الخوارزميه الى الشام واستولوا على القدس بعث الى الخليل واليا من قبله . وجرى الامر فيه على ماجرى في نابلس في تنقلها بين الملك الناصر داود . وبين الملك الصالح نجم الدين ايوب . ثم استبد به الملك الصالح في سنة ثلاث واربعين وستماية . وبقي في يده ويد ولده من بعده الى ان قتل . ولما استولى الملك الناصر يوسف بن (٢٥ ق) الملك العزيز صاحب حلب على دمشق

اعطاه للملك المغيث صاحب الكرم ، ثم استرجعه منه في سنة خمس وخمسين وستماية . ثم تغلب عليه الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن الملك الكامل صاحب الكرك في سنة سبع وخمسين وستماية واسترجعه الملك الناصر في بقية السنة . ولما صار في ايدى التتار في سنة ثمان وخمسين سلموه للملك المغيث فلم يزل في يده الى ان اجلاه (١) منه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس والله اعلم .

ذكر استيلاء الملك الظاهر على الكرك

قد قدمنا احوال الكرك وما كانت عليه ومن وليها الى ان قبض الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي على الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل سيف الدين ابن بكر بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل الكبير سيف الدين ابي بكر بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي صاحب الكرك على منزلة الطور في هذه السنة . ثم رحل الملك الظاهر من الطور الى بيت المقدس وزار كما قدمنا شرحه . ثم رحل من القدس الى جهة الكرك فنزل في يوم الخميس ثالث عشرى جمادى الاخره من هذه السنة سنة احدى وستين وستماية وصحبته العساكر ، واحضرت السلاليم الخشب من جهة الصلت وغيرها . وكان السلطان الملك الظاهر قد استصحب من الديار المصرية جماعة من الحجارين والبناءين والنجارين والصناع على انه يبني الطور . واحضر جماعة من دمشق وغيرها وسيروا الى عين جالوت . واشاع السلطان ان ذلك لبناء جامع . وكان ذلك كله لاجل الكرك . وعزم على الطلوع اليها بنفسه فكتب الى من فيه بتسليمه فخاف اهل (٢٦ و) الكرك فشرطوا عليه واقترحوا . وترددت

---

١) في الاصل " اجلا " .

الرسل بينه وبينهم حتى وقع الاتفاق على ان يؤمر الملك العزيز عثمان ولد الملك المغيث الاكبر على ماية فارس ونزل اولاد الملك المغيث وقاضي المدينة وخطيبها وجماعة من اهلها ومعهم مفاتيح الحصن والمدينة وطلبوا العرض فحلف لهم السلطان على ما طلبوه واعطاهم حتى ارضاهم . وسير الامير عز الدين ايدمر استاد الدار والصاحب فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين لتسلم الحصن فطلعا في ليلة الجمعة رابع عشرى جمادى الاخره الشهر المذكور وقت المغرب وتسلماه قطعة جديده ، وفي بكرة الجمعة دعي للسلطان الملك الظاهر على اسوارها ونصبت صناجق على ابراجها واصبح السلطان مد الخوان وكتب باحضار الرماة . وركب في الساعة الثالثة من نهار الجمعة المذكورة . وطلع الى الحصن المحروس . ودخل اليها ورسم بأن لا يؤذى احد من اهلها . وعفى عما مضى من ذنوب اهل الكرك واساءتهم اليه والى المماليك البحرية في الايام المغيثية . وجلس في القاعة الناصرية وشكر الله على ماوهبه من هذه الموهبة السنيه . وطلب ديوانها وكتاب الانشاء ورتب امر جيشها . وسال عن رجالها فقيل لهم عدة شهور لم يعطوا شيئا . فأعطاهم جامكيه ثلاثة شهور من خزانته . واهتم ببلادها . وعين لها خاصا واطلق جامكيات اهلها وما غير حاله . وزاد الاسفهسلارية والقرا غلامية واعطى اولاد الملك المغيث جميع ماحواه الحصن من مال وقماش واثاث . وكذلك ساير غلمانهم وكذلك جميع الامراء والمفاردة والاجناد لم يتعرض لاحد منهم الى شيء ونزلوا الجميع في ذلك النهار . وصلى السلطان بها الجمعة وخطب الخطيب ودعي للسلطان . ورتب امر الكرك وبلادها ونزل وقت المغرب .

ولما اصبح يوم الاحد سير (٢٦ ق) الى الملك العزيز بن الملك المغيث الخلع والقماش . وكذلك الطواشي بهاء الدين صندل والامير شهاب الدين صعلوت اتابكه احسن اليهما وكتب كتب البشاير . وكتب بحمل الغلات والدخاير والاصناف اليها .

واصبح يوم الاثنين ركب وطلع اليها واحضر ديوان الانشاء وديوان الجيوش وديوان الاستيفاء وديوان الكرك وكتب المناشير لعربانها ومن بها وكانت تزيد على ثلاثماية منشور وفي وقت واحد كتبت الامثله ونزلت وعلم السلطان عليها . وكتب المناشير وعلم عليها وسلمت لاصحابها بعد تحليفهم بين يدى السلطان . كل هذا في بعض يوم وكتبت تواقيع لاحل مناصب دينية وديوانية . واجرى ارزاق الناس على ماكانت عليه وجرد بها جماعة من البحرية والظاهرية . وحلف مقدمي المدينة وكذلك نصاراها حلفهم بالانجيل وقال لاهل الكرك : اعلموا انكم اسأتم الى في الايام الماضية وقد اغتفرت لكم ذلك لكونكم ماكانهتموني ولا خامرتم علي صاحبكم وقد ازددتم بذلك محبة الي فتناسوا الحقود والضغاين ولاتقيموا فتنة فيما بينكم " .

واحضر الامير عبيه وغيره من بني مهدى وبني عتبه وقال : ياعبيه انا كنت بالامس احسن اليك واسامحك بما جرى منك ومن غيرك لاجل الكرك حتى حصلت الان والله مايروح لاحد خيط الا آخذه منك وامسك رقبته عليه . واهل هذه البلاد مايشربوا الامن صهاريج من ماء المطر ومتى يشرب العربان منها وسقوا خيولهم فرغت سريعا فيعطش اهل القرية وتخرب . فرسم بأن احدا من العربان لايشرب ولا يسقي خيله من صهريج . وضمنه خفر البلاد الى الحجاز . وطاف على القلعة والمدينة من خارجها (٢٧ و) وباطنها ورسم بعمارة مايحتاج الى العمارة وشيد الحصن وحصنه وزاد فيه وحفر خندقه واحاطه به ولم يكن قبل ذلك كذلك . وكتب تذكرة بالمهمات وحمل اليه الزرد خاناه التي كانت معه وخزاينه والاغنام والشعير وغيره من ساير الاصناف والقماش والذخير وسبعين الف دينار عينا وماية وخمسين الف درهم نقرة .

وان ذكرنا الكرك فلنذكر شيء من احوال الشوبك الى هذه السنة ورجوع السلطان الملك الظاهر الى القاهرة المحروسة سالما . قال القاضي عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الحلبي في تأليفه "كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة" ماصيغته . انني لم اعثر للشوبك على ذكر في كتاب من كتب التواريخ المصنفة في صدر الاسلام والظاهر ان الحال فيه كالحال في الكرك في بنايه وتملك الفرنج له الى ان فتح في الوقت الذى فتح فيه الكرك بعد حصار سنتين . واقطع مع الكرك للملك العادل سيف الدين ابي بكر بن نجم الدين ايوب بن شاذى بن مروان الايوبي . ولم يزل في يده الى ان اعطاه ولده الملك المعظم صاحب دمشق فحصنه وحسنه ونقل اليه الاشجار من ساير الاقطار حتى صار يضاهي دمشق . ولم يزل في يده الى ان توفي . وانتقلت الى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود صاحب دمشق ولم يزل في يده الى ان سأله اياه الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل ابي بكر في مجلس شراب. فخرج له عنه وبقي في يده الى ان توفي . فقصده الملك الناصر داود صاحب الكرك واستعاده وبقي في يده الى ان قصده الملك الصالح نجم الدين ايوب فاستولى عليه . وبقي في يده ويد ولده الى ان قتل (١) في المحرم سنة ثمان واربعين وستماية . فاستولى الملك المغيث عليه عند استيلائه على الكرك ولم يزل في يده الى ان ملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (٢٧ ق) الديار المصرية فسير اليه عسكرا وتسلمه من نايب الملك المغيث

---

(١) مكتوبة في الهامش ايضا مكررة .

صاحب الكرك في شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسين وستماية كما قدمنا شرحه ٠ فلما كان في هذه السنة واستولى الملك الظاهر على الكرك وفعل ماقدمنا شرحه استناب بالكرك الامير عز الدين ايدمر مملوكة واستاد داره وكتب له تقليد بذلك ٠ واضاف اليه النظر على الشوبك واعمالها واعطاه ثلاثين الف درهم وجمله من القماش ٠ ونزل من الكرك الى المخيم ٠ ثم اصبح وطلع اليها ثم رجع منها الى مصر ومعه اولاد الملك المغيث وحريمه فلما وصل الى مصر امر ولد الملك المغيث العزيز عثمان وانزله في دار القطبيه بين القصرين ٠

٠ قال صاحب " كتاب نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك " حاكيا عن جده القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيره الملك الظاهر ، قال : وفي يوم الاربعاء تاسع عشرى جمادى الاخره توجه الملك الظاهر من الكرك مسافرا الى القاهرة المحروسة فدخلها في سابع عشر شهر رجب الفرد من سنة احدى وستين هذه السنة ٠ وزينت المدينة احسن زينه وشق السلطان المدينة وفرش له القماش الاطلس والعتابي والنسيج وخلع على الامراء والمفاردة والمقدمين وجميع حاشيته وغلمانه والمملوك كاتب السيرة . وكانت هذه السفرة من اعظم السفرات المسفرات عن السعادة المضاعفة والنعمة المترادفة ولم يسمع ان ملكا ساق في هذه الجيوش العظيمة الى ابواب عكا وطعن في اسوارها وهدم وحرق واخذ مثل الكرك ودبر امورها وملك البلاد الساحلية واستخدم عليها الوفا من العساكر واستجدهم جيشا عظيما للاسلام في مدة قريبة ٠ وهي من يوم خروجه من مصر الى يوم دخوله اليها خمسة وتسعون يوما وكيف لا والسعد تربنه ولطف الله يعينه والله اعلم ٠

ذكر السبب في قبض الملك الظاهر على بعض امرايه

(٢٨ و) ولما فوض الله عز وجل الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي السلطنة كما قدمنا شرحه فوض امر المملكة للامير سيف الدين الرشيدى

في كل شيء وانفذ كلمته · واطلق له في جمعة خواتين من عنده بمدان له حتى مـــاء الورد الى غير ذلك ورتب في كل شهر كلوتتين زركشا كل كلوته بخمسين دينار عينـــا وكلبندها بأربعين دينارا · وكل هذه زيادة على الاقطاعات العظيمة والمرتبات الكثيرة وعلى الانعام حتى جامكيات البرد دارية والفهادين وعليق خيلهم · واشتغل الرشيدى بالشرب وحمى حاشيته اشياء كثيره من البلاد وصارت تصدر منه امور لاتسر السـلطان الملك الظاهر يكاسر عنها ·

واما الامير عز الدين الدمياطي فان الملك الظاهر اعطاه وزاده ومن جملة ماكان بيده نصف مدينة غزه زيادة · ورأه انه رجل كبير لايتقدم احد عليه · وكتب له توقيعا انه اذا سافر في جميع المملكة لايمنع شيئا يطلبه في الشام من غزه الـى الفرات ·

واما الامير البرلي فقد قدمنا ماكان من امره بحلب وغيره وكيف احسن الملك الظاهر اليه وعفا عنه وامنه ووصل الى خدمته وما فعله معه · ولما سـافر السلطان الملك الظاهر الى جهة الطور في هذه السنة كما قدمنا شرحه احسن الى هؤلاء الامراء احسانا كثيرا · وبلغ السلطان ان نية الرشيدى قد فسدت وتغيـرت فجعل عليه عيونا تحفظ كلما يجرى منه · ولما جرى ماجرى من طلب السلطان الملك المغيث صاحب الكرك كما قدمنا شرحه وصل رسوله الامير اسد الدين سادلوه استاد داره الى السلطان يقول ان كتابا من الرشيدى (٢٨ ق) مع قاصد حضر الى عنـدى يقول لاتحضر الى السلطان فانه يريد ان يقبض عليك · وقد قبضت القاصد · فكـان جواب السلطان ان كان الملك المغيث حلف للرشيدى فلا يحضر وان كان حلف لي فيحضر · ولم يظهر السلطان للرشيدى شيئا من ذلك · وسير السلطان الامير

بدر الدين بيسرى الى جهة الكرك فسير الامير بدر الدين المذكور الى السلطان يقول انني امسكت كتابا من الرشيدى الى الكرك يقول لاتسلموا الكرك ويحسن لهم التوقف عن التسليم ويعرض عليهم الاتفاق معهم على انه يحضر اليهم هو يتسلمها ويحفظها لهم ويكون هو عونا لهم ويتفق معهم على افساد الحال كله · فكتم السلطان هذا كله وامر الامير بدر الدين بيسرى بالاحتراز التام والتحفظ ·

ولما توجه السلطان الى الكرك كما قدمنا شرحه جعل على الرشيدى عيونا فبلغ السلطان انه لما نزل الكذريس ونعرين طلب انه يركب في مماليكه واصحابه ويسبق الى الكرك يدخلها هجما · فركب السلطان اليه ونزل عنده ولاطفه ومازحه وما اظهر له شيئا من ذلك وركب السلطان وركب الرشيدى ففات الرشيدى ما قصده وجرد السلطان الامير بدر الدين الايدمرى ومعه جماعة كبيرةوامرهم بالتقدم لحفظ الطرقات على الرشيدى لئلا يسبق الى الكرك وجهز صحبة بدر الدين الايدمرى المذكور دهليزا مخلعا على البغال حتى يظهر للناس مايخفي افعالهم ويقضي بسكون النفوس · وسار الامير بدر الدين وحفظ على الرشيدى الطرقات ونزل (٢٩ و) السلطان بركة زيزا فبلغه ان الرشيدى عازم على شيء من ذلك وانه ربما يركب ويسوق الى الكرك فعمل السلطان معه خديعة حسنة · وذلك انه سير اليه احد خواصه يبشره بأن الكرك قد تسلمت · فلما سمع الرشيدى ذلك اظهر فرحا وخلع على المبشر ووقف عن فعله وبطلت حركاته · وساق السلطان الى الكرك واتفق ماقدره الله تعالى من فتوحها كما قدمنا وترتيب قواعدها والسلطان لايزيد الرشيدى الا الاحسان والتقريب · ولما وصلت الخيل من جهة العربان تقادم طلب منه فسير له خيلا من اجودها ·

ونـزل السلطان غزه راجعا فقام ليسبغ الوضوء على عادته · وتفرقت الخاصكيه للوضوء والتهيىء لصلاة الجماعة على العادة · وقام السلطان يركع قبل الاذان واذا بالرشيدى قد اقبل في مقدار ثلاثماية فارس مستعدة من مماليكه والامير الدمياطـي والامير البرلي · فما احتفل السلطان بهم ولا قطع صلاته · وسلم ولبس سـيفه · ولم يجد احدا حاضرا الا الامير شمس الدين سنقر الرومي · فقال له السـلطان : ما الذى رأيت ؟ قـال : جماعة ما جاءوا في خيـر · وبعد هذا حضر الامير سيف الدين قلاوون الالفي بغير سيف الا في وسطه تركاشه لاجل الصيد فأنكر السلطان ذلك منـه · ففهم وراح وشد سيفه وركب فرسا جيدا ووقف · وتراجعت الخاصكيـه والجماعة · وركب السلطان فأتى الرشيدى فوقف قريبا من السلطان في مكان ماجرت عادته بالوقوف فيه · فحضر الامير عز الدين اوغان الركني ، فقال للرشيدى : اراك في هذا المكان ، ماهذا مكانك ياسيف الدين · واظهر انه في مزح · وما زال به حتى ساق من ذلك المكان وسـاق (١) (٢٩ ق) الدمياطي والبرلي وتفرقوا ·

وكانت جرت من الدمياطي قضية اخرى وهي ان السلطان لما ملك الكرك ونزل اولاد الملك المغيث اعطاهم السلطان خلعا واقمشة وانعاما كثيرة وانزلهم في المنظرة التي في الوادى تحت الكرك قريبا من منزله السلطان · فسير لهم الدمياطي ضوءا وجماعة يبيتون من حولهم بغير مرسوم الا ابتداء بنفسه · ثم حضر في الليل اليهم جماعـة من مماليكه بالسيوف ملثمين فكسروا الصناديق واخذوا القماش الذى كان السـلطان اعطاهم اعتقادا منهم ان تقوم فتنة في الليل وشوشه في العسكر ولا يعلم احد انهم مماليك الدمياطي · واذا عوقب الدمياطي في ذلك قال انا سيرت حتى يحفظوهم وسيرت

---

(١) مكـررة في الاصل في اول ص ٢٩ ق ايضـا ·

الضوء فكشف الله ذلك وظهر القماش عند مماليكه الخواص · فأطلع السلطان على القضية فتحدث معه الامير شجاع الدين المهمندار فما سلمهم الدمياطي ولا انصف منهم · وقال : انا اغرم عنهم ماعدم · واحضر بعض القماش وقرر ان يقوم بدراهم عن بقية ذلك · والسلطان ساكت لايتكلم بكلمة الا يحتمل هذا ويحترز على نفسه الى ان وصل الى الديار المصرية ودخل قلعته سالما واستقر بها · واصبح وطلب الامير الرشيدى · فاعتقله وطلع الامراء الى الخدمة في اليوم التالي فقبض على الامير الدمياطي والامير البرلي وحسم هذه المادة · واحسن الى مماليكهم وخواصهم واقرهم على اخبازهم · ولم يغير على احد منهم شيئا · ولا تعرض الى بيوت الامراء · وزاد الامراء الناصحين له على اقطاعاتهم وامر من يستحق الامره والله اعلم ·

ذكر وصول رسول الملك بركه

لما وصل السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قريبا من غزه وهو راجع من الكرك ووصل اليه البريد من الامير عز الدين الحلي نائب السلطنة بالديار المصرية يذكر وصول الكتب من الاسكندرية بوصول رسول الملك بركه · وهم الامير جلا الدين ابن القاضي ، والشيخ نور الدين ومعهما جماعة · ويخبر بوصول رسل الملك الاشكرى ووصول مقدم الجنوية ورسل السلطان عز الدين صاحب الروم · فكتب السلطان بالاحسان اليهم جميعهم ولما استقر السلطان في قلعته اجتمع بهم بحضور الامراء والناس وقرا كتبه التي (١) على يد الشيخ نور الدين ومضمونها السلام والشكر وطلب الاتحاد على هلاوون والاعلام بما هو عليه من مخالقة سنكر خان

---

(١) " في الاصل " الذى " ·

وشريعة اهله · وان كلما فعله من تلاف (١) النفوس بطريق العدوان منه · وانني قد قمت انا واخوتي الاربعة بحربه من سائر الجهات لاقامة منار الاسلام واعادة مواطن الهدى الى ماكانت عليه من العمارة وذكر الله والاذان والقرآن والصلاة واخذ ثار الايمة والامة · ويلتمس انفاذ جماعة من العسكر الى جهة الفرات لامساك الطريق على هلاوون · ويوصي على السلطان عز الدين صاحب الروم ويستمد مساعدته · وانفصل هذا · وحمل الى الرسل من الانعام مالا يحصى ورسم بتجهيز الهدية الى الملك بركه من كل شيء على اختلافه يعمل لهم في اللوق دعوة واستمر تفقدهما في كل يومي سبت وثلاثاء يوما لعب الكره بأصناف الانعام (٣٠ ق) والاقمشة وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالى ·

ووصل ولد الملك المغيث وهو الولد الاكبر واخوته وحرمه الى مصر · فأمر السلطان الملك الظاهر بماية فارس بمصر وخلع عليه واعطاه طبلخاناه واطلق لاخوته وحرم والده جميعهم كلما يحتاجون اليه ولغلمانهم ولمعارفهم · وعمتهم الصدقات الشريفة الكبير والصغير · وكذلك جميع المفارده الكركية عوضهم عن مغلهم الذى كان في الكرك واعطاهم الاقطاعات · وكان حضر اليه الامير سيف الدين الرزاري وسأله بسبب تسلم الكرك فرآه السلطان في بعض الايام فطلبه واعطاه الف دينار عينا طلب بها املاكا فكوتب عليها مكاتيبه شرعية ·

وفي يوم الجمعة ثامن عشري شعبان من هذه السنة خطب الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي بحضور رسل الملك بركه ودعى للسلطان الملك الظاهر وللملك بركه وصلى بالناس واجتمع بالسلطان وبالرسل في ·····(٢) ·

---

١) "اتلاف" في ابن عبد الظاهر (ص٨١) ·
٢) كلمات غير مقروءة ·

وفي ليلة الاربعاء ثالث شهر رمضان من هذه السنة سأل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي هل لبس الفتوة من احد من اهل بيته الطاهرين او من اوليائهم المتقين فقال : لا ، والتمس من السلطان ان يصل سببه بهذا المقصود ومنحه هذا الامر الذى من بيته بدا واليه يعود . فلم يمكن السلطان الا طاعته المفترضة وان يمنحه ما كان ابن عمه رضي الله عنه افترضه وان يحلي بالجوهر منضده ويقلد بالسيف مجرده ويعطي القوس باريها ويسلم الصهوة لراقيها ويكون في ذلك كمحبب الحلد للابسها ومفتوح الحذوة لقابسها . ولبس في الليلة المذكورة بحضور من يعتبر حضوره في مثل ذلك . وباشر ذلك الاتابك فارس الدين اقطاى بطريق الوكالة المعتبره عن السلطان ...(١) الامام المستنصر بالله امير المؤمنين ولد الامام الظاهر وابوه (٣١و) لجده الناصر رضوان الله عليهم لعبد الجبار يعلي بن دغيم ... الله بن .... لعمر بن الرصاص لابي بكر بن والحصر ... ابن السامار بن لقابن الطاح ، لنفيس العلوى لابي هاشم ابن ابي حيه لعمر بن السر ، لابي على الصوفي " لمها " العلوى للقايد عيس لامير وهران لروتسه الفارسي للملك ابي كيجار لابي الحسن النجار لفضل الفرقاشي للقايد نبل بن المكدم لابي الفضل القرشي للامير حسان لحوثر البزارى للامير هلال النهاني لابي مسلم الخراساني لابي العز النقيب لعرف "العادى" الحافظ الكندى لابي علي "النوس" لسلمان الفارسي صاحب سيدنا ونبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال له صلى الله عليه وسم سلمان من اهل البيت للامام الطاهر النقي امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه .

---

١) فسحة بقدر كلمة .

وحمل اليه السلطان من الملابس الشريفه لاجل ذلك مايليق بجلاله . وفي الليلة الثانية حضر رسل الملك بركه الى القلعة والبسهم الخليفة بتفويض الوكالة للاتابك وحمل اليهم من الملابس مايليق بمثلهم .

ذكر تجهيز رسل الملك بركه وسفرهم بهدية الملك الظاهر

قال صاحب كتاب " نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك " حاكيا عن جده القاضي محي الدين بن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر مامعناه :

لما رسم السلطان الملك الظاهر بتجهيز الهدية الى الملك بركة من كل شيء على اختلافه كتب الملوك جواب الملك بركة في قطع النصف في سبعين ورقة بغدادية فيه الايات من كتاب الله تعالى واحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الترغيب في الجهاد وما ورد في مصر من الاحاديث والايات وفي قتال المشركين والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم (٣١ ق) في الجهاد . وفيه ذكر مواطن العبادات ومواضع الزيارة في ساير البلاد التي دعي له فيها شيء كثير . وجمع هذا الكتاب من الترغيب والترهيب والاستمالة والاغراء والتعاظم عليه واظهار الميل اليه . ووصف كثرة جنود الديار المصرية وما هي عليه وزيادة عساكرها عن المعتاد وانها كلها موافقة له في نصرة الاسلام . وقرأت الكتاب على السلطان بحضور جماعة الامراء وهو يزيد فيه وكذلك الاتابك محلية ولما تكامل هذا الكتاب وتجهزت الهدية المباركة وهي ختمه شريفة ذكر انها خط عثمان بن عفان رضي الله عنه بغلاف اطلس احمر مزركش ضمن درج أدم مبطن بعتابي وكرسي لها عاج وابنوس مخرم بسقط فضه وقفل فضه خروق بندقي كوامل عدة كثيرة . نمز لوتات للصلاة وسجادات الوانا متنوعة اكسيه لواتية (١) الوانا عدة من الاديم الدسوت والاقطاع المسروقه وسفر للشمعدانات جملة كثيرة سيوف

---

١) في الاصل " لواسه " .

قلجوريـة بأسقاط فضيه · طوارق مدهونة · فوانيس باغشيه بندقي · منجنيقات للشمـع مدهونة باغشيه · فوانيس فضه باغشية بندقي · صاروقات برسم الرماح للفوانيـس الفضة كفايتها مشاعل جفناه · وقواعدها كفت جملة لجم كفت بروس محزوزه بشـريط محلاة بفضه وكوابج فضه مطلاة وانفار محلاة والباب بسروج خوارزميه ونمازينات برسمها · جراوات يرغالي محزوزة بشريط · واسقاط فضه في قسي حلق دمشقية اوتار حرير قسي بندق باوتارها · اجراء حرود (١) القرود البلق · شمعدانات مطعمه بفضه · رماح قنا · اسنة حديد عربية · نشاب بديع الصنعة في صناديق مجلدة · قد وبرام · قناديل كبار · مدهونة رنك (٣٢ و) سلاسل فضه مطلاة · خدام ، جوارى طباخات ···· (٢) عدة خيل جياد سبق عبي عربيه كفايتها هجـن ··· (٣) دواب فره لاتلحق وحمير وحشية · نسانير معلمه اكوار للهجـن كفايتها ، مقاود بسلاسل · اجلال قص للدواب وملابيات خطائي للنسانيس · زراف جي كله قمر معمور (٤) مصـور وسير من ذلك كله عدد كثير · وغير ذلك اشياء مستظرفه وتحف مستغربه ولطايف لايوجد مثلها في خزانه ملك · وصحبتها غلمان ومن يقوم بهذه الحيوانات · وسلم جميع ذلك لرسل السلطان واهتم به اهتماما كثيرا وهذا لمصلحة الاسلام · وجهـز الامير فارس الدين اقوش المسعودي والشريف عماد الدين الهاشمي رسولين الى الملك بركه واصحبهما هذه الهدية · والبس رسله الفتوه من مولانا الخليفة سلام الله عليه · واحضرهما خطبته والصلاة خلفه والاجتماع به والحث على اقامـة

---

١) " الجلود " في ابن عبد الظاهر (ص٨٢)

٢) غير مقروءة في الاصل ولكنها بيغاوات في ابن عبد الظاهر (ص٨٣)

٣) = = = = = نوبيه = = = = (ص٨٣)

٤) كذا في الاصل لكنها مخور في ابن عبد الظاهر (ص٨٣)

فريضة الجهاد . وحملهما الوصايا للملك بركه والمشافهة والشكر لمساعي السلطان وما هو بصدده من اقامة الشريعة وسد الذريعه ورفع منار الدين وجهاد المشركين وملازمة العفاف ومعاملة الرعية بالعدل والانصاف وما جمعه من العساكر والجنود التي ليس لها اول ولا آخر مايعيد انه على الملك بركه . وجهز لهما طريدة عظيمة جمعت من اصناف الحيوانات المسيرة هدية وما فيها من الاشياء الفاخرة . وجهز فيها عدة كثيرة من الرماة والزرافين والجرخيه وحمل معهم مؤونة سنة . وتقدم بأن يزار بهم مواطن العبادات . وكتب السلطان بأن يدعى له بمكة شرفها الله تعالى والمدينة النبوية على ساكنها افضل الصلوة والسلام والبيت المقدس وان يدعى له بعده في الخطابه وسير الى (٣٢ ق) مكه شرفها الله عمرة شريفه كتبتها يعتمر له بها . وسافروا في سابع عشر شهر رمضان سنة احدى وستين وقد شاهدوا من عظمة السلطان ما يبهر عقولهم والله اعلم .

ذكر توجه الملك الظاهر الى الاسكندرية

في السادس شوال من هذه السنة سنة احدى وستين وستماية توجه السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي الى جهة بحر النيل المبارك وعدى الى الجيزيه وصحبته خواص دولته الزاهرة واوليايه المتناصرة . ولما وصل الى تروجه اقام بها اياما . ثم دخل البرية يتصيد ويضرب حلقة صيد . فحصل له من ذلك شيء كثير .

واهتم بأمر المياه والتساوي في ورودها فولى امرها احد حجابه الامير شجاع الدين الزاهدي واحضر من الاسكندرية الرجال لحفر الابار ونزحها من الاكدار .

ولما قضي وطره من الصيد ورجع وقد سفك من دماء الوحوش ماعادته يسفكه من دماء اعداء الدين عاد الى تروجه • وتوجه منها الى الاسكندرية •

وكان الصاحب الوزير بهاء الدين قد سبر الى الاسكندرية فأحسن الى اهلها وحصل جملا كثيرة للخزانة العالية • ومن جملة ماحمل خمسة وتسعين لفة قماشا • وحصل من الاموال مالا يحصى كثرة ولم يضرب احد ا •

• ولما وصل السلطان الى الاسكندرية ضرب خيمته خارج المدينة ونادى بأن لايقيم في الثغر جندى ولا ينزل احد في دار فحصل للناس بذلك رفق • واستقر الناس في اوطانهم • وفي يوم الخميس مستهل ذى القعدة من هذه السنة دخل السلطان الاسكندرية من باب رشيد وتلقاه اهل المدينة واستدعى الخزاين (٣٢و) والامتعة • وشرع في تعبيه مايعبيه للامراء على قدر مراتبهم • ورسم بمكتوب برد مال السهمين وصلة ارزاق الفقراء • وكان اهل الاسكندرية قد كثر همهم بسبب استخراج ربع دينار على كل قنطار يباع • فحطه عنهم وابطله عن الرعية ولعب الكره فخلع على الامراء واعطى الاتابك ثلاثة الاف دينار واعطى الامراء مثل ذلك واقل من هذه الحملة على طبقاتهم الى ماية دينار •

وركب السلطان لزيارة الشيخ الصالح القناوى وحضر شخص وقال ان الشيخ استوذن على حضور السلطان اليه والطلوع الى قصره فأذن لهم ثم حضر آخر وقال : لاسبيل الى الطلوع ولا الى كلامه الا من اسفل البستان •

واتى لزيارة الشيخ الصالح الشاطبي وعاد في البحر الى سرير سلطانه •

وكان قد حضر شخص يقال له ابن البورى وادعى ان بالثغر اموالا ضائعة واعطاه بها اوراقا • وكذلك رجل اخر يعرف بالمكرم ابن الزيات كتب اوراقا • فاستدعى السلطان في يوم الثلاثاء سادس ذى القعده الشهر المذكور الاتابك والصاحب والقاضي والفقهاء

وقرأت الاوراق . وصار السلطان كلما فتح له بابعظلمه سده . ويعود على المذكورين بالانكار . ولقد قال السلطان : اعلموا انني تركت لله تعالى الف دينار من التصقيع والتقويم والراجل والعبد والجارية وتقويم النحل وعوضني الله من الجهات الحلال اكثر منه . وطلبت جرايد الحساب فزادت بعد حط المظالم جملة . ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا وامر باشهار ابن اليسوري .

وفي يوم الاربعاء سابع ذى القعده الشهر المذكور وردت الكتب من جهة البيره وحلب بأن جماعة مستأمنة واردة الى الباب العزيز فوق الالف وثلاثماية فارس (٣٣ ق) من المغل والبهادرية . فكتب السلطان بالاحسان اليهم وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالى .

وفي يوم الخميس ثامن ذى القعده الشهر المذكور جلس السلطان الملك الظاهر بدار العدل بالاسكندرية وبسط المعدله وامر بعد ذلك بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات .

وفي يوم الاثنين ثاني عشر ذى القعده الشهر المذكور توجه السلطان الملك الظاهر عايدا الى مستقر ملكه بالقاهره المحروسة . ونزل تروجه وامر عربانها بالسباق بالخيل . فاجتمع من عربها لاغير الفا فارس واجتمع اليها جملة من خيل العسكر، وكان مداها من المرقب الى التل قريب تروجه . ووقف السلطان بالتل واوقف الرماح وعليها الثياب الاطلسي والعتابي ، وفيها المال . فلم يكن غير ساعة واذا بالخيل قد اقبلت كانها العقبان فأخذ كل راكب حصل للسباق ولم تطمع عينه الى شيء من الخيل . ولما حل السلطان الملك الظاهر بر مصر زاد النيل واستمرت زيادته ....

لاعجب للنيل ان زاد من (١) بعد انتقاص كان فيه الحذار
فمقدم السلطان وافي به وانما السحب تمد البحار

ولما وصل السلطان من الاسكندرية الى مصر مقر ملكه اعاد الفكرة في قضاء الثغر المحروس وراء توليته لرجل غريب • فوقع الاختيار على الفقيه العالم برهان الدين المالكي وهو رجل زاهد عابد ياوى في مسجد بمصر • فقلده القضاء بالاسكندرية وتوجه اليها • وفوض الخطابة للقاضي زين الدين ابن ابي الفرج الذى كان حاكما • وصلح الحال بهذا التدبير •

وفي آخر ذى القعده الشهر المذكور نزل السلطان الملك الظاهر الى القاهره المحروسة فعاد الامير سيف الدين (٣٤ و) قلاون الالفي والامير علاء الدين الحاج ايدغدى الركني والامير حسام الدين بن بركة خان • وعاد الى قلعته سالما •

وفي ليلة الاربعاء الخامس من ذى الحجة من هذه السنة توفي الامير حسام الدين ابن بركه خان ونزل السلطان وحضر جنازته ومشى فيها والله اعلم •

ذكر وصول التتار المستأمنين الى القاهرة المحروسة

قد قدمنا ان الكتب وردت من جهة البيره وحلب بأن جماعة من التتار مستأمنة واردة الى الباب العزيز واهتم السلطان بوصولهم وتجهيز الاقامات لهم • وفي يوم الخميس السادس من ذى الحجة الشهر المذكور وصلوا فركب السلطان الملك الظاهر لتلقيهم والملايكة والملوك به محيطه والمله الاسلامية به محوطه • ولما قرب التتار شاهدوا السلطان وهو كالبدر ليله كماله والاسد بين اشباله نزلوا وقبلوا الارض • قال صاحب "نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" : الواجب الدعاء لملك نصر الاسلام

---

١) ليست في الاصل ولكنها ضرورية للوزن •

واعزه بعد الاهتضام • فانه فرق بين ملك تقبل ملوك التتار الارض بين يديه وهو راكب وبين ملك كانت التتار تطلب منه حضور الحرم في المشارب وبين ملك تهادنه ملوك الاسلام والكفر وتطلب منه الرضى والغفران وملوك تهادى ملوك الكفر تطلب منهم الامن والامان • وبين ملك تسلم من الكفر البلاد والحصون وبين ملوك سلموا الكفر من البلاد والقلاع والحرم والاولاد والاموال كل مصون • وكان قد عمرت لهم مساكن باللوق فانزلوها • وفي يوم السبت الثامن من ذى الحجة الشهر المذكور لبسوا الخلع • واتفق ان السلطان نزل في السحر ألى تربة حسام الدين ابن بركه خان ووافوه عند باب الجامع الصالحي وشاهدوا (٣٤ ق) على باب زويلة رأس كتبغا نوين مقدم عسكر التتار المقتول بعين جالوت وغيره من اكابر التتار المعلقة على علو الباب • فنظم صاحب "كتاب نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك" (١)

يامليكا له الحسام المبيد	وكريما له العطاء المفيد
لك سيف به الغوي شقي	ونوال به الولي سعيد
شاهد الناس منك يامالك الارض	امورا لها يلين الحديد
شاهدوا منك اذ ركبت من	جامع الصالح نصرا يموت الحسود (٢)
فروءس على الشراريف تتلى	وروءس على التراب سجود
حيزوا في التتار في خلع منك	وكل صنايع وعبيد
وراوا منهم روءسا على السور	بحكم الرماح امست تميد
هذه قد عصت وهذى اطاعت	هكذا هكذا يكون السعود
دمت ترقى لك الحياة صعيدا	كل يوم لها اليه صعود

واقاموا في الاحسان يتقلبون وكل منهم يقول لما يشاهد من الخير ياليت قومي يعلمون •

---

١) في ابن الظاهر (ص ٨٧) مايدل ان الشعر لابن عبد الظاهر نفسه •
٢) كذا في الاصل وقد اسقطت كلمة "جامع" في ابن عبد الظاهر (ص ٨٧) لاستقامة الوزن راجع ملحوظة ٢ ص ابن عبد الظاهر (ص ٨٧) •

قال صاحب " كتاب نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك " حاكيا عن جده القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سير الملك الظاهر ماصيغته : ووصلت الكتب بقوم جماعة اخرى كثيرة منهم · فاحتفل السلطان بهم وركب لتلقيهم ثم ورد جماعة اخرى فاعتمد معهم الاعتماد · وكان الواصل الى الخدمة في هذه الثلاث مرار من امرائهم الاكابر كرمون آغا الذى فتح بلاد الترك جميعها · وامتغاغا (١) ونوكا اغا وحبراك (٢) اغا وقنان (٣) آغا · وطبشورونا سغبه ونبتو (٤) وصحتي وخوجلان واجقرقا (٥) وارتقاق (٦) وصلاغية (٧) وميقدم (٨) · واجتمعوا بمن كان وصل قبلهم من امراء التتار · وهم صراغان اغا ومن كان وصل معه ·وصار كل منهم لوقته اميرا ثم ان السلطان عرض عليهم الاسلام فأسلموا على يده الشريفة وطهروا جميعهم فنظم المملوك في ذلك (٣٥و) :

يامالك الدنيا الذى	اضحى صلاحا للامم
يامن محا بالعدل مـا	للظلم فينا من ظلم
يامن يساق لـه التتار	غنيمة مثل الغنم
خافوا سيوفك انهـا	ستسوقهم نحو النقم
فأتوا لبابك كلهـم	يأوون منه الى حرم
امنوا به ما يخاف	من البلايا والسقم
جعلوا جنابك جنه وترى	خيولك مستلم

١) في الاصل " وامغاغا " · وكذا في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) ·
٢) = = "وجرال " · لكنها حبرال في ابن عبد الظهر (ص ٨٨)
٣) في الاصل وقبان لكنها "قنان "في ابن عبد الظهر (ص ٨٨)
٤) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) وفي الاصل "وسو "
٥) " واحقرقا "في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨)
٦) وارقرق في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨)(٧) كذا في الاصل وصلاغيه في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨)
٨) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) وفي الاصل ومعدم ·

بسطوا يمينا للهداية | طالما خضبت بدم
اعطيتهم ماللمؤلفة القلوب | من القسم (١)
لازلت ياملك الزمان | لك الملوك من الخدم

وفي هذه السنة تقدم الامير بها الدين اميراخور احد قراني السلطان وخواصه بضرب مناديه سوق الخيل لامر جرى منه فيما يتعلق بالاسطبلات وما يشترى لها من الخيل · فضرب احدهم وحمل الى بيته فمات · فعز هذا الامر على الملك الظاهر · فهرب الامير بهاء الدين واستخفى واستتر عن الامير سيف الدين قلاون الالفي لتقع فيه شفاعة · فدخل على الاتابك فأخرج لاولاد المتوفي من ماله خمسة الاف درهم ومائة اردب غلة وكسوة · فأبراه مستحقوا الارث واقروا ان اباهم مات بقضاء الله وقدره · ودخل الاتابك الى السلطان وتحدث في امره · فغضب السلطان · فقال له الاتابك تغضب والشرع الشريف معنا · فان كان هذا قتل عمدا او خطأ هذا الابراء " وعند ذلك شفع الامراء الاكابر · فسكت السلطان سكوت من اسكته الحق · وهذا فعله في حق اقرب اوليايه اليه فكيف الاباعد ·

وفي (٣٥ ق) هذه السنة امر الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي بعمل جامع خام يضرب على يمنه الخيمة السلطانية · فعمل وعمل له محاريب وعدة ابواب · وعملت فيه مقصورة برسم صلاة السلطان · وامر السلطان بعمارة دار العدل تحت قلعة الجبل وتجديد بنايها ·

وفي هذه السنة وصلت رسل صاحب اليمن بتقادمه · وذكر الرسل ان معهم هدايا لخواص الامراء تقربا لخاطر السلطان · فأمر بارسالها الى من عينت له · واذن للامراء في قبولها ·

---

١) كذا في ابن عبد الظاهر (٨٨) وفي الاصل " السقم " ·

وفي هذه السنة عرض السلطان الملك الظاهر العساكر وجلس لذلك في كل خميس واثنين ولم يجز عرض احد حتى حقق النظر • واي جندي اشتكى من مخدومه امر بانصافه منه •

قال صاحب "نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك" ماصيغته : وفي هذه السنة نظر السلطان في كثرة الناس وان القاهرة هي دار الملك وقد جمعت اهل المذاهب من العلماء فأمر بنصب اربعة قضاة نوابا للقاضي تاج الدين فاستناب قاضيا حنفيا وقاضيا مالكيا • ولقلة الحنابلة لم ينصب قاضي حنبلي بل جعل لهم عاقد • فوجد الناس بذلك راحة " انتهى كلامه • وقد قدمنا انه استناب ثلاث نوابه حنفي ومالكي وحنبلي والله اعلم اى ذلك كان •

وفي هذه السنة جهز الملك الظاهر عرب خفاجه • وسير الخلع الى كبراء العراق • وكتب الى صاحب شيراز وغيره بالاغراء بهلاون • وكانت وصلت جماعة من امراء خفاجه فالبسهم السلطان الفتوه وجهز معهم الامير عز الدين الاتابك رسولا الى شيراز وغيرها صحبة امراء عرب العراق •

قال صاحبنا الامير صارم الدين ابراهيم بن الامير ناصر الدين محمد بن الامير عز الدين ايدمر دقماق في تأليفه " نزهة الانام في تاريخ (٣٦و) الاسلام " ماصيغته : وفيها في العشر الاول من صفر جمع تكفور صاحب سيس جموع كثيرة خيلا ورجلا وخرج من سيس واغار الى بلد العمق وجبل ومعرة النعمان وسرمين والفوعه • وذلك بدلالة رجل من اهل الفوعه يعرف بأبن ماجد الفوعي • فأخذ من الفوعة ثلاثماية وثمانين نفرا • وكبس سرمين وكان بها من الامراء المجردين بهاء الدين الخضر الحميدى والذكي عيسى العروى وعلم الدين قيصر الظاهرى فانحازوا الى دار الدعوة بسرمين •

واجتمع عليهم خلق كثير وحاصروهم · ثم ان الاميرزكي الدين عيسى ركب وركب الامراء رفقته · وفتح باب للدعوة وخرج وحمل فيهم فصادف في حملته صاحب سيس ولم يعرفه فرماه عن جواده فتفللت لاجله عزائم اصحابه فولوا هاربين لايلوى احدا منهم على احد وخلص المأسورين ·

وفيها حدثت زلزلة عظيمة في شهر رمضان بالموصل اخربت اماكن عظيمة وهدمت ادر كثيرة · ووصلت اخبارها الى البلاد الشاميه وما حصل للناس منها من الضرر ·

وفيها جهز السلطان الملك الظاهر من القاهرة المحروسة الى المدينة النبوية على ساكنها افضل الصلاة والسلام جماعة من ارباب العماير من بنائين ونجارين ونشارين وعتالين واخشاب والات · وحمل ذلك في البحر لاجل عمارة الحرم الشريف النبوى · وعمل السلطان كسوة للكعبة المشرفة وحمل الكسوة على البغال وطيف بها البلدين · وركب معها الخواص وارباب الدولة والقضاة والمدرسين والقراء والصوفية والخطباء والائمة · وسافر من تسلمها بها الى مكة المشرفة في العشر الاوسط من شوال وفوض امر العمارة لزين الدين ابن البورى ·

(٣٦ ق) وفيها جاءت الاخبار الى الديار المصرية بأن الفرنسيس كان قد جمع جمعا من الفرنج وقصد الديار المصرية لما في قلبه من الكسرة الاولى بدمياط كما تقدمنا شرحه · فأشار عليه بعض اصحابه بقصد تونس بالغرب اولا · فاذا ظفرت بها تمكنت من قصد الديار المصرية برا وبحرا · فلما نازلها بتلك العساكر الكثيرة التي جمعها وكان يستولي عليها اوقع الله تعالى في عسكره الوباء · فهلك الفرنسيس وجماعة من الملوك وكثير من اهل العسكر وصاروا الى جهنم وبئس المصير · ورجع من بقي منهم الى بلادهم بالخيبة ·

وفيهـا اخذ قاع البحر خمسة اذرع وسبع اصابع وانتهت الزيادة الى سبع عشـرة ذراعا وثلاث اصابـع ٠

٦٦٢ هـ (١٢٦٣٢ ـ ٢٣ ت ١ ١٢٦٤)

٣٧و) ذكر الحوادث في سنة اثنتين وستين وستماية ٠

قـال صاحب " نظم السلوك في تواريخ الخلفا والملوك " استفتح السلطان هذه السنة بالعدل والانصاف وحضر الى دار العدل ٠ فوقف له ناصر الدين بن ابي نصر وشكى انه اخذ له بستان في الايام المعزية وهو بأيدى المقطعين ٠ واخرج كتابـا مثبوتا واخرج حال من ديوان الجيوش المنصوره بأن بستانه ماهو من حقوق الديوان ٠ فأمر السلطان برده عليه ٠ فرد اليه ماكان غصب من حقه ٠ واطلع نجم الحـق من افقـه " ٠

قـال " واحضرت ورقة مختومة فكشف عن من احضرها فوجد محضرها خادم اسود فقرئت فوجد فيها مرافعة في القاضي شمس الدين شيخ الحنابلة يذكر فيها انـه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته ٠ وسبب ذلك ان السلطان ماجعل للحنابلـة مكانا في المدرسة التي انشأها بين القصرين داخل القاهره المحروسة بجوار قبة الملك الصالح نجم الدين ايوب ٠ ولا جعل حنبليا قاضيا ٠ وتحدث في اشيا قادحة في الشيخ المذكور ٠ فقرئت على الشيخ فحلف ان ذلك ماجرى منه شيء وقال : هذا الخادم كان بخدمتي وطردته ٠ فقال السلطان ولو شتمتني انت في حل وامر بضرب الخادم فضـرب مايـة عصـا " ٠

وامر بان ينادى في القاهره ومصر بأن امرأة لاتتعم بعمامة ولاتتزيا بزى الرجال ٠ ومن فعل ذلك بعد ثلاثة ايام يسلب ماعليها من الكسـوة ٠

وفي اول هذه السنة طلب السلطان الطواشي شجاع الدين مرشد الحموى فحضر الى الابواب الشريفه · فتحدث السلطان معه في اشتغال صاحبحماه بالملاذ · وقال له قد كتبت اليه انبهه من هذه الفعلة · وطلبت شرف الدين عبد العزيز شيخ الشيوخ وسيرته اليه في هذا (٣٧ ق) الامر فما افاد · وقال له : انا اعتمدت عليك في مصلحة هذا البلد لما فيك من دين وخير وشجاعة · وقرر معه انه يلتــزم بتكميل الاستخدام وان يلزم الاجناد باقامة التبرك والعدة الكاملة · فالتزم بهذه الامور وكتب له تقليد شـريف وتوجـه ·

وفي المحـرم من هذه السـنة وصل الامير جمال الدين بشكر ولد الدوادار · وكان ابوه المجاهد داودار الخليفة ببغداد · وكانت له نعمة عظيمة ومماليــك وغيرها فأحسن اليه السلطان الملك الظاهر واعطـاه طبلخانـاه ·

ذكـر حضـور اهـل العلم بالمدرسـة الظاهـريـة

كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي امر بأنشاء مدرسة بخط بين القصرين داخل القاهره المحروسة بجوار من المدرسة الصالحية مدفن استاذه الملك الصالح نجم الدين ايوب · فلما تكملت عمارتها فوض تدريس السادة الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين ابن العديم ، وتدريس السادة الشافعية للشيخ تقي الدين ابن عبد الله محمد بن الحسن ابن رزين والتصدر للاقراء الفقيه كمال الدين المحلي · والتصدر لافادة الحديث النبوي الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن الشيخ خلف بن ابي الحسن بن شرف الدين خضر بن موسى الدمياطي · فلمـا كان يوم الاحد الخامس من صفر من هذه السنة وقال صاحبنا الامير صارم الدين ابراهيم

بن دقماق : كان جلوسهم في يوم الاحد سابع عشر صفر او سادس عشره · اجتمع اهل العلم بالمدرسة الظاهرية وحضر القرا' وجلس اهل الدروس كل طايفه في ايوان الشافعيه بالايوان القبلي والحنفية بالايوان البحرى الذى تجاهه واهل الحديث بالايوان الشرقي ومن يقرأ بالروايات السبع بالايوان الغربي · وفي هذا الايوان جماعة يقرون السبع بعد صلاة الصبح · وذكروا الدروس ومدت الاسمطه لهم · وانشد الشيخ جمال الدين ابو الحسين الجزار ·

الا هكذا يبني المدارس من بنا — ومن يتغالى (١) في الثواب وفي الثنا'
لقد ظهرت للظاهر الملك همة — بها اليوم في الدارين قد بلغ المنا
تجمع فيها كل حسن مفرق — فراقت قلوبا للانام واعينا
ومذ جاوزت قبر الشهيد فنفسه — النفيسة منها في سرور وفي هنا (٣٨و)
وما هي الا جنة الخلد ازلفت — له في غد فاختار تعجيلها هنا

وانشد الشيخ سراج الدين الوراق قصيدة منها ·

مليك له في العلم حب واهله — فلله حب ليس فيه ملام
فشيدها للعلم مدرسة غدا — عراق اليها شيق وشآم
ولا تذكرن يوما نظاميه لها — فليس يضاهي ذا النظام نظام
ولا تذكرن ملكا وبيبرس مالكا — فكل مليك في يديه غلام
ولما بناها زعزعت كل بيعه — متى لاح صبح فاستتر ظلام
ومذ برزت كالروض في الحسن انبأت — بأن يديه في النوال غمام
الم تر محرابا كان ازاهرا — تفتح عنهن الغداة كمام

---

١) " يتعالى " في ابن عبد الظاهر (ص ٩٢)

وانشد الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب

قصد الملوك حماك والخلفاء   فافخر فان محلك الجوزاء
انت الذي امراؤه بين الورى   مثل الملوك وجنده امراء
ملك تزينت الممالك باسمه   وتجملت بمديحه الفصحاء
وترفعت لعلاه خير مدارس   حلت بها العلماء والفضلاء
تبقى كما يبقى الزمان وملكه   باق له ولحاسديه فناء
كم للفرنج وللتتار ببابه   رسل مناها العفو والاعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءة   وطريقهم لبلاده عذراء
دامت له الدنيا ودام مخلدا   ما اقبل الاصباح والامساء

فرسم لهؤلاء الشعراء بالتشاريف . وكان يوما مشهودا . واوقف السلطان بهذه المدرسة خزانه كتب حمل اليها امهات الكتب في سائر العلوم وبني فيها مكتبا لتعليم الايتام واجرى عليهم الخبز في كل يوم والكسوة في الفصلين .

وفي صفر الشهر المذكور وصل الحجاج مخبرين بأنه خطب للسلطان الملك الظاهر بمكه المشرفه . وتسلم الصدر جمال الدين حسين ابن الموصلي كاتب الانشاء الشريف المتوجه الى مكه المشرفة نائبا بها مفتاح للبيت المقدس المشرف وقفله بالقفل المسير صحبته واباح البيت الشريف ثلاثة ايام بغير شيء . ولا يؤخذ (٣٨ ق) من احد درهم واحد . وكتب الله له في هذه الحسنة التي عامل الرعية فيها بالاحسان والحسنى . وجعل البيت مثابة للناس وامنا .

وفي صفر الشهر المذكور قرئ كتاب وقف الخان بالقدس الشريف بحضور السلطان الملك الظاهر وقاضي القضاة تاج الدين . وحررت شروطه بين يديه . وكتبت بذلك عدة نسخ . وكذلك اوقف اصطبلين تحت القلعة يعرف احدهما بجوهر النوبي وحبسهما على وجوه البر .

وفي صفر الشهر المذكور وردت كتب الامير عز الدين استاد الدار نايب السلطنة بالكرك بانه رتب رواتب الخليل عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله الصلوة والسلام . ورتب الاسمطة والضيافة للوافدين . وكان ذلك قد قطع من مدة طويلة . وعد ذلك من حسنات دولة الظاهر .

وفي صفر الشهر المذكور خرج الملك الظاهر متصيدا الى جهة اوسيم وتوجه منها الى الغربية . وشكى اهلها من واليها الامير ابن الهمام وصار السلطان يركب للصيد ثم ينفرد وحده متخفيا وسائل عن حال الامير ابن الهمام المذكور وحال نوابه وعلمائه وعن المباشرين ولما تحقق سوء اعتماده قبض عليه وادبه وعزله وولى غيره .

واطلع على ان رجلا من نصارى القبط يعرف بابن حلوف يظلم الناس ويؤدبهم فأمر بالقبض عليه وشنقه . قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر : كان المذكور نقل عنه تعرض الى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لايليق بشرف النبوة فأسلم ثم ارتد .

وتوجـه السلطان الى دمياط وزار البرزخ ثم عاد الى اشموم الى منزلة ابـــن حسون (٣٩و) وتصيد بها ثم عاد من جهة الشرقيـه ٠

وفي صفـر الشهر المذكور سأل الفرنج نواب السلطان الملك الظاهر بالشـام انهم يأذنون لهم في زراعة البلاد وتقويتها من اموالهم ٠ وهي جملة كبيرة مـــن الغلات ٠ فتقررت الهدنة معهم الى ايام الحصاد ٠ وهي مصلحة ظاهرة لانهـــم يخرجون من دخايرهم جملة من الغلات ويكون كما قال الله تعالى "فسينفقونهـــا ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون" (١) وعند استوائها تحصد سيوف الاســـلام رؤوسهم قبل حصادها وينفـذ امـر الله فيسم نفادهم في انفادهـا ٠

ذكـر وفاة الملك الاشـرف صاحب حمص واستيلاء الملك الظاهر على بلاده ٠

فـي يـوم الجمعـة حادي عشر صفر من هذه السنة توفي الملك الاشـرف مظفر الدين موسى بن الملك المنصور ابراهيم بن الملك المجاهد شيركوه بن الاميـر ناصر الدين محمد بن اسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان صاحب حمص ٠ ولـم يكن له ولد ولا اخ ولا ولي عهد ٠ فسير السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية الى نوابه بالشام بتسلم بلاده ٠ فوصل البريد في سابع عشرين صفر الشهر المذكور بأن الامير بدر الديـن بيليـــك العلائي احد الامراء قد تسلمها وحلف الناس بها للسلطان الملك الظاهر وكذلـــك الرحبة والدير ٠ وكان المسير الى الرحبه خاصة عشرين الف دينـار عينـا ٠

وفي هذا التاريخ ورد كتاب الامير جمال الدين النجيبي يذكر انه ولـــي حران للامير جمال الدين الحاكي ٠ وولـي الرقـه لامير اخـر ٠

---

١) سـورة الانفـال ٨ ايـة ٣٦ ٠

وفي هذه السنة بلغ السلطان الملك الظاهر ان صاحب دهلك وصاحب سواكن يتعرضان (٣٩ ق) الى اموال من يتوفى من التجار في تلك البحار . فسير اليهما بدر الدين ابن الدايه احد رجال الحلقة المنصوره رسولا بهذا السبب وبالانكار عليهما لتعرضهما لاموال من يتوفى من التجار .

قال صاحب "كتاب نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" وفي هذه السنة ثمن القرط الذي قضمته الخيول السلطانية وجمال المناخات فكان ثمنه خمسين الف دينار " قلت : وكثرة الخيول قد ندب الله اليه واشار في كتابه العزيز الى الاستكثار منها . قال الله تعالى " واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل (١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامه . والخيل لثلاثة هي لرجل اجر ولآخر ستر ولآخر وزر . فأما التي هي له اجر فرجل ربطها في سبيل الله فما غيبت في بطونها فهي له اجر ولو رعاها في مرج كان له لكل شيء غيبت في بطونها اجر . ولو استنقت شرفها او شرفين كان له بكل خطوة خطتها اجر . ولو عرض لها نهر فسقاها منه كان له بكل قطره غيبتها في بطونها اجر حتى انه ليذكر الاجر في ارواثها وابوالها . واما التي هي له ستر فرجل يتخذها تعففا وتكرما وتجملا . ولا ينسى حق ظهورها وبطونها في عسره ويسره . واما الذي هي عليه وزر فرجل يتخذها اسرا وبطرا لا يربطها في سبيل الله ليركب عليها المجاهدين .

ذكر جلوس الملك الظاهر بدار العدل عند غلو الاسعار وما فعله من الرفق بالناس

في هذه السنة غلت الاسعار ووصل الاردب القمح الى قريب المايه

---

١) سورة الانفال ٨ ايه رقم ٥٩ .

درهم نقرة . فرسم الملك الظاهر بالتسعير طلبا للرفق فاشتد الحال وعدم الخبز (٤٠ و) فأمر السلطان بالنداء باجتماع الفقراء تحت القلعة . وقيل اشتد الغلاء بمصر واعمالها فبلغ الاردب القمح بمصر ماية درهم وخمسة دراهم والشعير سبعين درهم والخبز كل ثلاثة ارطال بدرهم . واللحم كل رطل بدرهم وثلث . وبيع القمح بالاسكندرية كل اردب بثلاثماية درهم وعشرين درهم ورا . ثم اشتد الحال بالناس الى ان اكلوا ورق اللفت والكرنب وورق الكراث وخرجوا الى الجسر فأكلوا عروق الفول الاخضر .

فأحسن الملك الظاهر السياسة . ونزل في يوم الخميس سابع شهر ربيع الاخر من هذه السنة الى دار العدل . فأول ما تحدث فيه امر الغلة وبطل التسعير . وكتب الى الامراء ببيع خمسماية اردب كل يوم بما يقدره الله تعالى مرويبتين فما دونها لئلا يشتري منه الخزان بل يباع على الضعفاء والارامل . ونزل حجابه الى تحت القلعة وكتبوا اسماء الفقراء . ثم سير الى كل جهة حاجبا لكتب الاسماء في القاهرة ومصر وحواضرها . وقال : والله لو كانت عندي غلة تكفي هذا العالم لفرقتها . فلما عد العالم وحصروا اخذ السلطان الوفا واعطى لنواب ولده الملك السعيد كذلك واخذ ديوان الجيوش وكتب الاسماء واعطى لكل امير جماعة على قدر عدته وفرق الفقراء على الامراء والاجناد ومقاردة الحلقة والمقدمين والبحرية . ونزل التركمان ناحية . وكذلك الاكراد البلديين . ورسم بأن يعطى لكل فقير كفاية مؤونته مدة ثلاثة شهور . وتسلم نواب الامراء الفقراء وكذلك الاكابر والتجار والشهود والناس على اختلاف احوالهم وفرق السلطان من شونته القمح على ارباب الزوايا . ورسم ان يفرق في كل يوم للفقراء ماية اردب مخبوزة لجامع احمد بن طولون . وكان في هذا الفعل (٤٠ ظ) ستر الوجوه

عن الكدية . وقال السلطان : هؤلاء المساكين جمعناهم اليوم وقد انقضى نصف النهار فليعط كل منهم نصف درهم يتقوتبه خبزا . ومن غد يتقرر الحال . فأنفقت فيهم جملة كبيرة لهذا القدر خاصة . قال تعالى فيما ورد من الاخبار : والراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء .

قال صاحب " نظم السلوك في تراجم (١) الخلفاء والملوك " ما معناه :

. اخذ الصاحب جماعة العميان واخذ الاتابك التركمان ولم يبق احد من الخواص ولا من الحواشي ولا من الحجاب والولاة واصحاب المناصب وذوى المراتب والثروة حتى اخذ جماعة وذلك بحسن تلطف من السلطان . وقال للامير صارم الدين المسعودى والى القاهرة : خذ مائة فقير اطعمهم لله . فقال : فعلت ذلك واخذتهم دائما . فقال السلطان : ذلك فعلته ابتداء من نفسك وهذه المائة افعلها لاجلي . فأخذ مائة فقير ثانية . وشرع الناس في فتح الاهراء والمخازن وتفرقة الصدقة .

ولقد وصل الاردب القمح في الغلاء الكائن في سنة سبع وتسعين وخمسماية في الايام العادلية بولاية عهد الملك الكامل الى ثمانين درهما نقرة كل اردب . واكل الناس بعضهم بعضا وما دبر احد هذا التدبير الحسن . وكذلك الغلاء الكائن في زمان المستنصر العلوى عم الجوع والبلاء الناس حتى ان الوزير ركب الى دار الوزارة فاخذت بغلته واكلت للوقت . فأخذ آكلوها وشنقوا فأكلوا على الخشب . وزاد السعر في هذه السنة كما قدمنا شرحه . وماجرى الا الخير بنية السلطان . ونزل السعر عشرين درهما وقلت (٤١و) الفقراء وكثر الخير .

---

١) وردت "تاريخ " في جميع الامكنة الاخرى من هذا الجزء .

وقال بعض اهل التاريخ : فرق السلطان الصدقات على الاغنياء والامراء وان اخذ لنفسه خمسماية وتولى الملك السعيد خمسماية ولنائبه بيليك الخازندار ثلاثماية دام الغلاء ودام ما رتبه السلطان الى ان دخل شهر رمضان ودخلت الغلال الجديدة • ومن اعجب ما يحكى ان السعر انحط في يوم واحد اربعين درهم الاردب ورقا • فسبحان المتصرف في خلقه كيف يشاء •

وفي اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل وفعل ما قدمنا شرحه قرأت قصة على السلطان من ضمان دار الضرب انهوا فيها توقف الدراهم وسألوا ابطال الناصرية وذكروا ان مانهم مايتان الف وخمسون الف درهم • فقال : يحط عنهم خمسون الف درهم ولا تؤذى الناس في اموالهم •

وفي العشرين من شهر ربيع الاخر الشهر المذكور جاءت زلزلة عظيمة هدمت دورا كثيرة •

(وفي) ثالث وعشرين شهر ربيع الاخر الشهر المذكور رسم السلطان بصدقة بنات الامير حسام الدين الجوكندار العزيزى بما وجب للديوان في تركة ابيهن وجملته اربعماية الف درهم نقرة خارجا عما له من الاملاك والغلال والخيل • وكتب بذلك الى الشام • وهذه جملة ما سمع بمثلها لورثة امير • وقد كان هذا الامير وصل من حلب الى دمشق وحاله ضعيف • وقد نهب التتار موجوده فأحسن السلطان اليه وزاد في اقطاعاته واقتداه حتى جمع هذه الجمل • ولما رمي البندق وادعى للسلطان سير اليه جملة عظيمة • فهذه الجمل المذكورة السلطان هو الذى وهبها له في الاول وفي الاخر لبناته • وكان افهم بذلك ان كل من يموت في خدمته ويحفظ يمينه ينظر في امر ورثته • ويبقي عليهم ما يخلفونه • وكان كما قال الشاعر •

ياذا الذى سعدت به الابـاء في الدنيا وبعد مماتهـا الاولاد .

وكذلـك الامير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنه بالفتوحات الساحليـة لما توفي الى رحمة الله تعالى امر بنقل اقطاعه وهو ماية طواش لولده . وكذلـك احد الامراء بالساحل وهو شجاع الدين والى (٤١ ق) سرمين الامير ناصر الديـن رسـولا الى فرقة من الفرنج . فصادفه فرقة اخرى اسـرته . فأبقى السلطان خبـره عليه يستغله اخوته وغلمانه ولم يغير عليهم شيئا . وكل هذه مكـارم تستجلب القلوب والله اعلـم .

ذكـر قصد متملك الارمـن خذله الله حلب المحروسة ورجوعه خاسرا

كـان اللعين هيثوم بن قسطنطين متملك الارمن خذله الله تعالى رجـع من عند هولاكو ملك التتار واستصحب صحبته قاضي بلاد هولاكوا ليصلح بينه وبيـن السلطان ركن الدين صاحب الروم فلما وصل الى قريب بلاده لم يـدخل الى بلاده . وتوجه الى بلاد الروم واعطى قاضي هولاكو عطاء كثيرا واستماله . وقال له : لااقدر على الدخول الى بلاد الروم حتى تحضر جماعة من التتار تخفرني . فكتب القاضي الى التتار الذين في الروم فحضر منهم جماعة تقدير اربعماية فارس . وكـان السلطان ركن الدين لما بلغه وصول متملك الارمن اليه عزم على الايقاع به على غره وانه ينسب ذلك الى التركمان . ففطن الطاغية لذلك واحترز وتوجه لما حضر اليه التتار الذين طلبهم قاضي هولاكوا فالتقى صاحب الروم متملك الارمن مترجلا لاجل قاضي هولاكو واللعين الارمني لم يترجل . وقـدم كل واحد منهما لصاحبه تقادم سنيه . وكانت تقدمة صاحب الروم اربعة عشر فرسـا واربعين الف درهم وجميع آنيه المجلس مـن ذهب وفضه وبغال وغيرها . وقدم لـه الارمني اربعة حصن وجاءوا جميعهم الى هرقله وتخالعا واتفقـا .

واهتم الارمني بجمع العساكر المخذولة في بلاده لقصد البلاد الاسلاميـــة بالشام وسار فلما وصل ... الى قلعة صرفند كار (١) (٤٢ و) نادى في عسكره بان يأخذوا اهبة الاقامة لثلاثة ايام . وكان في عسكره من بني كلاب الف فارس عربـــا وقصدوا عينتاب .

وكان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس صاحب الديار المصريـــة والبلاد الشامية قد فهم منهم هذا الاتفاق لاهتمامه باستطلاع الاخبار . فسيـــر الى عسكري حماه وحمص بالتوجه الى حلب فتوجهوا وتوجه جماعة من العسكر المنصور . فأغارت على عسكر الارمن واسرت اميرا من امرائه واخذ له مائة حمل من البخاتـــي فولوا منهزمين وقتل منهم ثلاثون نفرا وجرح صاحب حمص قرابة ملك الارمن وهـــو بارون بهرام جراحة شديدة . وكتب الطاغية متملك الارمن الى التتـــار الذيـــن كانوا في الروم وهم سبعمائة راكب فأحضرهم وكان قصده الشام . فلما وصلوا الـــى حارم وقعت ثلوج شديدة . وكان الطاغية المذكور قد كتب الى انطاكيـــه يطلب نجده فانجده منها بمائة وخمسين فارسا ولبس الخمسين السراقوجات تشبها بالتتـــار واجتمعوا كلهم قريب حارم . وارسل الله الثلوج والامطار حتى كادوا يهلكـــون . واما العسكر المنصور فانه خرج لقصدهم واتصلـــت بهم الاخبار وانقطعت عنهـــم الميرة فخافوا وتأخروا راجعين فعدم من اصحابه مائة وسبعين فارسا وثلاثون تتريـــا وستة نفر من خيالة انطاكية وجماعة من رجالتهم . ونصر اهل الاسلام بنية سلطانهم الملك الظاهر الذي نصرته الملوك والملائكة وامرته السماء تارة بثلجها وتارة بأمطارها وثلوجها المتداركة الى ان انهزم جمع الاعداء بحسن عزائمه المباركـــة رحمه الله تعالـــى .

---

١) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ٩٧) وفي الاصل مطموسة ذاكر منها " فندكار ".

ذكر حفر خليج الاسكندرية

كان خليج الاسكندرية (١) وهو البحر الذى يقال (٤٢ ق) احضرا (٢) سريعا الى السلطان الملك الظاهر فسألها واعطاهما الاماير . فأعترفا ووجد معهما قرامين للامير فارس الدين اقطاى الاتابك من هولاكوا وهو يرغبه ويستميله اعتقادا منه ان هذه الامور يفسدها نظام . او ان السلطان اذا وقع له ذلك لايتثبت . او انه يتوهم في اكثر خواصه . او ان الاتابك يميل الى هذا الهذيان . ففطن السلطان الى هذه المكيده . وطلب الاتابك في الساعة الراهنة وافهمه انها حيله . واراه الكتاب وقال له : اننى ماصدقت شيئا من هذا فيك . ورسم بحريق ذلك وتمزيقه . واستدل السلطان بذلك على ضعف هولاكوا وانه يتثبت بكل شيء . وهذه همة عالية ماسمع ملكا اهتم بهذه الهمة ولا بذل في اغراضه الجميلة هذه النعمة .

وفي هذه السنة تنجز البرج الذى كان الملك الظاهر رسم بعمله في قارا . وشرع في بناء برج اكبر منه لمصلحة الاسلام وحفظ الطرقات وصونا للرعية من عوادى الفرنج المجاورين خذلهم الله تعالى .

ذكر قصد متملك الارمن المسير الى بلاد الشام مرة اخرى وتخييب سعيه

في هذه السنة اهتم متملك الارمن للعين هيثوم بن قسطنطين وجمع العساكر المخذولة من كل جهة . وفصل الف قباء تترى والف سراقوج البسها

---

١) الكلمات الثلاث مطموسة بالحبر وقد قدرتها من سياق العبارة .

٢) كان ورقه من الاصل ساقطه هنا راجع ابن عبد الظاهر (ص٩٨) .

اصحابه ليرهب انهم نجده من التتار . فسير السلطان الملك الظاهر الى دمشق جرد منها عسكرا الى حمص . وجرد جماعة من حماه . ورسم بأن عربان الشام لا يخرجون البرية في تلك السنة . فتوجه الامير حسام الدين العينتابي فأغار على مرومان وقتل واسر وعاد سالما . وتوالت الغارات من جميع الجهات (٤٣ و) فلما احس العدو المخذول بهذه العزايم جر ذيول الهزايم وتفرقت نجداته وخمدت تجمراته وبقي خائفا مترقبا . وعدلت العساكر المنصوره الى انطاكية فغنمت وقتلت واسرت .

وفي جمادى الاخره من هذه السنة اغارت العساكر التي بالفتوحات الساحلية صحبة الامير ناصر الدين القيمري ووصلت الى ابواب عكا . واغار الامير الشجاع على بلاد الفرنج من جهة الخسيط .

وفي جمادى المذكور شرع النواب بالشام في بناء شقيف تيرون . اعلم ان حكم شقيف تيرون حكم شقيف ارنون . لم يزل في يد من ملك دمشق الى ان سلمه الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق للفرنج سنة ثمان وثلاثين وستماية . ولم يزل في ايديهم الى ان ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب دمشق في سنة ثمان واربعين وستماية كما سبق ذكره فسير عسكرا مقدمه الامير سعد الدين بن نزار متولي صيدا . فنزل عليه وانتزعه من الفرنج ولم يزل في يد نواب الملك الناصر صاحب دمشق وحلب الى ان استولوا التتار على البلاد في سنة ثمان وخمسين وستماية كما سبق ذكره . فقصده شهاب الدين بن بحتر من قبل التتار ونزل عليه وضايقه بالرجال . فسلمه الوالي اليه فأخربه ولم يزل خرابا الى ان ملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس . فاستمر خرابا الى ان امر الملك الظاهر بعمارته فعمره نواب الشام في هذه السنة وحمل اليه زرد خاناه وذخاير والله اعلم .

وفي جمادى الشهر المذكور انعم السلطان الملك الظاهر على العسكر الساحلي الذي صحبه الامير ناصر الدين القيمري بمائتي الف درهم وفرقت عليهم ٠

وفي جمادى الشهر المذكور بلغ الملك الظاهر ان جماعة من عسكر شيراز ومقدمهم الامير سيف الدين بكلك ومعهم اقتيار الخوارزمي جمدار السلطان جلال الدين خوارزم شاه وصحبتهم حسام الدين حسن بن ملاج امير العراق وجماعة من امراء خفاجه وصلوا لطلب (٤٤و) (١) صدقات السلطان ٠ فتقدم بالاحسان اليهم ٠

وفي مستهل شهر رجب الفرد من هذه السنة جلس الملك الظاهر بدار العدل وانهي اليه بأن على باب مشهد السيد الحسين رضي الله عنه مسجدا والى جانبه مكان من حقوق القصور ونبيع ٠ وحمل ثمنه للديوان وهو ستة الاف درهم ٠ فسأل السلطان عن صورة المسجد وهذا الموضع وهل كل منهما بمفرده او عليهما حائط داير فقيل بينهما زرب قصب فأمر برد المبلغ الى صاحب (٢) ٠ وابقى الجميع مسجدا وامرا بعمارة المسجد ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مسجدا لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة ٠

وفي هذا اليوم وقف رجل من الاجناد ومعه صغير يتيم ٠ قال : انا وصي هذا الصغير وشكى من نائبه تتعلق به ٠ فقال السلطان لقاضي القضاة : اعلم ان الاجناد يموت واحد منهم فيستولي خشداشيته على موجوده ويجعل اليتيم وشاقيه ويموت اليتيم فيستولى الوصي على الموجود ٠ او يكبر اليتيم ولا يجد شيئا ولا تقوم له حجة على موجود ٠ والوصي قد يموت فينغمر مال اليتيم في ماله ٠ وانا ارى ان احدا من الاوصياء لا ينفرد بوصية وليكن نظر الشرع شاملا واموال اليتامى مضبوطة وامناء الحكم يحاققون على المصروف ٠ وطلب نواب الامراء ٠٠ العساكر وامرهم بذلك وامر باستمرار الحال عليه ٠

(١) هكذا الترقيم في الاصل ٠ (٢) هنا كلام ساقط ٠

وفي ثالث شهر رجب الشهر المذكور وصل الى الابواب الشريفة الجماعة اهل شيراز ومقدمهم بكلك ورفقته وهم سيف الدين اقتبار (١) جمدار جلال الدين خوارزم شاه والامراء الاتابكيه غلمان اتابك سعد وهم جماعة كبيرهم سنقرجاه وغيره من الاتابكيه ووصل (٤٥ و) في صحبتهم حسام الدين بن ملاح امير العراق وجماعة من امراء خفاجه . فأحسن السلطان الملك الظاهر الى الجميع وتلقاهم بنفسه وامر الامير سيف الدين بكلك واعطاه طبلخاناه وكذلك امراء مظهر الدين وساح بن سهرى . واطلق للامير حسام الدين حسين بن ملاح قرية في الشام وجهزهم الى بلادهم .

وفي شعبان من هذه السنة امر السلطان الملك الظاهر بتكملة عمارة بير الليون غربي الاسكندرية وحفر مبانيها وانشاء فيها بستانا ، لانها منزلة من منازله عند توجهه الى الحمامات للصيد . فشرع فيها . ووقع الاهتمام بذلك قال صاحبنا الامير صارم الدين ابراهيم بن دقماق . هي بئر قديمه من عهد الروم رأيتها غير مرة لما سافرت مع السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاون . وهي من عجائب المباني في وسط بستان تقديره ستة افدنه اوسبعة . ولها منافذ من خارج البستان والبستان بين جبال محيطه به . وتلك الارض كثيرة .... (٢) .

وفي شعبان الشهر المذكور عدا السلطان الملك الظاهر الى الجيزيه متنزها في الاهرام وركب ورمى نشابه فعدا الاهرام . وطولها اربعماية ذراع بذراع العمل وطلع اليها جماعة من خارجها حتى ان فراشا لامير سيف الدين قشتمر العجمي طلع بخركاه ونصبها على علوها واقامت اياما والله اعلم .

---

١) راجع ص٨٨ اعلاه .
٢) سطران غير مقروئين .

وفي شعبان الشهر المذكور وصلت الاخبار الى الملك الظاهر بأن الامير علم الدين قيصر الظاهرى والى سرمين سير اليه الامير نور الدين نايب السلطنة بحلب يأمر بمصلحة من المصالح . فقال كلاما فيه استنقاص وعدم مبالاة به . فعز ذلك على الامير نور الدين ثم رضي عنه . فسير السلطان بريديا الى نائب حلب يأمر فيه باحضار قاضي القضاة بحلب واحضار والي سرمين بحضور الامراء بحلب وتأديبه الادب الزاجر . وكتب محضر بما جرى واخذ خط الجميع فيه ورسم بأن يقال اذا فرغ عن تأديبه نواب السلطنة لايفترى عليهم ولا يتجرى . وفي هذا ادب ذاك القول . وقد عزلناك من ولايتك زيادة في الادب . ويقال للامير نور الدين : انتم اصلحتم ونحن مانصطلح . فأعتمد ذلك كله . وهذه نكته فيها حسن سياسة .

وفي هذه المدة امر الملك الظاهر الامراء والاجناد بعمل العدد الكائنة (٤٥ ق) لهم ولمماليكهم . فلم يبق لاحد اهتمام الا في تفصيل البركصطوانات وعمل الجواشن وصقل الزرد وكفت الخود وعمل وجوه الخيل . واذا عبر الانسان في سوق السلاح لايقدر على العبور من كثرة الخيل التي للاجناد الواقفين به . وارتفع سعر الحديد واجر الحدادين والجواشنية والصياقلة . ولم يبق لاحد همة في شيء الا تكمله عدته النافعه . وفي كل دار معلم للعب الرمح . وتعلم جمع كثير من المماليك الظاهرية لعب النار على الخيل وما بقي لاحد رغبه الا في الاشتغال بعدة الحرب . والناس على دين الملك . ولو حلف حالف ان احدا من العسكر ماانفق شيء من فعل الا في ذلك لصدق . وقد كان من تقدم من الجند ينفقون مالهم فيما لايرضي الله تعالى من الامور المحيطة للاعمال . وهذا الملك شغله هذا لاينهي عنه بلذة ولا طرب ولا ينقضي وقته الا في حسنة قد سطر الله له اجرها .

وفي شعبان الشهر المذكور وصل كتاب امير المدينة النبوية على ساكنها افضل الصلاة والسلام يذكر انه ركب بنفسه وسار الى مكة شرفها الله تعالى صحبة الكسوة وعلقت والله اعلم ٠

وفي شهر رمضان من هذه السنةتنجزت كسوة الضريح الشريف النبوى شرفه الله تعالى وبعد سفرها صحبة الطواشي جمال الدين محسن الصالحي وشرع في تجهيز الشموع والبخور والزيت والطيب ٠

وفي شهر رمضان الشهر المذكور وصل كتاب الامير ناصر الدين القيمرى يذكر له انه بلغه ان الفرنج المخذولين توجهوا الى جهة يافا ٠ وكان الملك الظاهر قد اطلع على حركتهم فأمره بالغارة على قيسارية وعتليت فساق الى باب (٤٦ و) عتليت ونهب وقتل واسر ٠ ثم ساق الى قيسارية واعتمد فيها هذا الاعتماد وبلغ الذين اجتمعوا في يافا من الفرنج ذلك فسقط في ايديهم وانعكست القضية وخافوا ورجعوا ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ٠

وفي شهر رمضان الشهر المذكور جرى الملك الظاهر على عادته في اجراء الصدقات بمطابخ في القاهره ومصر برسم الفقراء ٠ انصرف فيها كل ليلة جملة من الطعام والخبز ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من فطر صايما فله اجر صايم ٠ وكذلك جرى على عادته الحسنة في عتق ثلاثين نسمة على عادة الملوك الماضين ٠ هذا غير من اعتق من مماليكه الامراء وخواصه ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اعتق نسمه مؤمنه كان له بكل عضو منها عتق عضو من النار ٠

وبلــغ السلطان ان الفرنج اخذوا اخيذة من بلاد الاسلام، فانكر ذلــك وارسل الى النواب بالشام بالاجتهاد في ردها . فوصل كتاب الامير ناصر الدين القيمرى يذكر ان الفرنج ردوا الاخيذة وهي عالم كبير من اهل البلاد وجملة من المواشي . فسمع في تلك الساعة من اختلاف الاصوات بدعاء الرجال والنساء وبكاء الاطفــال ما تكاد ترق له الحجارة . وكــان السبب في رد هذه الاخيذة ان الامير ناصر الدين المذكور سير الى الفرنج يتهددهم ويقول لهم : نحن هادناكم كما سألتم المدة التي طلبتموها . وهذه الاخيذة كانت في مدة الهدنة . فبعث الفرنج وزير قيساريــة ليتحدث في ذلك فقبض عليه الامير ناصر الدين وما زال حتى احضر جميع ذلك وبعــد ذلــك سيب (١) الوزيــر .

وفي هــذا التاريــخ وصلت كتب نواب البيرة يذكرون ان صارم الدين بكتــاش الزاهدى ركب في جماعة واغــار (٤٦ ق) على باب قلعة الروم واغار مرارا .

وفي شهر رمضان الشهر المذكور وصل رسول من الملك شارل (٢) اخي الملك فرنسيس وهو صاحب مرشيلية ووصلت صحبته عدة من السناقر الشهب والامتعة . ومضمون كتابه المحبة والمشايعة . ووصل كتاب استاد داره بان مخدومه امره ان يكون امر السلطان نافذا في بلاده وان اكون نايب السلطنة كما انا نايبــه .

وفي يوم الجمعــة خامس عشر شهر رمضان قرئ مكتوب بجامع مصر بابطال ماقرر على ولاية مصر من الرسوم وهي ماية الف درهم واربعة الاف درهم نقرة وشملت المسامحة بذلــك .

---

١) في الاصل " سير " راجع ابن عبد الظاهر (ص١٠٤)

٢) فـي الاصـل " شــارك " .

وفي شهر رمضان الشهر المذكور احضرت فلوس من جهة قوص وجدت مدفونة فأخذ منها فلس فاذا على الوجه الواحد صورة ملك واقف في يده اليمين ميزان وفي يده الشمال سيف . ومن الوجه الاخر رأس مصور بأذن كبيرة ... وعين مفتوحة وبداير الفلس سطور فقرأها راهب يوناني فكان تاريخه الى وقت قراءته الفين وثلاثماية سنة . وفيه مكتوب انا غليات الملك ميزان العدل والكرم في يميني لمن اطاع والسيف في يسارى لمن عصى وفي الوجه الاخر انا غليات الملك اذني مفتوحة لسماع المظلوم وعيني مفتوحة .
.

وفي هذا الشهر بلغ السلطان ان رسله الذين كانوا توجهوا الى الملك بركه عوقهم الملك الاشكرى . فطلب السلطان نسخ الايمان واخرج منها يمين الملك كرميخائيل الاشكرى وهي بالرومية . واحضرت البطاركة والاساقفة وتحدث معهم فيمن يخالف بكذا وكذا من دينه وانه يكون محروما من دينه . فأخذ خطوطهم بذلك وهم لا يعلمون مايراد منهم ثم اخرج لهم نسخ ايمان الاشكرى وقال : قد نكث بامساك (٤٧ و) رسلي ومال الى جهة هولاكو وكان ماسنذكره .

حكى الصاحب عز الدين ابن شداد مؤلف سيرة الملك الظاهر في سبب تأخر رسل الملك الظاهر عن الاشكرى ما معناه : لما وصل رسل الملك الظاهر الى القسطنطينيه وجدوا الباسلوس كرمخايل صاحبها غائبا عنها في حرب كانت بينه وبين الفرنج . فلما بلغه وصولهم طلبهم اليه فساروا اليه مسيرة عشرين يوما في عمارة متصلة فاجتمعوا به في قلعة اكسابا فأقبل عليهم واظهر لهم المسرة واكرمهم ووعدهم ان يساعدهم على التوجه . ووجدوا عنده رسل من جهة هولاكوا فاعتذر عن تأخير توجههم لخوفه من هولاكو ان يطلع على ماوصلوا بسببه . ثم امرهم بالرجوع الى قسطنطينيه وان يقيموا بها حتى يعود ويجهزهم . وكان ذلك خديعه منه .

ولم يزل يمطلهم مدة سنة وثلاث شهور • فلما طالت المدة عليهم ارسلوا اليه يقولوا : ان لم يمكن الملك المساعدة على ان يوجهنا فليأذن لنا في الرجوع الى بلادنا • فأذن للشريف في الرجوع بمفرده • واعتذر بمنعهم عن التوجه لكون ان بلاده بعيدة عن البلاد المجاورة لمملكة السلطان ركن الدين وقربه من البلاد المجاورة لمملكة هولاكو• وانه متى سمع اني مكنت رسل صاحب مصر من التوجه الى بركه توهم انتقاض الصلح بيني وبينه • فربما تسارع الى نهب ما جاوره من بلادي وما انا قريب منها حتى اذب عنها • فعاد السيد الشريف وتأخر فارس الدين اقوش مدة سنتين فهلك اكثر ما كان معه من حيوان ورقيق • وتسارع القصاد الى غيره •

"وفي اثناء هذه المدة قصد عساكر بركه القسطنطينية واغاروا على اطرافها فهرب الباسلوس الى القسطنطينيه (٤٧ ز) وبعث بالامير فارس الدين اقوش الى مقدم عسكر بركه يعلمه ان البلاد في عهد الملك الظاهر وصلحه • وان بركة في صلح من صالحه وعهد من عاهده فطلب منه ان يكتب له خطه بذلك فكتب • وكتب ايضا انه مقيم باختياره وانه لم يمنع من التوجه • فتوجه العسكر •

"ثم ان الباسلوس جهز الامير فارس الدين الى بركة وبعث معه رسولا من جهته برسالة : منها ان يقرر على نفسه ما يحمله كل سنة وهو ثلاثماية ثوب اطلس وعلى ان يكون معاضدا ومصالحا له ومدافعا عن بلاده • فتوجه الامير فارس الدين الى بركة • فلما اجتمع به ساله عن تأخره حتى هلك اكثر ما كان معه من الحيوانات • فاعتذر ان صاحب القسطنطينية منعه من الحركة • فأخرج له خطه بما كتب به لمقدم عسكره • قال له : انا ما اواخذك لاجل الملك الظاهر وهو اولى من واخذك على كذبك وافساد ما ارسله معك " ولما انكر الملك بركه الامير فارس الدين كتب عز الدين الى الملك الظاهر يعرفه بما صدر من فارس الدين من التقصير وكونه رحل عسكر بركه عن القسطنطينيه

بما اوهمه من كون البلاد في عهد الملك الظاهر • وكان قادرا ان يأخذ منه في مقابل ترحيله عنه قيمة ما افسد من الهدية لاضطراره الى ذلك • فلما رجع فارس الدين الى مصر واجتمع بالسلطان نقم عليه لفعله وقبض عليه واخذ منه ماكان وصل معه من البضائع • وكانت قيمتها اربعون الف دينار • وكان وصوله في جمادى الاخره سنة خمس وستين وستماية ".

والاظهر ما حكاه القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر وغيره ان اجتماع الرسل بالملك الاشكرى كان في مدينة أنيه • وان السلطان الملك الظاهر لما بلغه في (٤٨و) هذه السنه ان الاشكرى عوق رسله وطلب حسن الايمان واخرج منها يمين الاشكرى واحضر البطاركة وسألهم واجابوه كما قدمنا شرحه طلب الراهب الفيلسوف اليوناني الذى قرأ القلس الذى قدمنا ذكره وطلب اسقفا وقسيسا • وجهزهم الى الاشكرى وصحبتهم هذه المكاتيب المقدم ذكرها • وكتب الى الاشكرى وهو يغلظ له في القول • ثم قال : ان كان سبب امساك رسلي فساد حالك مع الملك بركه وكون عساكره وافسدت في بلادك فانا اصلح الحال بينك وبينه • وكتب السلطان كتابا الى الملك بركه بذلك وسيره الى الامير فارس الدين اقوش المسعودى المتوجه بالهدية الى الملك بركه وامره بالتوسط في الصلح وتوجهت الجماعة المذكورون بذلك فلوقته اطلق الجميع وساروا الى الملك بركه في هذه السنة وعادوا كما سنذكره ان شاء الله تعالى •

ذكر سلطنة الملك السعيد بن الملك الظاهر

في شوال المبارك من هذه السنة سنة اثنتين وستين وردت اخبار بأن جماعة من التتار مستأمنه • وجلال الدين الدويدار واصل وصحبته جماعة كبيرة من الاتراك والبغادده قاصدوا باب السلطان بالحرم • فأعلم الملك الظاهر الامراء الاكابر بذلك وقال : ماجمعت هذه الاموال الا لمهم يحصل للمسلمين وهؤلاء التتار

مانحمل امرهم على الحزم ٠ ووصول هؤلاء على كثرتهم من جهات فيه استرابة ٠ ونحن نخرج فان كان هؤلاء طائعين كان لهم ما لاولي الطاعة ٠ والا فتكون سيوفنا لاعاقه عن تجريدها ٠ ومن احتاج منكم ومن العساكر المنصوره اعطيته ٠ ومن عدم واسيته ٠ وانا في نصرة الاسلام كأحدكم ولا اوفر نفسي في امر وانا بنو بني فرس ٠ وجميع ماعندى من خيل وجمال كله لكم ولمن يجاهد في سبيل الله ٠ فتقرر خروجه فأشار عليه حينئذ بعض الامراء (٤٨ ق) بسلطنة ولده الملك السعيد ليكون بالديار المصرية مقيما في غيبه السلطان ٠

وفي يوم الخميس ثالث عشر شوال الشهر المذكور اركب السلطان ولده الملك السعيد بشعار السلطنه وخرج بنفسه في ركابه وحمل الغاشية راجلا بين يديه واخذها الامراء وعليهم الخلع الفاخرة ٠ ولم يبق احد من اولياء الخدمة الا وعمته الخلع ٠ ورجع السلطان الى مقر ملكه ٠ ولم يزل الملوك والامراء والعالم في خدمته الى باب النصر ٠ ودخلوا من القاهرة رجالة يحملون الغاشية وقد زينت احسن زينة واهتم الامراء بنصب القهاب ٠ وشق المدينة الملك السعيد ٠٠٠ (١) واتابكه الامير عز الدين ايدمر الحلي راكب الى جانبه ٠ ولم يزل الثياب الاطلس والعتابي وغيرهما تفرش له الى حيث عاد الى قلعته ولم يبق امير الا بسط من جهته ثياب ٠ فحمل من ذلك احمال تفرقها المماليك السلطانيه وارباب المنافع وانبسطت الايدى والالسنة له بالدعاء يسألون الله اعزازه واتمام هلاله وبقاء بدره ٠ وان يجمع به للاسلام (٢) الشمل وتتم نعمته عليه كما اتمها على ابويه من قبل ٠

---

١) كلمة " المدينة " مكرره هنا في الاصل

٢) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ١٠٦) لكنها "للانسان" في الاصل ٠

وكتب القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر تقليد الملك السعيد بتفويض عهد السلطنة له •

وفي يوم الاثنين سابع عشر الشهر المذكور اجتمع الامراء وقاضي القضاة والعلماء وقرئ التقليد وهو (١) : الحمد لله منور الدهور ومبهج النفوس ومزين سماء المملكة بأحسن الاهلة • واضوء البدور واشرق الشموس • الذي شد ازر الاسلام بملوك يتعاقبون مصالح الانام ويتناوبون تدبيرهم كتناوب العينين واليدين في مهمات الاجساد وملمات الاجسام • نحمده على نعمه التي ابقت حفظ الشكر المتغافي واوردت منهل الفضل الصافي • وخولت الآلاء حتى تمسكت الآمال منها بالوعد الوافي (٢) • واخذت بالوزن الوافي ونشهد (٠٠؟) ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة عبد كثر الله عدده وعدده واحمد امسه ويومه • ويحمد ان شاء الله غده ونصلي على سيدنا محمد الذي اطلع الله به نجم الهدى والبدر المشرقين به اردية الرشد واوضح به مناهج الدين وكانت دراثر قددا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا تنقضي ابدا وبعد فانا لما الهمنا الله من مصالح الامم وخولناه من النصر على مهمات الجهاد التي تقطع به شأفه الكفر وحسم (٣)، واتى بنار الشرك قد علم كل احد اشتعال نساره فكان علما بنار مخرمه لا نارا على علم • وقدره من دفع الكفر من جميع الجوانب وقمعهم من كل جهة حتى رميناهم بالحيف الواصل والعذاب الواصب • فأضحى الحرب من الاباده في سرب الاسلام لا يخاف مرافقه ولا يحس من درب وثغور الاسلام عاليه المبتني ناميه المقتنى حانيه ثمار الادخار من هنا ومن هناك تزاحم بروجها

---

(١) ابن عبد الظاهر (ص١٠٦ ـ ١٠٩) والقلقشندي، ج١٠ ص١٦٣ ـ ١٦٦

(٢) ابن عبد الظاهر "الوفي " (ص١٠٦)

(٣) "وختم "في ملاحق نشرها د. ابراهيم حسن في "تاريخ المماليك البحرية " ص٣٧٢

في السماء البروج • وتشاهد الاعداء منها سماء قد بنيت وزينت ومالها من فروج • وعساكر الملة المحمدية في كل طرف من اطراف الممالك تجول • وفي كل واد تهيم حين يشعر بالنصر ولكنها تفعل ما تقول • قد دوخت البلاد فتلت الاعداء تارة بالالمام وتارة بالاوهام • وسلمت سيوفها فراعهم يقظة بالقراع ونوما بالاحلام نوب انما قد لذ لنا هذا الامر التذاذ المستطيب وحسن لدينا موقعه فعكفنا عليه عكوف المستجيد ولبيناه تلبيه المستجيب • وشغلنا فيه جميع الاوقات والحواس وتقسمت مباشرته ومؤامرته سائر الزمن حتى غدا اكثر ترددا الى النفس من الانفاس • واستنفذنا الساعات في امتطاء الضمر الشوس وادرع بمحكم الدلاص (١) التي كانها رمضان برق او شعاع شموس (٤٩ و) وتجريد المرهفات التي قد جفت لحاظها الاجفان وحرت فكالمياه ما حرمتها الغدران (٢) وتقويم المعالم التي عدت قسيمها من ابنائنا لما تأتي واعتقال السمهرية التي ترى الاعداء سنها ندما كما نرى في السن السن غير ذلك من كل غارة شعواء تسيء للكفار اعمال وتصدم كالجبال وتسير كالريحان • ومنازلات كم استلبت من موجود وكم استنجزت من نصر موعود • وكم مدينة انحت لها مدينة ولكن اخرها الله الى اجل معدود • وكانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو • وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو • ورأينا انه الهلال الذي اخذ في ترقي منازل السعود الى الابدار • وانه سرنا الذي صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار • اردنا ان ننصبه في منصب احلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من عرفه (٣) وان تكون يدنا ويده يقتطفان

---

١) في ابن الظاهر (ص١٠٧) "وادراع محكم"

٢) "فكالغدران "في ابن عبد الظاهر (ص١٠٧)

٣) " سرفه "في ابن عبد الظاهر (١٠٨) وكذا في محمد علي ابراهيم حسن (ص٢٠٢).

من ثمره وجيدنا وجيده يتحليان بجوهره ، وانا نكون للدلطانة السمع والبصر وللمملكة المعظمة في التناوب بالاضاءة الشموس والقمر ، وان تصول الامة منا ومنه بيدين ويبطشون من امرنا وامره بيدين وان نربيه على حسن سياسة تحمد الامة ان ساء الله عاقبتها عند الكبر وتكون الاخلاق الملوكية منتمية معه ومنتميه به من الصغر ، ونجعل سعي الامة يتمنى مثله حميدا ونهب لهم منه سلطانا نصيرا وملكا سعيدا ، ويقوى به عضد الدين ويريد ربه (١) جناح المملكة وتنجح مطالب الامة باياليته ، وكيف لا ينجح مطالب يكون فيه بركه ، ونحن امرنا لابن مستعدا ومسعفا ولا عدمت الامة منه خلفا منيلا ونوعا (٢) محففا بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركه خاقان محمد جعل الله مطالع سعده بالاسراف محفوفا ، وان الامه من ميامنه ما يدفع للدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصريفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها (٥٠ و) وغورها ونجدها وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولاياتها واقطارها (٣) ومدنها وامصارها وسهلها وجبلها ومعطلها ومحتملها وما تحوى اقطاره الاقلام (٤) وما ينسب للدولة الظاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام بعد شام ، وما يتداخل ذلك من قفار ومن بيد في ساير هذه الجهات ، وما يتخللها من نيل وملح وعذب وفرات ومن يسكنها من حقير وجليل ، ومن يحتلها من صاحب رغاء وثغاء وصليل وصهيل ، وجعلنا يده في ذلك كله المبسوطه (٥) وطاعته المشروطة ونواميه المضبوطة ، ولا تدبير ملك كلي الا بنا وبولدنا يحصل ،

---

١) ليست في ابن عبد الظاهر (١٠٨)
٢) كذا في ابن عبد الظاهر (١٠٨) وليست واضحة في الاصل .
٣) " في اقطارها " في الملاحق ص٣٧٢
٤) كذا " اقطاره من الاقلام " في ابن عبد الظاهر (ص١٠٨)، وفي القلقشندي، ج١٠ ص١٦٥ " من الاحلام "
٥) مبسوطة ابن عبد الظاهر (ص١٠٩)

ولا سيف ولا رزق الا بأمرنا · هذا يسل ، وهذا يسأل · ولا دست سلطنه الا بأحدنا يتوضح (١) الاشراق ولا غصن قلم في روض امر ونهي الا ولدينا او لديه تمتد له الاوراق ولا منبر خطيب الا باسمينا يميس، ولا وجه درهم ولا دينار الا بنا يشرق · ويكاد تبرجا لابسرجا يتطلع من خلال الكيس · فليتقلد الولد ما قلدناه من امور العباد وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد وسنتعاهد الولد من الوصايا بما سينشأ معه توأما ويمتزج بلحمه ودمه حتى يكاد يكون ذلك الهاما لاتعلما · وفي الولد بحمد الله نقاء الذهن وصحة التصور ماتتشكل فيه الوصايا احسن التشكيل · وتظهر صورة الابانه في صفايه الصقيل · فلذلك استغنينا عن شرحها هاهنا مسرودة · وفيه بحمد الله من حسن الخليقة مايحقق انها بشرف الالهام موجودة والله لايعدمنا منه اشفاقا وبرا ويجعله ابدا للامة سندا وذخرا ·

ثم وردت الاخبار بفتور عزائم العدو · وان سبب حركه جلال الدين ولد الدوادار ان هلاون بلغه (٥٠ ق) ان بلاد العراق فيها جماعة من الاجناد والاتراك قد استخفوا وتزيوا بزى الفقراء والفقهاء وانقطعوا بالمدارس والربط وانهم في كل سنة يتسللون الجماعة بعد الجماعة الى الديار المصرية · فأراد التحيل عليهم بحيلة يجمعهم بها وتحقق ان المذكورين لايركنون الى التتار فسير الى جلال الدين المذكور يفهمه طلب نجده ويحسن له طلب جماعه من الاتراك والجند والانفاق فيهم واستخدامهم نجده على بركه · فسارع جلال الدين الى ذلك وبذل الاموال واستخدم · فأجتمعت له جماعة كبيرة · وفهم في اثناء هذه الحال القصد في هذا الامر وانه منه هلاك لجميعهم · فتجهز وخرج معرجا الى خدمة السلطان الملك الظاهر وتواصلت الاخبار بذلك فابتهج السلطان بذلك · وفتر عزم الحركة وشرع السلطان في ختان ولده الملك السعيد وامر الناس بالتأهب للعرض والاسلحة والجواشن وآلة الحروب خاصة · واما ولد

---

(١) " منه الاشراق " ابن عبد الظاهر (ص ١٠٩)

الدوادار فانه خرج واجتمع هو والعربان بنوا خفاجه غلمان السلطان ووصلت جماعة من جهته فكتب السلطان باطابة قلبه وكتب الى سائر امراء خفاجه وعربه (١) وغيرهم بخدمتهم واغاثتهم ٠ وامر امراء البغادده بالكتابة اليهم بما هم فيه من نعمة ٠

وفي اواخر شهر رمضان من هذه السنة ظهر كوكب بالشرق ذو ذوءابة بالافق نحو المغرب وصار يطلع في كل يوم قبيل الفجر خلف النجم المعروف بكوكب الصبح ٠ ثم صار يتقدم في كل يوم قليل الى ان صار يبدو مرتفعا عن كوكب الصبح ويبقى ضوء ذنبه ظاهرا ولم يتغير موضعه من منزله وكان بعده منها الى جهة (٥١ و) المشرق نحو رمح طويل ويبقى ظاهرا ثم يرتفع بارتفاعها ويسير بسيرها ٠ وبقي الى اوايل ذى القعده من هذه السنة الى ان تغلب عليه ضو النهار ٠ وكان يظهر له قبل بروزه شعاع عظيم في جو السماء ٠ وظهر ايضا من قبل المغرب بشمال بعد العشاء الاخره في ليال عدة من اواخر شهر رمضان واوايل شوال خطوط مضيئه كهيئة الاصابع مرتفعة في جو السماء ٠ واحمرت الشمس في اواخر الرابع من شوال من هذه السنة قبيل المغيب وذهب ضو الشمس بحيث توهم كثير من الناس انها كسفت وغربت وهي كذلك ٠ ولما كان بعد العشاء الاخره اصاب القمر مثل ذلك ليلة الخامس من شوال من هذه السنة ٠

وفي هذه السنة احضر الى الملك الظاهر طفل ميت من المقس بالقاهره له راسان واربعة اعين واربعه ارجل واربعة ايدى ذكر انه وجد بساحل المقسم ٠

---

١) " غزيّه" في ابن عبد الظاهر (ص١١٠) والقلقسندى ج ٤ ص٢١٥ وهي هنا مشكولة ٠

ذكر قتل الملك المغيث صاحب الكرك

قد قدمنا من اخبار الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل الايوبي وكيف ملك الكرك وكيف اخذت منه وكيف قبض عليه وارسل الى قلعة الجبل بظاهر القاهره المحروسة وحبس بها فأغنى عن الاعادة هاهنا · حكى الشيخ قطب الدين اليوناني (١) في تاريخه ان الامير عز الدين استدعى من يقتل الملك المغيث ممن يثق به واعطاه الف دينار · وكان استاد داره · وكان رجلا دينا وفيه تقوى فأبى ان يفعل فأكد عليه · فقال له والله لو اعطيتني ملء هذه الدار دنانير مافعلت هذا ولو ضربت رقبتي · فانتهزه وحاوله بكل طريق فلم يجب · فأعرض عنه وطلب اخر من اصحابه فيه شره وعنده شهامه واقدام · فأمره بذلك فبادر اليه · ودخل على المغيث وقتله خنقا · واخذ الالف دينار وشرع يشرب في داره على بركة الفيل واخرج من الذهب فسأله ندماؤه (٥١و) في حال سكره : من اين لك هذا المال ؟ فذكر الواقعه · فشاع ذلك واتصل الخبر بالملك الظاهر · وكان حريصا على كتمه ويظهر الامر ان الملك المغيث حي يرزق وانه موسع عليه في النفقه · فأنكر على الامير عز الدين الحلي وطلب الشخص القاتل منه فأحضره اليه · فأمر باستعادة الالف دينار منه وقتله ·

وكان قتل الملك المغيث في اوايل هذه السنة · وقيل في اواخر سنة احدى وستين ·

ذكر رجوع رسل الملك الظاهر وصحبتهم رسل الملك بركه ·

كنا قدمنا ان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ارسل رسل الى الملك بركه بسبب استمالته الى قيد الاسلام واغرائه بهولاكو والايقاع به · ولما

---

١) كذا ولعلها اليونيني ·

وصل الرسل الى بلد الاشكرى مرض الفقيه مجد الدين فرجع صحبه رسل الملك بركه الواصلين الى الابواب الشريفه وهم جلال الدين ابن القاضي والشيخ علي الدمشقي وتوجه الامير سيف الدين .... (١) من المغل . قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر في كتابه الذى سماه "الفضل الباهر من اخبار الملك الظاهر" : كان اجتماع الرسل بالاشكرى في آنيه . ثم رحلوا الى قسطنطينيه في عشرين يوما ومنها الى اصطنبول ومنها الى دفنسا وهي ساحل السوداق من جهة الاشكرى ثم ركبوا في البحر الى البر الاخر ومسيرته مابين العشره ايام الى اليومين بريح طيبه ثم طلعوا الى جبل يعرف بسوداق . فالتقاهم الوالي بتلك الجهة واسمه طابوق فركبهم على خيل البريد الى القرم يسكنها عدة اجناس من القفجاق والروس . ومن الساحل الى هذه القرية مسيرة يوم واحد . ثم ساروا من القرم الى بره يوما واحدا فوجدوا بها مقدما اسمه طوقبغا على عشرة الاف فارس حاكما على تلك الجهات ثم ساروا عشرين يوما في صحراء عامرة بالخركاوات والاغنام الى بحر ايتل وهو بحر حلو سعته سعة بحر النيل وفيه مراكب الروس . ومنزلة (٥٢و) الملك بركه الساحل منه . وحملت اليهم الاقامات والاغنام طول هذه الطرقات . ولما قاربوا الارد التقاهم الوزير شرف الدين القزويني وهو يتحدث بالعربية والتركية فأنزلهم في منزلة حسنة وحمل اليهم الضيافة من اللحم والسمك واللبن وغير ذلك .

"ثم حضروا عند الملك بركه والوزير شرف الدين في خدمتهم فخدموه على العاده . وكانوا قد فهموا آدابه التي تعتمد معه وهي الدخول من جهة اليسار . فاذا اخذت الكتب منهم ينتقلون الى جهة اليمين ويكون القعود على الركبتين . ولا يدخل احد معه الى خركاة الملك سيف ولا سكين ولا عدة ولا دبوس . ولا يدوس برجله عتبة

---

١) كلمتان غير مقروءتين .

الخركاه ولا يقلع الانسان عدته الا على الجانب اليسار ولا يترك القوس في القربان ولا يخليه موتورا ولا يحط في قربانه نشابا ولا يأكل الثلج ولا يغسل ثوبه الا في الارد .

" فلما دخلوا اليه وجدوه في خركاة كبيره تسع ماية رجل . وقيل تسع قدر خمسماية نفر مكسوة لبادا ابيض ومستره من داخلها بصندات وخطاى وجواهر ولولو وهو جالس على تخت مرخي الرجلين وعلى الكرسي مخدة . فانه كان به وجع النقرس . والى جانبه الخاتون الكبرى واسمها طغطغاى خاتون . وله امرأتان غيرها وهما ججك خاتون وكهار خاتون . وليس له ولد . وصفته خفيف اللحية كبير الوجه في لونه اصفرار يلف شعره عند اذنيه وفي اذنه حلقه وبها جوهرة ثمينه وعليه قباء خطائي . وعلى رأسه سراقوج وفي وسطه حياصه من ذهب مجوهرة معلق بها صولق بلغاري اخضر . وفي رجله خف كيمخت احمر . وليس في وسطه سيف . وبحياصته قرون سود مموجه مقمعه بذهب وعنده خمسون اميرا او ستون على كرساى في الخركاه .

ولما دخلوا اليه وادوا الرسالة اعجبه ذلك واخذ منهم الكتاب وامر وزيره بقراءة الكتاب ثم نقلهم عن يساره الى يمينه واسندهم الى جانب الخركاه خلف الامراء الذين (٥٢ ق) بين يديه . واحضر لهم القمز . وبعده العسل المطبوخ . ثم احضر لهم لحما وسمكا فلما اكلوا امر ان ينزلوا عند زوجته ججك خاتون . فلما اصبحوا اضافتهم الخاتون في خركاتها ثم انصرفوا آخر ذلك النهار الى المكان الذى لهم وصار يطلبهم في اكثر اوقاته ويسألهم . فسأل عن الفيل والزرافة ومصر . وسألهم عن النيل وقال : سمعت ان عظما لابن آدم ممتدا على النيل يعبرون الناس عليه . فقالوا مارأينا هذا ".

قـــال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر ماصيغته : نقلت من خط ابي زكريا بن اياس بن القاسم صاحب "تاريخ الموصل" قـال : قال عبيد الله بن اسحق : بلغنا انه لم ينج من الغرق الا من كان فـي السفينة ورجل يقال له عوجا بن عنق زعموا ان الماء كان الى نصف ساقه . ثم اهلكه الله تعالى بعد ذلك فيما يزعمون في زمن موسى عليه السلام . ولم يكن له ولد .
وقـال محمد بن اسحاق انه كان يضرب بيده فيأخذ بها الحوت من البحرفيشـويه في حر الشمس حتى ينضجه ثم يأكله . وكان عمره فيما يذكر ثلاثة الاف سنة وستماية سنة . وكانت امه من بنات آدم عليه السلام . فعاش حتى قتله موسى عليه وعلـى نبينا محمد رسول الله افضل السـلام .

وذكـر في سـلامته من الغـرق/ما ذكـره الطلحـي . وكان ارتفاع الماء فيما يروى عن وهب بن سليمان عن شعيب الجنائي قـال : سير ماء الارض ماء السـماء بأربعين يوما وعلا الماء فوق اطول جبل في الارض مسيرة خمسة اشهر صعـــدا وقيل ان الماء علا فوق كل شيء خمسة عشر ذراعا . وقـد ذكر ان موســى عليه السلام كان طوله سبعة اذرع بذراعـه . وقفز عن الارض سبعة اذرع فوصـل الى كعبه وما صح ذلك . والدليـــل على ان اطوال (١) الناس مناسبة منذ قيام الدنيا والى هذا الوقت ان الناووس وهو القبر الموجود الان بالاهرام ولا خـلاف انه قبر بانيها . وهو على طول الانسان . وكذلك بقيه النواويس الموجـودة في مصر القديمة وغيرها . والاهرام بنيت فيما ورد قبل طوفان نوح (٥٣و) عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل الصلاة والسلام لان بانيها رأى في علمه ان آفة من الماء تهلك العالم . فبناها وقاية له والصحيح انها قبور .

---

١) كذا في ابن عبد الظاهر (ص١١٦) لكنها "اطـول" في الاصـل .

انتهى ماذكره • وقد تدمنا في اول كتابنا هذا ماقاله العلماء في الاهرام وما قالوه في عوج بن عنق من الاختلاف والله اعلم بصحة ذلك على ما اتى •

تتمة خبر رسل الملك الظاهر وما اتفق لهم : وفسر قاضي القضاة الذى عند الملك بركة الكتاب وبعث (١) به نسخة الى القان • وقرئ كتاب السلطان بالتركي على من عنده وفرحوا به • واعادوا الرسل بجوابه وسير معهم رسله • فان لكل امير عنده مؤذن وامام • ولكل خاتون مؤذن وامام والصغار يتلقنون القرآن العزيز في المكاتب • وعادوا من جهة الاشكرى ووصلوا الى الابواب الشريفة وحضروا عرض العساكر المنصورة لابسة كما سنذكره ان شاء الله تعالى وذلك في عاشر ذى القعده من هذه السنة • وما زال الرسل يحضرون الى خدمة السلطان ويشاهدون لعب الكرة وحضروا الطهور وانزلوا باللوق •

وقال صاحبنا صارم الدين ابراهيم بن دقماق : اقام رسل الملك الظاهر عند الملك بركة مدة ستة وعشرون يوما • واعطاهم من الذهب الذى يتعاملون به في بلاد الاشكرى • واخلعت عليهم زوجته ججك خاتون • واعطاهم الاجوبة • وارسل معهم الرسل • ورجعوا فأقاموا في بلاد الاشكرى الى سنة خمس وستين والله اعلم اى ذلك كان • قال : وحكى الصاحب عز الدين ابن شداد : ان الرسل دخلوا القسطنطينيه ووجدوا الباسلوس كرمخايل صاحبها غائبا عنها في حرب كانت بينه وبين الفرنج • فلما بلغه وصولهم طلبهم اليه فساروا اليه مسيرة عشرين يوما في عمارة متقدمة فاجتمعوا به ٠٠٠٠٠ (٢) •

ذكر عرض الملك الظاهر عساكر الديار المصرية

---

١) الاصح " منه "
٢) سطران غير مقروئين •

كنا قدمنا ذكر اهتمام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي بأمر العدد الحربية والاستكثار منها والزام الامراء والمفادرة والجند بتكملة العدة . وهي عدة الحرب وعدة النجارة وعدة الحجارة . وارسل بذلك الى جميع البلاد الشامية والحلبية والى الملك المنصور صاحب حماه فاهتموا بذلك همة عظيمه ولم يبق لهم شغل الا تحصيل العدد والاستكثار منها ومن الجواشن الليمخت المصفحة بالذهب والفضة وبركصطوانات الخيل جواشن والخوذ الفرنجيه فرأى عرض العساكر جميعها في يوم واحد وتقدم قبل ذلك الى كل امير ان يعرض اصحابه ومضافيه .

وفي العشر الاول من ذى القعده من هذه السنة جلس (٥٣ ق) السلطان الملك الظاهر على الصفه التي بجانب دار العدل عند طلوع الشمس والعالم قد شرعوا في اللبس من الليل . وامتلأت الدنيا عساكرا فلا تقع العين الا على خوذ لامعه وانوار ساطعه وخيول تصهل وجنود تقبل واطلاب سايقه وعساكر متلاحقه . وساق كل امير في طلبه لابسا لامة حربه وجروا من الجنايب خيولا كأنها الرياح في المطاردة والجبال في المشاهده عليها من عدد الحروب ما تطمئن به من الممتطين لصولتها القلوب وامر السلطان ان لا يلبس احد في هذا اليوم الا ماهو من شعار الحروب وان تكون التشاهير والمراوات لوقت آخر .

وكان السلطان قد عفى عن سر حررد قسطلان يافا واطلقه فركب وشاهد مايبهر عقله . وقال : رأيت عسكر الفرنج وعساكر هلاون وما رأيت مثل هذه العساكر العظيمة . ولم يزل السلطان جالسا والعساكر سايقين لابسين وديوان الجيوش بين يدى السلطان يجيبون عما يسألون . مع ان السلطان لايكاد يخفى عليه شيء من عساكره بالاسماء والصفات . وعبرت العساكر خمسة خمسة . وطال الامر فعبروا عشرة عشرة وكاد الناس يهلكون من الزحام وحمو الحديد . شعر :

حمي الحديد عليهم فكانه ومضان برق او شعاع شموس

فعبر الناس بلا حساب وطال الامر وقرب وقت المغرب والعالم لايزدادون الا كثرة . وهلك ذلك اليوم من الزحام جماعة منهم عز الدين ايبك مملوك الامير عز الدين الحلي . وكان قصد السلطان بركوب الناس في يوم واحد حتى لايقال ان احدا استعار من احد شيئا . وبقي كل احد يدخل من باب القرافه ويخرج من جهة الجبل الى باب النصر الى الدهليز المضروب (٥٤ و) هناك . ولما قرب وقت المغرب ركب السلطان بقباء ابيض لاغير وساق في وسط العساكر اللابسه العدد في جماعة يسيره من سلاح داريته وخواصه . ونزل الى الدهليز ورتب المنازل ورجع الى قلعته وقت المغرب ومهابته اعظم في القلوب من وقع السلاح . وعظمته تخطف الابصار ولا يقدر احد على تلحظه ولا التماح . ثم ان الناس اهتموا باللعب ولبسوا خيولهم التشاهير والبراشم البحريه والمراوات والاهله والذهب والفضه والاطلس والخطاى وغير ذلك شيئا عظيما . ونزل السلطان وجنايبه تجر بين يديه تبهر العيون بحسنها وحسن ماعليها من الاهلة والمراوات والبنود . قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر قال لي القاضي فتح الدين ابن سناء الملك قبل هذا الوقت بمدة سنة ان الذى دخل في المراوات من البنود الاطلس والاصفر قيمته عشرة الاف دينار وما تجدد بعد ذلك لايحصى . وساق السلطان الى ميدان العيد وقدامه جنايبه التي ماسمع ان ملكا جمع مثلها ولا غالا في اثمانها كمغالاته . ولقد سير طلب فرسا من هذه الخيول من صاحب المدينة . المشرفة النبوية على ساكنها سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام . فحضر ولد صاحب المدينة وصحبته عدة خيول من جملتها هذه الفرس . وذكر انه سير الى نجد ودخل على اصحابه دخول الزمام وبدل لهم جملة من ابل وجوارى وقماش حتى اخذه فأعطاه السلطان الفي دينار مضافا الى الخلع والافتقاد . واعطى ولده جملة كبيرة واكثر تحصيل هذه الخيول على هذه الصفة

وكانت كما قيـــل :

وخيل عليها الدارعون كأنهـــا ... رياح سرت (يحملن) (١) في السحب امواها
الفن القنا حتى لو ان نصالها ... تميز عن آذانها ما عرفناهـــــــا
يصرفها ماضي العزيمة جاعل ... بمصر على اسم الله واليمـــن مرساهـــا
مليك لو ان الارض في ظل عفـــوه ... وستر سجاياه الكرام لغطاهـــا

وشرط السلطان لكل امير بجيب القبق فرسا من هذه الخيل بما عليه من التفاصير وخلعة لكل مقدم او مملوك او جندي تليق بمثله • وساق (٤٥ و) السلطان والامراء على طبقاتهم ثم المقادرة والبحرية والطاهرية والحلقة والاجنـاد • ودخل الناس بالرماح بكرة النهار ونزل السلطان وقت الصلوة للصلاة واطعام الطعام • ثم ركب السلطان ولعبوا وركب السلطان وشفع ذلك برمي النشاب والعطاء والخلع •

وحضـر رسل الملك بركه في هذا الوقت فشاهدوا من كثرة العساكـر وحسـن زيهم واهتمام السلطان وحسن الرجال والخيول المسومه ما بهرهم واستمر وقوف السلطان وهم الى جانبه يشاهدون حلقه حركات هذه الجنود واصابه رميها • واقاموا كذلـك اياما على هذه الصفة •

وفي تاسـع ذي القعدة الشهر المذكور خلع السلطان على من خلع عليه مـن الملوك والامراء والبحرية والحجاب والحلقة وارباب المناصب والعمائم والوزراء والقضاه وارباب البيوت • اعطاهم ذلك مرة ثانية • وحضر الناس لابسين الخلع ولعبوا بقيـه ذلك النهار • فقالت رسل بركه للسلطان : هذه عساكر مصر والشام • فقال : بـل عساكر المدينة خاصة غير الذين في الثغور مثل اسكندرية ودمياط ورشيد وقـوص والمجردين والذين في اقطاعهم • فعجبوا من ذلك • وذكر الرسول انه ما رأى خيلا

---

١) كذا في ابن عبد الظاهر ص١١٢ وهي في الاصل ساقطه •

ولا عدة في عسكر السلطان جلال الدين ولا غيرهم مثل هذا الموكب ٠

وفي عاشر ذى القعده الشهر المذكور عمل السلطان السماط في القلعة المحروسة ٠ وحضر الملك السعيد بن الملك الظاهر ٠ وحضر في خدمته اولاد الملوك واولاد الامرا فظهر الملك السعيد ٠ ثم ظهر ابن الاميرعز الدين الحلبي اتابكه وابن الامير شمس الدين سنقر الرومي وولد سيف الدين سكر وولد حسام الدين ابن بركه خان وولد الملك المجاهد صاحب الموصل ثم اولاد الملك المغيث صاحب الكرك الثلاثه وولد فخرالدين الحمصي وجماعة من اولاد الامرا ٠

وكان قبل (٥٥و) ذلك رسم السلطان بكسوة جماعة من الايتام وابنا الفقرا بمصر والقاهره فأحضروا الى القلعة وطهروا في هذا اليوم ٠ وكان السلطان رسم ان يختن مع ولده اولاد الملوك والامرا والمقدمين والاجناد والقضاة والفقها والعوام والفقرا ٠ ونادى بذلك مدينتي مصر والقاهره ٠ واحضر الناس اولادهم فبلغ عدد الصغار الف وستماية وخمسة واربعين من اولاد الفقها والعامة خارجا عن اولاد الملوك والامرا والمقدمين والجند فأمر لكل منهم بكسوة على قدره وماية درهم ورأس غنم ٠ وحمل السلطان عن الامرا والخواص كلفه التقادم وسد هذا الباب شرف نفس منه وعدولا عما كان يفعله غيره من الملوك في مثل هذا المهم العظيم من تكليف الناس ٠ ما احسن قول القايل ٠

ملك تفرد انه يهب البلاد مع الممالك
ويجود بالمدن العظام وبالحصون وما هنالك
حاشاه يسلك من قبول هدية تلك المسالك
او انه مع جوده وعطائه يرضى بذلك

ذكر توجه الملك الظاهر الى الصيد ومسيره الى ثغر الاسكندرية ورجوعه الى قلعته سالما

لما فرغ السلطان الملك الظاهر من هذا المهم العظيم كما قدمنا شرحه خرج من قلعته متصيدا فعدى الى بر الجيزية في ذى القعده من هذه السنة . وسار الى الطرانه الى وادى هبيب (١) ونزل بالدره التي هناك . ووصل تروجه واخذ منها الى جهة الحمامات وسار الى منزله الكبش وقيل الكرش بالراء قرب العقبه الصغرى التي غربي الحمامات . وركب من الكبش الظهر وضرب حلقه في اليوم الثاني ووصلت الميسرة الى فوق العقبه الصغرى . وعيد عيد الاضحى ونحر الاضاحي وصلى صلاة العيد .

وبلغه ان بعض العربان قد عصوا في بعض البرارى فجرد اليهم جماعة وحضر جماعة من عرب هواره وعرب سليم فكتب عليهم الحجج بعمارة البلاد وان لايقربوا احدا من العربان العصاة . وعاد السلطان الى الاسكندرية وصلى في الجامع الغربي . وعم جميع الامراء والمفاردة وخواصه بما فرقه عليهم من الاموال والاقمشه عمل الدار الطراز والاشكر لاط ولعب الكرة (٥٥ ق) بميدان الاسكندرية وزار الشيخ الشاطبي . وسار متوجها الى القاهره المحروسة . ولما نزل بتروجه عند رجوعه رسم بتقديم سيف الدين عطا الله بن عزاز على عرب برقه وتحدث معه في امر العربان وكونهم ينتفعون من مصر باثمان الخيول المجلوبة والاغنام وغيرها . وانهم يستنتجون الاغنام ويزرعون الزرايع ولا يقومون بحق الله تعالى من الزكاة والعشر . وابو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : ولو منعتوني عقالا كانوا يعطونه لرسول الله صلى الله وسلم لقاتلتهم على منعه . وقد قال الله تعالى : واقيموا الصلاة واتوا الزكاة (٢) فالتزم الامير عطا الله بهذا الامر وانعم السلطان عليه سنجق ونقارات فتوجه ملتزما حفظ البلاد واستخراج الزكاة من العربان والله اعلم .

---

١) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ١١٦) وفي الاصل بدون نقط .
٢) سورة النساء ٤ آية ٧٦ .

ولما وصل السلطان الاسكندرية الى قلعته سالما وصل الى الابواب الشريفه شحنه تكريت ومعه جماعة . فأحسن السلطان اليهم وعمل فيهم كما قال الله تعالى : اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (١) .

وفي هذه السنة وصل للسلطان الملك الظاهر عشرة عقبان فأطلقها . فعمل في ذلك الاميرجمال الدين ابن الامام الحاجب :

جاءت ملوك الطير في يد آسر ... قهرا الى ملك الانام الظاهر
اضحى سليمان الزمان فملكه ... يسمو به لقياصر واكابر
ملك الزمان ستاتينك مثلهم (٢) ... في اسر خادمك الزمان الجائر

ذكر توجه عسكر جهزه السلطان الى خيبر لاصلاح من بها .

ابت همة السلطان الملك الظاهر الا افتتاح البلاد القريبة والبعيدة واحتمال المشاق (٥٦و) في المهمات العتيدة . ورأى ان بلاد الحجاز طريق البلاد اليمنية وظهر البلاد الكركيه والشوبكيه . ونظر الى جهة خيبر فوصلته كتب اصحابها عبيد الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه يبذلون الطاعة والخدمة ويستجدون اسباب النعمة . فسير نجابين استصبح الاخبار . وانتدب الامير امين الدين موسى بن التركماني . وجهز الرماة والمقاتله وانفق فيهم الاموال وجهز الخلع للمقدمين والمشايخ وكتب الى نايب الكرك بتجهيز امراء العربان وجماعة من البحرية المجردين بالكرك صحبته وجهز الغلال والذخاير لهذه القلعة فتوجه الامير امين الدين وافتتحها .

---

١) سوره قريش ١٠٦ آية ٤

٢) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ١١٧) وغير واضحة في الاصل .

وفي هذه السنة ظهر قتلى في الخليج وفقد جماعة من الناس اتهم بهم معارفهم والتبس الامر فيهم . ودام هذا الحال مدة شهر حتى ظهر ان امرأة حسناء تسمى غازية كانت تخرج في زينة فاخره . وتطمع من يراها من الاحداث ومعها امرأة عجوز فاذا رأت احدا مال اليها بالنظر وتبعها تعرضت اليه وخاطبته في امرها وقالت له لايمكنها تجتمع بأحد الا في منزلها خوفا على نفسها . فمنهم من يحمله الغرض على موافقتها فينطلق معها فاذا حصل عندها خرج اليه رجلان فيقتلانه ويأخذا لباسه وما معه . وكانوا على ذلك يتنقلون من مكان الى مكان خوف الشعور بهم . الى ان سكنوا خارج باب الشعرية على الخليج . فاتفق انه كان بالقاهره ماشطه مشهورة فجاءتها العجوز وقالت لها : عندنا امرأة قد زوجناها ونريد منك تدبير امرها وتزيينها بأحسن زينه . ونحن نعطيك مهما احببتي وواعدتها على المسير اليها فحملت الماشطة (٥٦ ق) ماتيسر عندها من الحلى والثياب مع جارية لها وخرجت اليهم فدخلت عندهم وانصرفت الجارية . فلما انصرفت الجارية قتلوها وابطى خبرها على الجارية . فجاءت الى الدار فطلبتها فأنكروها . فوشت بهم الى الوالي بالقاهره . فركب الى الدار وهجمها فوجد فيها الصبية والعجوز فأخذهما وتوعدهما فاقرا على نفسهما وعلى رجلين آخرين . فحبس النساء فسمع بهما احد الرجلين فأتى يتفقدهما فقبض عليه وعوقب حتى اقر فدل على رفيقه رجلا في جوارهم له اقمنه يحرق فيها الطوب . فكان يلقي فيها من يقتلوه . فيحترق ولايعرف به احدا . واظهروا من الدار حفاير مملوءه قتلى فطالعوا السلطان بأمرهم . فامر بتسميرهم تحت القلعة فسمروا في يوم واحد وشفع عند السلطان في المرأة بعد تسميرها بيومين فأمر باطلاقها ففكت مساميرها واطلقت . فأقامت اياما وماتت . ولما سمروا عمد بعض عوام البلد الى بيتهم فعمره مسجدا والله اعلم .

قال بعض اهل التاريخ وفيها امر السلطان الملك الظاهر بانشاء خان بالقدس الشريف وفوض امر بنايه للامير جمال الدين محمد بن نهار • ونقل اليه من القاهرة بابا من بعض دهاليز قصور الخلفاء بمصر واوقف اوقافا حسنة منها قيراط ونصف من قرية الطره من اعمال دمشق • وثلث وربع قرية المشيرفه من عمل بلد السواد ونصف قرية لينا من عمل القدس يصرف ذلك في ثمن خبز واصلاح نعال من يرد اليه من المسافرين المشاة • وفلوس وبنى بالخان طاحونا وفرنا • وجعل النظر فيه للامير جمال الدين محمد بن نهار •

وفيها اتفقت واقعة بالمغرب بين السلطان ابي يوسف (٥٧و) يعقوب المريني وبين الفرنج • وكان المقدم على الفرنج قائدا يسمى بدر تزمان • وكان الملتقى على مكان يقال له بيره فهزمه المريني وقتل جماعة ممن كان معه واثر في تلك البلاد آثارا حسنة •

(٥٨ ق) (١) ذكر وفاة من توفي من الاعيان في هذا العام وبعض اخبارهم •

ابراهيم بن مكي بن عمر بن نوح بن عبد الواحد المخزومي الدماميني يلقب ضياء الدين الكاتب • سمع من ابي الحسين علي بن قصر بن الحسين الخلال وحدث بالقاهره فسمع منه الشريف عز الدين احمد بن محمد وغيره وتقلب في الجند الديوانيه بديار مصر • ولد في رابع عشر المحرم سنة اربع وثمانين وخمسماية بدمامين وتوفي في حادي عشر ذي الحجة سنة اثنتين وستين هذه السنة ببلبيس رحمه الله تعالى •

---

١) لاوجود لصفحة رقم ٥٧ ق ولا لصفحة ٥٨و مع العلم ان صفحة ٥٧و لم يكتب فيها الا ثلاثة اسطر وبعض السطر •

احمد بن ابي عبد الله محمد بن مندر المالقي المصرى يكني ابا جعفر ويعرف بالضياء الحافظ . كان عارفا بالادب وله نظم حسن ومعرفة بعلوم عدة . توفي في هذه السنة .

احمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بن رافع الحلبي الاسدى يكني ابا العباس ويلقب كمال الدين ويعرف بأبن الاستاذ . سمع الكثير وحدث وولي قضاء القضاء بحلب واعمالها في سنة ثمان وثلاثين وستماية . وكان في عنفوان شبابه . فحمدت سيرته وشكرت طريقته . وكان سديد الاحكام وله المكانه العظيمه من الملك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي صاحب حلب ومن سائر ارباب الدولة . ولم يزل متوليا الى ان ملك التتار حلب . توفي في نصف شوال من هذه السنة .

اسماعيل بن علي (١) بن الجباب المصرى يلقب شمس الدين ..... (٢) بعض الاخوان قال : زرت القرافه الصغرى وشاهدت (٣) الجبل المقطم تحت العارض بجوار مراكع موسى في تربة قديمة بايوان كثير معقود قبورا عديدة على لوح رخام عند رأس قبر منها ما مثاله بعد (٥٩و) البسملة الشريفه : اولم يروا انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها (٤) . هذا قبر الفقير الى الله تعالى شمس الدين اسماعيل بن علي بن الجباب توفي في الثامن عشر من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وستين وستماية .

سليمان بن عامر العقرباى الدمشقي يكني ابا المؤيد ويلقب زين الدين ، ويعرف بالزين الحافظى . لهذا الزين الحافظي امور قبيحة وقعت منه في حق المسلمين

---

١) في الاصل " ع ... لى " .
٢) في الاصل " احب لي " ولعلها " اخبرني " .
٣) في الاصل " وشـ اهدت "
٤) سورة الرعد ١٣ آية ٤٠ .

حين حضر التتار الى الشام وقد قدمنا بعض ماوقع منه فنسأل الله حسن الخاتمة بمنه وكرمه انه على كل شيء قدير . ذكر الصاحب ابن شداد في سيرة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ان من جملة الاسباب المؤكدة لقتله ان الملك الظاهر استدعى اخاه عماد الدين احمد المعروف بالاشتر من دمشق وعوقه اياما ثم افرج عنه وانعم عليه في الشهر بخمسماية درهم ورتب له خبزا ولحما وغير ذلك مما يحتاج اليه . وامره ان يكتب الى اخيه الزين المذكور كتابا يعرفه فيه نية السلطان وان ماله ذنب وهو بريء مما نسب اليه من افعاله القبيحة وانضمامه في سلك هولاكو ملك التتار . فكتب اليه بجميع ما اراد الملك الظاهر فلما وصلت الكتب الى الزين الحافظي حملها الى هولاكو وعرضها عليه . وقال له ان صاحب مصر انما يكتب لي بمثل هذا ليقع في يدك فيكون سببا لقتلي . وقد عزمت ان اكاتب من عنده من الامراء القائمين بدولته والاعيان بمثل ماكاتبني لاكيده كما كادني . فأذن له فكتب كتبا لجماعة فوقعت في يد السلطان الملك الظاهر فعلم انها مكيدة منه . فكتب اليه يشكره على عرض الكتب على هولاكو واستصوب رأيه في ذلك كونه عرضها لتزول التهمة (٥٩ ق) عنه . وبعث الكتب مع قصاد وقرر معهم انهم اذا وصلوا الى وسط جزيرة ابن عمر يتجردوا من ثيابهم على انهم يسبحوا ويحتالوا في اخفاء انفسهم ليظن انهم قد غرقوا وتكون الكتب في ثيابهم . ففعلوا ذلك فرأى نواب التتار الثياب فأخذوها وفتشوها فوجدوا فيها الكتب فحملوها الى هولاكو فوقف عليه وكتم امرها واسرها في نفسه مضمرا لقتله . ثم احضره وقال له : انت قد ثبت عندي خيانتك وتلاعبك بالدول فانك خدمت صاحب بعلبك طبيبا فخنته ، واتفقت مع غلمانه على قتله . فلما قتل انتقلت الى خدمة الملك الحافظ الذي عرفت به ونسبت اليه فلم تلبث ان خنته وباطنت عليه

الملك الناصر صاحب حلب واخرجت قلعة جعبر من يده · ثم انتقلت الى خدمة الملك الناصر ففعل معك ما لم تسم اطماعك اليه ولا الى بعضه · فخنته معي حتى جرى له ماجرى · ثم انتقلت الى فأحسنت اليك احسانا لم يخطر ببالك فجعلت تكافيني عليه بالافعال الرديسة وتعاملني عليه بما كنت تعامل به الملك الناصر وشرعت في مكاتبة صاحب مصر فأنت معي في الظاهر خارجا عني في الباطن · فأنت شبهك شبه القرعة على وجه الماء كيفما ضربها الهوى سارت وعدد له ذنوبا عديدة في خيانته في الاموال التي كان سيره في جبايتها واستخراجها · ثم امر بقتله وقتل اخوته واولاده ومن يلوذ به · فكان مجموعهم نحو الخمسين فضربت رقابهم صبرا · لم ينج منهم سوى ولد له يسمى مجير الدين محمد وولد اخيه شهاب الدين · قتل الزين الحافظي في اواخر هذه السنة ·

صالح بن ابي بكر بن سلامه المقدسي الحمصي يكنى ابا البقاء الفقيه الشافعي · ولي القضاء بمدينة حمص · كان حسن الظاهر سديد الطريقه محمود السيرة توفي بحمص في هذه السنة ·

(٦٠و) عبد الملك بن نضر بن عبد الملك المصري النجوي يعرف بابن اللغوي ولد في رابع صفر سنة تسع وتسعين وخمساية بالاسكندرية · وتوفي بمصر في رابع عشر شهر ربيع الاول من هذه السنة ودفن من يومه بسفح الجبل المقطم ·

عبد الكريم بن قاضي القضاه جمال الدين عبد الصمد بن محمد الانصاري الخزرجي الدمشقي يكنى ابا الفضائل ويلقب عماد الدين ويعرف بابن الحرستاني · روى عن الخشوعي وعن ابيه وغيرهما · كان دينا ناب في القضاء بدمشق عن والده في الايام العادلية وعن قاضي القضاة الخوبي عند توجهه الى الحجاز الشريف وولي

قضاء القضاة بدمشق في الايام الاشرفيه • وولي الخطابة والامامة • بجامع دمشـــق وتدريس الزاوية الغزالية سنة ثلاث واربعين وستماية • ثم ولي مشيخة دار الحديـــث الاشـرفية • واستمر ذلك من الايام الصالحية النجميه ومن قبلها الى ان تعصـب عليه نائب السلطنة الامير جمال الدين اقوش النجيبي وكاتب السلطان في حق ولده محي الدين فجاء المرسوم بتولية ولده الخطابه مع الزاوية الغزالية وان يولـي دار الحديث للشيخ شهاب الدين ابو شامه • ولـد الخطيب عماد الدين بدمشـق في سابع عشر شهر رجب سنة تسع وتسعين وخمسماية • وتوفي ببيت الخطابه بالجامع الاموى بعد صلاة الصبح من يوم الاحد تاسع عشرى جمادى الاولى من هذه السنة وصلى عليه بالجامع قاضي القضاة شمس الدين احمد بن خلكان • وبسوق الخيل الشيخ شهاب الدين ابو شامه وكان له مشهد عظيم حضر جنازته غالب من في دمشق وحواضرها • وانتشر الخلق فكان اولهم الصالحية وآخرهم سوق الخيل • ودفن بسفح جبل قاسـيون ظاهر دمشـق قريبـا من ابيـــه •

محمد بن محمد بن ابراهيم بن الحسن بن سراقه الانصاري (٦٠ ق) الشاطبي يكنى ابا بكر ويلقب محي الدين ويعرف بابن سراقه الحافظ • ولي مشيخه الحديث بالمدرسة الكاملية بالقاهرة المحروسة • ولـد بشاطبه من بلاد الاندلس في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسماية • وتوفي بالقاهره بعد الظهر من يوم الثلاثاء العشرين من شعبان من هذه السنة ودفن من الغد بسفح المقطـم •

محمـد بن عيسـى وقيل ابن منصور السكندرى يكنى ابا القاسم ويعرف بالقبارى الشيخ الصالح الزاهد • كان احد المشايخ المشهورين بكثرة الورع والتحرى فـي المأكل والملبس والانقطاع والتخلي وترك الاجتماع بابناء الدنيا والاقبال على مايعنيه • وكان يزوره الملوك والامراء فلا يكاد يجتمع بأحد منهـم •

ولما توجه الملك الظاهر الى الاسكندرية قصد زيارته فركب الى بستانه فلم يفتح له الباب • ويحكى عنه انه كان اذا رأى ثمره ساقطه في ارض البستان تورع عن اكلها خشيه ان تكون الثمرة من شجرة غيره قد حملها طائر فسقطت من الطائر الى غيطه • ويحكى عنه انه اباع دابة بخمسين درهم • أحضرت الدراهم فجعلها في قادوس • وان المشترى لها اتاه بعد يومين فقال له ان الدابه لم تأكل علفها منذ يومين • فقال له : ماصنعتك قال : رقاص • فدخل واخرج القادوس وفيه الدراهم وضعفها وقال : افتح يدك فان دابتنا ماتأكل الحرام • وان ذلك الرجل اباع كل درهم منها بثلاثة دراهم لاجل البركه • وله مناقب كثيرة توفي ببستانه بجبل الصيقل ظاهر ثغر الاسكندريه في هذه السنة ودفن بوصية منه وذكر قاضي القضاة شمس الدين احمد بن خلكان عن الشيخ مجد الدين ابن الخليلي ان موته كان في سادس شعبان وان الاثاث المخلفه عنه كان قيمته خمسين درهم فبيع بنحو عشرين الف درهم وان الناس تزايدوا فيه رجاء البركة حتى في الابريق الذي كان يتوضى به •

(٦١و) محمد بن ابي بكر بن سيف التنوخي الموصلي يلقب شمس الدين الوتار المعرى • خطب بجامع المزه • وكان له حاصل من الادب وله شعر فمنه قوله :

وكنت واياها مذ اختط عارضي — كروحين في جسم ومانقضت عهدا
فلما اتاني الشيب يقطع بيننا — توهمته سيفا فالبسته غمدا

ومن شعره في الصاحب صفي الدين ابن مرزوق لما عزل من الوزارة في دولة الملك الاشرف بن الملك العادل الايوبي :

ما ابصر الناس ولا يبصروا — في عصرهم مثل ابن مرزوق
من جهله يحكم في عزله — كهارب يضرب بالبوق

ولد في سنة تسع وسبعين وخمسماية بالموصل · توفي في هذه السنة ووجد على قبره مكتوب هذين البيتين :

قد كان صاحب هذا القبر لؤلؤة وكان قد صاغها الرحمن من صلف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

موسى بن الملك المنصور ناصر الدين ابراهيم بن الملك المجاهد اسد الدين شيركوه الايوبي الحمصي · يكنى ابا عمران ويلقب مظفر الدين وينعت بالملك الاشرف صاحب حمص · كان شابا عفيفا عما يقع فيه غيره · وكان كريما له صلات لمن يقصده · يحب اهل العلم وله في كسرة التتار في المرة الثانية الاثر الجميل والفعل الحميد · توفي بحمص في يوم الجمعة حادي عشر صفر من هذه السنة قبل الصلاة · ودفن ليلا على جده الملك المجاهد بالمدرسة التي انشأها بباطن حمص ومات وله خمس وثلاثون سنة ولم يكن له ولد ولا اخ ولا ولي عهد ·

لاجين بن عبد الله العزيزي يلقب حسام الدين الجوكندار كان من مماليك الملك العزيز غياث الدين صاحب حلب · وكان شجاعا جوادا كريما كيسا لطيفا متواضعا محبا للفقراء (٦١ ق) حسن الاعتقاد بالصالحين وله المواقف المشهورة · ذكره الشيخ قطب الدين اليوناني (١) في تاريخه واثنى عليه وقال : كان له في الفقراء والصالحين عقيدة حسنة ويكثر الاحسان اليهم وكان يعمل السماعات ويحضر فيها من المآكل والمشارب والروائح الطيبه مايبهر العقل ويتجاوز الحد ويمد السماط ثلاث مرات بشرط انه لا يرفع منه شيئا بل يوكل منه ما امكن ويتفرق من حضر مابقي · وجميع مايشرب في تلك الليلة من اولها الى آخرها من المياه مصنوعا بالثلج والسكر المكرر وماء الجلاب والورد ·

---

(١) كذا في الاصل ولعلها اليونيني ·

فاذا كان في وقت السحر اخذ الحمام المجاورة لداره ودخل اليها ومعه معظم الجمع فيخدم الفقراء بنفسه وغلمانه فاذا خرجوا يعقد من عليه قميص خليع او دلق واحضر اليهم قمصانا جددا ودلوقا في غاية الحسن ثم يستدعيهم الى داره ويسقيهم من الاشربة مايناسب الحمام ويلائمه • ويمد لهم السماط من التطماج والحلوى السخنة ويخلع على المغاني • وكانت الاشياء بدمشق غاليه في ذلك الوقت جدا • وقيل كان تقدير مايصرفه على كل سماع ثمانية الاف درهم • توفي لاجين المذكور في رابع عشر المحرم من هذه السنة بدمشق ودفن بسفح قاسيون وقد ناهز الخمسين سنة • وقيل انه سم من مملوكه جمال الدين ايدغدى بمواطأة عليه •

يحيى بن علي بن عبد الله بن علي بن مفرج القرشي الاموي يكنى ابا الحسين ويلقب رشيد الدين النابلسي الاصل المصرى المولد والدار المالكي العطار الحافظ • سمع الكثير من خلق كثير وحدث بالكثير وانتهت اليه رياسة الحديث بعد الحافظ ركن الدين المنذرى • ولد في شعبان سنة اربع وثمانين وخمساية وتوفي بمصر بعد الظهر من يوم الاثنين ثالث جمادى الاول من هذه السنة • ودفن بسفح المقطم قريبا من (١) ابي بكر الخزرجي رضي الله عنهما •

٦٦٣ هـ (٢٤ا ت ١٢٦٤ ـ ١٣ا ت ١٢٦٥)

(٦٢و) ذكر الحوادث في سنة ثلاث وستين وستماية

توجه السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في اوائل هذه السنة الى الصيد فأقام باوسيم وعرج الى جهة العباسة • ورمى البندق واصرع جماعة وادعوا للسلطان ومن جملتهم الامير فخر الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك وصرع السلطان الملك الظاهر نسرا في ثالث شهر ربيع الاول قريب (٢) رأس الماء •

---

١) بعدها نصف سطر بياض قبيل " ابي " •
٢) يبدو كأنها كانت " قريبا " ثم كتبت كما هي في المتن •

ذكر نزول التتار على البيرة ومحاصرتهم لها وتجريد العساكر المصرية اليها وخروج الملك الظاهر الى الشام

كان السلطان الملك الظاهر خرج متصيدا بجهة العباسة واعراس . فبلغه ان التتار قد جمعوا ونازلوا البيرة المحروسة فوثب وثبة الاسد المفترس واندفع اندفاع السيل المحتبس واخذته الحمية للاسلام ومنع جنبه ان يضطجع وعينه ان تنام . وامر الامير بدر الدين الخزندار بالركوب على الخيل السابقة . وانه ساعة وصوله يجرد اربعة الاف فارس من العسكر الخفيف وساقوا وساق السلطان من اعراس الى قلعته . فأقام ليلة واحدة وكانت العساكر متفرقه في البلاد والخيول على الربيع وكانت الفرنج قد افهمت التتار ذلك وان عسكر الديار المصرية لا يمكنها وقت الربيع الحركه . وما علموا ان للاسلام ملكا يحمل النفس على المشاق . واذا ساق الى جهة تخيل ان ركب على البرق وساق . فلما استقر بقلعته رسم للامير عز الدين ايغان الملقب بسم الموت بتقدمة العساكر ولمن هو مسافر معه بالتوجه جرايد . ومنهم الامير فخر الحمصي والامير بدر الدين بيليك الايدمرى والامير علاء الدين كشتغدى الشمسي وجماعة (٦٢ ق) من الامراء والحلقه وتوجهت هذه العساكر في رابع شهر ربيع الاول من هذه السنة.

وامر الامير جمال الدين المحمدى وجمال الدين ايدغدى الحاجبي بالتجهيز في قريب اربعة الاف اخرى . فخرجت هذه العساكر ثاني يوم خروج الامير عز الدين ايغان وسافروا بعد سفر العسكر الاول بأربعة ايام .

ولما توجهوا شرع السلطان في التجهيز وسير السلاح داريته لاحضار الدواب من الربيع واحضار الجند . وخرج السلطان الملك الظاهر بنفسه في خامس شهر ربيع الاخر من هذه السنة . ورحل في سابع الشهر المذكور . وسار والنصر تقدمه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يضمن الله لمن خرج في سبيل الله لايخرجه الا جهاد في سبيلي والا ايمان بي وتصديق لرسلي ان ادخله الجنة او ارجعه الى مسكنه الذي خرج منه نايلا مانال من اجر او غنيمة • وكانت العساكر تملاء الارض وما نقصت في العين بسبب من جرد • وصارت الجمال تتفانا بلا سبب • وبقيت اموال الناس مطروحة على الطرقات • ولمهابة السلطان لم يتأخر احد • ولما عرفوا السلطان بحال الناس ويموت الجمال • قال : ما انا في قيد الجمال انا في قيد نصرة الاسلام •

ونزل السلطان غزه في العشرين من شهر ربيع الاخر • فوصلت كتب النواب بأن العدو نصب على البيره سبعة عشر منجنيقا • فكتم السلطان هذا الامر عن امرائه ولم يطلع عليه الا الامير شمس الدين سنقر الرومي وسيف الدين قلاون الالفي • وصار يكتب الى الامير عز الدين ايغان ويقول : متى لم تدركوا هذه القلعة والا سقت اليها بنفسي جريدة • فساق العسكر وحث السير •

ولما نزل السلطان في (٦٣و) قريتا (١) ركب للصيد فتقنطر عن فرسه وانهشم وجهه وانسلخ جلده فأظهر تجلدا ورحل فنزل يبنا (٢) • وحضر في الخدمة قسطلان يافا واحضر جمله من التقادم •

ذكر وصول العساكر الاسلامية لحماية البيرة وهزيمة التتار وورود البشائر الى الملك الظاهر بذلك

كنا قدمنا ان التتار قد جمعوا ونازلوا البيره المحروسة • وان السلطان

---

١) في الاصل بدون نقط اما في ابن عبد الظاهر (ص١٢٠) فهي قريبا من صيداء وهي "قريتا" عند المقريزى ، السلوك ، (ص٥٢٤)

٢) في الاصل بدون نقط •

الملك الظاهر لما بلغه ذلك جرد العساكر اولا اولا . ثم خرج بنفسه وتوجه الى جهة الشام . فلما وصلت العساكر الاسلامية المجردين من الديار المصرية الى البيرة وشاهدوهم التتار وراوا عزايمهم الماضيه في قتالهم هربوا ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم وانهزموا لايلوى احد على احد ولا يقف والد لولد . فلما كان سادس عشر من شهر ربيع الاخر الشهر المذكور ورد البريد الى يبنى من جهة الامير جمال الدين النجيبي نايب السلطنة بالشام . وكان السلطان قد دخل الى الحمام في دهليزه المنصور فسمع انه قد وصل خبر طيب فقام لوقته عريانا وقرئت عليه الكتب فوجد في كتاب الامير جمال الدين النجيبي نائب دمشق بطاقة من الملك المنصور صاحب حماه مضمونها انه وصل الى البيره بالعساكر المنصوره صحبة الامير عز الدين ايغان وجماعة الامراء يوم الاثنين. وان التتار عندما شاهدوهم وراوا عزائمهم الماضيه هربوا ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم وانهزموا لايلوى احد على احد ولا يقف والد لولد . وكان كتابتها من البيره الى حين وصولها الى يبنى اربعة ايام . فان البطاقة وصلت الى حماه الى دمشق على الجناح . ومن دمشق حضر البريد بها الى يبنى وهذا لاحتفال السلطان بامر الاسلام وترتيب (٦٣ ق) المصالح العامة، واى همة اعظم من همته تبلغه الاخبار من البيره وهو في اول بلد الساحل في اربعة ايام ويكون في الحمام فلا يصبر الى ان يلبس قماشه بل يخرج على الصفة التي ذكرناها عجلا خشية من مصلحة تفوت .

وللوقت سير البطاقة صحبة الامير حسام الدين لاجين الدوادار فأوقف عليها الامير شمس الدين سنقر اروبي والامير سيف الدين قلاون الالفي . ثم حضر اربعة مماليك من جهة الامير عز الدين ايغان والامير فخر الدين الحمصي والامير بدر الدين الايدمري والامير بدر الدين العلائي مقدم عسكر الشام بالبشارة . فطلب

السلطان امراء دولته وقرأوا الكتب واستبشروا بهذا النصر وكفى الله المؤمنين القتال . وكتب كتب البشائر الى الديار المصرية وغيرها .

واصبح ينظر في امور دولته لانه كان اذا لم يركب يصلي الصبح ويخرج الى باب دهليزه ويجلس على كرسي امير جانداره ظاهرا للناس كافة . ويقرب منه الفقير والمرأة والضعيف ويقضي حوائج الناس ويسمع قصص الرعايا ويوقع عليها بين يديه الى ان يرى امراءه حضروا من ركوب الخيل يقوم ويجلس في مرتبه السلطنه ويحضر الامراء ويمد لهم الخوان ويجلس لقضاء حوائج الناس وللعلامة على الكتب . وانما ذكرنا ذلك ليعلم ان هذا السلطان اوقاته مستغرقة في مصالح المسلمين ولذته في الاهتمام بأمور الدين .

ثم احضر البريدية من البيره سكك حديد كان العدو صنعها للصعود في الاسوار . وورد كتاب الامير جمال الدين اقوش المغيثي النايب بالبيرة يذكر صفة الحال وما اشتملت عليه من قوه العزائم وشدة الشكايم . وانه لما كثر العدو على القلعة وطم الخندق حفر اهل البيره حفيرا قدر قامة (٦٤و) وعملوا فيه سردابا نافذا الى الاحطاب التي كان العدو ردمها في الخندق . ورموا فيها النار فاحترقت جميعها في الخندق وما قدر العدو على طفيها . ثم سد المسلمون السرب المحفور . وذكر مصابرة اهل الثغر وان نساءهم فعلن من حسن البلاء في قتال الاعداء مالا يفعله الرجال . ومن جملة ماوصف ان برجا واحدا كان عليه خمسة عشر منجنيقا وثبت شهرين . وكان العدو قد ضربوا اربعين سكة كل سكة ثلاثة ارطال بالحلبي وخمسين سكة كبيرة . وجعلوا فيها الحبال ليجروا بها السلالم ويرفعوا المقاتلة . فأخذ اهل الثغر الجميع واخذ من العدو مراكب كبارا وصغارا .

فكتب السلطان بأطابة قلوبهم وعينت امثله بأقطاعات لمن جاهد من البحرية وغيرهم بالبيره . واستشهد الامير صارم الدين بكتاش الزاهدى احد الامراء

المجردين بها بحجر منجنيق . وترك موجودا كبيرا وبنتا واحدة تستحق نصف ميراثه . فرسم ان يكون جميع ميراث ابيها لها لاتشارك فيه لما فعله ابوها في الخدمة . واهتم بعمارتها وحمل الاقوات اليها . وكتب الى جميع القلاع والولايات بمساعدة هذا الثغر وكتب تذاكر بما يحمل اليها من مصر والشام من اصناف واسلحة وعدد مجانيق وغيرها . وكلما تحتاجه هذه القلعه ومن فيها عشر سنين . وكتبت الى الامراء انهم لايتحركوا منمكانهم حتى ينظفوا جميع الخندق وينقلوا الحجارة التي ردمت فيه وكتب بذلك الى الملك المنصور صاحب حماه والى جميع الناس . وامر بنقل ذلك على اكتافهم وخيلهم . فاقاموا كذلك مدة .

ووردت الى السلطان كتب الامراء بها وهم يصفون مايعتمدونه من حمل التراب بنفوسهم ونقل الحجارة . فصادف ذلك ان السلطان واقف على سور قيسارية وهو(٦٤ ق) يهدم بنفسه . وفي يده القطاعة وقد تجرحت يده . فكتب في الجواب : انا بحمد الله تعالى ماتخصصنا عنكم براحة ولا انتم في ضيق ونحن في سعة . ماهنا الا من هو مباشر الحروب الليل والنهار وناقل الحجار ومرابط الكفار . وقد تساوينا في هذه الامور . وما ثم ماتضيق به الصدور " .

ووردت كتب الامراء يخبرون بأن النوبه كانت على الامير عز الدين ايغان والامير فخر الدين الحمصي . والامير بدر الدين الايدمرى وجماعة من البحرية . وكانت خيلهم في الجانب الشامي ترتعي وهم رجاله يعلمون . فأحاطت بهم فرقة من التتر المغل ملبسين . فاجتمعوا ورموهم بالنشاب وانكوهم بالجراحات فولوا منهزمين وسار العسكر خلفهم فوجد منهم جماعة قد هلكوا من تلك الجراح في الطريق . وفي حران وغيرها وجماعة من كبارهم قتلوا في ذلك اليوم .

وسير السلطان استدعو من الديار المصرية مايتي الف درهم ومايتي تشريف وجهز معها من دمشق ماية تشريف ودراهم . وسير الجميع الى البيره . وكتب الى عز الدين ايغان بأن يحضر اهل القلعة وجميع من بها من امير ومأمور وجندي وعامي ويخلع عليهم وينفق فيهم المال حتى الحراس وارباب النو (١) يلبسون الخلع ويخدمون "بياب" (١) القلعه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلا قال : يا رسول الله اى الاعمال افضل ؟ قال : مؤمن يجاهد بنفسه وما له في سبيل . ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله . وقال الله تعالى : مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة ماية حبة والله يضاعف لمن يشاء (٢) .

ووصل كتاب الامير عز الدين ايغان بانه اعتمد هذا الامر . وسار خبره في البلاد (٦٥ و) وتحقق الناس ان السلطان لا يضيع لديه عمل عامل وانه ليرعى غلمانه بغافل . وطابت قلوب اهل القلاع بذلك . وقالوا : السلطان يطوى لنجدتنا المراحل وتسبق عساكره الاخبار في المنازل . ولما وصل الامير جمال الدين المحمدى رسم السلطان بأن يكون مقدما على العساكر المصرية والشامية لكبر سنه والامير عز الدين ايغان يتحدث في المهمات واطلاق الاموال وترتيب امور البلاد فوردت كتبهم بأن الخنادق قد تنظفت ولم يبق لهم عايق .

فرسم السلطان ان يحملوا الى القلعة حجارة زلط . وقرر على صاحب حماه لنفسه خاصة الف زلطه وعلى كل امير من امرائه ماية حجر وكل جندي خمسين زلطه . وكذلك قرر على جميع الامراء والجند . وقرر عليهم حمل الاخشاب والاخشاب للمجانيق وجرد للعمارة الامير علم الدين والامير سيف الدين بلبان الحبشي وركن الدين الصروى

---

١) بدون نقط في الاصل
٢) سورة البقرة (٢) آية ٢٦٠ .

وتجرد من كل امير صحبتهم ثلاثة نفر يقيمون لنجار العمارة · واذا اتموا ذلك يتوجهون الى تل باشر للاغارة على بلاد سيس فوردت كتبهم باعتماد ذلك جميعه · واستمر حمل الغلال الى البيرة فلا ترى الا قوافل حاملة وركايب موسقة راحلة · وكتب السلطان الى الامير جمال الدين النجيبي بالحث على ذلك والتوبيخ (١) فعزم عزمة الرجال وحمل ما ملأ الارض من الغلال وحملت اليها المجانيق من شيزر وعوضت عنها من دمشق · ورحل عنها العسكر وقد نصره الله واظفره وشيد بنية السلطان الثغر وعمره ·

ذكر تبطيل المزر واخراجه من اقطاعات الجند وتعويضهم غيرها ·

لما فرغ السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي من امر البيره كما قدمنا شرحه (٧٥ ق) رأى ان يتبع الحسنه حسنة وان يزيل منكرا تغدوا آثاره بينه وكتب الى الديار المصرية بتبطيل المزر وان تعفى آثاره وتخرب بيوته وتكسر مواعينه ويسقط ارتفاعه من الديوان · وكتب الى الامير عز الدين الحلي : اشتهي لاجلي تزيل هذا المنكر فان بعض الصالحين تحدث معي في ذلك · وقال القمح الذى جعله الله تعالى قوت العالم يداس بالارجل وقد تقربت الى الله تعالى بابطاله · ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه ومن كانت له على هذه الجهة شيء يعوضه من مال الله الحلال · فوردت الكتب واعتماد ذلك وعوض المقطعون وكتبت هذه الحسنة في صحائف هذه الدولة والله اعلم ·

ذكر تجهز الملك الظاهر لغزو الفرنج وفتح بلادهم ·

لما وصلت الاخبار الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي وهو

---

١) في الاصل " والتوسع "

بالساحل بنصرة العساكر الاسلامية على التتار وانهزامهم شر هزيمة وامر بعمارة ثغر البيرة كما قدمنا شرحه ثني عينه الى جهة الفرنج ليدينهم كما دانوا ويكون لهم كما كانوا . وما اعلم احدا مغزاه ولافهم اين مرامه ومرماه . وركب من العوجا بعد رحيل الاطلاب للتصيد في غابة ارسوف . ورسم للامراء بان من اراد الصيد فليحضر . فأن الغابة كثيرة السباع وكان قد احضر الى باب دهليزه سبع مقتول احضره احد الاجناد فأنعم على قاتله . وتشوف الى تنظيف الغابة من الوحوش الكاسرة وساق فمر على قنطرة نهر العوجاء فوجد جماعة من الرعية والسوقيه عابرين على القنطرة في ليلة شاتيه فوقف وامر ان (٦٦و) لايعبر احد حتى تعبر الضعفاء . ووقف لرجل دابه فما زال واقفا حتى نزل خواصه وحملوا الدابة ونقلوا القماش . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . وساق السلطان من ذلك المكان فرتب الحلقه ميمنه وميسرة ودخل الغابة وقضى بغيته من صيده وجرب سيوفه في تلك الوحوش على انها لم تزل مجربة ورتب الحتوف على الاعداء وان كانت عليهم مترتبه . وسار الى ارسوف وقيسارية وشاهدهما وعاد الى دهليزه فوجد اخشابا للمهمات قد احضرت صحبة زردخاناه كان الامير علم الدين نائب امير جاندار قد احضرها فطلب الامير عز الدين امير جاندار وامره بنصب عدة مجانيق مغربية وفرنجيه من الاخشاب المذكورة . وفي وقت السحر من اليوم الثاني خرج السلطان بنفسه وجلس عند الصناع ليبذلوا الاجتهاد فعمل في ذلك اليوم اربع منجنيقات كبار خارجا عن الصغار . وكتب السلطان الى قلاعه بطلب المنجنيقات والصناع والحجارين ورسم للعسكر بعمل سلالم . وعين لكل امير حمل عدة منها ورجل الى قريب عيون الاساور فأمر بعد عشاء الاخره بلبس العدد وركب قريب الصبح وساق الى جهة قيسارية وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر بعض اخبار قيسارية وفتحها

اعلم ارشدنا الله واياك ان قيسارية من البلاد الساحلية في جند فلسطين . وكانت مدينة على سيف البحر حصينة منيعة لها ربض كبير .

قال البلاذري : ولي امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يزيد بن ابي سفيان رضي الله عنهما فلسطين مع ما ولاه من اجناد الشام وكتب اليه يأمره بغزو قيسارية . وقد كانت حوصرت قبل ذلك فنهض (٦٦ ر) اليها في سبعة عشر الف فقاتل اهلها . فمرض فعاد الى دمشق . واستخلف عليها اخاه معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهم وذلك في سنة ثمان عشرة . ولما توفي يزيد كتب امير المؤمنين عمر بن الخطاب الى معاوية رضي الله عنهم توليته على ما كان يتولاه يزيد فشكر ابو سفيان ذلك لعمر رضي الله عنهما وقال : وصلتك رحم . فحاصرها معاوية رضي الله عنه حتى فتحها في شوال سنة تسع عشرة للهجرة قسرا . وبعث بفتحها تميم بن ورقا عريف خثعم الى عمر رضي الله عنه فقام عمر رضي الله عنه على المنبر ونادى في الناس الا ان قيسارية قد فتحت . ولما فتحت وجد بها من المرتزقة سبعمائة الف ومن السامرة ثلاثون الفا ومن اليهود مائتا الف . ووجد فيها ثلاثمائة سوق قائمة كلها . وكان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة الف . وحوصرت سبع سنين الا شهرا واحدا . وقال ايضا عن من حدثه ان الروم خرجت في ايام عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما الى قيسارية فشعثتها وهدمت مسجدها الجامع فلما استقام (١) لعبد الملك بن مروان الامر رم قيسارية وبنى مسجدها وشحنها بالرجال .

انتهى كلامه .

---

١) في الاصل بدون الميم .

ولم يزل يلي قيسارية من يلي جند فلسطين الى ان اخذتها الفرنج في سنة اربع وتسعين واربعمايه بالسيف وقتلوا من فيها . ولم تزل بأيديهم الى ان فتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي على يد الامير بدر الدين دلدرم الياروقي وغرز الدين قليج في سنة ثلاث وثمانين وخمسماية .

ثم خرجت عنه في الهدنه بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين وخمسماية . واستمرت في ايديهم (٦٧و) الى ان كسر عسكر ريدا فرنس الفرنجي على دمياط في سنة سبع واربعين وستماية . واسرثم اطلق . فنزل الساحل وعمر قيسارية وشيدها وحصنها . ولم تزل بأيديهم الى ان نزل عليها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في هذه السنة على حين غفلة من اهلها في يوم الخميس تاسع جمادى الاول ولوقته طاف بها وهاجمها الناس والقوا نفوسهم في خنادقها وعمدوا الى السكك الحديد الذى للخيل والسبح والمقاود فعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب ونصبت عليها السناجق وحرقت ابوابها وهتك حجابها فهرب اهلها الى قلعتها . وسير السلطان كتب البشاير الى البلاد والى الاتابك فارس الدين .

ونصب السلطان المنجنيقات على القلعه وهي من احصن القلاع واحسنها وتعرف بالخضرا وكان الريد فرنس حمل اليها العمد الصوان واتقنها . وما رئي في الساحل احسن منها عمارة ولا امتع ولا ارفع لان البحر الملح خائف بها وحاير في خنادقها والثقوب لاتعمل فيها للعمد الصوان المصلبة في بنائها حتى اذا علقت لا تقع . واستمر الزحف عليها ورمي المنجنيقات والسلطان تارة يرمي النشاب من علو كنيسة قبالة القلعة وتارة يركب ويخوض عباب البحر ويقاتل (١) . وعملت دبابات وزحافات واطلق النشاب

---

١) في الاصل بدون نقط .

للعساكر من قلعه عجلون لكل صاحب مايه فارس اربعة الاف سهم • وكذلك الحلقه والجند ورسم بنقل الاحطاب وحجارة المجانيق وخلع على الامير عز الدين الافرم امير جاندار لاجتهاده في المنجنيقات وعلى المنجنيقيه •

وجرد الامير شهاب الدين القيمرى بجماعة من عسكر الساحل لجهة بيسان فسير جماعة من التركمان والعربان الى ابواب عكا فأسروا جماعة من الفرنج ودوابا وغيرها • (٦٧ ق) واستمر السلطان على المصابره والمثاغرة • واقام بالكنيسه لا يخرج الى دهليزه يرامي هو وجماعة الافجيه يمنعون الفرنج من الصعود الى علو القلعه • وتارة يركب في بعض الدبابات ذوات العجل ويجر من تحته حتى يصل الى الاسوار ويرى الثقوب بنفسه واخذ في بعض الايام في يده ترسا وقاتل وما رجع الا وفي ترسه عدة سهام •

وفي ليلة الخميس منتصف جمادى الاول الشهر المذكور حصرت الفرنج واسلموا القلعه بما فيها وتسلق المسلمون اليها من الاسوار وخرقوا الابواب ودخلوها من اعلاها واسفلها واذن بالصبح عليها • وطلع السلطان الى القلعه وقسم المدينة على امرائه وخواصه ومماليكه وحلقته وشرع في الهدم • ونزل واخذ بيده قطاعة واخذ يهدم بنفسه ورآه المسلمون فتشبهوا به وعملوا بنفوسهم وصار يباشر ذلك بنفسه وبيده • وقد اكتسى من الغبار اثوابا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يلج النار رجل بكى من خشيه الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار •

قـال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر ماصيغته :
وهـذه قيسارية من المداين قديما فتحت في صدر الاسلام وذلك في سنة تسع عشره من الهجرة النبوية · وسبب فتوحها ان الكفار المنتزحين بين يدى المسلمين التجأوا اليها وتحصنوا · فلما فرغ المسلمون من غزاة اجنادين ومن فتوح دمشق ومن قلعة فحل ومن قلعة اليرموك التي بدد الله فيها جموع الروم كتب امير المؤمنين عمر بن الخطـاب رضي الله عنه الى يزيد بن ابي سفيان رضي الله عنهما : اما بعد فقد وليتـــك (٦٨و) اجناد الشام كله وكتبت اليهم ان يسمعوا ويطيعوا ولا يخالفوا لك امرا فاخرج فعسكر بالمسلمين ثم سر بهم الى قيسارية ثم لاتفارقها حتى يفتحها الله عليك فانه لاينبغي افتتاح ما افتتحتم من ارض الشام مع مقام اهل قيسارية فيها وهم عدوكم والى جانبكم · وانه لايزال قيصر طامعا في الشام مابقي فيها احد من اهل طاعته ولـو قد فتحتموها قطع الله رجاءه من جميع الشام والله عز وجل فاعل ذلك وصانع للمسلمين ان شاء الله تعالى · فسار اليها يزيد رضي الله عنه وقاتلها قتالا شديدا فلـم ينالوا منها شيئا · فقام عبادة بن الصامت رضي الله عنه ثم قال في جملة ماوعظهم به اني خايف عليكم ان تكونوا قد غللتم يعني سرقتم المكاسب ولم تقتسموها · فان عمر رضي الله عنه قال للمسلمين في نوبة اليرموك : سبحان الله اوقد دافعوهم يعنـي المشركين · ما اظن المسلمين الا قد غلوا · وقـال : لو لم يغلوا ماوافقوهم ولظفروا بهم بغير مونه اي بغير تعب · فصدقهم المسلمون القتال · فلما كان بعض الايام خرج اهل قيسارية والمسلمون غافلون فاجتمعوا عليهم من كل جهة ونصر الله عليهم فقتـل في المعركة خمسة الاف رجل · ولما شاهد يزيد تلاف حالهم استخلف عليهما معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهم ورحل عنها ففتحها الله على يديه في التاريخ المذكور · ولم يبق في الشام حينئذ عدو للمسلمين في اقصاه ولا ادناه · وصار الشام كله للمسـلمين · انتهى كـلامـه ·

وفي جمادى الاولى الشهر المذكور وردت الى السلطات الملك الظاهر كتب الامراء المجردين للغاره بأنهم وصلوا الى ابواب عكا وغنموا وعادوا سالمين ٠

وفي هذه الايام ورد خبر من جهة يافا بأن الامير علم الدين سنجر الصيرفي عمل حيله على بعض اصحابه وسيره الى يافا ليقضي له شغلا ٠ وكان قد اتفق مع قسطلان (٦٨ ق) يافا على القبض عليه فقبض عليه واعتقل في الجب فأنكر السلطان الملك الظاهر ذلك فأحضر اليه من يافا كتاب استاذه اليهم بحبسه ٠ فجمع السلطان الامراء وفي جملتهم الامير علم الدين الصيرفي وانكر عليه هذا الامر غاية الانكار وخلص المذكور من الامير ٠ قال الله تعالى : ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان (١) ٠ قالت العلماء : انقاذ اسرا المسلمين من ايدى الكفار من افضل القربات والمثوبات ٠ وقد قال بعض العلماء : اذا اسروا مسلما واحدا وجب على الاسلام ان يواظبوا على قتالهم حتى يخلصوه ويبيدوا الكفار والله اعلم ٠

ذكر ارسال الملك الظاهر تجريده الى حصن الملوحه وتوجه السلطان الى جهة عثليث وارسال تجريدة الى حصن حيفا وتسلمهم له ورجوع السلطان الى دهليزه سالما

لما قارب السلطان الملك الظاهر الفراغ من هدم قيسارية سير الامير شمس الدين سنقر الالفي الظاهرى والامير سيف الدين المستعزى وجماعة فهدموا قلعة للفرنج عند الملوحة ٠ وكانت عاتيه عاصيه ٠ ودكوها الى الارض ٠

---

١) سورة النساء رقم (٤) آية ٧٤

وفي سادس وعشرين جمادى الاول الشهر المذكور توجه السلطان الى جهة عثليث جريده وسير شمس الدين سنقر السلاح دار الظاهري والامير عز الدين الحموي والامير شمس الدين سنقر الالفي الظاهري الى حيفا فساروا اليها ودخلوا قلعتها فنجا الفرنج بأنفسهم الى المراكب بعد ان قتل منهم واسر واحضرت الاسارى والتروس واخربوا المدينة وقلعتها واحرقوا ابوابها وجعلوها خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وكان اخذها وما اعتمد فيها من قتل واسر واخراب واحراق في يوم واحد وعاد الامراء سالمين . واما (٦٩و) السلطان فانه وصل الى عثليث وامره بشعثها وقطع اشجارها . فقطعت جميعها وخربت ابنيتها في ذلك النهار . وعاد السلطان واذاق الكفار حسرة واى حسرة . ولا بد ان يعيد الحيف عليهم كما بدا اول مرة . وثنى العنان عنها وهو اليها يمتد . وحول الساعه وهو الى مرماتها يشتد واخرها الى اجل سمى . ورأى انه تقدم على امرها الذى ليس بمهم وترك اهلها في حبس منها وقطع قلوبهم قبل قطع المسيرة عنها . وعاد الى دهليزه بقيسارية وكمل هدمها . حتى لم يدع لها اثرا . ووصل والسلطان على قيسارية الامير سيف الدين الزيني وصحبته المنجنيقات المحضره من جهة الفرنج ومن جملتهم احد ابناء الملوك فأعطاهم السلطان الاقطاعات واحسن اليهم . ومرض ايضا جماعة من الامراء فركب السلطان اليهم وعادهم . وهم الامير شمس الدين سنقر الرومي والامير عز الدين امير جاندار والامير سيف الدين الزيني امير علم .

ذكر بعض خبر ارسوف وفتحها

قال القاضي الامام الرئيس الاوحد العالم عز الدين محمد بن علي بن شداد الحلبي في تأليفه " الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة " ما صيغته : أرسوف ليس لها في الفتوح العمري ذكر ولا فيما وقفت عليه من الكتب المؤلفة في صدر الاسلام . قال : واول ما احاط به علمي من امرها ان الفرنج تسلموها في سنة

اربع وتسعين واربعماية ثم فتحها الناصر صلاح الدين في سنة ثلاث وثمانين وخمسماية . ثم دخلت في بلاد المهادنة بينه وبين الفرنج . ولما اطلق ريد فرانس ونزل الساحل عمر قيسارية وارسوف وبقيت في ايدى الفرنج الى ان فتحها الملك الظاهر بيبرس سنة ثلاث وستين وستماية واخربها " . انتهى كلامه .

قلت في تاسع وعشرين من جمادى الاول من هذه السنة سنة ثلاث وستين (٦٩ ق) رحل السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي من قيسارية ولم يعلم احد الى اين توجهه . وسار الى ارسوف فنزل بها مستهل جمادى الاخره من هذه السنة . وامر بنقل الاحطاب فصار حولها كالجبال الشاهقة والتلال السامقة . وما ان اطل الاعداء له يشاهدون قالت لهم الاقدار حصب جهنم انتم لها واردون فعملت منها الستاير وامر بحفر سرا بين من خندق المدينة الى خندق القلعة وسقفت بالاخشاب . ولما فرغ من السرا بين سلم احدهما للامير شمس الدين سنقر الرومي والامير بدر الدين بيسرى والامير بدر الدين الخزندار الظاهرى والامير شمس الدين الذكر الكركي وجماعة الامراء السنجقية وغيرهم . وسلم السرب الاخر للامير سيف الدين قلاون الالفي والامير علم الدين الحلبي الكبير والامير سيف الدين كرمون وجماعة من الامراء . وعمل طريق من الخنادق الى القلعة فخرج الفرنج لاحراق الاحطاب فطلبهم الامير سيف الدين قلاون وغيره وقلب عليها المياه بنفسه وجماعة الامراء وطفيت تلك النار .

ولما تكامل ردم الاحطاب بالخندق تحيل الفرنج بأن نقبوا من داخل القلعه الى ان وصلوا الى تحت الردم فحرقوا الارض الى الاحطاب وعملوا بناتي ملأته ادهانا وسحونا واوقدوا النيران وعملوا في النقوب المنافذ ولم يعلم العسكر بهذه الحيلة الا بعد تمكن النيران . وكان ذلك في الليل فحضر السلطان بنفسه في الليل ورمى

الناس نفوسهم في النار لاطفائها وسكبت المياه بالزوايا فما افادت شيئا · واشتعل جميع مابالخندق من الاحطاب وصارت هباء منثورا · ونمت الحيلة للفرنج خذلهم الله تعالى ·

ولكن احدث الله بعد هذا النصر امورا وهو بأن السلطان تقدم (٧٠و) الى الامير شمس الدين سنقر الرومي ومن معه وهم نصف امراء السنجقيه وميمنه الامراء البحرية وميمنه الحلقة وميمنه لامراء الحاضرين غير من هو مجرد في البيرة وغيرها بأنه يأخذ هو والجماعة المذكورون من مكانه في باب السرب من حافات الخندق من جهة سوره حفرا الى البحر الملح · وتقدم الى الامير سيف الدين قلاون الالفي بأن يأخذ هو ونصف السنجقيه من جهة الميسرة وميسرة الحلقه وميسرة البحرية بأنهم يحفرون الى آخر الخندق من الجهة الاخرى · وان يحفروا من كل ناحيه من هذه النواحي سربا يكون حايط خندق العدو ساترا له · ويحفر في هذا الحائط ابواب يرمي التراب منها وينزل في هذا السرب حتى يساوي ارضها بأرض الخندق · وطلب عز الدين ايبك الفخرى احد اصحاب الاتابك واحضر المهندسين وعدق هذا الامر به · فاستمر العمل في هذه الخنادق والملك الظاهر طائف بنفسه وملازم الخندق يعمل فيه بيده · ويساوى الناس في جر المنجنيقات ورمي التراب ونقل الحجارة ·

قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر : فتعست ام الجبان · فلقد رأيت السلطان يبذل من نفسه كل مصون ويهون منها مالا يهون · وهو بمفرده ماشر في يده ترس وهو تارة في السرب وتارة في الابواب التي تفتح وتارة على حافة البحر يرامي مراكب الفرنج ويجر في المجانيق ويطلع فوق الستاير يرمي من فوقها ويرى كل احد حقه من المباشره والامر بالجهاد وشكر من يجب شكره بالخلع على كل من يفعل فعلا حسنا من ساير الناس · ومع هذا رحم الله الامه بسلامته ومن عليهم بوقايته · قال القاضي محي الدين : حكى لي الامير جمال الدين ابن بهار ·

قال : رأيت (٧٠ و) السلطان في هذا النهار رمى ثلاثمائة سهم نشابا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : الا ان القوة الرمي . وقال صلى الله عليه وسلم : من رمى بسهم في سبيل الله كان كعتق رقبه . وقال صلى الله عليه وسلم : اذا .... (١) فارموهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم واتفق ان السلطان حضر الى السرب وبعد في رأسه حلقة طاقة يرمي فيها فخرجت جماعة من الفرنج الفرسان ومعهم الرماح بالخطاطيف فلم يشعر الا وهم على باب السرب . فقام وقاتلهم يدا بيد . وكان معه الامير شمس الدين سنقر الرومي والامير بدر الدين بيسري الشمسي والامير بدر الدين الخزندار وغيره . وصار سنقر الرومي يناوله الحجارة فقتل بها فارسين . وقطع الامير حسام الدين الدوادار احد الخطاطيف بسيفه وجرح في عضده ورجع الفرنج على اسواء حال . وكان السلطان يطوف بين عساكره في الحصار بمفرده ولا يجسر احد ينظر اليه ولا يسير بأصبعه وحضر العباد والزهاد والفقهاء والفقراء الى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الارض بالعساكر واصناف العالم . ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش بل النساء الصالحات تسقين الماء في وسط القتال ويجرون في المجانيق . واطلق السلطان لجماعة من الصالحين الرواتب مثل الشيخ علي المجنون والشيخ الياس من الاغنام والحوائج . واطلق للشيخ علي البكا جملة من المال وما سمع ان احدا من خواصه اشتغل عن الجهاد في نوبته بشغله ولا سير امير غلمانه في نوبته . واستراح هو الا الناس "سوا" في هذه الامور .

ولازم السلطان تفقد المجانيق بنفسه في كل وقت وعمل كربون آغا منجنيقا بسبعة سهام "سرا سرا" حسنا . واحضر من دمشق مجانيق وكانت المفاردة في العقاب تحملها (٧١و) على الرقاب . واجتهد الامير عز الدين الافرم في امر الحصار الاجتهاد التام . ولم يزل ملازم البيت عند المنجنيقات وهو المتصرف فيها . ولما امرت المنجنيقات في هدم الاسوار وفرغ من السرابات التي الى جانب الخندق من الجهتين وفتحت فيهما

---

١) كلمة غير واضحة .

ابواب متسعة · حصل الزحف على ارسوف في نهار الاثنين ثامن شهر رجب الفرد من هذه السنة وفتحت في ذلك النهار · قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت النار على عين بكت من خشيه الله وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله وقال صلى الله عليه وسلم : غدوة في سبيل الله او روحة خير من الدنيا وما فيها · ورباط يوم في سـبيل الله خير من الدنيا وما عليها · وقال صلى الله عليه وسلم · طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله · اشعث رأسه مغبرة قدماه · فان كان في الحراسة وان كان في الساقه كان في الساقه · ·

وزار السلطان قبر الشيخ الصالح علي بن عليم المدفون الى جانب ارسوف · وهذا الشيخ علي بن عليم من الصالحين المشهورين بالبركات والكرامات · من جمله بركاتـه انه مدفون على باب ارسوف ولا يدخل الى تربته خنزير · ويساق فيخرج من البـاب وعاند ابن البان صاحب ارسوف في امره وشرب عند تربته فيبست يده واقام ثلاثة ايـام ومات · فعظمته الفرنج من ذلك الوقت · ويحكى عنه رحمه الله تعالى ان خادمه دخل عليه يوما وهو في خلوته فسمعه يقول : والله لا ارضى فخرج ودخل مرة اخرى فسمعه يقول والله ما ارضى · ثم سمعه يقول رضيت · فبقي في قلب الخادم من ذلك شيء فلما حضرت الشيخ الوفاة قال للخادم في خاطرك شيء لابد ان ازيله · وهو ذلك الذي سمعتني اذكره · قال : نعم · قال : شفعني الحق سبحانه وتعالى في الف رجل ممن زارني فلم ارض · ثم شفعني في الفين فلم ارض · ولم ارض الا (١٧١ ق) في جميع من زارني ان لا يعذبه الله بالنار فعند ذلك رضيت · وعبرت مركب وفيها رجل مسلم اسير مع الفرنج فسأل عنه فقال له هذا قبر رجل صالح · فقال اللهم ان كان لعبدك هذا حرمة وهو من عبادك الصالحين فخلصني · ورفع صوته فضربه الفرنج فوقفت المركب ثلاثة ايام حتى اطلقوه فنزل الى قبره · وهذا الشيخ مشهور مذكور فـي الكتب والله اعلم ·

وكان للشيخ الصالح علي المجنون كرامات معروفة · فجرت منه نكته غريبه في هذه الغزاة وهي انا كنا قدمنا ان الشيخ علي المجنون وجماعة من الصالحين حضروا هذه الغزاة · فلما كان في يوم الفتح قبل ان يعلم احد حديث الفتح ركب الشيخ علي وحصل له حال فساق الى ان وقف على حافة الخندق · وازبد وغاب ذهنه وصار يرفع صوته ويشير الى القلعه · وستره الناس بالطوارق · ولم يزل على هذه الحالة حتى سير الامير شجاع الدين الشبلي وعرف السلطان ان الباشوره انشقت · فلما ثني الشيخ على رأس فرسه ورجع الى باب السرب وقع سور الباشورة وشاهد الناس هذه الحالة والكرامة · ومن كرامات هذا الشيخ علي ما حكي عن ابرخ صبره قال : كنت اخدم صاحب ماردين فحضر هذا الشيخ علي المجنون اليه وشفع في تركمان حبسهم المذكور فلم يقبل شفاعته فيهم · فأعاد السؤال فأنكر عليه صاحب ماردين دخوله في هذه القضيه · فحصل للشيخ حال وقال والله لارمين حجارة هذه القلعه على رأسه · فأرسل الله تعالى سحابة· وكان الوقت صيفا واستلت على القلعه واسودت حتى اظلم الوقت وامطرت حجارة فتطارح صاحب ماردين على رجليه حتى رضى واقلعت (٧٢و) السحابة · ولما قدر الله وقوع الباشورة في الساعة الرابعة من نهار الخميس طلع المسلمون اليها تسليقا · وما احس الفرنج بالمسلمين الا وقد خالطوهم من كاب باب · ورفعت الاعلام الاسلامية على الباشورة · وحفت بها المقاتله · وطرحت النيران في ابوابها واعطى السلطان سنجقه الامير شمس الدين سنقر الرومي · وامره ان يؤمن الفرنج به من القتل عندما طلبوا الامان · فلما اراد الفرنج بطلوا القتال وسلم السنجق للامير علم الدين سنجر المسروري الحاجب المعروف بالخياط ودليت له الحبال من قلعه ارسوف فربطها في وسطه والسنجق معه · ونشله الفرنج الى القلعه · فأخذ سيوفهم واحضروا في الحبال والامراء صفوف والاسارى يؤتى بهم الـوف ·

وكان فتح قيسارية يوم الخميس • وفتح قلعتها يوم الخميس • وفتح ارسوف يوم الخميس • وهذا دليل على توفيق الله سبحانه وتعالى لانه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ما كان يخرج في سفر الا يوم الخميس • وقال العلماء ينبغي للمجاهد ان لا يخرج الا في يوم الخميس اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في اسفاره لان الاعمال تعرض على الله سبحانه وتعالى يوم الخميس • ولما لم يبق بأرسوف احد من الفرنج اباح السلطان القلعه للمسلمين بما فيها من غلال وذخاير ومال • وكان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض منها الا لما اشتراه بماله • وكان في اسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا تلك الساعة واخذت قيود هم قيد بها الفرنج • ونقل الاسر من المسلمين الى الكافرين وبقي به صدور قوم مؤمنين فسبحان الفعال لما يريد • وجرد السلطان جماعة من المقدمين يتوجهون مع الاسارى • وسير لكل امير جماعة من اسارى الفرنج ولكل مقدم جماعة •

وكتب السلطان (٧٢ ق) الى قسطلان يافا بأن يكتب الى صاحبه بأنا لا نحتمل الهضيمة • واذا اخذ احد مزرعة اخذنا عوضها قلعة مرتفعة • واذا اسر لنا فلاح اسرنا الفا من المقاتله لابسه السلاح • واذا هدموا جدارا هدمنا اسوارا • والسيف في يد الضارب والجواب عنانه في قبضه الراكب • ولنا يد تقطع الاعناق ويد تصل الى الارزاق ومن تحرش فعن تجربة ومن اراد شيئا من الاشياء فهذه الامور له مرتبه •

وشرع السلطان في تقسيم ابراج ارسوف على الامراء وجعل هدمها دستورهم (١) ورسم بأحضار الاسارى لاخرابها فكانوا كما قال الله تعالى : يخربون بيوتهم

---

١) في الاصل بدون نقط •

بأيديهم وايدى المؤمنين (١) . فنظم القاضي محي (٢) ابن عبد الظاهر جامع سيرة الملك الظاهر في وصف الفتح المذكور ابياتا منها :

وقد غلبت على الدنيا فدونكها كما تسرك والدنيا لمن غلبا
واكتب الى الارض بالبشرى فربك في السبع السموات بالبشرى لها كتبا
وثبت بالدين لما ثبت (٣) مقتدرا يا خير من ثاب او يا خير من وثبا
طلبت ثار الهدى والدين اذ قعدت عنه الملوك وما استطاعوا لها(٤) طلبا
نصبت للشرك اشراكا فصدتهم لم يقدروا رهبا ان يقدروا هربا
قلعتهم بقلاع ظلت تهد مها انت الذى تبغي (٥) المسلوب لا السلبا
ان اسرعوا نقلة عنها فانهم حلوا لها كل برج ظل منقلبا
ان الفتوحات لما رث ملبسها تبتز من بز قيسارية القشبا
في كل ارض جيوش قد بعثت بها حتى لقد اصبحت اياتها عجبا
ففي الحجاز لها نفع وفي حلب نفع وكم تركت من خلفها حلبا
لها السيوف التي كم اقفرت بلدا لما غدوت ومنها تعطر العربا
اكرم بها عصبة مثل النجوم سنا وكالرجوم اذا لها (٦) اضرموا اللهبا
اجلت من الكفر اقطارا وكم عمرت من الجيوش لهم ماكان قد خربا
كم قد قذفت شياطين العدو بها حتى لقد ابصروا من شهبها شهبا
(٧٣و) يثني اعنتها ملك عزائمه قد اصبحت في الوغى راحاتها التعبا (٧٣و)
ملك سعادته قالت لتسمع ما من الثغور نأى عنها وما قربا
لا يحسب الناس قيسارية ضعفت او اسلمت نفسها من خيفة رهبا
لكنها بذيول النصر قد علقت وقد اتته لعكا تطلب الحسبا
كذاك ارسوف لما جاز غايتها ما جاء محتبطا بل جاء محتطبا

---

١) سورة الحشر ٥٩ اية ٢ (٢) كذا مع ان اسمه محي الدين .
٣) بدون تنقيط في الاصل . (٤) كذا في الاصل ولعلها "لـه" (٥) كذا في الاصل والوزن يقتضى ان تكون "تبتغي" (٦) كذا في الاصل والوزن غير مستقيم ولو كانت (ما) لاستقام الوزن وما اختل المعنى .

لئن غدا آخذ الدنيا ومعطيها فأنه احسن التقسيم محتسبا
فللحديد رقاب منهم اسرت وللخيول من البلدان ماوهبا
وللسيوف دماء منهم سفكت وللنسور من الاشلاء ماانتهبا
وللصحايف اجرزان صفحتهما وللبشاير ذكر طرز الكتبا
الملك جد وجد يستضاء به وليس زهوا ولا لهوا ولا لعبا
لازال في نعمة يدعو الانام له وذاك حق على الاسلام تدوجبا

لما فتح الله تعالى على السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قيسارية كما قدمنا شرحه امر الامير سيف الدين الرومي الدوادار بكشف بلادها وتحقيق متحصلها · وعملت اوراق بذلك · ولما فتح الله ارسوف كما قدمنا شرحه طلب قاضي دمشق والعدول ووكيل بيت المال بها وتقدم بأن يملك الامراء المجاهدون من البلاد التي فتحها الله عليه ما يأتي ذكره · وكتب التواقيع لكل منهم ولم يطلعوا عليها · ولما اثبتت التواقيع فرقت على اربابها وكتب بذلك مكتوب جامع بالتمليك ونسخته (١):

اما بعد حمدا لله على نصرته المتناسقه المعقود وتمكينه التي رفلت الملة الاسلامية في اصفى البرود وفتحه الذى شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه علمت لامر مايسود من يسود · والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى جاهد الكفار وجاهدهم بالسيف البتار واعلمهم لمن عقبى الدار وعلى آله وصحبه صلاة تتواصل بالعشي والابكار (٧٣ ق) فأن خير النعمة نعمه وردت بعد اليأس واقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس · فأكرم بها نعمة وصلت للملة المحمدية اسبابا · وفتحت للفتوحات ابوابا وهزمت من التتار والفرنج العدوين ورابطت من الملح الاجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين · وجعلت عساكر الاسلام تذل الفرنج بغزوهم في عقر الدار وتجوس من حضرتهم المانعة خلال الديار والامصار وتقود من فضل عن شبع السيف الساغب الى حلقات الاسار · ففرقه منها تقتلع للفرنج قلاعا وتهدم حصونا وفرقة تبني ماهدم التتار

---

١) انظر ابن ابي الفضائل ، النهج السديد ، ص١٣٧ — ١٤٤

بالمشرق وتعليه تحصينا • وفرقه تتسلم بالحجار قلاعا شاهقة وتتسنم هضابا سامقه • فهي بحمد الله البانيه الهادمة والقاسية الراحمة كل ذلك لمن اقامه الله وجرده سيفا فغري • وحملت رياح النصره ركابه تسخيرا فسار الى مواطن الظفر وسرى وكونته السعادة ملكا اذا راته في دستها قالت : تعظيما له ماهذا بشرا وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدين والدنيا ابو الفتح بيبرس جعل الله سيوفه مفاتح للبلاد واعلامه اعلاما من الاسنة على رأسها نار بهداية العباد فانه آخذ البلاد ومعطيها وواهبها بما فيها • واذا عامله الله بلطفه شكر واذا قدر عفى واصلح • فوافقه القدر واذا اهدت اليه النصرة فتوحات قسمها في حاضرها لديه متكرما وقال الهدية لمن حضر • واذا خوله الله تخويلا وفتح على يديه قلاعا جعل الهدم للاسوار والدماء للسيف البتار والرقاب للاسار والبلاد المزدرعة للاولياء والانصار • ولم يجعل لنفسه الا ماتسطره الملائكة في الصحائف لصفاحة من الاجور • وتطوى عليه طويات السير التي غدت بما فتحها الله من الثغور باسمة باسمة الثغور :

فتى جعل البلاد من العطايا　　فأعطى المدن واحتقر الضياعا

سمعنا بالكرام وقد ارانا　　عيانا ضعف مافعلوا سماعا (٧٤و)

اذا فعل الكرام على قياس　　جميلا كان مافعل ابتداعا

ولما كان بهذه المثابة وقد فتح الفتوحات التي اجزل الله بها اجره وضاعف ثوابه • وله اولياء كالنجوم ضياء وكالاقدار مضاء وكالعقود تناسقا وكالوبل تلاحقا الى الطاعة وتسابقا رأى ان لاينفرد عنهم بنعمه ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحه غدت بسيوفهم تستنفد وبعزائمهم تستخلص وان يؤثرهم على نفسه • ويقسم عليهم الاشعه من انوار شمسه ويبقي للولد منهم وولد الولد مايدوم الى آخر الدهر ويبقى على الابد • وتعيش الابناء في نعمته كما عاش الاباء وخير الاحسان ماشمل واحسنه

ما خلد • فحوى الامر العالي لا زال يسمل الاعقاب والذراري وينير انارة الانجم الدراري ان يملك امراءه وخواصه الذين يذكرون في هذا المكتوب يسطرون ما يعين من البلاد والضياع على ما يسمى ويبين من الاوضاع وهو الاتابك فارس الدين اقطاي الصالحي عتيل بكمالها • الامير جمال الدين ايدغدي العزيزي النصف من زيتا • الامير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي نصف طوركرم (١) الامير شمس الدين الدكز الكركي (٢) ربع زيتا • الامير سيف الدين قليج البغدادي ربع زيتا • الامير ركن الدين بيبرس خاصترك الكبير الصالحي افراسين بكمالها • الامير علاء الدين ايدكين البندقدار الصالحي تامه (٣) السريفه بكمالها الامير عز الدين ايدمر الحلبي الصالحي نصف قلنسوة (٤) • الامير سيف الدين قلاون الالفي الصالحي نصف طيبه الاسم • الامير عز الدين اغان سم الموت نصف طيبة الاسم • الامير جمال الدين النجيبي نايب سلطنة الشام ام الفحم بكمالها من قيسارية • الامير (٧٤ و) علم الدين سنجر الحلبي الصالحي بتان (٥) بكمالها الامير جمال الدين اقوش المحمدي الصالحي نصف بورين • الامير فخر الدين الطنبا الحمصي نصف بورين • الامير جمال الدين ايدغدي الحاجبي (٦) الناصري نصف بيرين (٧) الامير بدر الدين بيليك الايدمري الصالحي نصف بيرين • الامير فخر الدين عثمان بن الملك المغيث ثلث جلمه (٨) • الامير صارم الدين صراغان ثلث جلمه (٩) .

---

١) وبعده في ابن ابي الفضائل (ص١٣٩)"والامير بدر الدين بيليك الخزندار نصف طوركرم" •
٢) الركني في ابن ابي الفضائل (ص١٣٩)•
٣) "باقة "في ابن ابي الفضائل (ص١٤٠) ٤) وبعده "الامير شمس الدين سنقر الرومي نصف قلنوسه " ابن ابي الفضائل (ص١٤٠)
٥) في الاصل بدون نقط • راجع ابن ابي الفضائل (ص١٤٠)
٦) الخاصي في ابن ابي الفضائل (ص١٤٠)
٧) بيرين ابن ابي الفضائل (ص١٤١)
٨) "حلبه " في ابن ابي الفضائل (ص١٤١)
٩) ساقط هنا "الامير شمس الدين سلار البغدادي ثلث حلبه "ابن ابي الفضائل (ص١٤١)•

الامير ناصر الدين القيمرى نصف البرج الاحمر • الامير سيف الدين بلبان الزينسي الصالحي نصف البرج الاحمر • الامير سيف الدين ايتامش (١) السعدى نصف تما (٢) الامير شمس الدين اقسنقر السلحدار نصف تما (٣) الملك المجاهد سيف الدين اسحاق صاحب الجزيرة نصف دنابه • الملك المظفر صاحب سنجار نصف دنابه • الامير بدر الدين محمد بن ولد الامير حسام الدين بركه خان دير العصفور (٤) بكمالها • الامير عز الدين ايبك الافرم امير جاندار نصف الشويكه • الامير سيف الدين كرمون آغا التترى نصف الشويكه • الامير بدر الدين الوزيرى نصف طرس (٥) الامير ركن الدين منكورس الدويدارى نصف طرس • الامير سيف الدين قشتمر العجمي علار بكمالها • الامير علاء الدين اخو الدويدار نصف عرعرا • الامير سيف الدين بيحو (٦) البغدادى نصف عرعرا • الامير سيف الدين ذكحل (٧) البغدادى نصف فرعون • الامير علم الدين سنجر الازكشي نصف فرعون • الامير علم الدين طردج (٨) الامدى سبايا (٩) بكمالها • الامير حسام الدين ايتمش ابن اطلس خان سيدا بكمالها • الامير علاء الدين كندغدى الظاهرى امير مجلس الصير الفوقا (١٠) الامير عز الدين ايبك الحموى الظاهرى نصف ارتاح • الامير شمس الدين سنقر الالفي نصف ارتاح • الامير علاء الدين طيبرس الظاهرى نصف يافه (١١) الغربية • (٧٥و) الامير عز الدين الاتابك الفخرى القصير بكمالها •

---

١) انتمش في ابن ابي الفضائل ص١٤١
٢) يما في ابن ابي الفضائل ص١٤١
٣) كذا في الاصل وفي ابن ابي الفضائل (ص١٤١) يما •
٤) دير الغصون في ابن ابي الفضائل ص١٤١
٥) طبرس في ابن ابي الفضائل ص١٤٢ (٦) تقجق في ابن ابي الفضائل ص١٤٢ •
٧) دكجل في ابن ابي الفضائل ص١٤٢ (٨) طرطح في ابن ابي الفضائل ص١٤٢ •
٩) اقتابه في ابن ابي الفضائل ص١٤٢ (١٠) الصفرا بكمالها في ابن ابي الفضائل ص١٤٢
١١) باقة في ابن ابي الفضائل ص١٤٣ •

الامير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري اصطبل بكمالها · الامير ركن الدين بيبرس المعزي نصف قفين · الامير شجاع الدين طغريل الشبلي امير مجلس نصف كفر راعي · الامير علاء الدين كندغدي الجيشي (١) مقدم الامراء البحرية نصف كفر راعي · الامير شرف الدين بن ابي القسم نصف كستا · الامير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري نصف كستا · الامير جمال الدين موسى بن يغمور استاد الدار العالية نصف برويكه (٢) · الامير علم الدين سنجر الحلبي الغزاوي (٣) نصف برويكه · الامير علم الدين سنجر نايب امير جاندار نصف حانوتا من ارسوف · الامير سيف الدين بيد غان الركني افراد نصيفا (٤) بكمالها من قيسارية · الامير عز الدين ايدمر الظاهري نايب الكرك ثلث حبلسه من ارسوف · الامير جمال الدين اقوش السلحدار الرومي ثلث حبله · الامير شمس الدين سنقرجاه الظاهري ثلث حبله من ارسوف الامير بدر الدين بكتاش الفارس امير سلاح ثلث جلجوليه · الامير علاء الدين كستغدي الشمسي ثلث جلجوليه · الامير بدر الدين بكتوت بجكا (٥) الرومي ثلث جلجوليه (٦)·

وكتب من كتاب التمليك الشرعي الجامع نسخ وفرقت لكل امير نسخة بمكانه · وخلع على قاضي القضاة وتوجه الى دمشق · وكتب الله تعالى هذه الحسنة للسلطان الملك الظاهر في صحيفته قبل كتابتها في سيرته · وتسلم كل من الامراء ما يخصه من ذلك· ونقلت المنجنيقات الى القلاع القريبة الكرك وعجلون وغيرها ·

ورحل السلطان من ارسوف بعد استكمال هدمها في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب الفرد سنة ثلاث وستين وستماية هذه السنة · والفرنج قد انقطعت ظهورهم واختلت امورهم وخابت مساعيهم · وقام بالعويل ناعيهم · وكلمة الاسلام قد رفعت واسباب (٧٥ ق) الكفر من الحياة قد قطعت وحصونهم الحصينة ما نفعت ·

---

١) الحبشي في السلوك ص٥٣٣ (٢) "برنيكه "في ابن ابي الفضائل ص١٤٣
٣) العزازي في ابن ابي الفضائل ص١٤٣ (٤) فرديسيا في ابن ابي الفضائل ص١٤٢
٥) كجكا في ابن ابي الفضائل ص١٤٤ (٦) لائحة هذه الاسماء في السلوك للمقريزي ص٥٢٢ — ٥٣٤ ويقول E.Blochet (جا ص٤٨١) انها في النويري ايضا لكن هنالك بعض الاختلاف

وسار السلطان الى غزه وعاد منها الى مقر مملكته بالديار المصرية • وخرج الملك السعيد بن الملك الظاهر واتابكه عز الدين الحلي نايب السلطنه بالديار المصرية للقايسه من بركة الحجاج • ودخل السلطان وشق مدينه القاهرة وهي مزينة في يوم الخميس حادى عشر شعبان من هذه السنة والاسرى بين يديه ودخل قلعته • وعرض ما حصله الامير عز الدين الحلي والصاحب بهاء الدين من الخزاين ولم يترك احدا من امير ولا وزير ولا مقدم ولا مفردى ولا حواشيه ولا برد داريته ولا جميع حاشيته الا عمهم بالخلع والاحسان واحسن الى رسل الملك بركة وكتب الى اليمن والانبرور بالبشاير واخرج حملة من الصدقات غلة ودراهم وكساوى فرقت في الفقراء بجامع الازهر وغيره •

ذكر ما وقع بالقاهرة ومصر من الحريق وما فعله الملك الظاهر عند قدومه الى قلعته •

كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي بلغه ان الحريق بمصر والقاهرة قد كثر في كل مكان • وبلغ الخبر بأن النصارى يفعلون ذلك لاجل اتباعهم دينهم واحراق كنايسهم • وصار الناس من ذلك في شدة عظيمة • ووجد النفط والكبريت في بعض الجهات • فلما حضر السلطان الى قلعته واستقر في مقر مملكته طلب النصارى واليهود وانكر عليهم هذه الامور التي تفسخ عهدهم وامر بحريق جميعهم • فجمع منهم عالم كثير في القلعة واحضرت الاحطاب والحلفاء • فلما راوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب سألوا الرحمة ومننوا بسابق الخدمة • فشفع فيهم الامير فارس الدين اقطاى اتابك العساكر على ان يلتزموا بالاموال التي احترقت وان يحملوا الى بيت المال خمسين الف دينار • فأفرج عنهم • وقال صاحب "نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك" قرر عليهم حمل خمسماية الف دينار (٧٦ و) الى بيت مال المسلمين • والتزم بتوزيعها واستخراجها بطرك النصارى • والتزموا انهم لا يعودون الى شيء مما كانوا يعتمدونه

من المنكرات ولا يخرجون عما هو مرتب على اهل الذمه واتفصل الحال على ذلك وحمل المال اولا اولا • والله اعلم •

ذكر هروب زامل بن علي والقبض عليه

لم يزل السلطان محسنا الى الامير نور الدين زامل بن علي وهو لا يزيد الا علوا واستكبارا والفتنة لاتسكن بينه وبين الامير عيسى بن مهنا • ولما طلعت العساكر الى الشام صحبة الامير علاء الدين طيبرس واجتمعت بالبلاد الحلبية قبضوا على زامل بن علي لتستريح الخواطر من تلك الفتنة واحضروه الى قلعة عجلون • ولما بلغ السلطان الملك الظاهر ذلك احضره واعتقله ثم افرج عنه وطيب قلبه وصار يلعب مع السلطان الكرة • وطلب السلطان الامير شرف الدين عيسى بن مهنا واجمل بن حجي والامير هرون واصلح بينه وبينهم واعادوا الى الامير زامل اقطاعه وامرته • وتوجهوا فلم يصبر زامل الى ان يصل الى البلاد بل ساق من اول الرمل الى البلاد • وذكر ان عيسى هجم بيوته فأخرب زامل وافسد وقبض على قصاد السلطان ومملوك الاتابك المتوجه الى شيراز واخذ الكتب وتقرب بها الى هلاون وتوجه اليه بنفسه واطمعه في المسلمين • فأعطاه هلاون اقطاعا في العراق وتوجه الى الحجاز لمشتاه فنهب وقتل وانتهك حرمة الاشراف وحضر الى اوايل الشام • وكان الملك الظاهر قد اعطى اقطاع زامل وامرته لاخيه ابي بكر فضاقت على زامل الارض بما رحبت • وراسل السلطان في طلب العفو فقرر معه الحضور وعينت له مدة وكتب اليه انه ان تأخر عن هذه المدة ليس له عهد ولا ايمان فتأخر عن المدة المعينة (٧٦ ق) فلما وصل سير السلطان الى القلعة ورسم بحبسه وسكنت الفتنة واوقعه الله في البئر التي حفرها واراه عاقبه بطر النعمة التي كفرها • وهذا جزاه من كفر الاحسان و خان الله وخان السلطان • جعل الله كل باغ عليه في قبضته اسيرا وخوله في الدنيا ملكا عظيما وفي الاخره نعيما كبيرا •

ذكر قتل الامير علم الدين سنجر بن صون

كان الامير علم الدين سنجر بن صون من رجال الحلقه فتحرك في ايام الملك المظفر سيف الدين قطز صاحب الديار المصرية بحركات ذميمة · ولما انتقلت السلطة من الملك المظفر الى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي احسن اليه واراد استصلاحه فرجع الى ماكان يعتمده في الدولة المظفرية · فاعتقله السلطان الملك الظاهر مدة ثم ذكر له خدمه سابقة فاطلقه وامره فشرع في الامور التي كان عليها · فطلبه السلطان في الموكب وقال له انني اسمع عنك موافقة للمفسدين خارجا عما انت عليه · وسير له خلعه وذهب فأخذ ذلك وهرب الى العرب وسير في افساد جماعة من العسكر · فأرسل له السلطان امانات مرارا فردها وتواتر فساده فسير اليه السلطان من قطع رأسه واحضر بعد ذلك اخوه فأحسن السلطان اليه والله اعلم ·

في خامس عشرى شعبان من هذه السنة، جلس السلطان الملك الظاهر بدار العدل وطلب تاج الدين ابن القرطبي · فلما حضر قال له : اضجرتني مما تقول عندي مصالح لبيت مال المسلمين فتحدث الان ماعندك · فتحدث في حق قاضي القضاة وفي حق صاحب سواكن والامراء الذين يتوفون وانهم اخذوا اكثر من حقوقهم فأحضر (٧٧و) السلطان زيارا واراه للناس وقال : من صبر على هذا الزيار يستكثر له اقطاع او يستكثر لورثته موجود لخلفه لهم وانكر عليه وامر بحبسه ·

وتحدث السلطان في امر الجند وانهم في البكار وفي مواطن الحصار لا يصل اليهم شاهد فيشهد احدهم اصحابه فاذا حضروا لاتقبل شهادتهم وتضيع اموال الناس لهذا السبب · وقال انا ارى ان كل امير يعين من جماعته من فيه خير وديانة يسمع قوله · وكذلك كل مقدم وكل جماعة من الجند ممن فيهم الخير والصلاح تسمع اقوالهم لتحفظ اموال الناس ·

نفرح الامراء بهذه القضيـة ٠

وشـرع قاضي القضاة في اختيار الناس الجياد لذلك وجلس ايضا بدار العدل فـي تاسع وعشرين شعبان الشهر المذكور فوقف له شخص في امر خلو الاملاك الديوانية ٠ فأنكر كون الديوان لا يخلي عن الناس وامر بالاخلاء عند الاجارة ٠

وفي هذا الشـهر وصلت رسل من جهة الانبرور ووصلت رسل الملك الاشكرى واحضر رسول الاشكرى جمله من الهدايا من الاطلس والوبر والطيور وغيرهـا ٠

وفي هذا السنة توجه الامير بدر الدين بيليك الفايزى ومعه جماعة كشافه وساق حتى سقي خيله من دجلـه ٠

وفي سابع شهر رمضان من هذه السنة وصلت العساكر التي كانت بالبيرة صحبـة الامير جمال الدين المحمدى والامير عز الدين ايغان ٠ وفي شهر رمضان وصلت هدية من جهة ملك الكرج الى الابواب الشريفه (١) وسبب ذلك ان السلطان كان سيـر القصاد الى ملوك الطوايف ومن جملتهم ملك الكرج داون بن سودان ملك ابحر (٢) ووصل من جهته كتاب عرب وهو (٧٧ ق) الشكر قدام الله ٠ ولخوف العدو في الطرقات ماذكرت اسم السلطان ولا اسمي ٠ وقد فرحت فرحا عظيما كونك فتشت على محبة اهل بيتي لاهل بيتك والان فقد حلفت لك على الانجيل اني عدو عدوك وصديق صديقـك والناس مترددون من عندى الى عند الملك بركه فأن كان لك شغل سير الى عنـدى رسولا حتى اوصله الى عنده الى غير ذلك والله اعلـم ٠

---

١) في الاصـل الشـريـف

٢) كـذا في الاصـل ٠

ذكر بعض خبر قرقيسيا وفتحها

كانت قرقيسيا هذه من اقدم المدن وكانت تعرف بالزباء ملكة من ملوك الجاهلية وفيها يقول ابن دريد :

فاستنزل الزباء قسرا وهي من عقاب لوح الجو اعلى منتما .

وكان السلطان قد ارسل اهلها وسير اليها الامير كمال الدين الطورى وملكها واقام بها مدة . فقصدها التتار . وكانت حمص والرحبة في يد الملك الاشرف صاحب حمص وهذه الجهة لا يتأتى فيها امر الا بالرحبة فعاد كمال الدين الطورى الى خدمة السلطان الملك الظاهر وتركها .

وفي شهر رمضان من هذه السنة ارسل مقدموها الى عز الدين السكندرى النايب بالرحبة وسألوه عفو السلطان وسيروا رهاينهم فسارت اليها جماعة من الخيالة والاقجيه وساقوا من اول الليل الى نصفه وباتوا على ماكسين . فلما اصبح الصبح احاط بها المسلمون وعسكر السلطان وتسلموها وقتلوا من كان بها من عسكر التتار والكرج واسروا من المرتدة نيفا وثمانين نفرا . وتسلموا الجسر ومراكبه والسلسلة . وكان تسلمها في نصف شهر رمضان من هذه السنة .

وفي هذه السنة بلغ الملك الظاهر ان بحر اشموم الذى كان الامير سيف الدين الرشيدى توجه لعمله (٧٨و) ان عمله ما افاد . فرسم بتحصيل المراكب لاجل التغريق وحصلت الالات . وتوجه السلطان اليه بنفسه في ثاني شوال من هذه السنة وقسم عمله على الامراء وعمل بنفسه . وشاهد على كتفه قفه مملوءة ترابا فلم يبق احد من امير ولا وزير ولا كبير الا وبادروا العمل بنفوسهم . وحصل الاجتهاد من كل جهة وصار السلطان مستمر العمل في كل يوم يركب في مركب ويشاهد تغريق

المراكب ويحسن الى من نهض في العمل • فتنجز الشغل في ثمانية ايام وتكامل الحفر • وكذلك الجهة التي من جهة جوجر • وتوجه السلطان الى منزلة ابن حسون وعاد الى قلعته في حادى وعشرين شوال الشهر المذكور • ورسم السلطان بابطال حراسة النهار بالقاهره ومصر • وكانت جملة مستكثرة وكتب التواقيع بابطالها طلبا لثواب الله تعالى •

وفي يوم الجمعة قرئ مكتوب بأشموم بمسامحة الاعمال الدقهليه والمرتاحية بأربعة وعشرين الف درهم عن رسوم الولاية والمال المستخرج برسم النقيدى •

وفي شوال المذكور توجه شجاع الدين ابن الداية الحاجب الى الملك بركه رسولا من السلطان في كف غارات الملك بركه عن بلاد الاشكرى حسب سؤال الاشكرى في ذلك • فسيره في ذلك وفي مهمات اخر • وسير معه ثلاث عمر اعتمر بها بمكه شرفها الله تعالى للملك بركه لم يعمل مثلها لما اشتملت عليه من الايات والاحاديث النبوية والاذهاب • وسير معه قمقمان من ماء زمزم ودهن بلسان وغير ذلك • وتوجه معه احد اصحاب الملك بركه وهو جمال الدين محمود •

وفي آخر شوال الشهر المذكور تشوش مزاج السلطان الملك الظاهر فتداوى بالصدقه (٧٨ ق) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : داووا مرضاكم بالصدقه وافرج عن المعتقلين •

وفي ذى القعدة من هذه السنة وصل الى الابواب الشريفة الراهب كربانوس المسير الى الملك الاشكرى بكتاب الاشكرى بالحلف للسلطان على حفظ العهود •

وفي ذى القعده الشهر المذكور وصل الامير جمال الدين النجيبي الى الباب الشريف فتحدث معه في مهمات الامور وكتب على يده تذكرة بمصالح الرعية وعاد في

ذى الحجة ٠

ذكر من ولي القضاء بمصر المحروسة من زمن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ان جعلهم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في هذه السنة اربع قضاة من كل مذهب من المذاهب الاربعة اهل السنة والجماعة قاضي شافعي وقاضي حنفي وقاضي مالكي وقاضي حنبلي ٠

اعلم ارشدنا الله واياك ان اول من ولي القضاء بمصر المحروسة في زمن عمر بن الخطاب امير المؤمنين رضي الله عنه بعد ان فتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه قيس بن ابي العاص السهمي رضي الله عنه فأقام الى سنة اربع وعشرين للهجرة وتوفي رحمه الله تعالى ٠

وولي امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعده عثمان بن قيس بن ابي العاص فلم يزل قاضيا بمصر الى ان عزله امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان الاموى رضي الله عنهما في سنة اثنتين واربعين للهجرة ٠

وولي بعده سلمان (١) بن عنز (٢) النجيبي ٠ وولي بعده ٠٠٠٠٠ (٣) عابس بن سعيد المرادى (٤) وكان اميا فلم يزل الى ان توفي في زمن الامير عبد العزيز بن امير المؤمنين مروان بن الحكم الاموى امير مصر نيابة عن اخيه امير المؤمنين (٧٩و) عبد الملك بن امير المؤمنين مروان بن الحكم الاموى في سنة ثمان وستين للهجرة ٠

---

١) "سليم" في كتاب القضاة ص٥ وابن حجر، رفع الاصر (ص٤)
٢) "عتر" في مقدمة كتاب القضاة (ص٨)
٣) بياض في الاصل ٠
٤) كذا في الاصل وهي العردى في كتاب القضاة (ص١١) والمرادى في رفع الاصر (ص٤)

وولي بعـــده بشـير (١) بن النضر المزنـي ٠

وولـي بعده عبد الرحمن بن حجيـره (٢) الاكبر فلم يزل الى ان توفي في سـنة ثلاث وثمانين للهجرة ٠ وقيـل في هذه السنة كانت اول ولايته وان وفاته كان في سنة خمس وثمانين للهجرة والله اعلم اى ذلك كـان ٠

وولي بعده يونس بن عطيه الخضرى فلم يزل الى ان توفي في سنة ست وثمانين للهجـرة ٠

وولي بعده عبد الرحمن بن معاوية بن خديج الكندى ٠ (٣)

وولي بعـــده عمران بن عبد الرحمن بن شر حبيل ابن حسنه (٤) ٠ ولم يزل الى ان توفي في سنة تسع وثمانين للهجـرة ٠

وولـي بعده عبد الاعلى بن خالد بن ثابت العبسـي (٥) ٠

وولـي بعده عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيره الخولاني ولم يزل الى ان عـزل في سـنة ثلاث وتسعين للهجـرة ٠

وولـي بعده عياض بن عبيد الله الازدى بن السلامي ولم يزل الى ان عزل في سـنة ماية للهجـرة ٠

وولي بعده عبد الله بن خدام (٦) ولم يزل الى ان عزل في سنة اثنتين وماية ٠

وولي بعده يحي بن ميمون الحضرمي ولم يزل الى ان عزل في سنة اربع عشرة وماية ٠

---

١) بشر في رفع الاصر ص٤ ملحوظة ٤ و هو بشير في كتاب القضاه ص١٣
٢) في الاصل بدون تنقيط ٠
٣) ز[illegible] في رفع الاصر ص٤ ملحوظـــة ١٢
٤) في كتاب القضاة ص٢٣ "الحسـيني"
٥) عبد الاعلى بن خالد الفهمي ، رفع الاصر ص٤ ملحوظة ١١
٦) حذامر في كتاب القضاة ص٣٢

وولي بعده يزيد بن عبد الله بن خـــدام (١)

وولي بعده الجعـان بن خالد المدلجي (٢) ٠ ولم يزل الى ان توفي في سنة خمس عشره ومائة للهجرة ٠

وولي بعده ابو محجن توبه (٣) بن نمر بن جبريل بن ثعلب بن ربيعه بن نمر الحضرمي ٠ وهو اول من دون الاحباس وجعل لها ديوانا واستعفى عن القضـاء فقيل له فمن ترى يكون فأشار لخير (٤) بن نعيم وكان استعفاؤه من الحكم علـى ماذكره الفرا في تاريخه في سنة (٧٩ ق) احدى وعشرين ومائة للهجرة ٠

وولي بعده ابو اسماعيل خير بن نعيم بن مرة بن كعب بن عمر بن خزيمة بن اوس الحضرمي ٠ ولم يزل الى ان عزل في سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة ٠

وولي بعده اوس الحضرمي وعزل في سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة ٠

وولي بعده عبد الرحمن بن ســلام (٥) بن ابي سالم الجيشاني ٠ ولم يزل الى ان انقرضت الدولة الاموية وعزل لما دخلت عساكر بني العباس مصر في سنة ثلاث وثلاثين ومائة للهجـرة ٠

واعيد بعده خير بن نعيم للقضاء ولم يزل الى ان حبس جنديا على دين فأخرجه امير مصر فعظم ذلك على خير فعزل نفسه عن القضاء في سنة خمس وثلاثين ومائة للهجرة ٠ فقالوا له من تولي بعدك فقال كاتبي ولم يعد بعد ذلك الى القضاء ٠ وتوفي في سنة ستين ومائة وقبره عند قبر القاضي بكار ابن قتيبه وهو يـزار ٠

---

١) حذامـــر في كتاب القضاة ص ٣٢ .
٢) الخيار بن خالد المدلجي في رفع الاصر ٤ ملحوظة ١٩
٣) بدون تنقيط ـ راجع كتاب القضاة ص ٣٦
٤) بدون تنقيط في الاصل راجع كتاب القضاه ص ٤١
٥) ابن سالم في كتاب القضـاه ص ٤٦

وولي بعده غوث بن سلمان الحضرمي (١) وهو كاتب خير بن نعيم القاضي قبله فبقي الى ان خرج مع الامير صالح بن علي العباسي امير مصر للصافيه في سنة اربع واربعين ومائة للهجرة ٠

وولـي ابو خزيمه ابراهيم بن يزيد الباتي والبات بالباء الموحدة والتاء المثناة من فوق بعد الالف بطن من حمير فبقى الى ان استعفى فأعفي وجعل مكانه يقضي عبد الله بن بلال الحضرمي ٠

وولي من بعده عوف بن سليمان ٠٠٠٠ (٢) سنة اربع واربعين ومائة للهجرة وشخص عوف الى العراق ورتـب مكانه ابو خزيمه ابراهيم بن يزيد فبقي الى ان توفي في سنة اربع وخمسين ومائة للهجـرة ٠

فولـي ابو جعفر المنصور امير المؤمنين العباسي ابا عبد الرحمن عبد الله بن لهيعه بن عقبه واجرى له في الشهر وهو اول قاضي اتاه الحكم من قبل الامام العباسي (٨٠و) وهو اول قاضي ركب للهلال مع الشهود ٠ وبقي الى ان عزل في سنة اربع وستين ومائة للهجـرة ٠

وولـي بعده اسـماعيل بن اليسع الكوفي الحنفي ٠ كان يذهب الى قول الامام ابي حنيفه رضي الله عنه ٠ فكتب الليث بن سعد الى الخليفه ببغداد ان اصرفه عنا فصـرفـه ٠

وعـاد الى القضاء غوث بن سـلمان كاتب خير بن نعيم فلم يزل الى ان توفـي في سنة ثمان وستين ومائة ٠ وقيـل انه هو اول قاضي ركب للهلال وقيل ابن لهيعه على ما تقدمنا شرحه ٠ فولي بعده المفضل بن فضاله بن عبيد العساني (٣)

---

١) غوث بن سليمان الحضرمي — رفع الاصر ص٥ ملحوظة ٥
٢) بياض في الاصـــل ٠
٣) بدون تنقيط وهي العتباني في كتاب القضاة ص ٦٥ ٠

وهو اول قاضى اطال الكتب · وكان من فضلاء الناس وخيارهم · وقبره رحمه الله احد المزارات · وهو وولده في قبر واحد · وعزل في سنة تسع وستين وماية للهجرة ·

وولى بعده ابو طاهر (١) عبد الملك بن محمد بن ابي بكر بن حزم الاعرج الانصارى · ولم يزل الى ان استعفى فأعفي في سنة اربع وسبعين وماية للهجرة ،

ثم اعيد المفضل بن فضالة وعزل في صفر سنة سبع وسبعين وماية للهجرة ·

وولى محمد بن مسروق الكوفي · ولم يكن محمودا في ولايته · وبقي الى ان خرج للعراق في سنة اربع وثمانين وماية للهجرة · واستخلف عنه اسحق بن الفرات التجيبي بعد التاء المثناة من فوقها جيم فبقي الى صفر سنة خمس وثمانين وماية للهجرة وعزل ·

وولى بعده عبد الرحمن بن عبد الله بن المحر (٢) بن عبد الملك بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو اول من دون اسماء الشهود · وعزل في خلال سنة اربع وتسعين ومايــة ·

وولي بعده هشام (٣) بن ابي بكر البكرى من اولاد ابي بكر الصديق رضي الله عنه وكان حنفي المذهب · وتوفي في غره المحرم سنة ست وتسعين وماية للهجرة وهو على الحكم ·

فولى مكانه (٨٠ ق) ابراهيم بن البكا (٤) ولاه الامير جابر بن الاشعث امير مصر وصرف جابر وعزل ابراهيم بعده في سنة ست وتسعين وماية للهجرة ·

وتولى مكانه لهيعه بن عيس · فلم يزل على القضاء الى ان قدم المطلب بن عبد الله اول سنة ثمان وتسعين وماية للهجرة فعزله ·

---

١) ابو الظاهر · رفع الاصر ص٥ ملحوظة ١٣

٢) لعلها المحير وهو عبد الرحمن بن عبد الله العمرى — كتاب القضاة ص٧٨ ورفع الاصر ص٥ ملحوظة ١٥ (٣) هاشم في كتاب القضاه ص٩٣

٤) كذا في الاصل وهو ابن البكا في كتاب القضاه ص٩٧ وهي بدون همزه في رفع الاصر ص٥ ملحوظة ١٧ ·

وولي بعده الفضل بن غانم ثم عزله واعاد لهيعه بن عيسى · فلم يزل على القضاء حتى توفي في ذى القعده سنة اربع ومايتين للهجرة ·

فتولى بعده السرى بن الحكم وامير مصر يومئذ ابراهيم بن اسحق العازمي حليف بني زهرة فاستعفى فأعفي ·

وولي مكانه ابراهيم بن الجراح · وكان يذهب الى قول الامام ابي حنيفه رضي الله عنه · فلم يزل قاضيا الى ان قدم الامير عبد الله بن طاهر مصر اميرا في سنة احدى عشرة ومايتين للهجرة فعزله ·

وولي مكانه عيسى بن المنكدر (١) بن محمد بن المنكدر · واجرى له عبد الله بن طاهر في الشهر اربعة الاف درهم · وهو اول قاضي اجرى عليه ذلك فلم يزل الى ان قدم الامير المعتصم بن هرون الرشيد العباسي مصر اميرا زمن اخيه امير المؤمنين المأمون في سنة اربع عشرة ومايتين وكلم فيه احمد بن ابي داؤد قاضي العراق فاشخصه الى العراق وتوفي هناك ·

وبقيت مصر بغير قاضي · وقدم امير المؤمنين المأمون الخليفه الى مصر في خامس المحرم سنة سبع عشرة ومايتين للهجرة ولم يقدم احد من خلفاء بني العباس مصر في خلافته الا المأمون هذا ·

وولي القضاء بمصر يحي بن اكثم فحكم ثلاثة ايام بها وخرج امير المؤمنين المأمون الى سخا واصلح احوالها وتوجه الى الاسكندرية (١٨و) وعاد الى مصر وخرج عنها في الخامس من صفر من هذه السنة · وجعل القضاء بمصر الى هرون بن عبد الله الزهري قلده ذلك وهو بالشام · فقدم الى مصر بعد ليال بقين من شهر رمضان

---

١) كذا في الاصل وفي كتاب القضاة ص ١١١ لكنها المنكدر في رفع الاصر ص ٥ ملحوظه ٢٢

سنة سبع عشرة ومايتين للهجرة · فلم يزل قاضيا الى سنة ست وعشرين ومايتين للهجرة فصرف عن القضا ·

وولي مكانه محمد بن ابي الليث الاصم الى شهر ربيع الاول من سنة خمس وثلاثين ومايتين للهجرة · فعزل وحبس وبقيت مصر بغير قاضي حتى وليها الحارث بن مسكين في جمادى الاخره سنة سبع وثلاثين ومايتين · جاءته الولاية وهو بالاسكندرية فلم يزل قاضيا الى ان صرف عنها يوم الجمعة لسبع بقين من شهر ربيع الاخر سنة خمس واربعين ومايتين للهجرة ·

وولي بعده عبد الرحمن بن ابراهيم بن السر (١) الدمشقي · جاءته الولاية وهو في الرملة من اعمال فلسطين · فتوفي قبل ان يصل الى مصر في سنة خمس واربعين ومايتين للهجرة ·

تولى بعده القاضي بكار بن قتيبه ابن اسد بن ابي بردعه بن عبيد الله بن بشير بن ابي بكره الحارثمولي رسول الله صلى الله عليه وسلم البصري من اهل البصرة · ودخل الى مصر لثمان خلون من جمادى الاخره سنة ست واربعين ومايتين للهجرة · وبقي الى سنة سبع وستين ومايتين للهجرة وهي السنة التي اعتقل فيها القاضي بكار المذكور · وكان السبب في ذلك على ماحكاه المؤرخون في كتبهم ان الخليفة المعتمد على الله ابا العباس احمد بن المتوكل على الله جعفر بن هرون الرشيد العباسي كان مشتغلا بلذاته · فخرج عليه صاحب الزنج وقام بالحرب الموفق اخو المعتمد وطال موافقته لصاحب الزنج فقصد الموفق القدوم الى مصر وبها الامير احمد بن (٨١ ق) طولون · فبلغ ذلك اخاه المعتمد فسير اليه واعاده عن هذا الرأى استبقا لابن طولون · وكان جرى بين الامير احمد بن طولون وبين الامير الموفق

---

١) في رفع الاصر ص٦ ملحوظة ٣ هو ابن ابراهيم الدمشقي ·

مكاتبات مقتضاها تسيير الجند والمال اعانه له على صاحب الزنج فقصرعنه احمد بن طولون • فندب اليه الموفق عسكرا • فقاتله احمد بن طولون فكسره • وجرت احوال فلما بلغ ابن طولون ذلك سير الى فقهاء مصر وكان بالشام فتوجهوا اليه الى دمشق في سنة سبع وسبعين ومايتين للهجرة • وكان في جملة الفقهاء قاضي مصر القاضي بكار بن قتيبه فقال لهم احمد بن طولون ان الموفق خلع طاعة اخيه المعتمد • وكان الموفق ولي عهد اخيه فأفتو (١٨و) فقهاء مصر بخلع الموفق من ولاية العهد • فتوقف بكار بن قتيبه عن خلعه • فقال له الامير احمد بن طولون : لم لاتوافق الفقهاء ؟ فقال له : انت اوردت علي كتاب الخليفة المعتمد بولاية اخيه الموفق فأورده علي بخلعه • فقال هو الآن مغلوب متهور في يديه وانا ايضا احبست حتى يرد كتابه باطلاقك • فقيده وسيره الى مصر وحبسه • وكان بن طولون كل سنة يحمله بالف دينار فعاد طالبه بها فسيرها اليه بختمها • وكان عدتها ستة عشر كيسا • وبقي القاضي بكار محبوسا الى اخر ايام احمد بن طولون •

ورتب في الحكم عوضا عنه وهو كالخليفة عنه محمد بن شاذان الجوهرى • وبقي القاضي بكار معتقلا الى ان توفي الامير احمد بن طولون في ليلة الاحد لعشر بقين من ذى القعده سنة سبعين ومايتين للهجرة • وتوفي القاضي بكار بعده في يوم الخميس لست بقين من ذى الحجة من هذه السنة • ومولده في (٨٢و) سنة اثنتين وثمانين ومائة ومدة ولايته القضاء اربعا وعشرين سنة وستة اشهر وستة عشر يوما وكان عالما زاهدا • حدث بالكثير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • وله اخبار مشهورة • وقد تقدم ذكره • وقبره احد المزارات بالقرنة بسفح الجبل المقطم •

وولي بعده ابوعبد الله محمد ابن عبدة بن حرب البصرى • ثم استتر بسبب فتنه بني طولون فأقام مستترا عشر سنين وذلك في جمادى الاخره سنة ثلاث وثمانين ومايتين للهجرة • وبقيت مصر بغير قاضي الى ان ولي ابو زرعة محمد

بن عثمان الدمشقي وعزل في صفر سنة اثنتين وتسعين ومايتين للهجرة • وتوفي ابو زرعة بالشام في سنة اثنتين وثلاثمايـة •

واعيـد ابو عبد الله محمد بن عبده بن حرب في شهر ربيع الاول سنة اثنتيـن وتسعين ومايتين للهجرة • وعزل عن الحكم في مستهل شهر رجب من هذه السـنة لان الامير استصحبه معه الى الشام وولاه قضاء حلب • وولـي ابا ملك بن ابـي الحسن الصغير ثم ولـي ابا عبيد على بن الحسن بن حرب بن عيسى بالشام • وكـان قدومه مصر لليلتين خلتا من شعبان سنة ثلاث وتسعين ومايتين للهجرة • وبقـي الى ان عزل في سنة احدى عشره وثلاثماية •

وولـي مكانه ابو الذكر محمد بن يحيى بن مهدى بن هرون بن عبد الله بـن هرون بن ابراهيم الاسواني خلافة لابي يحيى عبد الله بن ابراهيم بن مكرم الى ان عـزل ثاني عشر صفر سنة اثنتي عشـره وثلاثماية •

وولـي مكانه ابو محمد ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن عبـد العظيم بن عبد الله بن عبد الاعلى ••• (١) في شهر ربيع الاول سنة ثلاث عشـره وثلاثماية •

وولـــي مكانه ابو علي عبد الرحمن بن اسحق بن محمد بن معمر بن (٨٢ ق) حبيب بن المنهال السدوسي وصرف سابع شهر ربيع الاخر سنة اربع عشرة وثلاثماية •

وولي ابو عثمان احمد بن ابراهيم بن حماد بن اسحق بن اسماعيل بن حمـاد في الثامن من شهر ربيع الاخر سنة اربع عشره وثلاثماية • وعزل عن القضاء في ذى الحجة من سنة ست عشرة وثلاثمايـة •

---

١) بيـاض في الاصـل •

وولـي مكانه ابو محمد عبد الله بن احمد بن ربيعه بن سلمان بن خالد بن عبد الرحمن الربعي من اهل دمشـق • وعزل عنها لليلتين بقيتا من جمادى الاخـره سنة سبع عشرة وثلاثماية • وعـاد اليها ابو عثمان احمد بن ابراهيم بن حمـاد • وعزل عنها في سابع شهر ربيع الاخر سنة عشرين وثلاثماية للهجرة واعيـد اليها ابو محمد عبد الله الربعي وعزل عنها في عاشر صفر سنة احدى وعشرين وثلاثماية •

وولـي مكانه هاشم اسماعيل بن عبد الواحد بن محمد الربعي المقدسي الشافعي وعزل في عاشر شهر ربيع الاخر من هذه السـنة •

وولـي مكانه ابو جعفر احمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبه بن مسلم الدينوري في شهر جمادى الاخرة • ثم عزل في سابع شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وعشـرين وثلاثماية •

وولـي ابو عبد الله محمد بن موسى بن اسحق السرخسي • وبقي الى سنـة اربع وعشرين وثلاثمايـة •

وولـي ابو بكر محمد بن احمد بن محمد بن جعفر بن الحداد الكناني الفقيه وعزل في شهر ربيع الاول سنة اربع وعشرين وثلاثماية •

وولـي بعده ابو بكر محمد بن بدر مولي ابن حكيم خلافة لمحمد ابن الحسن بن ابي الشوارب • وتكدر حاله بها الى ان توفي وهو في ولايته على القضاء سنة ثلاثين وثلاثماية للهجـرة •

وولي ابو محمد عبدالله بن احمد بن شعيب بن الفضل بن ملك ابن دينـار يعرف بأبن اخت وليد وعزل • واعيد اليها ابو بكر بن (٨٣و) الحداد • وعزل في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثماية للهجرة • واعيد ابو محمد عبد الله ابن اخت وليد وعزل ايضا في سنة ثلاث وثلاثين السنة المذكورة •

وولـي عبد العزيز بن الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله العباسي الهاشـمي وكان خليفه لاخيه ثم عزل عنها في نصف ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وثلاثماية للهجرة ·

وولـي ابو بكر عبد الله ابن محمد بن الخطيب بن الصقر بن حبيب الاصبهاني المعروف بالخصي تولى في سنة ··· (١) وتوفي في سنة ثمان واربعين وثلاثماية للهجرة ·

وولـي بعده ولده ابو عبد الله محمد بن عبد الله · اقام خمسا واربعين يوما ومات · فولي كافور الاخشيدى مكانه ابا الطاهر محمد بن احمد بن عبد الله بن نصر بن مخبر بن صالح بن اسامه الدهلي في نصف شهر ربيع الاخر سنة ثمان واربعين وثلاثماية فبقي الى اخر الدولة الاخشـيدية ·

وجـاءت الدولة العبيدية فأبقاه الامير جوهر الرومي الذى ارسله المعز العبيدى صاحب الغرب من الغرب الى مصر · واستولى عليها وبنى القاهره المحروسة على القضاء · وورد المعز لدين الله اول العبيديين بالديار المصرية ديار مصر واستقر بالقصر بالقاهره المحروسة التي بناها له مولاه جوهر المقدم ذكره · واقر المعز هذا القاضي على ولايته فلم يزل الى ان توفي المعز وقـام بالامر من بعده ولده العزيز · فأقر القاضي المذكور على ولايته ثم عزله في صفر من سنة ست وستين وثلاثماية للهجرة · وهو من القضـاه المشهورين بالحديث والعلم وطول المـدة ·

وولـي العزيز بالله بن المعز العبيدى مكانه ابا الحسن على بن النعمان بن محمد بن منصور بن احمد بن حيون المغربي · وكان قدم مع المعز من الغرب · وولاه العزيز مضافا للقضاء الخطابة والامامة والعيار في الذهب والنظر في الحكم بمصر والقاهره واعمالها (٨٣ق) والمغرب والحرمين الشريفين مكه والمدينة · وهو اول قاضي نعت بقاضي القضاه بالديار المصرية واول من نعت بهذا النعت في الاسلام

---

١) بياض في الاصـل ·

القاضي ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري صاحب الامام الاعظم ابي حنيفه رضي الله عنهما نعته بقاضي القضاه امير المؤمنين هرون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي ببغداد • وكان لا يدعى بقاضي القضاة الا قاضي بغداد • وكان ساير القضاه بجميع البلاد التي تحت حكم الخليفة قاضي بغداد هو الذي يوليهم •

فايدة تذكر زيدتها في هذا المكان وهي اول ملك نعت بالملك في ملوك الاسلام عضد الدولة بن بويه الديلمي ملك بغداد مع الخليفه • واول من نعت بالسلطان في ملوك الاسلام محمود بن سبكتكين سلطان العجم •

نرجع لذكر القاضي ابن النعمان • لم يزل على ولايته الى ان توفي في السادس من شهر رجب من سنة اربع وسبعين وثلاثماية للهجرة واورد له المسبحي في تاريخه شعرا ودفن بتربته عن مسجد الاقدام •

وتولى مكانه اخوه ابوعبدالله محمد بن النعمان فبقي الى ان توفي في رابع صفر سنة تسع وثمانين وثلاثماية للهجرة • ودفن عند اخيه • وكان اديبا شاعرا ذكر له المسبحي ابيات • قال المسبحي : ورأى القاضي محمد بن النعمان رؤيا فأحضر ابن قديده المفسر فقال له : رأيت كأن الباري عز وجل نزل من السماء • فلما بلغ اري مات • فقال له ابن قديده : ان الله هو الحق وموته ابطاله وان الحق لا يزال حيا حتى يصير اليك فيموت • فأطرق القاضي ومات بعد مدة يسيرة •

وتولى الحكم بعد ابن النعمان ابن اخيه الحسين بن علي بن النعمان ابو عبدالله فبقي الى ان عزل •

وولي بعده ابو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان ابن عمه وعزل في يوم الجمعة (٨٤و) سادس عشر شهر رجب سنة ثمان وتسعين وثلاثماية •

وولي مكانه مالك بن سعيد بن مالك الفارقي وكان قاضي أطرابلس واختص به فلم يزل الى ان صرفه وقتله الحاكم بن العزيز بن المعز العبيدى في يوم السبت لاربع ليال بقيت من شهر ربيع الاخر سنة خمس واربعماية ٠

وولي مكانه ابو العباس احمد بن محمد بن عبدالله بن ابي العوام يوم الاحد حادى عشر جمادى الاخره سنة خمس واربعماية ٠ فلم يزل الى ان توفي لعشر بقين من شهر ربيع الاول من سنة ثمان عشره واربعماية ٠

فولي مكانه قاسم بن عبدالله بن النعمان في رابع جمادى الاول من سنة ثمان عشرة ٠ وعزل عنها لخمس بقين من شهر رجب من سنة تسع عشره واربعماية ٠

وولي مكانه ابو الفتح عبد الحاكم بن سعيد الفارقي في التاريخ المذكور ثم عزل في سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين واربعماية للهجرة واعيد اليها قاسم بن عبد العزيز بن النعمان واستخلف عنه القاضي القضاعي مصنف الشهاب ثم صرف عنها ٠

وولي ابو احمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم ثم صرف عنها واعيد اليها قاسم بن عبد العزيز بن النعمان وصرف عنها في ثاني المحرم سنة احدى واربعين واربعماية ٠

وتولى ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن البازورى (١) ثم بعد ذلك اضيف اليه الوزارة وهو اول قاضى جمع له بين القضاء والوزارة ٠ فلم يزل عليها الى ان صرف في مستهل شهر الله المحرم سنة خمسين واربعماية للهجرة ٠

تولى بعده ابو علي احمد بن عبد الحاكم بن سعيد ثم صرف عنها في ذى القعده من هذه السنة وتكرر في القضاء والوزارة غير مدة ٠ ووليها ابو القاسم عبد الحاكم بن وهيب وصرف عنها في سنة اثنتين وخمسين واربعماية للهجرة وتكرر في القضاء (٨٤ ق) غير دفعه ٠

---

١) كذا في الاصل ولكنها اليازورى في رفع الاصر ص٨ ملحوظة ٤ ٠

ووليهـا ابوعبد الله احمد بن محمد بن ابي زكريا في حادى عشر شهر رجب الفرد سنة اثنتين وخمسين واربعماية • فلم يزل الى ان توفي في صفر سنة ثلاث وخمسين واربعماية للهجرة • فأعيد اليها ابوعلي احمد بن قاضي القضاه عبد الحاكم بن سعيد الفارقي رابع عشر صفر • وصرف عنها خامس شهر رجب من سنة ثلاث وخمسين السنة المذكورة • واعيد اليها ابو القاسم عبد الحاكم بن وهيب (١) ثم صرف عنها في سنة خمس وخمسين واربعماية ثم ولي الوزارة والقضاء ابو محمد الحسن بن مجلي بن اسد بن ابي كدينه (٢) في رابع عشر شعبان وقبض عليه في ذى الحجة وتكرر في القضاء والوزارة دفعات تزيد على اثنتي عشر كرة •

وتولى ابو الحسين علي بن عبد الحاكم ثامن عشرى شهر ربيع الاخر سنة ست وخمسين واربعماية • وصرف عنها في خامس جمادى الاخره منها ثم رتب في الحكم عند دخول الامير بدر الجمالي امير الجيوش ابو يعلي حمزة بن الحسين بن احمد العرقى (٣) فلم يزل في الحكم الى ان توفي •

فولى ابو الفضل طاهر بن علي القضاعي لعله ولي في سنة ثلاث وسبعين واربعماية • ثم ولي بعده جلال الدولة ابو القاسم على بن عمار ثم صرف • وولى بعده ابو الفضل هبة الله بن الحسن بن عبد الرحمن بن نبانه لعل ولايته كانت في رابع شعبان سنة خمس وسبعين واربعماية • ثم ولي من بعده ابو الفضل بن عتيق • ثم ولي من بعده ابو الحسن على بن يوسف بن الكحال النابلسي • ثم ولي من بعده فخر الاحكام ابو الفضل محمد بن عبد الحاكم المليجي • كانت

١) "ابن وهب" رفع الاصر ص٨ ملحوظة ٦

٢) بدون تنقيط في الاصل • راجع رفع الاصر ص٨ ملحوظة ١٤ •

٣) بدون تنقيط في الاصل • راجع رفع الاصر ص٩ ملحوظة ١٠ •

ولايته في سنة سبع وثمانين واربعماية • ثم ولي (٥٨و) من بعده ابو الطاهر محمد بن رجاء فلم يزل الى ان توفي في سنة ثلاث وتسعين واربعماية • وولـى مكانه ابو الفرج محمد بن جوهر بن دكي النابلسي • فلم يزل الى شهر ربيع الاول سنة خمس وتسعين واربعماية فصـرف •

وتولـى ابو الفضل نعمـه بن بشير الجليس النابلسي ثم استعفى في سنة اربع وخمسماية فأعفى • وولي مكانه الرشيد عماد الاحكام ابوعبد الله محمد • وقيـل احمد بن قاسم الصقلي (١) ولم يزل الى ان توفي فأعيد القضاء الى ابن الجليـس النابلسـي ثم صـرف •

وولـي مكانه فقه الملك عمدة الاحكام ابو الفتح مسلم بن علي الرسعني ذكر في الحكم في سنة ثلاث عشرة وخمسماية للهجرة • ولم يزل قاضيا الى ان وزر المأمون بن البطائحي • فاتفق ان المأمون عمل عزاء للامير محمود بن ظفر والى قوص • فلما كان وقت صلاة الصبح قدمه المأمون للصلاة • فلما احرم ادركه هلع فلحن وارتج عليه في قراءة " والشمس وضحاها " فوقف عند قوله " ناقة الله وسقياها " فردها المأمـون عليه فزاد استبهاما • فكرر المأمون الرد على القاضي فلم يهتدي • وصحف قوله "ناقة الله وسـقياها " فقال " وسقناها " • فقـرأ المأمون بقيه السورة عنـه وسجد وسجد الناس لسجوده • ثم قام في الركعة الثانية وقد دهش • فلم يفتـح عليه بشيء وكمل المأمون الصلاة وفرغ فلما انفض الناس من المجلس وكل المأمون علـى القاضي حتى يحفظ من القرآن مايصلي به وصرفه • واستخدم عوضا منه ابا الحجاج يوسف بن ايوب المغربي وكان قاضي الغربيه • فلم يزل الى ان توفي في سنة احدى وعشرين وخمسماية • فولـي القاضي سناء الملك ابوعبد الله محمد بن هبـة الله

---

١) هو احمد بن قاسم بن زيد الصقلي الملقب بالقاضي الرشيد رفع الاصر ص ١٠ ملحوظة ٥ •

بن ميسر القيسراني (١) (٨٥ق) في ايام الامر العبيدى • وولاه الوكالة والنظـر في المقياس وغيره • ولم يزل الى ان تولى الخلافة بالديار المصرية الحافظ العبيدى فعزله في سنة ست وعشرين وخمسماية للهجـرة •

نكتـه : اول من رتب اربع حكام على اربع مذاهب ابن امير الجيوش في الدولة العبيدية ، حكى القاضي جمال الدين ابن تنكز انه وجد في تعاليق خالـه العماد بن اخي العلم انه في سنة خمس وعشرين وخمساية عند قيام الامير ابي على بن الافضل امير الجيوش بأمر المملكه رتب ان يكون في الحكم اربع قضاة على اربـع مذاهب • وهم الفقيه سلطان بن رشأ الفقيه الشافعي قاضي الشافعية وابو محمد عبد المولى بن الليثي الفقيه المالكي قاضي المالكيه وابو الفضل بن الازرق الاسماعيلي قاضي الاسماعيليه • وابن ابي كامل الفقيه الامامي قاضي الاماميه • وان المذكورين استمروا الى آخر السنة • فـرق بين هؤلاء القضاء والقضاة الذين ولاهم الملـك الظاهر ركن الدين بيبرس لان في هؤلاء من مذهبه غير مذهب اهل السنة • ومـن ولاهم الملك الظاهر جميعهم اهل السنة والجماعـة •

وذكـر بعضهم ان القاضي سناء الملك بن ميسر القيسراني رسم له ان لا يحكم الا ويكون عنده اربع فقهاء من جملتهم الفقيه سلطان بن رشا المذكور • حتى قيل ان الفقيه سلطان غاب يوما عن المجلس فأوجب توقف امر الحكم لغيبته • فقال بعض الحاضرين : فانفذوا لاتنفذون الا سـلطان الايـة (٢) •

ولما عزل الحافظ العبيدى القاضي سناء الملك بن ميسر في سنة ست وعشـرين وخمسماية ولي ابو الفخر (٨٦و) صالح بن عبد الله بن رجاء في مستهل شهر ربيع الاول من سنة ست وعشرين وخمسماية • ثم قبض عليه وقتله • وولي مكانه سـراج

---

١) القيرواني في رفع الاصر ص٩ ملحوظة ٢ و ص١٠ ملحوظة ١١
٢) سـورة الرحمن ٥٥ آية رقم ٣٣ •

الدين ابو الثريا نجم بن جعفر • ولم يزل الى ان قتل في يوم الخميس ثامن شوال سنة ثمان وعشرين وخمسماية • واعيد الحكم لابي عبدالله محمد بن هبة الله بن مبشر(١) القيسراني • فلم يزل الى ان عزل عن الحكم في يوم الاحد لسبع خلون من المحرم سنة احدى وثلاثين وخمسماية • وارسل الى ••••• (٢) وقتل بها عشية يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الاول من هذه السنة سنة احدى وثلاثين وخمسماية •

وكان السبب في ذلك ان الامير حسين بن امير الجيوش لما اعتقل الحافظ العبيدى انشد على بن •••• (٣) الاسكندرى الشاعر قصيدة مدح بها الامير حسين بن امير الجيوش وذم الحافظ واهل بيته اقبح ذم واولها تبسم الدهر لكن بعد تعبيس ومر في قولـه :

هذا سليمانكم قد رد خاتمه   واستفرغ الملك من صخر ابن ابليس•

فلما سمع القاضي ابن مبشر المذكور هذا البيت قام والقى عريضه طربا • ثم ان القاضي بعد ذلك لما اسقط ابن الزعفراني شاع عنه ما انسى الدهر ذكره فقتل بها والله اعلم •

وولي القضاء بعد ابن مبشر الاعز ابو المكارم احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن ابي عقيل • ولم يزل الى ان توفي في شعبان سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية • واقام الوقت بغير قاض الى ان ولي فخر الامناء ابو الفضايل هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن بحر الانصارى (٨٦ ق) الاوسي المعروف بأبن الازرق لاحدى عشرة ليلة •• خلت من ذى القعده سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية • وعزل في ثالث عشر جمادى الاخره سنة اربع وثلاثين وخمسماية • وولي القاضي الموفق في الديـن

---

١) وردت سابقا بدون تنقيط •
٢) بياض في الاصل مقدار كلمه •
٣) كلمـة مطموسـة •

ابو الطاهر اسماعيل بن سلامه الانصارى • فأقام الى مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين وخمسماية • واشيع بانه يعزل • ثم استقل وبقي الى ان صرف لسبع خلون من صفر سنة ثلاث واربعين وخمسماية للهجرة • وولي مكانه ابو الفضايل يونس بن محمد بن الحسن المقدسي المعروف حوامرد (١) القرشي • فبقي الى ان صرفه العادل بن السلار في سنة سبع واربعين وخمسماية وكان صالحا دينا •

وولي مكانه الفقيه ابو المعالي مجلي بن جميع بن نجا المخزومي مصنف الذخاير فاقام الى ان صرفه الصالح بن رزيك الذى بني جامع الصالح خارج بابي زويله بالقاهره المحروسة • واعاد ابا الفضايل يونس ثم صرفه واعاد ابا المعالي وقيل ان يونس المذكور ولي دفعة اخرى في سنة ثمان وخمسين كما سنذكره ان شاء الله تعالى •

وتولى بعده مجلي القاضي جلال الدين ابو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصورى في تاسع شعبان سنة سبع واربعين وخمسماية • وصرف في العشر الاخير من محرم سنة ثمان وخمسين وخمسماية • واعيد الحكم للقاضي يونس ولاه شاور الوزير ثم صرف واعيد القاضي جلال (٢) الدين بن كامل في العشر الاول من ذى الحجة من هذه السنة • ثم صرف في شهر ربيع الاول سنة تسع وخمسين وخمسماية للهجرة •

وتولى القاضي الاعز (٨٧و) ابو محمد الحسن بن علي بن سلامه المعروف بالعويرس • ثم صرف وتولى ابو الفتح عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوى ثم صرف • واعيد القاضي جلال الدين ابن كامل للقضاء في ذى الحجة سنة خمس وستين وخمسماية • ثم صرف في سادس عشر جمادى الاول سنة ست وستين وخمسماية •

---

١) كذا في الاصل •
٢) في الاصل بدون اللام الاخيرة •

وولي القاضي صدر الدين بن الملك بن عيسى بن درباس بن سـ (١) بن عبدوس الماراى (٢) ، وكان قاضي الغربية ، وتولي في الثاني والعشرين من جمادى الاخره سنة ست وستين وخمسماية للهجرة ، وبقي الى ان عزل بعد وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مرون الذى كان زوال الدولة العبيدية من الديار المصرية على يديه ، واعاد اليها الدولة العباسية ،

وتولي مكان القاضي صدر الدين القاضي زين الدين علي ابن يوسف الدمشقي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الاول في سنة تسعين وخمسماية ، ولم يزل الى ان صرف في يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الاول سنة احدى وتسعين وخمسماية ، وتولي في بقية النهار القاضي محي الدين ابو حامد محمد بن عبد الله بن هبة الله بن ابي عصرون ، ولم يزل الى ان عزل في يوم الاحد سادس عشر محرم سنة اثنتين وتسعين وخمسماية ، واعيد القاضي زين الدين علي بن يوسف الدمشقي ، وعزل في يوم السبت ثالث المحرم سنة اربع وتسعين وخمسماية للهجرة ، واعيد القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس ثم عزل في العاشر من جمادى الاول سنة خمس وتسعين وخمسماية ، واعيد القاضي زين الدين علي بن يوسف الدمشقي ثم (٨٧ ق) عزل عنها في يوم الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الاخر سنة ست وتسعين وخمسماية ، واعيد اليها القاضي صدر الدين عبد الملك واضيف اليه دار الضرب والحسبة والخطابة والاحباس ، ولم يزل الى ان توفي يوم الاربعاء خامس شهر رجب الفرد من سنة خمس وستماية للهجرة ، وبقي الامر بحكم النواب الى يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان من هذه السنة ، فتولى القاضي عماد الدين ابو

---

١) كذا في الاصل

٢) على الهامش بخط آخر "جهم بن" .

القاسم عبد الرحمن بن عبد الاعلى بن السكرى · ولم يزل قاضيا الى الثاني عشر من المحرم سنة ثلاث عشره وستماية · فصرف وبقي الامر يحكم فيه النواب الى مستهل صفر من هذه السنة فرتب القاضي شرف الدين ابو المكارم محمد بن عين الدوله في القاهره والوجه البحرى ·

ورتب بمصر والوجه القبلي القاضي تاج الدين ابو محمد عبد السلام بن علي بن الخراط · فلم يزل الامر على ذلك الى ان جرت حالة اوجبت عزل القاضي تاج الدين عبد السلام بن الخراط في العشر الاخير من شعبان سنة سبع عشرة وستماية · وفوض الامر للقاضي شرف الدين ابن عين الدولة فاستمر قاضي القضاه بجميع احوال الديار المصرية خلا ثغر الاسكندرية مدة زمن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين ابي بكر نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي ابن اخي السلطان صلاح الدين يوسف لما كان يرى فيه من الديانة والصيانه والتعفف · وكان رجلا صالحا عالما ورعا عارفا بالاحكام · وكان الملك الكامل يعظمه ويكرمه بسبب ذلك وله معه حكايات · منها ماحكي انه رآه يوما بالطريق (٨٨و) فسلم عليه ورده لشغله فوصف ماهو عليه من دين وعفه ومعرفة وعلم فقال : ومع هذا فما القاضي الاكبير السن واشار لبعض خواصه ان يرد اليه ويستعلم منه كم مضى من عمره · فلما حضر الى القاضي واعلمه ماقال الملك الكامل اخذ ورقة وكتب فيهما · :

ياسائلي عن قوى نفسي وما صنعت — فيه السنون خذ التحقيق تبيينا
ثاء الثلاثين ادركت القبور بها — فكيف حالي في ثاء الثمانينا
يارب فالطف بشيخ مدنف هرم — اسير ضعف اعنه رب آمينا

ودفعها اليه فجاء بها الى الملك الكامل . فلما وقف عليها زاد حبا له ولفضله وحسن ادبه . ولما توفي الملك الكامل وتولى بعده ولده الملك العادل اقر القاضي شرف الدين على امره .

فلما جاءت الدولة الصالحية واستقر الامر بعد خلع الملك العادل لاخيه الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل في يوم الجمعة ثالث عشرى شوال من سنة سبع وثلاثين وستماية . اقر القاضي شرف الدين على امره . فلما كان يوم الخميس عاشر شهر ربيع الاخر من سنة تسع وثلاثين وستماية . رتب القاضي شرف الدين في قضاء القاهره والوجه البحرى . ورتب في قضاء مصر والوجه القبلي القاضي بدر الدين السنجارى . فلم يزل الى ان توفي القاضي شرف الدين بن عين الدولة في تاسع عشر ذى القعده من هذه السنة سنة تسع وثلاثين وستماية .

وتولى بعده القاضي بدر الدين السنجارى قضاء القاهرة والوجه البحرى .

وتولى قضاء مصر والوجه القبلي القاضي عز الدين بن عبد العزيز عبد السلام فلم يزل الى ان صرف (٨٨ ق) عن الحكم في سنة ..... (١) وستماية واضيفت اليه خطابة مصر .

وتولى مكانه في قضاء مصر والوجه القبلي القاضي افضل الدين الخونجي (٢) فلم يزل الى ان توفي في شهر رمضان من سنة ست واربعين وستماية . وكان يخلفه في الاحكام الحمال ..... (٣) فلم يزل الى ان تولى القاضي عماد الدين الحموي . فبقى الى ان عزل في الثامن من جمادى الاول سنة ثمان واربعين وستماية .

---

١) بياض في الاصل
٢) افضل الدين محمد بن ناماورد الخونجي . رفع الاصر ص١٢ ملحوظة ٧ .
٣) بياض في الاصل .

وتولى القاهره والوجه البحرى وعرف عنها القاضي بدر الدين السنجارى • وترتب قاضيا بمصر والوجه القبلي القاضي صدر الدين موهوب بن عمر الجزرى • وكان نائبا عن القاضي عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام • ثم عزل واعيد القاضي عماد الدين الحموى بمصر والوجه القبلي واعيد القاضي بدر الدين السنجارى الى قضاء القاهره والوجه البحرى وذلك في التاسع والعشرين من شهر رجب الفرد من سنة ثمان واربعين وستماية • ثم بعد ذلك بأيام يسيرة اضيف للقاضي بدر الدين السنجارى مصر والقاهرة واعمالها وذلك في العشر الاول من شوال من هذه السنة • ثم عزل القاضي بدر الدين السنجارى عن القضاء بمصر وكان يخلفه فيه اخوه برهان الدين وكان عزله في هذه المرة عن مصر في يوم الاحد الحادى عشر من شهر رمضان سنة اربع وخمسين وستماية •

وترتب فيها القاضي تاج الدين عبد الوهاب الشافعي الشهير بابن بنت الاعز • ثم عزل القاضي بدر الدين السنجارى عن القاهرة والوجه البحرى واضيف ذلك للقاضي تاج الدين ابن بنت الاعز • فبقى كذلك الى ان توفي الملك (٨٩و) المعز ايبك اول الملوك التركية بالديار المصرية في ليله الاربعاء خامس عشرى شهر ربيع الاول من

سنة خمس وخمسين وستماية • وقيل انه تولى الوزارة للملك العز • والاظهر انه لم يلها في ايامه • ولم يزل في القضاء الى ان عزل في مستهل شهر ربيع الاخر من هذه السنة سنة خمس وخمسين من القاهرة والوجه البحرى •

وولى القاضي بدر الدين السنجارى قضاء القاهره والوجه البحرى • ثم ولي القاضي بدر الدين السنجارى المذكور الوزارة مضافا لقضاء القاهره والوجه القبلي • وولى في الوجه القبلي قضاة من جهته • وبقي مع القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز مصر خاصة الى ان استدعى القاضي تاج الدين المذكور وخوطب في الوزارة فأجاب الى ذلك واستخدم فيها في السادس من شهر رجب من سنة خمس وخمسين وستماية وصرف عن الحكم بمصر •

وتولى القاضي بدر الدين السنجارى قضاء القضاة بجميع الديار المصرية • وسار الى مصر وحكم بها يوم الاحد نصف شهر رجب الشهر المذكور • وبقي الى ايام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحي فصرف في التاسع مع جمادى الاول من سنة تسع وخمسين وستماية •

وتولى القاضي تاج الدين ابو محمد عبد الوهاب بن بنت الاعز قضاء القضاة بالديار المصرية • ولم يزل الى سلخ شوال من هذه السنة فصرف عن قضاء مصر والوجه القبلي •

وتولى القاضي برهان الدين السنجارى قضاء مصر والوجه القبلي • فلم يزل الى الثالث من شهر رمضان من سنة ستين وستماية فعزل • واعيدت مصر والوجه القبلي مضافا للقاهرة للقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن بنت (٨٩ ق) الاعز •

وكان القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز المذكور متشددا في الاوامر الضرورية السلطانية • واوجب الامر السلطاني اليه ان يستنيب عنه في الاحكام مدرسي المدرسة الصالحية النجميه على المذاهب الاربعة اهل السنة والجماعة • ففعل ذلك • وجلس القاضي صدر الدين سليمان الحنفي والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي والقاضي شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي • كما قدمنا شرحه • واستمر الامر على ذلك الى هذه السنة وهي سنة ثلاث وستين وستماية فجرى للقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الاعز بحضور السلطان الملك الظاهر بيبرس المذكور امور اوجبت انه امر باستقلال النواب المذكورين في القضاء • من كل مذهب قاضي فاستقلوا به مضافا للقاضي تاج الدين ابن بنت الاعز كما سنذكره ان شاء الله تعالى •

قال بعض اهل التاريخ : كان الامير جمال الدين ايدغدى العزيزى يكره القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز ويحط عليه ويحط من قدره عند السلطان الملك الظاهر بسبب تثبته وتوقفه في القضايا التي لا خير فيها ولا توافق مذهبه • فاتفق ان السلطان الملك الظاهر جلس يوم الاثنين ثاني عشر ذى الحجة من هذه السنة بدار العدل وقدمت قصة من بنات الملك الناصر مضمونها ان المماليك اشتروا دار قاضي القضاة بدر الدين السنجارى في حال حياته وان ورثته بعد موته ذكروا انها وقفا او حبسا • فلما قرئت اخذ الامير جمال الدين ايدغدى المذكور يحط على المتعممين وينقصهم • فقال السلطان للقاضي (٩٠ و) تاج الدين : ياقاضي هكذا تكون القضاه • فقال : يامولانا كل شاة معلقة بعرقوبها • قال : فكيف الصورة في هذا ؟ اذا ثبت الحبس يعاد الثمن من الورثة • قال السلطان • فاذا لم يكن مع الورثة شيء • قال : يرجع الوقف الى اصله ولا يستعاد الثمن • فامتعض السلطان من ذلك ولم يتم الكلام في ذلك حتى تقدم رسول صاحب المدينة المعظمه النبوية على ساكنها سيدنا ونبينا

محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام وقال : يامولانا السلطان سالت هذا القاضي ان يسلم الى مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده لينفقه صاحب المدينة في فقراء اهلها فلم يفعل . فسأل السلطان القاضي عن صدق ماقاله . فقال نعم . فقال انا امرته بذلك فكيف رددت امرى ؟ فقال : يامولانا هذا المال انا مستلمه وهذا الرجل لااعرفه ولا يمكنني ان اسلمه لمن لااعرفه . ولا يمكن ان يتسلمه مني الا من اعرف انه موثوق بدينه وامانته . فان كان السلطان يتسلمه مني احضرته اليه . فقال السلطان : تنزعه من عنقك وتجعله في عنقي . قال نعم . قال لاتدفعه الا لمن تختاره . ثم تقدم الى السلطان بعض الامراء وشكى القاضي وقال : شهدت عنده فلم يسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته . فسأله السلطان فقال : ماشهد احد عندى حتى اثبته . فقال الامير : اذا لم تسمع قولي فمن تريد ؟ فقال السلطان له : لم لاسمعت قوله ؟ فقال : لاحاجة في ذكر ذلك . فقال الامير جمال الدين ايدغدى ياقاضي نترك مذهب الشافعي لك (٩٠ ق) وتولى من كل مذهب قاضي . فنصت السلطان الملك الظاهر لذلك . فلما كان تاسع عشر ذى الحجة الشهر المذكور من هذه السنة ولى السلطان الملك الظاهر القاضي صدر الدين سليمان الحنفي والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي والقاضي شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي قضاء القضاة بالديار المصرية . وفوض اليهم ان يولوا في ساير الاعمال بالديار المصرية مضافا لقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز . وابقى على قاضي القضاة تاج الدين النظر في مال الايتام والمحاكمات المختصة ببيت المال وكتب لهم التقاليد واخلع عليهم الخلع وصار يحكم في ذلك هؤلاء الا ربع حكام المذكورين على الاربع مذاهب المذكورة وصاروا يلبسوا الطرحات في ايام الخدمة السلطانية . وقال صاحب "نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" ماصيغته : وفي ذى

محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام وقال : يامولانا السلطان سالت هذا القاضي ان يسلم الى مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده لينفقه صاحب المدينة في فقراء اهلها فلم يفعل · فسأل السلطان القاضي عن صدق ماقاله · فقال نعم · فقال انا امرته بذلك فكيف رددت امرى ؟ فقال : يامولانا هذا المال انا مستلمه وهذا الرجـــل لااعرفه ولا يمكنني ان اسـلمه لمن لااعـرفـه · ولا يمكن ان يتسلمه مني الا من اعرف انه موثوق بدينه وامانتـه · فان كان السلطان يتسـلمه مني احضرته اليه · فقال السلطان : تنزعه من عنقك وتجعله في عنقي · قال نعم · قال لاتدفعه الا لمن تختاره · ثم تقدم الى السلطان بعض الامراء وشكى القاضي وقـال : شـــهدت عنـده فلم يسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته · فسأله السـلطان فقال : ماشهد احد عندى حتى اثبته · فقال الامير : اذا لم تسمع قولي فمن تريد ؟ فقال السلطان له : لم لاسمعت قوله ؟ فقال : لاحاجة في ذكر ذلك · فقال الامير جمال الديـن ايدغدى ياقاضي نترك لمذهب الشافعي لك (٩٠ ق) وتولى من كل مذهب قاضـي · فنصت السلطان الملك الظاهر لذلك · فلمـا كان تاسع عشر ذى الحجة الشهــــر المذكور من هذه السنة ولـي السلطان الملك الظاهر القاضي صدر الدين سـليمان الحنفـي والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي والقاضي شمس الدين محمد بـــن ابراهيم الحنبلـي قضاء القضاة بالديار المصرية · وفوض اليهم ان يولوا في سـاير الاعمال بالديار المصرية مضافا لقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الاعـز · وابقى على قاضي القضاة تاج الدين النظر في مال الايتام والمحاكمات المختصة ببيت المال وكتـب لهم التقاليد واخلع عليهم الخلع وصـار يحكم في ذلك هؤلاء الاربع حكام المذكورين على الاربع مذاهب المذكورة وصاروا يلبسوا الطرحات في ايام الخدمة السـلطانية · وقـال صاحب "نظم السـلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" ماصيغته : وفي ذى

القعده تحدث السلطان في كثرة المتحاكمين ورتب اربعة قضاة للمذاهب الاربعة · وكتبت لهم التقاليد السلطانية · وفي ذى الحجة رسم لمجد الدين ابن العديم بخطابة القاهره والله اعلم ·

ذكر القبض على الامير شمس الدين الرومي وبعض خبره

كان الامير شمس الدين سنقر الرومي جمدار الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي · وكان مواخي الملك الظاهر ركن الدين بيبرس لما كان في خدمة الملك الصالح ايضا وبينهما صداقة · ولما (١٩١و) قتل الفارس اقطاى كما قدمنا شرحه خرجا جميعا الى الشام وركن الدين بيبرس يتفقده بالمال والقماش · وكذلك لما انتقلا الى الكرك كانا على هذه الصفة · فاتفق انهما كانا صحبة صاحب الكرك في الصيد · وطلب سنقر من بيبرس شيئا ولم يكن معه شيء حاضر فساق الى مصر وحضر الملك الظاهر الى الديار المصرية بعد ذلك وهو امير فلم يعتقد الملك الظاهر بشيء على عادة الخشداشيه مع انه كان من جملة اتباعه · ولما جرى للملك المظفر قطز ماجرى وقتل على يد الملك الظاهر كما قدمنا شرحه ماكان سنقر المذكور حاضرا · فلما استقرت السلطنه للملك الظاهر كما قدمنا شرحه احسن الى سنقر المذكور واعطاه الاقطاعات العظيمة فصار في هذه المدة لايأخذ عطاء السلطان الملك الظاهر بقبول · وصار يخلوا لجماعة بعد جماعة ويفرق عليهم المال · وتحقق السلطان ذلك فسير اليه يحذره مع خشداشيته ومع الامير سيف الدين قلاوون الالفي · فما افاد فيه ذلك · فلما قتل شخصين مسلمين بغير ذنب ما امكن السكوت عنه · قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اول مايحكم الله في الدماء · وكان احد المتولين مملوك سنقر المذكور جرت له زلة لطيفة لايجب فيها شيء فاستشفع بالسلطان فشفع فيه

فلم يتقبل شفاعته وضربه وكواه بالحديد فمات • فعز هذا على السلطان وآلمه من وقته وتبض عليه في رابع وعشرين من ذي الحجة من هذه السنة واعتقله • فقال : اشتهى اعرف ذنبي • فسير السلطان اليه من عدد عليه ذنوبه • فتحسر وقال آه آه لو كنت حاضرا (٩١ ر) قتل الملك المظفر متى اعاند السلطان في الفرس حرب • وكان سنقر قد ذكر هذا الحديث للسلطان مرتين في حال ترفه واحسان السلطان اليه • وقال له السلطان : انت اخي وتتحسر لكونك ما قدرت تعين على والله اعلم •

وفي هذه السنة تولى الامير نور الدين ابن مجلي نيابة حلب •

وفيها حجب الخليفة الحاكم بأمر الله من الاجتمــاع بالناس •

ذكر هــلاك اللعين هولاكو ملك التتار وتملك ولده اباغا •

في هذه السنــة هلك اللعين هولاكوابن طولوخان بن جنكز خان ملك التتار الذي فعل ما قدمنا شرحه من الافعال القبيحة من خراب البلاد وقتل العباد وتوفي في تاسع عشر شهر ربيع الاول من هذه السنة بالقرب من كورة مراغة • وقيل انهم حملوه الــى قلعة تلا فدفنوه بها وصارت روحه الى جهنم وبئس المصير • وكانت مدة سلطنته عشــر سنين • وخلف من الاولاد خمسة عشر ذكرا وهم جماغان واباغا ويشمط ويبشين وتكشي وتكدار وهو احمد واجاي والاجر وسيوجي وسودار ومنكو تمر وقنقر طاي وطرغاي وطغاي وتمر وهو أصغرهم • ولما مات اللعين هولاكو جلس بعده في السلطنة ولده اباغــا مكانه • فجهز جيشا لحرب الملك بركه خان • فلما بلغ الملك بركة مسير العسكر جهز جيشا وقدم عليهم بيسونوغا ابن ططر بن مغلي بن دوسي خان بن جنكز خان • فســار ثم اردفه بركه بمقدم آخــر واسمه بسنتاي في خمسين الف (٩٢ و) فسبق بيسونوغا وتقــدم الى عسكر اباغا فتكردسوا للهزيمة • فبصر بهم بسنتاي وقد تـلقوا فظنهم احاطوا بالمقدم على العسكر التادم ومن معه فانهزم راجعا وقدم بيسونوغا ومن معه فتبع عسكر اباغــا

وساق عليهم والتقى معهم فكسرهم وقتل منهم جماعة وظفر بهم وعاد الى الملك بركه ·
واما بسنتاى فعظم ذنبه عند الملك بركه ·

(٩٣ ق) (١) ذكر وفاة من توفي من الاعيان في هذه السنة وبعض اخبارهم

ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الوهاب الانصاري الجناني يكني ابا اسحق من اهل جنان قرأ ببلده على الشيخ ابن يربوع · واخذ بالمريه عن ابي عبد الله بن هشام بن السواس · وكان حسن السمت كثير الوقار وخطب بالجنان بالجامع الجوفي المعروف بالرابطه الى ان انفصل عن البلد قبل خروج اهل البلد بمدة ثم خطب بغرناطه وولي قضاء المريه ثم احكام القضاء بغرناطه · توفي بغرناطه في سنة ثلاث وستين هذه السنة ·

حمزة بن محمد بن حمزه البهواني الحموى يكني ابا يعلي الفقيه الشافعي قاضي حماه · توفي في هذه السنة ·

خالد بن يوسف بن الحسن بن مفرج بن بكار النابلسي الدمشقي يكنى ابا البقاء الشيخ المحدث توفي في هذه السنة

محمد بن ابي احمد بن يوسف بن موسى بن مسدى المهلبي الاندلسي · يكني ابا بكر الحافظ · كان فاضلا حسن المعرفه برواية الحديث · توفي بمكه المشرفة في هذه السنة ·

موسى بن يغمور بن جلدك بن بلمان بن عبد الله المصرى · يكني ابا الفتح ويلقب جمال الدين · كان من الامراء الصالحيه وتولي نيابة دمشق في الدولة التركية · توفي بالقصير من الاعمال الفاقوسيه بين الغرابي والصالحيه وحمل الى قرافه مصر ودفن بتربة والده بسفح المقطم في هذه السنة ·

١) لاوجود لورقة (٩٣)

هبة الله بن ابي محمد بن حفاظ الانصاري الازدى يكني ابا البركات الشيخ الصالي • توفي في هذه السنة بالاسكندرية •

(٩٤و) يوسف بن الحسن بن علي السنجاري المصرى • يكني ابا المحاسن ويلقب بدر الدين وينعت بذى الرياستين • كان بداية امره المامه بالسلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب بالبلاد المشرقيه • ثم حضر الى الديار المصرية وولي قضاء القضاة بالقاهرة ومصر والديار المصرية مدة • ودرس بالمدرسة الصالحية للطايفه الشافعيه وناب لـــه القاضي شمس الدين احمد بن خلكان • وولـي الوزارة مدة • وكان موصوفا بالكرم والاريحيه توفـى بالقاهره في هذه السـنة •

محمد بن الحسن بن علي الدمشقي يكني ابا عبد الله ويعرف بابن امرأة الشيخ علي العريتي (١) • كـان شيخا صالحا حسن الشكل حلو المحادثة سليم الصدر عليه اثـار الخير والصلاح • وله زاوية بسفح قاسيون على نهر يزيد احسن الزوايا واقدمها • وفـي جانبها قبه فيها ضريح الشيخ علي القريتي (١) حضر السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الى زيارته • توفي في سنة ثلاث وستين هذه السنة وخلف اولادا •

---

١) العرتـى في الاصـل • را —

(٩٥ ر) (١) ذكر الحوادث في سنة اربع وستين وستماية ؟ ٦٦٤هـ/ ١٣ ت ١، ١٢٦٥م — ٢ ت ١، ١٢٦٦م

في شهر الله المحرم من هذه السنة عقد الامير سيف الدين قلاون الالفي بالكبر على ابنة الامير سيف الدين كرمونا التتري الوافد وهي والدة ولده الملك الصالح علاء الدين علي • وكان يوما مشهودا • وسار السلطان الملك ركن الدين بيبرس الصالحي بنفسه • ونصب الدهليز بسوق الخيل لما عمل عرسه وعمل كلما يتعلق بالاسمطة من البيوتات وجلس السلطان بالخوان وارسل السلطان للامير قلاون "مماليك" تمام وخيل وعشر مماليك • فقبل التقدمة واستعفى من قبول المماليك وقال هؤلاء خشداشيتي في خدمة السلطان • وقدم له كل امير من الامراء ثلاثة ارؤس خيل • • • (٢) قماش •

وفي هذه السنة سير الملك الظاهر الى دمشق ثلاث تقاليد لثلاث حكام حنفي ومالكي وحنبلي مضافا لقاضي القضاة شمس الدين احمد بن خلكان الشافعي صاحب وفيات الاعيان في التاريخ وغيره • كما تقرر الحال بمصر • وصار بدمشق اربع قضاة وهم شمس الدين عبد الله بن عطا الحنفي وشمس الدين عبد السلام الزواري المالكي وشمس الدين • • • (٣) بن الشيخ ابي عمرو الحنبلي وشمس الدين احمد بن خلكان • ومن العجايب اجتماع اربعة قضاة (٤) في بلد واحدة في سنة يلقب كل منهم شمس الدين • واستناب قاضي القضاة ابن خلكان نايبا لقبه شمس الدين • وعمل الشعراء في ذلك اشعارا حفظها الناس • واستمر بالقاهرة اربع قضاة من كل مذهب قاضي • وكذلك استمر بدمشق اربع قضاه من كل مذهب قاضي • ولم يزل الامر على ذلك الى يومنا هذا والله اعلم •

وفي هذه السنة ايضا وصل الى الابواب الشريفة رسل الانبرور ورسل ملوك

---

١) لا وجود للورقة ٩٥ ، وكان المؤلف ترك صفحة خالية لاضافة تواريخ وفيات اخرى •
٢) كلمات غير مقروءة •
٣) بياض في الاصل •
٤) مكررة في الاصل •

الفرنج ورسل الفنش ورسل اليمن بمراكب موسقه هدايا الى صاحب قلاع الاسماعيلية صحبة رسلهم متوجهين الى ناديهم ومتقربين الى مراضيهم ومبايعي ايديهم بها على الحياة • وما علموا ان يد الله فوق (٩٦و) ايديهم • ولما حضروا بهذه الاموال رسم السلطان الملك الظاهر باظهار قدره يستدل بها على فعل القدر واعتماد مصلحة تفسير نواميسهم الفاسدة ومقابلة الفاسد بالفاسد من وجوه النظر • وهو انه رسم بأخذ الحقوق من هذه الهدايا تعجيزا لمن استكفى شرهم بالعطايا وافهاما للملوك الذين ملأ خوفهم قبولهم رعبا ان وراءهم ملكا يأخذ كل سفينة على هذه الصفة غضبا وانذارا بما كان في عزمه من اهتضامهم • فاستخرجت منهم الحقوق وكانت كتب السلطان الملك الظاهر تتوجه اليهم بالانكار • وتوعدهم بخراب الديار • وورد منهم كتاب يتضرعون الى السلطان انه اذا عقد مع الفرنج صلحا ان يذكرهم فيه ليفهموا انهم من غلمانه وان له بهم عناية • قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مولف سيرة الملك الظاهر : واين هذه الذلة من كتابة مقدمهم راشد الدين سنان بن سليمان البصري لما كتب الى صاحب حلب :

ياذا الذى بقراع السيف هددني	لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
جاء (١) الحمام الى البازى يهدده	واستاسدت بخلو الخيس اصبعه
لاتفرحن لسحت حين تنهبه	فان نفسك بعد الموت تتبعه
وقد مددناك حبلا للحياة مدا	فسوف تعلم يوما حين تقطعه
ومن يسد فم الافعى باصبعه	يكفيه ماستلاقي منه اصبعه

واعجبا من ذبابة تطن على اذن فيل وبعوضة تعد من التماثيل • ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم ومالهم من ناصرين وقد علمت كنه وكيفيه رجالنا وما يقومون به من ورود حياض الموت وينتظرون من حال وقوع الفوت بانهم يرون الحياة مغرما ويعدون الموت مغنما فهيء للبلاء اسبابا (٩٦ق) وتذرع للرزايا جلبابا •

١) في الاصل بدون همزة •

ويقول في كتابه الاخر نحن كالرمح العاصف تمر بهشيم الارض فلا تؤذيه احتقارا وتعثر بالجبال الراسيه فتنسفها قوة واقتدارا · وما بغى علينا باغ فقنعنا عليه منه بالنصر ولا ظلمنا حبة خردل الا كان عوضها بلدا او مصر · ولا خرق لنا سجاف الا رقعناه بعمر الخارق · ولا مرق من ادب الدعوة احد الا ومرق سهم الفنا في ذلك المارق :

لله في عالمه خاتـــم　　　تجرى المقادير على نقشـــه

والبحر زخار لـه فرشـه　　　فاحـذر على نفسك من ترشـه

والبغي صراع له صولـه　　　تنكـس الجبار عـن عرشـه

لاتنبش الشر فتبلى بـه　　　فقل مـن يسـلم من نبشـــه

اذا طغى الكبس بشحم الكلى　　　ادخل رأس الكبش في كرشـه ·

قال القاضي محي الدين مؤلف سيرة الملك الظاهر : هـذا قول سنان وهو منزق بين حصونه صعدة قد احتلها اعتقد انه يطاعن الافلاك ومتوق من بأســـه وتأسه بكل ذى نحده يهول بهم على الممالك والاملاك· وذلك عندما رأى ملوك الاسلام تهولهم الاوهام ويرتاعون يقظه وتستس عليهم سيوفه الاحلام ويعتقدون ان كل يد تمتد انها اليهم ويحسبون كل صيحة عليهم ضنة بالنفوس ورغبة عن لباس البؤس وسوء ظـــن بأقدار الله التي لامحيد عنها واشتغالا بالنكرة في الامور التي فرغ ربك منها · والا لوشاهد سنان هذا الملك الذى تسبق اعنة خيوله الرياح وتملا جيوشه البطاح وتسمح اولياؤه بالنفوس مستريحه رضوان الله برضاه والسماح رباح وتقصد القنا طعنا به · فكم اقنت من سنان وكم حطمت من رماح لقرع السن ندما ولشغل بكلامه عن ان يحير كلما · ولراعه كما "يردون رحا الحرب الزبون ويتداوون مع صحة اذ هانهم في الحروب من الجنون (٩٧و) بالجنون · ويمتنعون بالوطي الحصين اذا اقتنع غيرهم بعلي الحصون ·

ولا جرت تلك الرماح لسنانه فلا يقول ولقطع بأن سكاكين قومه الذين يقولون يصول بها
انها لسهام هذا السلطان تصول ولتيقن ان تلك الدعوة في مملكة من ممالك الدولة ثم
"مجب" وتلك الرغوة ٠٠٠٠٠ (١) ولوتف موقف الاعتذار ولسائل الامان لرجاله الذين
اكثر بهم الفخار ٠ ولطلب من السيوف الظاهرية الطوال بأيدى اربابها العفو عن
سكاكين تلك الباطنيه القنصار ٠ ولقال عند سماع غوغاء الحروب هذه اسود تزأر بالغيل
لاذبابه تطن بأذن فيل ٠ وملوك تأتي من الملائكة في قبيل لابعوضة تعد من التماثيل ٠
ولما وصف نفسه واصحابه بأنهم كالرمح العاصف التي لاتؤذى الهشيم احتقارا ٠ وتعثر
بالجبال الراسية فتنسفها اقتدارا ٠ ولعلموا انهم ان كانوا ريحا فقد لاقوا اعصارا ٠
وان من الجبال الراسية ماتعثر الرياح بها كما قال اذا عثرت لانقيل لها عثارا ٠ وقد
انكبهم الرياح العواصف فكيف لاتتألم الحشاشه الحشيشيه من عواصف الرياح ٠ وظنوا
ان كل جبل كجبالهم المنسوفة ٠ وما علموا ان توقد صواهل الجياد خير من صهوات
الجبال وخير من التوقي بالصحايف التوقي بالصفاح ٠ فالحمد لله على ان ذخر هذه
الموهبه لهذه المملكة حتي جرى ماجرى من الخضوع والذلة واحوج الى رحمة هذا
السلطان من كان لايرحم الملوك قبله ٠

ذكر قصد ملك الفرنج بطرابلس حمص وكسرهم من المسلمين ٠

- قيل ان البرنس بيمند بن بيمند ملك الفرنج بطرابلس جمع واستنصر بالداوية
والاسبتار وقصد جهة حمص ٠ وكان نايب السلطنة بها الاميرعلم الدين سنجر
(٩٧ ق) الباشقردى قد فهم حركته فاحترز وجعل الطلايع على المخايض فقصد البرنس
مخاضه بلاله ٠ فسبقه الاميرعلم الدين فيمن عنده من العسكر فملك المخاضة فأتى
الكافر بخيله ورجلهم فوجد المخاضة قد ملكت فعدل الى غيرها فقويت نفوس المسلمين
وعدوا الماء اليه وتبعوه ٠ فانهزم وما زالوا خلفه يقتلون وينهبون الى ان توغل

---

١) بياض في الاصل ٠

في بلاده ورد طريدا شريدا قد قنع من الغنيمة بالاياب • وكان له امل فخاب • ورجع المسلمون الى البلد ولم يعدم منهم احد • وكانت هذه الوقعة في ثامن صفر من هذه السنة •

وفي هذه المدة سير الملك الظاهر الى دمشق بأن تعمل مراكب فعملت وحملت الى البيرة •

وفيها توجه السلطان الملك الظاهر الى خليج الاسكندرونة لروءيته وتقدم بما يجب من حفره وتصيد في جهة الحمامات ورجع • وقيل في هذه السنة اهتم السلطان الملك الظاهر بحفر خليج الاسكندرية وسير الامير علم الدين المسروري لذلك فتوجه ثم توجه السلطان بنفسه وتعوض جسم السلطان في الطريق • ولما صلح مزاجه باشر الحفر بنفسه وعمل الامراء وجميع الناس وازيلت الرملة التي على الساحل بين النقيدي وفم الخليج ثم عدا (١) ... الى بسر ابيار وغرق مراكب هناك وثنى عليها بالحجارة • ثم رجع الى القاهره المحروسة • وجهز المحمل المبارك وخلع على المتوجه الى الحجاز بذلك وهو الامير جمال الدين نايب دار العدل وسير عشرة الآف درهم برسم عمارة حرم المدينة النبوية على ساكنها افضل الصلاة والسلام • وسير القمح لجرايات الصناع •

وفي جمادي الاول من هذه السنة وصل فخر الدين ابن جلبان من البلاد (٩٨و) الفرنجيه بعد ان خلص جماعة من الاسر بمال الوقف المسير من جهة الامير جمال الدين النجيبي وفرجت به كربات كثيرة لنساء واطفال • وسير الجميع الى دمشق وسلموا للقاضي ليزوج من توءثر منهن التزوج •

---

١) في الاصل " عداى " •

وفي هـذا الشـهر المذكور رسم الملك الظاهر ببنـاء جسر كبير على الشـريعة وجهز الامير جمال الدين ابن بهار الصالحي المهمندار لبنائه وجهزت له الاصـناف من دمشق ورسم السلطان ان يكون الجسر خمس قناطر • وكان ماؤها قويا تياره فاقتضت سعادته ان جاء سيل كثير فحدر صخورا كبارا فوقفت جرى الماء وبنى الجسر •

وفي هذا الشهر تكاملت عمارة الدار الجديدة المرسوم بعمارتها عند باب السر المطل على سوق الخيل الذى بالابواب وعمل بها دعوة للامراء فعمل القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر صاحب سيرة الملك الظاهر :

يامك الدنيا الذى اضحى ... بعون الله غالب
يامن به الكفار قد ... نهبوا بأنياب النوايب
ياذا الذى لولاه قد ... كان البقاء من العجايب
لولا سيوفك لم يكن ... بالثأر للاسلام طالب
كم جنة لك ان "لفت" ... بعظيم كتبك والكتائب
فتلهفت شوقا واضحت ... بالحلول لها تطالب
وراتك قد اعطاك ... ربك طول اعمار الكواكب
فاستعجلت واتت بما ... تبقى سعودا من مطالب
دار يسرف بها النعيم ... وتلتقي فيها المآرب
قد صورت فيها الجنود ... على الخيول لها العواصب
لتكون في الخلوات ليس ترى ... بغير السيف ضارب
في السلم حولك مثلما ... في الحرب دونك في المراكب
لامثلما قد صور الاملاك ... قبلك من غرايب
كل يصور نفسه ... بين الاغاني والمشارب
فبقيت يامك الزمان ... لك العطايا والمواهب (٩٨ق)
ابدا تمتع بالنعيم وما ... لملكك من محارب

ذكر تجهيز الملك الظاهر لغزو الفرنج وخروجه الى الشام وزيارته الخليل عليه السلام والقدس الشريف ٠

في شهر رجب من هذه السنة اهتم السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار الصالحي بأمر الغزاة ٠ وسير الى اعمال الديار المصرية لاحضار الجند من اقطاعاتهم ٠ فاتفق تأخر بعض الجند فسير السلطان سلحداريته الى جميع الولايات بالديار المصرية فعلقوا ولاة البلاد بأيديهم ثلاثة ايام تأديبا لكونهم ماسارعوا الى احضار الاجناد ٠ وكان في الولاة امراء اسفهسلارية فحضر الجند ٠

وخرج السلطان في مستهل شعبان من هذه السنة ورحل في ثالثه ٠ ولما وصل غزه جرد الامير جمال الدين ايدغدي العزيزى والامير سيف الدين قلاون وجماعة من العسكر المنصور فتوجهوا الى العوجا ٠ وتوجه السلطان لزيارة الخليل ابراهيم عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام والقدس الشريف ٠ فوصل الى بلد الخليل فزار الشيخ علي البكا ثم دخل الى مقام الخليل ابراهيم عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله وسائر الانبياء والمرسلين افضل الصلاة والسلام ٠ وزار وكشف المظالم وقرئت القصص بين يديه ووقع عليها ٠ ومد السماط الذي للخليل عليه السلام واكل منه واكل الناس والفقراء وفرق جملة من المال على الائمة والقراء والمؤذنين والقوام وغيرهم ٠ وبلغه ان اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى يؤخذ منهم حقوق عن زيارة الخليل عليه السلام والنزول الى المغارة بنجسهم فأنكر ذلك وكتب (٩٩و) مرسوما يمنع النصارى واليهود من دخول المقام الشريف ٠ واستمر الامر على ذلك فجزاه الله خيرا ٠

ثم توجه السلطان الى القدس الشريف فزاره وتصدق بجملة كثيرة ثم اتى الحرم الشريف مستخفيا في نفرين او ثلاثة وصلى الجمعة بالقدس ٠ ورحل الى عين جالوت ٠

هذا ماكان من السلطان • واما ماكان من العساكر المجردة فتوجهوا الى حمص ولم يكن عندهم علم بالحركة الى اى جهة • وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالى •

ذكر اغارة العساكر المجردة على طرابلس واعمالها واستيلاءهم على قلعتي حلبا وعرقا وهدمهما •

لما وصلت العساكر المجردة الى حمص كما قدمنا شرحه ورد الى الامراء كتاب السلطان الملك الظاهر بالتوجه الى طرابلس وبلادها • فركبوا على غرة من الفرنج خذلهم الله تعالى • فجاسوا خلال الديار وانصبوا في الاودية كالبحار واصبحوا على حصن الاكراد واغاروا الى ساحل البحر من جهة طرابلس ونزلوا على حصن يعرف " بحسه " من عمل حصن الاكراد • فأقاموا عليه يوما واحدا فأخذوه واسروا به جماعة وكان بقلعة حلبا جماعة فهربوا واخلوها ودخل العسكر اليها واستولوا عليها وكسبوا منها شيئا كثيرا من نحاس وصناديق وسكر وغيره • وهذه القلعة تشبه قلعة عجلون حسانه • ولما هرب اهلها ادرك العسكر اواخرهم فقتلوهم واخذوا نساءهم •

ولما شاهد اهل قلعة عرقا ماجرى في حلبا نجوا بأنفسهم وهذه قلعة عرقا تشبه قلعة حمص • ولها من الغلات شيء كثير فتحصل بلدها في السنة من الهلالي والاقصاب والمزدرعات شيء كثير • وما زالت العساكر حتى اخربت (٩٩ ق) القلعتين المذكورتين ونزلوا على حصن يعرف بالقليعات وهو حصن عظيم وتسلموه في رابع شهر رمضان بالامان • وهدمت القلعة ايضا وفي عود العساكر نزل الامير سيف الدين قلاون الالفي قريب القليعات وسير في الليل بعض المقدمين ليترقب من يخرج من الفرنج فوجد خمسين نفرا متوجهين من صافيتا الى حصن الاكراد افجيه وجرخيه • فأخذ الجميع وقتلوا • واحضرت رؤوسهم وخرج جماعة من الداوية للغارة

على الذين يخشون لذيل العساكر · وكان الامير سيف الدين قلاون قد احترز ورتب مع الغلمان جماعة من اجناد العسكر · فلما خرج الديوية على الغلمان خرج عليهم العسكر وقتل بعضهم واسروا البعض الاخر · وسير صاحب يافا جاسوسا فقبض عليه وشنق ووصلت بطاقة الامراء المجردين الى السلطان الملك الظاهر بانهم وجدوا جيشا ورجالة من الفرنج متوجهين من صافيتا نجدة الى حصن الاكراد وانهم قتلوا منهم مقدار خمسين فرسا · ويذكرون وصول الفي فارس من العربان وانهم جاهدوا اتم جهاد · وجرح الامير سيف الدين عيسى ابن مهنا جرحين · فرسم السلطان انه من عدم له رأس من الخيل يعوض عنه رأسين من البقر ورسم بتجريد جماعة لحصن وحضور العساكر المجردة الى خدمته والله اعلم ·

ذكر تجريد العساكر الى بلاد الفرنج واغارتهم على صور وغيرها

لما وصل السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي بعد زيارة القدس الشريف الى جهة عكا جرد الامير علاء الدين البندقدار والامير عز الدين اوغان الركني بجماعة من العسكر الى جهة صور فدخلوا الجبال في الليل وقاسوا شدة لصعوبة الاوعار واغاروا (١٠٠ و) على صور وغنموا كثير من الجمال والبقر والغنم · واسر كمندور ملك سيس ومعه نفران كانوا انحازوا الى بر فأخذوا بالامان واخذ وزير صور وجماعة من الفرنج ·

وتوجه الامير سيف الدين اتامر الى جهة صيدا ورسم لهم السلطان بالحضور الى جهة صفد · وتوجه السلطان الى عكا · وجرد السلطان الامير بدر الدين الايدمري والامير بدر الدين بيسري الى جهة القرن · وتجرد الامير فخر الدين الحمصي الى جبل عامله فأغارت العساكر من كل جهة وحاصر الامراء القرن واخذت قلعة قريب عكا وتوالت المكاسب حتى لم يوجد الابقار والجواميس من يشتريها · وعمت الغارة بلاد الفرنج من حدود طرابلس الى زيب ارسوف · العسكر المتوجه الى طرابلس في تلك الجهة والعسكر المتوجه الى صور في جهة والسلطان في جهة عكا والامير ناصر الدين القيمري

في عثليث ٠ ووصل كتاب من مقدم الاسبتار بعكا الى الاتابك بانه يسعى في الصلح وفيه تعريض بما يصل اليهم من عماير طرابلس وبلد الارمن فكتب اليهم في الجواب بما يجب من تهديدهم وتخويفهم ٠ ثم ان السلطان اهتم بأمر صفد وقصدها كما سنذكره ان شاء الله تعالى ٠

ذكر بعض خبر صفد ومسير العساكر والسلطان الملك الظاهر اليها ومحاصرتها ٠

كانت صفد اولا تلا ٠ وكان على التل قرية عامرة تحت برج اليتيم ٠ وما زالت في ايدى المسلمين الى ان استولوا عليها الفرنج فيما استولوا عليه من البلاد الشاميه فبنوها الفرنج الداوية في سنة خمس وتسعين واربعماية ولم تذكر في شيء من الكتب الموضوعة في التاريخ في صدر الاسلام (١٠٠ ق) وهي قلعة حصينة على جبل تحف به جبال واودية فتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شادى بن مروان بعد حصار شديد بالامان في رابع عشر شوال سنة اربع وثمانين وخمسماية ٠ واقطعها وطبرية للامير سعد الدين مبارك بن تميرك ٠ ولم يزالا في يده الى ان توفي في سنة ثمان وستماية فانتقلت الى ولده فتح الدين احمد فانضم الى خدمة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فقايضه بصفد وطبرية ٠ ثم ان الملك المعظم اعطى احمد المذكور صفد خاصة خارجا عن طبريه فبقيت في يده الى سنة ست عشرة وستماية ٠ ثم اخذها منه وخربها واخرب القدس الشريف خوفا عليهما من الفرنج وذلك في سنة سبع عشرة وستماية ٠ وبقيت صفد خرابا وبلادها في يد من يملك دمشق لا يهتم ببنائها ملك الى ان اعطاها الملك الصالح عماد الدين اسماعيل المتغلب على دمشق للفرنج فيما اعطاهم من البلاد ليعينوه على محاربة الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب الديار المصرية ٠

فلما ملكوها الفرنج استدعوا اسرى من المسلمين الذين كانوا في بلاد الفرنج ليعمروا صفد · وكانوا الف نفس والفرنج دون المايتين فاجتمع الاسرى وعزموا واتفقوا على الوثوب بالفرنج ثم انهم فكروا ان لابد لهم من ملجأ يلجآون (١) اليه ويعتمدون في الذب عنهم عليه فكتبوا الى الامير سيف الدين علي بن قليج النورى وهو اذ ذاك في قلعة عجلون من قبل الملك الناصر داود صاحب الكرك ليكتب اليه في ان يأمرهم بالوثوب على الفرنج ويبعث اليهم من يتسلم الحصن · فبعث الامير سيف الدين الى الملك الناصر داود الكتاب · فلما وقف عليه سيره الى الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق (١٠١ و) فأرسله الى الفرنج الداوية · فلما اطلعوا عليه اخذوا الاسرى ودخلوا بهم عكا فذبحوهم عن آخرهم فلا جزاه الله خيرا ولا اعظم له اجرا على مافعله من هذه السيئة العظيمة التي لم يرقم في الصحايف مثلها وعليه وزرها ثم عمروا الفرنج صفد بمساعدة الصالح المذكور لهم · ولم تزل في ايديهم وهي غصة في حلق الشام والشجا في صدر الاسلام الى ان اهتم السلطان الملك الظاهر بقصدها في هذا العام ·

وكان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس رحمه الله تعالى قبل حضوره الى عكا قد رسم للامير علاء الدين ايدكين الشهابي احد امراء الشام ولجماعة من العسكر المنصور بأن يتوجهوا الى بلاد الفرنج ولم يعلمهم الى اين · ثم سير كتابا وامره ان لايقرأه الا اذا ركب هو والعساكر متوجهين · وكان مضمونه انه يتوجه الى صفد ويتوجه الامير فخر الدين الفايزى الى الشقيف · فسار كل منهما الى جهته واحاط الامير علاء الدين بصفد احاطة حافظ لامقاتل · ثم جرد السلطان الامير بدر الدين البندقدار والامير عز الدين اوغان فنزلوا عليها واشتدت مضايقتها · واقام السلطان على عكا حتى حضرت العساكر المغيرة على صور وغيرها المقدم ذكرهم · وعمل عدة مجانيق وفرقها على الامراء ليحملوها ثم رحل السلطان والعساكر لابسة وساق الى قريب من باب عكا

---

١) في الاصل " يلجون " ·

ووقف على تل الفضول ثم رحل الى عين جالوت · وكان الامير سيف الدين الزيني قد توجه لاحضار المجانيق من دمشق فاجتهد في احضارها واهتم بها الامير جمال الدين (١٠١ ق) النجيبي · وحملت على الرقاب · وسار السلطان الى ان نزل على صفد يوم الاثنين ثامن شهر رمضان المعظم من هذه السنة المذكورة وحاصرها ·

وفي اثناء حصار صفد حضر رسول متملك صور الى خدمة السلطان فأنكر السلطان عليه لانه كان سير اليه يقول له ان اردت اماني فأخرج عنك اعدائي من الفرنج فان اليمين متضمنه ان تكون عدو عدوى · وبسبب اعانتهم الفرنج على الاغارة على بانياس وقتل شخص من الرعيه · وان هذه الاسباب موجبه نقض العهد · وان رسولكم كان حضر الى عندى في تقرير قواعد الجنوية · وانهم يحضرون في البطس الكبار يقاتلون عكا في البحر وانا وعساكري في البر وان متملك صور يكون هو والجنوية في البحر على اهل عكا · فحضرت وما حضر احد منهم · فعرف صاحبك ان نقض العهد كان من جهته · وانفصل الرسول على ذلك ·

ووصل ايضا رسل العداوية (١) فقال لهم السلطان : بلغني انه لما اغارت العساكر الاسلاميه على بلاد طرابلس حميتم مواشي الفرنج واستودعتم اموالهم · وكتبكم كانت ترد الي بالشكوى من مجاورة الفرنج وتقولون ما نعطيهم القسطيعه الا لان عساكر السلطان بعيدة والا لو قربت العساكر منا روينا سكاكيننا من دمائهم · فلما وصلت عساكرى الى بلادكم لدفع الضيم عنكم خسفتم وجوهكم معهم باستيداع مواشيهم وليس لهم عسكر تنجد الاسلام · وطلب منهم ارسال نجدة او مال يستخدم به عسكرا او حمل القطيعه التي كانوا يحملونها الى الفرنج · ولعبد مؤمن خير من مشرك ·

---

١) لعلها السداوية ·

(١٠٢ و) ولما توجه رسولهم بهذا الجواب حضر احدهم وهو الصاحب جمال الديـن • وما سمع قطانه حضر بنفسه فأكرم وشاهد احوال العساكر • واحضر هدية لطيفـــه فأنكر عليه بسببها • فسأل الاتابك في استعطاف السلطان وزاد الهدايا شـيئا كثيرا والتزم بحمل جملة من المال وتوجه لاحضاره •

وورد رســول صاحب بيروت بتقادم فقال له السلطان ان صاحبكم الذى كـان متنقا معنا قد هلك وانكر عليهم تعرض كرساليتهم في البحر لمركب الاتابك وغـدروا بأهله واخذوه • وانفصل على هذه والحالة ولم يحصل الرضى عـن ملكـه •

وورد رسل يافا فأنكر السلطان عليهم كونهم نصبوا المجانيق على قلعة يافـا مع انهم صلـح •

ووصـل رســل صهيون فانكر السلطان عليهم كون صاحبهم ما حضر بنفسه واحضر نجـدة •

وأتفـق السـلطان في العســاكر المنصورة •

وكـــان السلطان يباشر (١) الحصار والزيارات تتعداه (٢) • واتفق ان الناس تناوشوا القتال • فساق الاميرعز الدين خاص ترك الظاهرى فوصل الطعن فتقدم الحجارون واخذوا في الثقوب ورمى الزراقون قوارير النفط في الباب فأحتـرق • وانعم السلطان على خاص ترك الظاهرى بعشرة الاف درهم وفرس قيمته نفيسه وجوشن وخلعـه •

---

١) في الاصـل بغير نقـط

٢) في الاصـل بغير نقط •

وفي حادى وعشرين شهر رمضان الشهر المذكور وصلت المجانيق واهتم بها السلطان وسير الامير عز الدين امير جاندار للقائها وعجزت عنها الجمال . فجهز السلطان الامراء والجند وساير الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب وهو مرحلة من صفد . وخرج السلطان بنفسه وخواصه وجرا خشاب المجانيق من البقر . قال (١٠٢ ق) القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سير الملك الظاهر : حكى لي الملك المجاهد صاحب الجزيرة قال : جررت مع السلطان حتى تعبت ورحت استرحت ثم حضرت وجررت زمانا ثم رحت مرارا والسلطان على حاله ما استراح . واستمر عمله في نقل الاخشاب بنفسه وحاشيته وغلمان البيوت والاسطبلات ترمت في سادس عشرين شهر رمضان . وكان لمقدم الفرنج بيت داخل صفد واعطي السلطان اماره فطلع بنفسه الى اعلى المنجنيق المعرى حتى شاهده وامر المنجنيقيه برميه فرمى ولازم الركوب والوقوف تحت المجانيق . وصار يخلع ويعطي ويحضر اليه بالاسرى الفرنج من جهة عكا وصور فينعم على من يحضرهم .

ووصلت العساكر المصرية والشامية التي كانت في بلاد طرابلس . ولما تكامل عبورهم نزل كل امير في منزله . وحضر الامراء فقبلوا الارض والسلطان لازم توسه ومكانه لم يتغير منه . وخرج الامير بدر الدين الايدمرى ليرى هلال شوال فوقع في رأسه حجر . فرسم السلطان بأن لا يجتمع احد لسلام العيد ولا يتزحزح من مكانه خشيه من انتهاز العدو غره من العسكر . ورمى المنجنيق المعرى في هذا اليوم فأثر اثارا حسنة ونودى في العسكر من جلب خمرا او شربها شنق .

وفي ثاني شوال من هذه السنة حصل الاهتمام بالزحف . وقرر السلطان ذلك مع الملك المنصور صاحب حماه والامراء الاكابر فتحالل الناس واجتهدوا . وكان قد عمل من التعظ اشياء من السهام المطيه والرمح ففرق ذلك على الزراقين

ووعد الحجارون انه من اخذ اول حجر كان له ماية دينار وكذلك الثاني والثالث الى العشرة (١٠٣ و) وامر حاشيته بان يلازموا مواضع قتالهم ولا يشتغلوا بخدمته وشرع الناس في امر الزحف من العشاء . وكان وصل جماعة من الصلحاء للغزاة ووصل الشيخ الصالح قاضي قضاة الحنابلة بدمشق فحركت الطبلخاناه السلطانيه نصف الليل . وركب السلطان وهجم خندق الباشورة فقاتل الفرنج قتالا شديدا وابتلى المؤمنون بلاء شديدا واستشهد جماعة من المجاهدين وصار الانسان يرى رفيقه يقتل فيجره ويقف مكانه . وتكاثرت الثقوب ودخل النقابون اليها . واعطاهم السلطان ثلاثماية دينار وصار كل من عمل شيئا جزاه عنه لوقته بخلع تفرق واموال تبدل وهو يشارك الناس فيما هم فيه من قتال ودخول ثقوب وزحف ونصب خيمة قريب صناجقه . وجعل فيها حكماء وجرايحيه واحضر اليها المجرحين من الغرباء والحجارين واطلق الاشرية والمأكول للجند .

وفي ثامن شوال الشهر المذكور خاسفت الفرنج المسلمين في الثقوب فوقع خسفهم فوق خسف الامير سيف الدين قلاون الالفي فقاتلوهم بالايدى وعمل بعد ذلك جسر على باب القلعة يتوصل منه اليها .

وفي حادى عشر شوال المذكور ركب السلطان ووقف عند المجانيق ثم ساق بمفرده ونزل عن فرسه واخذ ترسا ودخل الى النقوب وشاهدها .

وفي ليله رابع عشره زحف المسلمون اشد زحفا وساق السلطان الى قريب الباب فارتفعت اصوات المسلمين يسألونه ان لا يغرر بنفسه . فرأى النقوب وعاد . ولم تزل الحرب قايمة والسلطان في وسط هذه الامور . وفي وقت القايله رأى الناس قد تعبوا من القتال وتفرق بعضهم فأمر خواصه بالسوق الى الصواوين واقامة (١٠٣ ق) الامراء والجند فيها بالدبابيس وقال : المسلمون على هذه الصورة وانتم تستريحون فأقيموا

جميعهم ورسم بقبض الامراء وكانوا نيفا واربعين اميرا فقبض عليهم وقيدوا • واحضروا الى الزرد خاناه ثم بعد ذلك وقعت الشافعة فيهم وامرهم بملازمة مواضعهم • ووسعت النقوب وشرطت الاسوار فجبن الفرنج وحرقوا الستاير التي كانت على الباشورة ليحموها من التسليق • فما افادهم ذلك • ولما شاهد السلطان ذلك امر بضرب الطبلخاناه وهي خمسة وعشرون حملا فقام كل واحد الى جهته فضرب المسلمون سكك الخيل في سفح الباشروة فما اصبح الصبح الا والسناجق على اسوار الباشروة من كل جهة واندفع الفرنج الى القلعه وسلموا الباشورة • هذا في يوم الثلاثاء نصف شوال الشهر المذكور • وفي هذا اليوم اخذت الثقوب في برج اليتيم وغيره من ابراج القلعه وفي هذه الايام استشهد الشيخ الصالح نبهان وهو يجدد الوضوء في خيمة الامير بدر الدين الخزندار • وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالى •

ذكر تسليم الفرنج صفد وخروجهم بغير امان وقتلهم

لما انقطعت الاسباب بالفرنج بصفد سيروا الى السلطان الملك الظاهر رسلهم في طلب الامان • فاشترط عليهم ان لا يستصحبون سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من الفضيات ولا يردون شيئا من ذخاير القلعة بنار ولا هدم • فتوجهوا وصار السلطان يعمل الحيله ويعطي بعضهم الامانات من المرامي ويسير المناديل ويقرر مع جماعة منهم انهم يفتحون الابواب • فتسامع الفرنج وحصل منهم الخلف (١٠٤ و) وحضر خمسة عشر نفرا من القلعة مقفزين في وقت واحد • فخلع السلطان عليهم • وقالوا لاصحابهم ماحصل لهم من الخير • ونودى في العسكر بأن لايرموا احدا من الفرنج النصارى والمستعربة غير الديوية • فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال وردوا الامان وقالوا ماندخل في شرط • ورمى الرسل الخلع والمال المنعم به عليهم من الاسوار • ثم انهم لما

ايقنوا بالهلاك سيروا رسلهم ثاني مرة في يوم الجمعة ثامن عشر شوال الشهر المذكور يطلبون ماكانوا طلبوه اولا · فامنع السلطان عليهم · فأخذ الاتابك منديل مقــدم الجمداريه وهو الامير جمال الدين اقوش القليجي واعطاه لهم على انهم لا يخرجــون شيء مما ذكرناه · فتوجه الرسل · وبعد صلاة الجمعة صاح اهل القلعة · يامسلمين الامان · وكان في ذلك الوقت قد خطب خطيب دمشق ودعى عقيـــب خطبه الجمعة للمجاهدين ودعى الناس وكشفت الرؤوس وخشعت الاصوات فاستجاب الله تعالى منهم · وكان صياح الفرنج بطلب الامان في تلك الساعة وما بقي احد يقاتــل ·

فلمـا كان وقت العصر فتحت الابواب وطلعت السناجق · وكانت ساعة مشهوده · ووقف السلطان راكبا على باب صفد · ونزل الفرنج اولا فأولا وصاروا جميعهم بين يديه واخرجوا معهم الاسلحة والفضيات واخفوها في قماشهم · وتحدثوا على جماعة من اسرا المسلمين واخذوهم على انهم نصارى · وكذلك صغار المسلمين المأسورين عندهم · فما اخفى الله عز وجل ذلك بل اظهره بأن السلطان رسم بتفتيشهم · فوجد معهم مما ذكرناه مما ينقض الامان لوكان حقيقه (١٠٤ ق) فكيف و ما كان اعطاهم السلطان امانا معتبرا فأخذت منهم العدد وانزلوا عن خيولهم لكونهم ماوقوا بالشرط وجعلوا في خيمة محفوظين وتسلم المسلمون صفــد ·

وولــى السلطان في القلعة الامير مجد الدين الطورى وجعل فيها نايـــب الامير عز الدين العلائي ومقدم العسكر الامير علاء الدين ايدغدى السلاح دار · واصبح السلطان جالسا · وحضر الى خدمته الامراء والمقدمون من عسكر مصر والشام · فشكر اجتهادهم وذكر رضاه عنهم وقال : ربما عتبت على احد منكم وجرى مني انكارا وتأديب · وما قصدت بذلك الا حثكم على هذا الفتح العظيم · ومن هذا الوقــت

نتحالل · ثم ا ن السلطان اخبر الامراء ان اسرى صفد خرجوا بغير امان معتبر · وما كان استقر من خروجهم بغير عدة ونقضهم لذلك · وانهم ماكلفوا السلطان يمينا وامرهم بضرب رقابهم · فركبوا واحضرت خيالة الديوية والاسبتار وجميع من اخرج من صفد من الفرنج فضربت رقابهم على تل قريب صفد في مكان كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين · ولم يسلم منهم غير نفرين احدهما الرسول بحكم ان السلطان كان شرب قمزا في النقوب وخرج اليه هذا الرسول فسقاه منه فعفى السلطان عنه وخيره في التوجه الى قومه · فاختار المقام في خدمة السلطان واسلم على يده واحسن اليه واعطاه اقطاعا وقربه منه واستمر في الخدمة · واما النفر الاخر فأن الاتابك شفع فيه ليخبر الفرنج بما جرى وهو من بيت الاسبتار · وكان خرج رسولا فعفى السلطان عنه وفي ذلك مكيدة · فأن هذا الاسبتارى لما وصل الى عكا استخفى (١٠٥ و) عند الاسبتار فطلبه الديويه الذين كانوا اصحاب صفد وقالوا هذا لما خرج رسولا هو وافريز ليون ماحلفوا السلطان وعملوا على الفرنج وكادت تقوم بينهم فتنة بسببه · واراد الله عز وجل ان هذا الاسبتارى جرح في غارة بعد ذلك فقتل بيد العساكر الاسلاميه وابى الله ان يجعل له الى الحياة سبيلا او انه يفر من السيوف الاسلاميه · وانما متعه متاعا قليلا · وكان الاتابك قد سير مع هذا الاسبتارى كتابا فيه توبيخ لمقدم بيت الاسبتار ومن جملته : انا اقول لك هذا السلطان سعيد وانت تغالط وكتبت الى نوبه ارسوف ماتبالي بالعسكر · وكذلك قلت عن صفد وقد ظهر لك صدق حديثي هذا ماكان (١) من هؤلاء ·

واما ماكان من الملك الظاهر فانه لما قتل الفرنج كما قدمنا شرحه دخل قلعة صفد وفرق على الامراء من العدد الفرنجيه والجوارى والمماليك ونقلت اليها

---

١) مطموس قسم منها ·

الزرد خاناه التي كانت صحبته وصار يحمل فردة حمل النشاب على كتفه الى داخل القلعه فتشبه الناس به فنقلت الزرد خاناه والمنجنيقات اليها في اسرع وقت وطلب لها الرجال من دمشق وتقررت نفقه رجالها في الشهر ثمانين الف درهم واستخدم على جميع بلادها الامراء وعمل بها جامع في القلعه وجامع في الربض . ووقف على الشيخ على المجنون نصف وربع الحباب (١) والربع منها على الشيخ اياس ووقف على قبر خالد بن الوليد قرية منها وركب لعيادة الامير جمال الدين ايدغدى العزيزى وغيره .

وفي سابع عشرين شوال المذكور رحل السلطان من صفد متوجها الى دمشق فنزل بالجسوره وامر بأن العساكر لاتدخل دمشق بل تبقى على حالها لتتوجه الى سيس (١٠٥ ق) ودخل دمشق جريدة ورسم فتوجه الملك المنصور صاحب حماه مقدما على العساكر الى سيس ووصاه بما يعتمده وجهزه .

وفي ثالث ذى القعده من هذه السنة توفي كرمون آغا وفي ثامنه انعم السلطان على امراء دمشق وقضاتها وارباب المناصب بالتشاريف . ولما استقر السلطان بدمشق نظر في امر جامعها ومنع من مبيت الفقراء به . وازال صناديقهم التي كانت ضيقت الجامع ووسعه للمصلين . قال الله تعالى في بيوت اذن الله ان يرفع ويذكر فيها اسمه . قال العلماء تغلق فلا تفتح الا اوقات الصلوات .

وفي عاشر ذى القعده الشهر المذكور جلس الاتابك مع الامير جمال الدين لكشف ظلامات الناس والتوقيع على القصص بدار السعاده . وتوجه السلطان الى عدرا وضمير متصيدا وما احضر احد صيدا الا اخلع عليه السلطان حتى الغلمان والسوقيه وفرغت الخلع فأطلق السلطان لهم دراهم .

---

١) في الاصل بدون تنقيط .

وفي ذي القعده الشهر المذكور جمع السلطان اهل البلاد وطلع الجبل الذي عند جرود وصحبته الامراء وكان يوما شديد الحر واشتد العطش فكاد الناس يهلكون فدلهم شخص من الجبليه على عين ماء جارية لكنها يسيرة النبع فوقف السلطان عندها وصار يسقي الناس بيده . وهذه كرامة وما احقه بقول الشاعر :

والله لولا الخوف منه　　مهابة امس يزار .

ثم ضرب السلطان حلقات صيد فعمل القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر :

يا ايها الملك الذي　　فيه العقول غدت تحار
يامن اليه بفعل ما　　يرضى الاله غدا يسار
بالله قل لي هل دم　　يجريه سيفك ام بحار (١٠٦و)
وهل الخيول لها مسير　　تحت سرجك ام مطار
ان السيوف تركتها　　لا يستقر لها قرار
عودتها شفك الدما .　　فما لها عنها اصطبار
لم يبق في الدنيا فرنج　　لا ولا بقيت تتار
فالوحش عن مهج العدى　　لما تفانت يستمار
واظنها بك سوف تقفر　　من سوانحها القفار
ان الدماء من العدى　　والوحش افناها العرار
فاسلم ودم في نعمة　　وبعز بالك يستجار

وفي شهر رمضان من هذه السنة وصل الى دمشق رجل ادعى انه ولد الامام المستعصم بالله المسمى بالمبارك الذي كان عند هلاون ملك التتار وصحبته جماعة من امراء العربان فرسم الامير جمال الدين النجيبي نايب الشام بانزاله في اعز مكان . ولما وصل السلطان الملك الظاهر الى دمشق سير اليه جلال الدين ابن الدوادار والطواشي مختار فما عرفاه وظهر انه بخلاف ما اظهر فسيره الى مصر محتفظا به .

وفي ذي القعده من هذه السنة وصل شخص آخر اسود ادعى انه من اولاد الخلفاء فسير الى مصر والله اعلم ٠

ذكر خبر هونين وتبنين من ابتدايهما الى ان استولى عليهما الملك الظاهر ٠

هما حصنان منيعان بناهما الفرنج بعد الخمساية من الهجرة ٠ وهما بين حصن عوف وبين بانياس وصور ٠ فتحهما الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان وانعم بهما على مجد الدين احمد اخي (١٠٦ و) فخر الدين جركس ثم استعادهما منه وانعم بهما على الامير فخرالدين اياس جركس ٠ فولى عليهما مملوكا له يقال له صارم الدين قايماز الى ان تسلمهما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق في سنة سبع عشره وستماية واخربهما واقطعهما لاخيه الملك المغيث محمود واستمرت في يده الى ان توفي وملكهما ولده الى ان توفي في ايام الملك الاشرف صاحب دمشق فصار اليه وبقيا في يده الى ان توفي ٠ فصارا الى الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق فاعطاهما للفرنج مع ما اعطاهم من الحصون ولم يزالا بأيديهم الى ان تسلمهما الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في شوال المبارك سنة اربع وستين هذه السنة ولم يبق لقلاعهما اثر غير البلاد ٠

ذكر بعض خبر الرمله من ابتدائها الى ان استولى عليها الملك الظاهر ٠

اصل فلسطين فلستين بعد الفاء واللام سين مهملة ثم تاء مثناة من فوقها ثم ياء مثناة من تحتها ثم نون وهي مشتقة من اسماء ملوكها الفلستانيين في زمن اسحق بن ابراهيم الخليل عليهما وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام ٠ ذكر ذلك المسبحي وقال هشام بن محمد الكلبي : سميت فلسطين بفلسطين بطاء مهملة بدل التاء بن كلسوحم من بني يافث بن نوح ٠٠٠ (١) فلسطين بن صدقيا بن عيقا

---

١) بياض في الاصل ٠

ابن حام بن نوح عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل الصلاة والسلام • وكانت قصبته اولا لد ولم يزل على هذا الشأن الى ان ولي امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان الاموى اخاه سليمان جند فلسطين فنزل لد ثم اخذت مدينة الرمله ومصرها واختط مسجدها (١٠٧ و) وكان في موضعها رمله فبقي على المدينة اسمها وصارت القصبه وخربت لد ولم تزل الرمله بل مصرت عامرة الاسواق دارة الارزاق • ينتابها السفار ويحط بها التجار الى ان جاءها زلزلة في العاشر من جمادى الاول سنة ستين واربعماية هدمت دورها وشقت سورها وعفت الاثار واطلعت الماء من الابار واشتقت منها صخرة بيت المقدس والتأمت • فانتقل اكثر اهل الرملة بعد الى ايليا فعمروها ومصروها • ولم تزل الرمله تنتقل في ايدى الولاة بتنقل الجند منذ فتحت الى ان صارت في ايدى العبيديين ولم تزل في ايديهم الى ان خرج مفرج بن الجراح على العزيز العبيدى وخلع طاعته في سنة احدى وسبعين وثلثماية للهجرة وتغلب على فلسطين وبلاده وبقيت في يده الى ان خرج اليه من مصر بلتكين (١) التركي فأخرجه من الرملة • ولم تزل بعد في ايدى العبيديين الى ان ملكها اتسز التركي في سنة ثلاث وستين واربعماية فخرج اليه نصير الدولة بعسكر من مصر فاستعادها وقصد دمشق محاصرا لها فحاصره فيها فاستنجد اتسز بتاج الدولة صاحب حلب حينئذ فسار اليه • فلما بلغ نصير الدولة مسيره رحل عن دمشق وذلك في سنة احدى وسبعين واربعماية ثم ان تاج الدولة قتل اتسز ملك دمشق والرملة فخرج عسكر من مصر فاستعاد الرملة في سنة اثنتين وثمانين واربعماية ثم اخذوها الفرنج في سنة احدى وتسعين واربعماية وبقيت في ايديهم ثم ملكها وملك معها لد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان في سنة ثلاث وثمانين وخمسماية للهجرة (١٠٧ ق) ولم تزل في يده الى ان وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين وخمسماية •

---

١) في الاصل بدون نقط • وتجوز ايضا يلتكين • زامباور • الترجمة العربية ج ١ ص٤٤ •

فنزل لهم عن بلاد وجعل لد والرمله بينه وبينهم مناصفة ولم تزل على ذلك ايام العزيز والافضل والعادل والكامل الى ان ولي ولده الملك العادل فنقضوا هذه المناصفة وتغلبوا عليهما وبقيتا في ايديهم الى ان فتحهما الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في سنة اربع وستين وستماية هذه السنة فعمر الرمله وصير لها عملا وولى فيها والله اعلم ·

ذكر ماجرى للامير احمد بن حجي وولده مع خصومهما بأمر السلطان مما يدل على عدله ·

بلغ الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ان الامير احمد بن حجي وهو اكبر عربان آل مرة · قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر : وسمعته يقول انه من نسل البرامكه من اخت الرشيد · وادعى انها كانت زوجة يحيى بكتاب · وانه رزق منها اولادا · فلما جرى ماجرى هربتهم الى البادية فأخذهم جده وهذا فيه نظر " والذى ذكره بعض اهل التاريخ ان جعفر بن يحيى هو الذى تزوج اخت الرشيد والله اعلم اى ذلك ·

اعتمد (١) امورا لاترضى منها انه خصى بعض التجار وانه نزل على عرادة البلوى فقتله وقتل ولده سليمان ولد اخيه · وطولع السلطان بذلك فأجاب بان هؤلاء في الحجاز يفتصلون وقصد بذلك تطمين الامير احمد بن حجي فأطمأن وكتب السلطان وهو في حصار صفد الى النجيبي نائب السلطنه بدمشق يأمره بالقبض على الامير سليمان بن الامير احمد بن حجي فقبض عليه ووقعت الحوطه على اقطاع الامير احمد · فحضر الى الباب الشريف فأمر بتسليمه لغريمه الذى خصاه فراضاه على ثمانية الاف درهم · وكان السلطان في حصار صفد كما قدمنا شرحه · ولما حضر السلطان الى دمشق وصل وكيل ولد عراده ووكيل ولد عمه فأعتقل الامير احمد وسلم (١٠٨ و) للوكيل ليقتص منه

---

١) لعل المقصود ان الامير احمد ·· هو الذى اعتمد امورا لاترضى ·

بمقتضى الشرع ونصبت له خشبه على باب دمشق فذكر بسالف خدمة وبكى الاتابك والناس فاشتراه السلطان بالف دينار من مال السلطان · ثم ادعى على ولد احمد بقتل ولد اخى عراده ففدى نفسه بالف دينار وتسلم الوكيل المال وهذه معدلقجميله وبعد ذلك احسن السلطان الى الامير احمد والى ولده وافرخ عن اقطاعه ·

وفي هذه الايام ابطل الملك الظاهر ضمان الحشيشه ابتغاء ثواب الله تعالى · وامر بتأديب اكلها · وامر ببناء مكان بجبل المزه للشيخ خضر وتوجه الى الشيخ خضر وزاره وشاهد المقاسم التي عمرت في دولته وهي احسن مما عمر في زمن الروم ·

وحضر الى الباب الشريف رسول الاسبتار وسال استقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص وبلاد الدعوة فقال السلطان : ما اجيبكم الى هذا الا بشرط ابطال مالكم من القطايع على مملكه حماه وهي اربعة الاف دينار ومالكم من القطيعه على بلاد بوقبيس وهي ثمان ماية دينار، وقطيعتكم على بلاد الدعوة وهي الف ومايتا دينار ومايه مدى حنطه وشعير نصفين · فأجابوا الى ابطال ذلك جميعه وكتب الهدنة وشرط فيها الفسخ للسلطان متى اراد ويعلمهم قبل بمدة ·

وكان السلطان قد احسن الى الجبليه مدة اقامته بالساحل بالخلع والمناشير فصاروا يأخذون الفرنج من كل جهة في مدة اقامة السلطان بالساحل ·

وفي نصف شهر رمضان ورد كتاب الامير جمال الدين النجيبي نايب الشام الى السلطان متضمنا ورود كتاب الجاكي والي بعلبك بأن مقدمي بلد جبيل جمعوا وجاسوا بلاد جبيل ووصلوا الى حصن على نهر ابراهيم ·